مَلامَتِيّـــــــة

قراءات في تجارب إبداعية وثقافية

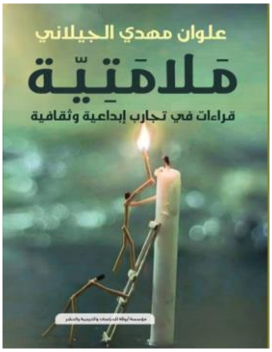

علوان مهدي الجيلاني

مَلامَتِيّـــــــة: قراءات في تجارب إبداعية وثقافية

مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر

القاهرة – ش الشيخ معروف من شمبليون – عمارة ج- وسط البلد

تلفون: 20225743534+

البريد الإلكتروني : arweqhhhh@gmail.com

رقم الإيداع: 2018/56710

الترقيم الدولي: ISBN:978-977-774-173-3

الطبعة الأولى

2018

علوان مهدي الجيلاني

مَلامَتِيّـــة

قراءات في تجارب إبداعية وثقافية

دراسات

مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر

محتوى هذا الكتاب يعبّر عن رأي المؤلف وتوجهه

إهــداء

إلى كل التجارب المهمَّشة التي لم يقترب منها هذا الكتاب

الهم الذي على القلب

المشتغلون بالثقافة والكتابة والإبداع في اليمن قد يكونون الأكثر معاناة بين أمثالهم في كل بلاد العالم.. حتى على مستوى الرموز الأدبية والثقافية الكبرى..

والذين نالوا وضعاً مستقراً نوعاً مّا لم ينالوه إلاّ وقد ذهب العمر ولم تعد لهم قدرة على الإنتفاع به..

لقد ذهبت إلى منزل الشاعر والأديب الكبير عبدالله البردوني صبيحة فوزه بجائزة العويس..سنة 1993م وجاء الأيب والإعلامي المعروف محمود الحاج ومعه طاقم من التلفزيون يحمل الكاميرات ويجهِّز للقاء معه بهذه المناسبة..وقبل إجراء الحوار قال محمود الحاج يداعب البردوني: نمسك الخشب يا أستاذ عبد الله فقد صرت – ما شاء الله – برجوازياً..

تبسَّم البردوني وكشف عن ساقيه اللذين هالنا امتلاءهما بندوب داكنة تشرح تاريخاً طويلاً وقاسياً من الجروح والإصابات..ثم قال: هذه آثار مغامراتي التي كنت أقوم بها إلى المقاشم في ليالي الشباب كي أسكت جوع بطني بشيء من الفجل أو الكراث.. وكانت المقاشم محاطة بحواجز من الخشب والحجارة وأنا أعمي أصطدم بحاجز، وأتعثر بحجر أو أقع في حفرة..ولا أعود إلا وقد خضَّب الدم ساقي وقدمي.. الجائزة تجيء اليوم وقد ذهب الشباب وتقدم العمر واشتدت وطأت الضغط والسكر وانهد الحيل.. وصرت محروماً من المآكل والمشارب اللذيذة..أما اللذائذ الأخرى فلم تعد واردة...إن هذه الجائزة تبدو بادرة مشكورة كونها تشعرنا بالتقدير والاحترام لما أنجزناه وتعبنا من أجله وأخلصنا له..

وسكت البردوني قليلاً قبل أن يطفر على شفتيه حس السخرية ليقول: لكن الجوائز في الغالب تجيء متأخرة..خاصة إذا كانت تحمل إلى جانب قيمتها المعنوية الكبيرة قيمة مادية كبيرة أيضاً كهذه الجائزة..لقد قال الأديب الإيرلندي الشهير برنارد شو حين

علم عن فوزه بجائزة نوبل: لقد رموا لي القشة بعد أن وصلت إلى الشاطئ ولعل شو لم يكن يقصد أنه قد اشتهر شهرة واسعة وإن كان هذا صحيحاً..ولعله أيضاً لم يكن يقصد الاستغناء المادي مع أن ريع كتبه ومحاضراته في بلاد الغرب يوفرله هذا..ربما كان يقصد أنه قد وصل إلى مرحلة من العمر تنتهي فيها قدرة المرء على الاستمتاع بما يوفره المال من لذائذ العيش..

ولا مقارنة بين وضع عظيم يمني كالبردوني ووضع أديب آخر في بلاد العالم..وقد سئل كاتب أوروبي هو السويسري ماكس فريش: كيف حالك؟

فأجاب: أعمل ثلاثة أشهر في العام، وأسافر للسياحة بقية شهور العام..وأسكن هنا عند سفح الجبل على الشاطئ، على ارتفاع 180 متراً حيث يتوافر الأكسجين بشكل مناسب، ودرجة الحرارة معتدلة، وقوة الجاذبية تصلح لسني ووزني وتتيح لي الكتابة في وضع مميز ومريح..

إن اليمني كاتباً ومبدعا وفناناً ومثقفاً بشكل عام يمارس نشاطه في واقع أكثر بكثير من أن نصفه بالصعب تهميشاً وإبعاداً قسرياً عن الأضواء والتكريم والحفاوة.. حيث المؤسسة الرسمية هشة ومتقطعة الحضور وتفتقر إلى الخطط والاستراتيجيات المنظمة لعملها..وحيث المؤسسات الأهلية مرتهنة لمزاجية القائمين عليها.. ناهيك عن كون المؤسسات الرسمية والأهلية جميعها تمتثل في عملها غالباً لأمراض السياسة والتحيزات الحزبية والمناطقية وينعكس عليها ما تعاني منه مؤسسات الدولة الرئيسة من فساد وفوضى وتعوّد على الارتجال والاستسهال..

وذلك كله يضاف إلى الفقر وعدم استقرار البلاد والشعور بعدم الراحة وقلة الثقة في الحاضر والخوف من المستقبل وعليه، واليمني المشتغل بالثقافة والابداع يكاد يكون الوحيد الذي ما يزال يحصل على الكتاب بصعوبة في عالم اليوم.. وهو يكتب للصحف والمجلات اليمنية بلا أمل في الحصول على حقوق لما أنتجه.. وإذا حصل على شيء فإن مكافأة كتابته لعشر مقالات لا تكفي مصروف يوم واحد له ولأسرته..

والكاتب اليمني إذا أنجز كتاباً يعجز في الغالب عن طباعته.. وإذا استطاع طباعته لا يستطيع الاستفادة مادياً منه.. فإذا وزعه للمكتبات وأكشاك بيع الكتب ضاع حقه فلا أحد يستطيع الحصول منهم على شيء، وإذا باعه للوزارات وغيرها من مؤسسات الدولة عرَّض نفسه لهوان التردد على تلك المؤسسات من أجل أن يحصل على قيمة مابا ع، وقضى على نسخ كتابه بالسجن في مخازن وبدرومات لا يقرؤها فيها أحد..

لكل تلك الأسباب يغدو إصرار المثقف والكاتب والمبدع اليمني على البقاء والاستمرار عملاً بطولياً.. لأنه تجديف متواصل في بحر هائج شديد الملوحة لا سمك فيه ولا فنار ميناء يلوح.. بل هو عيش في منطقة وعرة ومدببة تدمي وتجرح طوال الوقت.. وهذا بالذات من أهم أسباب غياب الحفاوة والتكريم ومن قبلها غياب التقدير النقدي والتشجيع بأنواعه.. فالمثقفون والكتاب والمبدعون اليمنيون مثل كائنات تعيش في صحراء شاسعة قاحلة .. يقل فيها الاعتراف بحق الآخر في الوجود..لاعتقاد كل واحد أن ذاته أحق بالبقاء وتوهمه أنه كي يبقى فلابد أن يموت الآخرون..وهو بهذا المعنى يقتات بهم كما تقتات كائنات الصحراء القاحلة بشركائها في المكان.. وحين يتماهى كاتب يمني مع تراثه العتيد في الاستكثار على زملائه..وغمط معاصريه.. وتسخيف واحتقار أي جهد بغض النظر عن نصيبه من الجودة..فعليك أن تتذكر كائنات الصحراء وسيتبين لك أنه لا يستكثر ولا يغمط ولا يسخف ولكنه يقوم بعملية صيد وقتل بكل معنى الكلمة.. لأن كل تلك الأحاسيس وما يتبعها من تلفظات يترتب عليها في الغالب.. مضايقة في الرزق..وحجب عن الفرص والأضواء والتناولات النقدية .. وحرمان من الترقي الوظيفي.. إلى غير ذلك من أنواع القتل والتدمير الذي ينتهي بعدد كبير من المبدعين فرائس للإحباط والعزلة وكذلك الجنون..

وهذا الكتاب ليس إلا امتداداً لجهود سابقة – (قمر في الظل) الذي صدر سنة 2010م على سبيل المثال – وهو وإن كان في صميم المحاولة للتعريف بمنجزات مجموعة من المبدعين وإلقاء الضوء على ما أبدعوه..فإنه أكثر ملامسة لشخصياتهم وذواتهم، في

دوران العمر وتقلّبات العيش ومتاعب الحياة، نشداناً للحرية ونضالاًوطنياً وإنسانياً، تلقياً للمعرفة، واشتغالاً على التنوير واجتراحاً للإبداع والفكر كتابة وفنوناً، وإشاعة للثقافة في مختلف تجلّياتها، وأكثر من كل ذلك معاناة لوعورات الطريق، وضنك الظروف، وكثرة مطالب الحرية.. في واقع يثقلك بالواجبات ويحرمك من أبسط الحقوق.. أيضاً فيه شيىء من صلة شخصيات الكتاب بمجتمعات السياسة والأدب والفن والثقافة وصلتهم بأنفسهم وبالآخرين من حولهم..كما أن فيه شيئاً من صلتي أنا شخصياً بكل واحد ممن كتبت عنهم..وهي صلات تتفاوت من الصحبة العميقة والمعايشة الطويلة إلى التلقي المثابر الممزوج بالمعرفة الشخصية الكافية للكتابة..ناهيك عن كون كل شخصية من الشخصيات المكتوب عنها انطلقت غالباً إما من محيط اجتماعي إحاطتي به كبيرة وإما من حاضن سياسي وثقافي أنتمي إليه وإما يقع دائماً في مجال بحثي وتناولاتي..

بقي أن أوضح للقارئ معنى عنوان الكتاب (ملامتية) وسبب اختياري له..

فالملامتية هم قوم من أهل التصوف أنسوا بالخمول..وسلموا من آفة الجاه..

وأنا حين اخترت ال (ملامتية) اسماً لكتابي لم يكن يهمني من هذا الاسم (المصطلح) تلك التفاصيل الواسعة التي ترد عنهم في كتب التصوف وكتب الطبقات أوكتب التعاريف والمعاجم والموسوعات.. فما يهمني هنا جزئية الأنس بالخمول والسلامة من آفة الجاه..وهي جزئية ليس المقصود في اشتغالي هذا معناها الظاهر.. إنما المقصود معكوس معناها..المقصود وجهها الآخر.. وهو في حالة من تتموضعهم هذه التناولات..عيش طويل في الهامش.. ونضال غير عادي..وإبداع وأدب وفكر وآراء نيرة وجهود كبيرة تبذل بعيداً عن الأضواء والتقدير الواجب والشهرة المستحقة وما يترتب عليها من حقوق ومكاسب مادية ومعنوية..

وإذا كان الملامتية في المصطلح الصوفي قد لجأوا إلى الهامش ونأوا بأنفسهم عن التقدير أو الشهرة والوجاهة برضا منهم واقتناع وسلامة نفس..فإن العيش في الهامش كان في الغالب مفروضا على ملامتية هذا الكتاب بفعل ما ذكرناه سابقاً من عيوب في واقعنا

أبرزها قصور المؤسسة وانعدام تقاليد الرعاية والإنصاف في مشهد ثقافي ضعيف تتساند أركانه على مشهد وطني هش ومخلخل طوال الوقت..وفي حين يتبين لنا أن بعض من تناولناهم قد عاشوا في الهامش ملامتية غصباً عنهم وبقرار سياسي نتيجة موقفهم من المؤسسة الرسمية أوموقف المؤسسة منهم..فإن البعض الآخر قد عاشوا حالاً أسوأ لأنهم همَّشوا تهميشاً مركَّباً..فهم أبناء هوامش جغرافية أو هوامش سياسية في الوطن لم يخرجوا منها..وهي بطبيعة الحال أكثر فقراً وأقل إمكانات من المراكز ثم هم يشتغلون على مواضيع تتواطأ المؤسسة الرسمية بوجوهها المختلفة مع بعض المتسلطين في المشهد الثقافي على استبعادها قصداً بذرائع لا تعلن لكنها، تخبر عن نفسها في الأفعال والممارسات لذلك فإن من يتموضعهم الكتاب من هذا النوع كانت ملامتيتهم أكثر قسوة لأنها مضاعفة ولأنها تتم غصباً عنهم..مع أن شعورهم بوجعها كان أقل ثورية من شعور ملامتية المركز.. والسبب أن ملامتية المركز يحتكُّون يومياً بمصادر الاستفزاز ومثيرات النقمة في الفعاليات التي تقام أكثر ما تقام لغير مستحقيها وفي السفريات التي يتحكم مزاج المؤسسة في الاختيار لها..وفي الوظائف والمناصب والترشيح للأعمال.. وغير ذلك..مضافاً إليه أن مفاعيل التهميش الواقع عليهم هو موضوع دائم لمثاقفاتهم.. وحاضر في كل حوار يدور بينهم..في حين يبقى ملامتية الهوامش الجغرافية بعيدين عن هذه المثيرات. لذلك تكون ثورتهم قليلاً لأنفسهم وكثيراً للجغرافيات المهمَّشة التي يعيشون فيها..فوجع تهميشها عندهم أوضح وأعلى صوتاً من وجع تهميشهم..إنهم يتلاشون في مواجع أمكنتهم وذلك يجعلهم ملامتية ثلاثة أضعاف وما أكثر من ماتوا منهم ملامتية منسيين ومحرومين من كلمة إنصاف تخفف من وطأة التجاهل والنسيان.

صنعاء 16 / 7 / 2014م

عبد الباري طاهر
أحوال الرحلة وأهوالها

لا يمكن لنا أن نستهل معاينة رحلة استثنائية كرحلة عبدالباري طاهر، دون التفكير في الحاضن الأول لها.. أعني أسرته في نطاقها الضيق، أسرة مُحَمَّد طاهر الأهدل، التي سيقودنا التفكير فيها إلى التفكير في الأسرة الأهدلية، بكل ما يحمله اسم هذه الأسرة من دلالات تؤشر على تميز متصل الحلقات، يتراصف عمودياً عبر ثمانية قرون من الزمان، وينداح أفقياً ليتوزع على جغرافيات تترامى أطرافها في جهات العالم الأربع، ويتداخل عبر تشبيكات مذهلة ومعقدة مع عشرات، بل مئات الأسر الأخرى التي شاركت الأسرة الأهدلية الوجود والموجود.

انطلاق المعاينة من هذا المقترب سيبدو كالمتعذر ما لم يوازه تفكير مشابه بالحاضن المكاني الذي تمثله مدينة المراوعة، التي ستقودنا بدورها إلى حواضن العلم الشهيرة، التي تناسلت من زبيد، وتناثرت حول مركزها العلمي الباذخ، كما تتناثر الكواكب حول الشمس.

وإذا كانت معاينة رحلة كرحلة عبدالباري طاهر، تستوجب بشكل حتمي التفكير في الحواضن أناساً وأمكنة، فإن الغرق في بحار التفاصيل إغراء لذيذ، يَكْذِبُ من يدعي القدرة على تحاشيه.

ولن تعدم هذه المعاينة، بعد إنجازها من قارئ، تسوِّل له نفسه، تحت تأثير الخطابات المطلبية، وإفرازات اللحظة السياسية، والتوترات الآنية، أن تؤول معاينة الحواضن هذه ليس من خلال كونها مقترباً يهدف إلى كشف الأدوار المدفونة تحت الأرض؛ لتبين عمق تأثيرها في القامة التي نراها –قامة عبدالباري طاهر بالتأكيد– بل بوصفها عنصرية مناطقية، تهتاج بالتعصب للمكان وناسه، وتنزع عن عبدالباري طاهر عمومية النضال، وكونية الحلم، وإنسانية الاهتمامات.

مثل هذا القارئ الذي يضع إصبعه على أنفك وأنت تكتب، لن تستطيع التخلص منه، ما لم تضع نفسك موضع عبدالباري طاهر نفسه، وتسلك نفس طريقته، فقد دفع كثيراً ثمن ما يكتب، ولم تكن أخطاء القراءة، وسوء الفهم والتأويلات القاصرة لكتاباته، إلا أهون الشرور، لأنها لا تقارن بالطرد من الوظيفة والملاحقات الأمنية، والهروب من الوطن بسبب الخوف والسجن.. وغير ذلك.

لقد شكَّلت تهامة خلال تاريخ اليمن الإسلامي، حاضناً كبيراً للعلم والأدب والثقافة، والتنوع الإنساني، وأفرز وجود الحد الأدنى من الكفاية المعيشية، والاستقرار الحياتي الناتج عن فترات طويلة من الاستقرار السياسي النسبي –بيئة خصبة وصالحة لازدهار ذلك الحاضن– الذي جعل الأسر الكبيرة القائدة للمجتمع، وحتى الشخصيات ذات الفرادة والكاريزما المميزة، تستثمر إمكاناتها باتجاه التّحقُّق الاجتماعي من خلال العلم والتصوف، والسلوكيات الإيجابية التي يعبِّر عنها الميل إلى الروحانية، وتهذيب النفس، وإعلاء دور المعاملة والقبول بالآخر، والحدب على الضعيف والمسكين، والاتصاف بالسلمية والإيثار... إلى آخر تلك المنظومة المختصرة في قواعد المَنْصَبَةِ التي تشترط في المنصب:

أن يكون لله لا لأهله.

للناس لا لنفسه.

وأن يكون جاهه للمظلومين والمقهورين.

وماله للفقراء والمساكين.

في هذا السياق، تخلَّقت مجموعة من الأنساق الثقافية، التي تجتمع كلها في نسق كبير، يمكن وصفه بالمنظومة الاجتماعية المتكاملة، وهي منظومة إيجابية تحقّقَ من خلالها الحضور والتميز الاجتماعي لعشرات الأسر، بمقدار ما كانت تلك الأسر قيّمة على حماية تلك المنظومة، دائبة على تغذيتها بأسباب البقاء والنماء والاستمرارية.

لقد أبلت أسر ينتمي إليها آلاف الأولياء والعلماء والأدباء، ومنها على سبيل المثال: "بنو العجيل، بنو حشيبر، بنو المزجاجي، بنو الناشري، بنو جعمان، بنو المزجد، بنو

الهتار، بنو القديمي، بنو سود، بنو الحكمي، بنو البجلي، بنو مطير، بنو العامري، بنو الشاوري، بنو الحداد، بنو العلوي، بنو الزيلعي" بلاءً مذهلاً في رعاية تلك المنظومة الإيجابية، والحفاظ على تطور أنساقها باحتضان مئات، بل آلاف الشخصيات النابهة الطموح، الواردة إلى تهامة من أرجاء اليمن، أو من أنحاء العالم الإسلامي، وإعطاء الفرصة لها كي تستفيد من أخلاق العناية التي توفرها البيئة التهامية ومنظومتها الإيجابية. وقد أتاح هذا النهج بروزاً واسعاً لشخصيات استثنائية كثيرة يصعب حصرها، لكن يمكن أن نمثل لها هنا ببعض الأسماء كـ: شمس الشموس أبي الغيث بن جميل، جمال الدين الريمي، الفيروز أبادي، إسماعيل الجبرتي، المرتضى الزبيدي، عبدالكريم الجيلي، ابن عبدويه، السانة الوصابي، علي بن مسعود السباعي، عمرو بن علي التباعي، وغيرهم ممن تحولوا عن طريق تلاميذهم ومريديهم وأشياعهم وأتباعهم، أو عن طريق كتبهم، أو عن طريق رمزيتهم، إلى مؤثر فاعل، كثيراً ما يزداد أثره بتوالي الأزمان، بشكل يجعله لا يقل حضوراً عن تلك الأسر الضخمة، التي مثَّلنا لها بذكر بعضها.. ما سيبدو إيجابيا أكثر أن تبادل الأدوار في تغذية تلك المنظومة، ووسمها بميسم أخلاق العناية، هو الصفة الأبرز بين أسر العلم الضخمة والأفراد الأفذاذ.

كذلك الأمكنة الحاضنة، بدءاً من زبيد، مروراً بعشرات المدن، مثل: «أبيات حسين، وبيت الفقيه، والمهجم، والمحالب، وحيس، والمراوعة، والكدراء، والزيدية، والمنيرة، والضحي، والدريهمي، والمنصورية، والخوخة، والتحيتا، والتربية، ودير عطا، ودير الفقهاء، وحرض، واللحية، وصبيا، وأبو عريش، وجيزان، والمخا، وحلي بن يعقوب، والمصبري، وابن عباس، وكمران والجراحي، وبرخل»، وغيرها، ما بقي منها وما اندثر، كانت تشكل عوالم متداخلة في منظومة علمية صوفية أدبية، ترتبط بعلاقات أسرية ومنافع اقتصادية، توفر للعلماء والمتعلمين مناخاً ملائماً للتميز والإبداع.

من هذا السياق المتشابك، يمكن أن نبدأ معاينة تاريخ الأسرة الأهدلية، وحضورها المتعدد التجليات عبر ثمانية قرون مضت، بالتحديد منذ رحيل الشيخ علي الأهدل الكبير، مؤسس الأسرة، على رأس القرن السادس الهجري، أو في إحدى السنوات الست الأولى من

القرن السابع، حيث سيبدأ حضور الأسرة تكاثراً لافتاً، وشخصيات بارزة في مجالات العلم، والأدب، والولاية الصوفية، والتجارة، والزراعة، والوجاهة الاجتماعية بشكل عام، بمقدار ما سينداح حضورها في الجغرافيا أفراداً بشكل واسع، شمل معظم أنحاء العالم الإسلامي، وجماعات بشكل لافت تجاوز حدود اليمن والجزيرة العربية، وهي في كل الأزمنة والظروف، وفي مختلف الجغرافيات، تحافظ ببراعة على قيم تلك المنظومة وتغذيها باستمرار، وتقدمها غالباً من خلال أفضل تمثيلاتها نضجاً ونجاحاً وقبولاً.

ميزة المراوعة أنها حاضنة الأسرة الأهدلية الأولى.

وميزة أسرة مُحَمَّد طاهر الأهدل، أنها تمثل الأصل الأهدلي الذي تفرعت منه كل فروع هذا البيت بمختلف ألقابها والبقاع التي سكنتها فيما بعد.

أما عبدالباري فهو ابن مُحَمَّد طاهر الأهدل. وهذه ليست الميزة التي تقوم هذه المعاينة على محاولة الاقتراب منها، إنما ميزته أنه يمثل كل أخلاقيات تلك المنظومة الإيجابية، التي اجترحتها أسرته والأسر المتشابكة والمتساندة معها.. والأميز من ذلك أنه استطاع تغذيتها بروح جديدة، جددت متكآتها، ووسَّعت مدَّياتها في آفاق الحداثة والتواصل مع الآخر، والنضال على جبهات جديدة من أجل الإنسان، وحقوقه وحريته.

فهل أتممنا التأثيث لنبدأ في معاينة رحلة هذا العملاق؟

***

ولد عبد الباري مُحَمَّد طاهر الأهدل، سنة 1941م، وفي عام 1955م أنهى دراسته في المراوعة التي بدأت من المعلامة، ومرت بكتب الفقه والحديث والأصول، والأدب والتاريخ، على يد والده السيد العلَّامة مُحَمَّد طاهر الأهدل، الذي كان يلقب بـ"شيخ الإسلام"، وقريبه السيد العلَّامة عبدالرحمن حسن معوضة الأهدل (والد الأديب الراحل عبدالرحمن الأهدل)، وغيرهما من علماء المراوعة.

وعند مستهل عام 1955م، انتقل إلى مكة المكرمة، وهناك توزعت دراسته على مدرسة الفلاح ذات الشهرة الواسعة وقتها، والمدرسة الصولتية التي أسستها إحدى أميرات

الهند، إضافة إلى الدراسة في حلقات الحرم المكي، والمطالعة في مكتبته، التي كانت تضم كل ما يخطر على البال من كتب، وكان من شيوخه في تلك الفترة: السيد علوي المالكي، ومُحَمَّد المشاط، وعبدالله سعيد اللحجي (هذا الأخير كان تلميذاً لأحد علماء الأسرة الأهدلية). كما تتلمذ لغيرهم من العلماء، ولم تستغرق الدراسة أكثر من سنتين، استكمل خلالهما ما بدأه في المراوعة، وأضحى مستوعباً لعلوم الحديث، والتفسير، والفقه على المذاهب الأربعة، ناهيك عن علوم اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة. وبعد أن أجازه شيوخه في تلك العلوم، بدأ التدريس، وقد جعله نبوغه المبكر محط الأنظار. ولأن الحرم المكي الشريف كان يعج بطلاب العلم من جميع أصقاع العالم الإسلامي، فقد كان قسم كبير من الطلاب ينتمون إلى بلدان شافعية المذهب، مثل: إندونيسيا وماليزيا، وأبناء هذه البلدان -كما هو معروف- يدينون بنشر الإسلام في بلدانهم لأهل اليمن، حيث أبلت أسر العلم والتصوف الشهيرة، وعلى رأسها الأسرة الأهدلية، بلاءً ما عليه مزيد في خدمة الإسلام، فقد انضاف إلى علم الفتى عبدالباري طاهر عند أولئك الطلبة، أصداء تلك المرجعية التاريخية في ذاكرتهم، لتجعلهم يتحلقون حوله، ناهلين من علمه الغزير، الذي كان فوق مستوى شاب لم يبلغ العشرين من عمره، فلقَّبوه بـ «الشافعي الصغير».

لم يطل المقام بعبد الباري طاهر مدرساً في مكة، إلا سنة واحدة، عاد بعدها إلى المراوعة ليعمل بالتدريس، الذي انتظم في سلكه من عام 1958م حتى عام 1963م، حين تم تعيينه موجهاً لمدارس المراوعة وباجل، حيث سيبقى في هذا المنصب حتى عام 1966م.

وإذا كانت الأعوام الثلاثة التي قضاها في مكة دارساً ومدرساً، قد أتاحت له استكمال مداميك المعرفة الراسخة، بشكل يسمح ببناء الشوامخ عليه دون أن يتزعزع، فإن الأعوام السبعة التي قضاها في المراوعة بعد عودته من مكة، مدرساً ثم موجهاً، كانت أعوام العصف الذهني الطويل، الذي سيتمخض عن الكاتب والمفكر الكبير الذي عرفناه، وقد ملأت ثماره الدنيا، وشغلت الناس.

عند عودته من مكة كانت مكتبات علماء وأدباء ووجهاء المراوعة والحديدة وغيرهما من مدن العلم في تهامة، تمتلئ بكتب التنوير التي يضخها إليها القادمون من مكة أو عدن، فكانت كتب جمال الدين الأفغاني، ومُحَمَّد عبده، ورشيد رضا، وعباس العقاد، وطه حسين، ومصطفى صادق الرافعي، وسلامة موسى، وجورجي زيدان... إضافة إلى الكتب المترجمة عن أدباء وفلاسفة الغرب، عالماً واسعاً من المعرفة، يفتح للشاب الأهدلي نوافذ جديدة، يطل منها على دنيا فيها الكثير من الاختلاف عما اعتاده، فراح يغترف من تلك الكتب بنهم العاشق، ومواظبة العابد البتول، وانفعالات الصوفي، وهو يتلقى واردات لا عهد له بها، وكان لا بد لكوكتيل القراءات ذاك أن يفعل فعله فيه، لأنه كان بمثابة الخمر التي خالطت كأسه، فدارت بها رأسه، وتخلَّقت من مباهجها توجهات، وأفكار، وقناعات، بمقدار ما فلقت في داخله بذرة الكاتب الذي تتكشف مواهبه لذاته يوماً بعد يوم.

***

حين قامت ثورة سبتمبر سنة 1962م، أضاف ضجيجها إلى ما أحدثته الكتب في عقل الشاب الأهدلي، رجّات أخرى. فإلى جانب كسرها المألوف –المقدس– أو الشبيه بالمقدس، وإطلاقها كوامن الطموحات الشخصية والجماعية، وما نتج عنها من اصطفافات سياسية واجتماعية، فإنها فتحت الأبواب والنوافذ لتشكيل عدد كبير من التيارات الفكرية والحزبية، التي راحت خلاياها تتناسل وتتكاثر في السر والعلن، فيها القومي بمختلف مسمياته، وفيها الماركسي، وفيها الإخواني أيضاً.

وهذا كان مفترق طرق في حياة عبدالباري طاهر، فما كان مجرد معارف نظرية يقرأها أو يقرأ عنها خلال السنوات الماضية، في كتب العقاد، وطه حسين، ومُحَمَّد عبده، والرافعي، والأفغاني، وسلامة موسى، وسيد قطب، وماركس، وإنجلز، وهيجيل، ونيتشه، صارت له تمثيلات في الواقع.

عبدالباري طاهر؛ الممتلئ بعلوم الدين واللغة إلى درجة المماثلة بينه وبين الإمام الشافعي، المستند بظهره على بناء هائل من العلم، والتصوف، والولاية، والوجاهة، ظل آباؤه

يشيدونه ويضيفون إليه لما يزيد على ثمانية قرون مضت، لن يستطيع بسهولة معرفة الطريق التي يمكن أن يسلكها، أو يحدد دون تروٍّ التيار الذي يناسب قناعاته، والحزب الذي يمكن أن ينضم إليه أو ينشط من خلاله. فهو أيضاً -وهذه سنة يتكرر وقوعها في كل مجالات العلم- يحتاج إلى شيخ يدلّه، إنه يحتاج تماماً لما احتاج له شمس الشموس أبو الغيث بن جميل، من جده الشيخ علي الأهدل، مؤسس الأسرة الأهدلية الأول، فقد طوّف شمس الشموس كثيراً، وهو يبحث عن نفسه، حتى وجد الأهدل، ولم يمكث معه إلا مدة يسيرة، شاهد من أحواله ما شاهد، وذات ليلة كان شمس الشموس قد جلس مستغرقاً، ينكت الأرض بعود في يده، وجاء شيخه الأهدل فرآه على تلك الحال، وسأله:

عم تبحث يا أبا الغيث؟

وأجابه أبو الغيث: أبحث عنه هو.

فأشار الأهدل إلى جهة، وقال له:

انظر إليه..

قال أبو الغيث: ومن يومها ما غاب عن ناظري.. وكان ذلك أول فتح يفتح لي. لقد كنت لؤلؤة بهماء فثقبها الأهدل وعلَّقها في عنقي.

وإذن، فقد كان عبدالباري يحتاج لمن يكشف له، لمن يريه، مجرد إشارة يحتاج، تزيل الغيمة عن الشمس، شمس الذات بالذات، ليرى ما يريد داخل نفسه وعقله وروحه هو.

تلك الحاجة خلقتها الكتب في نفسه، وجعلتها إلحاحاً لا بد من الاستجابة له. إنها حاجة العارف، لا حاجة الجاهل أو المتخبط أو الغشيم.. هي نفس حاجة موسى للعبد الصالح، وحاجة مُحَّد لورقة بن نوفل.

في هذه الأثناء، كان طاهر رجب قد عاد من أيرلندا، التي هرب إليها من مصر عند منتصف الخمسينيات من القرن العشرين، بعد مضايقات أمنية ترتبت على نشاطه في حركة «حدتو»؛ الحركة اليسارية الشهيرة التي تأسست في مصر عام وصوله إليها سنة 1947م

وقد انضم إليها لاحقاً و نشط فيها نشاطاً محورياً كما يذكر في مذكراته التي قمت بتوثيق جزء منها، وكما يؤكد على ذلك بعض المشاركين في «شهادات ورؤى الجزء الخامس».

وكانت الإشارة التي يبحث عنها عبدالباري طاهر، موجودة عند طاهر رجب، كان طاهر رجب أحد مؤسسي اتحاد الشعب سنة 1961م كامتداد لحدتو في اليمن وقد انضم إليه عبد الباري طاهر بعد تنظيمه على يد طاهر رجب الذي استقطبه إلى اليسار، ونظمه فيه، لقد دخل هذا الطريق على نحو يشبه تحكّم بعض مشائخ الصوفية المشاهير على أيدي أولياء عابرين، أقل شهرة ومكانة، أو حتى غير معروفين. وهذا جانب في تراثنا الصوفي يعرفه عبدالباري طاهر جيداً، إذ سرعان ما ترك طاهر رجب النشاط الحزبي، وتخلى عن كل التزاماته تجاه تيار «حدتو»، وتجاه «اتحاد الشعب» وكأن المنوط به فقط أن يسلِّم الراية إلى هذا الشاب.

آخرون مثل عبدالغني علي، ومساوى عبدالله صالح، ومساوى حكمي، كانوا أيضاً هناك، إلى جانب طاهر رجب، وهم الذين استكملوا دوائر الاستقطاب عبر مثاقفات ثبت فيها اتفاق الميول، وترسّخ القناعات، في الوقت الذي كانت فيه صحيفة «الطليعة» التي يصدرها عبدالله باذيب، من عدن، وهو أحد مشاهير اليسار اليمني، تشكل منبراً قوياً ومختلفاً، بما تقدمه من رؤية وفكر مغاير، وإصرار على خلق طريق آخر للمجتمع، يفتح فيه عيونه على العوالم البعيدة جداً.

هكذا جاء خطاب «الطليعة» ليشكل دافعاً حاداً، يضيف بتقدميته الحارة وهجاً أكثر نورانية إلى روح وعقل الأهدلي، الذي سيدَعّمُ مرجعيته الهائلة، التي تقف أسرته بتاريخها العلمي الباذخ، وتراثها الصوفي الأخضر، في مركزها، بمرجعية جديدة مركزها في موسكو هذه المرة. وهي انتقالة جديرة بخلق زلازل لا تحدها حدود في الروح والوجدان، وذلك كثيراً ما يحدث، لكن داخل أشخاص لا يتكئون على ما يتكئ عليه عبدالباري طاهر من علم ومعرفة، وما نشأ عليه من وعي بالعالم من خلال ما تشرّبه من إرثه الصوفي المترامي الأطراف؛ ذلك الإرث الذي يؤكد على وجود الله حيث يوجد الإنصاف والحق، وتوجد العدالة

والمساواة، فإن لم تكن موجودة، فإن الله يوجد حيث نبحث عنها، وحيث ندأب على خلقها ونسعى لتحقيقها، ولا فرق بعد ذلك أن نجدها عند من يقيمها باسم الله، أو من يقيمها باسم الإنسان.

ومنذ قرون طويلة، لم يكن كبار متصوفة المسلمين يرون خلافاً أو فرقاً بين ما سعت النبوءات والأديان لتحقيقه من الفضائل والسلوكيات، والقوانين الاجتماعية، والقيم الإنسانية، وبين ما سعت الفلسفات لجعله أسساً تقوم عليها حياة الإنسان، وتنبني من خلالها القوانين والقيم والأخلاق، وكل أسباب التمدن والحضارة.

إنها بعبارة مكثفة وبسيطة في نفس الوقت: «مكارم الأخلاق»، التي قال نبي الإسلام إنه ما جاء إلا ليتممها.

***

نشط عبدالباري طاهر حزبياً في وقت صعب بالنسبة لليمن كلها.

كان الشمال اليمني يحترق بحربين تندمجان في حرب واحدة: حرب الجمهورية ضد الملكيين، وحرب مصر مع السعودية.

الجنوب أيضاً كان يخوض حرب التحرير ضد الإنجليز، وحرب الطلائع الجديدة ضد القوى النافذة التقليدية. وتحت لوافت الحروب الكبيرة الصارخة، كانت هناك حروب أكثر اشتعالاً على امتداد اليمن كلها شمالها وجنوبها، إنها حروب المصالح المتنافسة، والتيارات الحزبية بأطيافها الواسعة، التي لا يوحد بينها إلا كونها جميعاً تبحث عن وجود، وعن مساحات انتشار ضمن شروط الواقع، الذي يتألف من بنية اجتماعية متخلِّفة، مغرقة في تقليديتها وفقرها وأميتها، حيث يتقاسمها عالمان: عالم يتداعى، تمثله الملكية والإنجليز، وعالم يحاول أن يحل محله، ممثلاً في الجمهورية في الشمال والثوار في الجنوب.

وكانت تلك الحروب المشتعلة، بما توفره من غطاء للانتهاكات التي تطال حقوق الإنسان بكل وجوهها، بدءاً من الحريات، وانتهاءً بسلامة الوجود، ومعها مرجعيات الاستبداد، التي لا يختلف تمثلها عند قادة الجمهورية والثورة عن تمثل سابقيهم لها، ناهيك عن

غياب تقاليد الحزبية في بلد لا يعرفها، وحكام يرونها بدعة وكفراً، ثم تبازغُ التيارات الحزبية المعلن عنها، والعامل منها تحت الأرض، من واقع يشبه العدم، إذ هي لا تتكئ على ماضٍ في اليمن، ولا تقاليد لها فيه، وفوق ذلك ليس بين الناشطين فيها شيوخ قد صقلتهم التجارب، وعلمتهم الحقب، إلا فيما ندر.

كان الناشطون في معظمهم شباناً، تلهبهم العواطف، وتندفع بهم الأحلام والطموحات، بمقدار ما كانت هيمنة القمع العنيف، والتفكير الديكتاتوري ماثلة في رأس السلطات القائمة.

كذلك نشط عبدالباري طاهر حزبياً في وقت صعب بالنسبة له شخصياً، فالمنحى الذي انتحاه سيبدو صعباً من وجهة نظر أسرته وبيئته الحاضنة، رغم أنه -كما يبدو- قد خفف من وطأة ذلك بعقله الكبير، واتزانه، وكونه ممن لا يستعرضون أو (يزنطون) بانتماءاتهم، أو يتهورون في إعلان اختلافهم، على نحو يظهرهم كمتحدين لأهلهم، خارجين على قوانين الأسرة، والجار، والمجتمع.

لكن الصعوبة كانت قائمة دون شك، لأن استهداف الإمامة بالثورة كان يسحب نفسه -باطلاً في الغالب- على الأسر العلمية، والمناصب الصوفية في تهامة، بوهم اعتبارها جزءا من النظام الذي قامت الثورة عليه، وقد تم ذلك الاستهداف عبر سلسلة من الالتباسات التي وقع فيها أو لفقها نظام الثورة ودعايته الإعلامية، وانداح منها كثير من الأفكار المنتجة للسلوكيات العدائية تجاه أسر العلم، التي كانت خسائرها ستبدو أكثر وأبلغ إيلاماً، لولا أن تاريخها الإيجابي كان فاعلاً في حمايتها إلى حدٍّ ما.

أيضاً نشط عبدالباري طاهر كمواطن تهامي، في الوقت الذي كانت تهامة قد خلعت ثوب ماضيها الفاره، وبدأت الصور النمطية السلبية التي ما فتئت تأكلها منذ هزيمة «الزرانيق»، مطلع ثلاثينيات القرن العشرين، تزداد استشراء وسوءاً يوماً بعد يوم.

لكل تلك الأسباب، كان هو ينشط وفي داخله أكثر من هم، لكنه كان ينشط ووعيه الخاص بنفسه وتاريخه الإيجابي، ومنظومته السلوكية الخلَّاقة، ينشط فيه أيضاً.

مقابل ذلك، كانت السلطات ترقبه، وفي داخلها ما جبلت عليه من تقليدية، وما قامت عليه مرجعيتها من ديكتاتورية قمعية تجاه الأفكار اليسارية بشكل عام، مضافاً إلى ذلك ما يخصه هو وحده، كونه من تهامة التي يجب ألا تقوم لها قائمة، وكونه ينتمي لأسرة من الأسر التي يدأب النظام الجمهوري على هدمها، إلحاقاً لها بالمنظومة الإمامية ظاهراً، وتدميراً لها كأحد رواسخ الوعي والوجود، والهوية التهامية باطناً، وهو ما اتضح بعد عقدين من قيام الثورة، حيث ترتب على استهداف تلك الأسر، وتجفيف حواضنها، أن ذهبت تهامة كلها إلى الهامش القاتل، ونهبت خيراتها نهباً لا مثيل له في التاريخ.

ومن المؤسف حقاً أن كان ثمة التقاء بين السلطة والتيارات الحزبية والتقدمية المعارضة لها، والتي ينشط من خلالها عبدالباري طاهر وأمثاله من الأنقياء، في جانب من هذا الاستهداف الذي ربما لم يكن واضحاً لهم وقتها، أو أنهم لم يكونوا يظنونه على هذا القدر من الخطورة.

***

من اللافت أن يبدأ نشاط عبدالباري طاهر الحزبي، متلازماً تلازماً شرطياً مع بدء رحلته في دنيا الكتابة، لأن هذا التلازم قد ترك أثره عليه، أقصد أنه كان لا بد أن يدفع ثمنه. فبالتوازي مع العمل الحزبي السري، بدأ النشر، لكنه كان يضطر لنشر كتاباته بأسماء مستعارة؛ تفادياً للمطاردات والاعتقالات المعززة بأشكال وصنوف من المضايقات التي لا حصر لها، والتي لم ينجُ منها رغم محاولته تفاديها.

وقد شمل النشر بأسماء مستعارة فترة انتقاله إلى تعز، حين كان يعمل في التجارة الخارجية، فهناك نشر كتابات وافرة في "الجمهورية"، بأسماء مختلفة، حتى كتاباته الأدبية، بحكم أنها كانت تتموضع نماذج ثائرة ومواجهة، أو مضامين نصوص تدين الحاكمين، وتفضح المتسلطين، وتؤكد على صيرورة الكفاح، وحتمية النضال من أجل الكادحين والمظلومين؛ كان ينشرها تحت أسماء مستعارة، بل إنه قد فعل ذلك حتى وهو ينشر في مجلات أدبية كـ"الحكمة" و"الكلمة".

وقد استمر ذلك النهج معه سنوات طويلة، حتى صادف أن قرأ الناقد المصري جابر عصفور مقالاً منشوراً باسم كاتب يدعى "مُحَمَّد حسن"، فراح يشيد بهذا الكاتب المميز، ويثني على قلمه، ويمدح أسلوبه، ويستخبر صديقه عبدالعزيز المقالح، الذي كان وقتها في القاهرة، عنه. وقد كتب المقالح رسالة إلى عبدالباري طاهر، يخبره فيها بما قاله جابر عصفور عن الكاتب "مُحَمَّد حسن"، وعن لهفته لمعرفته. ولعل عبدالباري كان وقتها قد شعر بأن التخفي وراء أسماء مستعارة لم يعد صالحاً، وأنه باسمه الحقيقي سيكون أكثر قوة وتأثيراً، وأن قدرته على إيلام أعداء الحرية والفضيلة، والحق والتقدم، والإنسانية، ستكون أفضل حين يكتب باسمه الحقيقي، فودَّع استراتيجية الأسماء المستعارة إلى غير رجعة.

***

حين انتقل إلى صنعاء سنة 1973، بترغيب من الكاتب الصحفي مُحَمَّد الزرقة، لينضم إلى أسرة تحرير "الثورة"، كان قد قطع شوطاً طويلاً مع الكتابة، وكان قد شارك في تأسيس اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين سنة 1970م ضمن مجموعتي الحديدة وصنعاء لكنه لم يسمح له بحضور المؤتمر الأول في عدن، و كان ضمن اعتمالات تأسيس مجلة الحكمة وإن لم تشر إلى ذلك أدبيات التأسيس، كما كان قد قطع شوطاً مماثلاً في العمل الحزبي، وراكم رصيداً من الاعتقالات والملاحقات والمضايقات، التي صارت خبزاً يومياً له ولرفاقه، لكنه لم يكن يعلم، وهو ينتقل إلى صحيفة "الثورة" في صنعاء، أن بانتظاره جولات ربما تكون أكثر طرافة وإثارة للاستغراب، وأن بعضها سيتخلّق من مفارقات لا تخطر لأحد ببال.

كان وضع البلاد السياسي المتسم بعدم الاستقرار، يعكس نفسه على حال الصحافة آنذاك، فكان الكاتب الصحفي مُحَمَّد الزرقة أشهر رؤساء تحرير صحيفة "الثورة"، يتعرض للإزاحة من رئاسة التحرير بين الحين والآخر، وكانت إزاحته تتم بعد أن يُطلب منه ترشيح شخص آخر ليرأس تحرير الصحيفة. ولأن عبدالباري طاهر من ذلك النوع الذي تفرضه على الآخرين كفاءته وإبداعه وثقافته، فقد وجد نفسه خلال سنتين من التحاقه

بصحيفة "الثورة"، رئيساً لتحريرها مرتين متقاربتين، لكن المفارقة المشفوعة بفداحة العاقبة جاءت في المرة الثانية، وكان ذلك في سنة 1975م تقريباً.

ففي ليلة من ليالي مناوبته التي عليه أن يشرف فيها على كل تجهيزات العدد اليومي، كما جرت العادة، كان على موعد مع واحد من المواقف المفصلية التي مرت بها حياته. كان قد أشرف على كل مواد العدد، ولم يبقَ إلا تجهيز المانشيتات. والمانشيتات كانت وقتذاك تكتب بخط اليد، ويتولى كتابتها أحد المختصين المشهورين بقلة الأخطاء، إذ لا مجال للخطأ في كتابة المانشيت، لأن المانشيت وجه الصحيفة، والخطأ في المانشيت كالشجة في الوجه، لا يمكن إخفاؤه أو تخطيه، ناهيك عن إمكانية التستر عليه، ولكن الضعف الإنساني موجود دائماً، وفداحته تكون بقدر وضوحه، كما هي بقدر ماهيته ونوعه، ومقدار العقوبة المترتبة على الخطأ أياً كان، يتحكم فيها من وقع الخطأ عليه، فما بالك إذا كان الخطأ في المانشيت الرئيسي، وما بالك إن كان الخطأ ليس مجرد خطأ مطبعي عادي، إنما هو خطأ في صفة الرئيس، وفي مانشيت صحيفة رسمية رئيس تحريرها مصنَّف كأحد المعارضين الحمر الخطرين على النظام، واسمه مدرج في قائمة يتوجس فيها الأمن، ويتم تأويل كل ما يصدر عنها من تصرفات وأعمال وأقوال وكتابات.

ترك عبدالباري طاهر صحيفة "الثورة" بعد منتصف الليل، وقد جهَّز كل شيء، وكان على المختص بتجهيز المانشيتات أن يقوم ببقية العمل، لكن الرجل ربما بسبب إرهاق أو مشاكل أسرية، أو ربما لسهو عارض أصابه كما يصيب سائر البشر، (أنّثَ) لفظة "قائد" في المانشيت، فبدلاً من أن يكتب "قائد مسيرة التصحيح المقدم إبراهيم الحمدي"، كتب "قائدة مسيرة التصحيح المقدم إبراهيم الحمدي". أنهى الرجل عمله، ودارت المطبعة بالعدد، فصدر سَحَرَ تلك الليلة، ولم يأتِ الغبش الذي يسبق انبلاج الصباح حتى كان مُحَمَّد خميس (رئيس جهاز الأمن الوطني حينذاك) ورجاله قد ألقوا بطاهر وزملائه في غيابات الزنازين، ولم يكن السجن عقابه الوحيد، فقد نُحِّي عن رئاسة تحرير "الثورة"، وفصل من الوظيفة، ليبقى عاماً كاملاً دون راتب. لقد كانت العقوبة أكبر بكثير من حجم الخطأ،

بمقدار ما كانت أكثر سواداً وعدائية من بياض قلب الحمدي، كما يتوقعه الشعب الذي لا مراء في محبته له. غير أن هذا تفسير ساذج أكتبه وكأني لا أفهم أن بياض قلب الحاكم له مواضع يتجلى فيها أو يصنع لأجلها، لكن سواده أو صناعة السواد فيه في بلدان كاليمن تبقى هي المهيمن، تستعمل بالحق وبالباطل، وتسفر عن نفسها عبر طرق ملتوية، مشوبة باللؤم والخبث والقسوة، وتجد لنفسها المبررات بشكل دائم.

الأغرب مما حدث أن عبدالباري طاهر غادر صحيفة "الثورة"، سنة 1975، ولم يعد إليها طيلة تسعة وثلاثين عاماً أعقبت تلك الحادثة. لم يعد إليها محرراً فيها أو رئيساً لتحريرها، ولا حتى كاتباً فيها. تبدلت أوضاع كثيرة، وتغيرت رئاسة التحرير أكثر من مرة، وظلت القطيعة بين طاهر و"الثورة"، هي الثابت الوحيد.. هو لم يحاول العودة إليها، وهي امتثلت لتقاليد الإهمال والإجحاف، فلم تحاول التفكير فيه.

يتذكر عبدالباري طاهر فترة السبعينيات من القرن العشرين، بوصفها فترة احتدام حقيقي شهدت اليمن فيها مخاضات كثيرة، خاصة على مستوى النخب الناشطة في المجالات الحزبية، التي كان نشاطها يزدهر رغم الحظر والتجريم الرسمي، وما يترتب عليهما من مخاطر، إذ كانت النخب المثقفة والقيادات الحزبية تجترح طرقاً مختلفة للتحايل على القمع والديكتاتورية المستفحلة في عقل النظام، وتحاول فتح نوافذ تتيح التنفس للناشطين من أجل وجه أفضل للوطن، قولاً وكتابة، لذلك كثر إنشاء النقابات، وتعددت المبادرات الهادفة إلى خلق مؤسسات تساعد على الدخول بالوطن المنهك إلى مشارف المستقبل.

وهكذا فقد شهدت فترة السبعينيات من القرن العشرين، مجموعة من المبادرات والتأسيسات المستجيبة لتلك التطلعات، بما فيها تلك التي تنشئها الدولة كجزء من واجبها، كما في حالة تأسيس جامعة صنعاء الذي عارضته القوى التقليدية، بزعم أنه سيكون مشروعاً تغريبياً مفسداً، وأصرت عليه النخب المثقفة الطليعية بأطيافها كافة، باعتباره ضرورة يفرضها التطور، ويحتاج إليها الشعب لتأهيل أبنائه، وخلق ظروف أفضل للأجيال القادمة، فكان تأسيس الجامعة انتصاراً لتطلعات تلك النخب.

عديد المبادرات شهدتها تلك الفترة، وكان عبدالباري طاهر في طليعة المندفعين لها، والدافعين إليها بحماس المثقف الحقيقي، الممتلئ بالعلم والمعرفة، والواعي بالاختلاف الذي يمكن أن يحققه الشعب من خلال الجهد المؤسسي والنقابي.

من تلك المؤسسات اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين، الحزب الاشتراكي، نقابة الصحفيين اليمنيين، التي تأسست عام 1976، وكأنما جاء تأسيسها مساندة له بعد طرده من صحيفة "الثورة"، وقطع راتبه، فتم اختياره ليكون أول نقيب لها قبل أن يكون على موعد بعد سنتين أخريين، مع مساهمة جديدة في تأسيس صرح متين للبحث العلمي والمعرفة المؤسسية، هو مركز الدراسات والبحوث اليمني.

غير أنه من المحال على مسكون مثله بالهم العام، وبالحرية وتجلياتها، أن يهدأ أو يهادن، فقد كان على قدر سنة 1978م، مع العودة إلى السجن، الذي أرخى سدفه على وجوده شهراً كاملاً، وبتهمة من تلك التهم التي لا يغلب المتسلطون في تلفيقها، وإن كانت التهمة "الحزبية والميول اليسارية"، مما يعتز هو ويفاخر به. مع ذلك، فإن الخطر المحدق بحياته سيكون أكبر بعد انقلاب الناصريين سنة 1978م، فقد امتدت المطاردات إثره من أواخر تلك السنة إلى ما تلاها، وكان القبض عليه هذه المرة يعني الموت، لذلك وجد من المحتم عليه أن يستجيب لتنبيه صديقه مُحَمَّد اليازلي، وأن يختفي عن الأعين لبعض الوقت. بيد أن اختفاءه طال سنة ونصف السنة، ووزعه بين صنعاء وعدن وبيروت، وأخنى بثقله وعذاباته على زوجه وأطفاله، لكنه صقل تجاربه، ووسع مجالات حضوره، ورفع من قيمته، فقد ارتفعت علامات التقدير له كاتباً ومفكراً ومدافعاً عن الحريات والحقوق، ومحارباً لا تفتر همته، ولا يغمد قلمه. ولعل أفضل تعبير عما صار يحظى به من تقدير، جاء وقتها من خارج اليمن، يوم تم انتخابه أميناً عاماً مساعداً لاتحاد الصحفيين العرب، في مؤتمر ببغداد سنة 1979م. وكان ذلك دعماً مميزاً يقدمه له في محنة اختفائه، زملاء الحرف وعشاق الحرية في البلاد العربية.

وهذا جعل السلطات في صنعاء تقرر رد الصاع صاعين، وتعبر عن حقدها عليه ووجعها منه، بتدخل رئيس الجمهورية شخصياً في انتخابات نقابة الصحفيين سنة 1980م، التي أعادت انتخابه نقيباً لها، وأصر علي عبدالله صالح على اختيار نقيب آخر، كما يؤكد تقرير مندوب اتحاد الصحفيين العرب إلى مؤتمر نقابة الصحفيين اليمنيين وقتها.

***

إن رحلة عبدالباري طاهر الطويلة والشاقة مع الكلمة وتبعاتها، تدلنا على مقدار تبعات الكتابة في بلد مثل اليمن، حين يكون الكاتب صادقاً مع نفسه، وفياً لمبادئه، حر الضمير، منحازاً للخير، مؤمناً بالناس.. وهذه الشواهد الصارخة ليست إلا جزءاً من آلام كثيرة، وصلبان لا حصر لها، يجد كاتب يمني من هذا الطراز نفسه معلقاً عليها بشكل دائم. الشواهد الصارخة ستبدو كمشاهد شاذّة لانتباه المتفرج في مسلسل طويل من المكائد والمضايقات التي يلاقيها الكاتب في عمله، وفي لقمة عيشه، في دراسته ودراسة أولاده، في سعيه المشروع لأخذ حقوقه الطبيعية كمواطن يتوظف ويترقى في عمله، ويحصل على فرص المشاركة العادلة.. كما تشتمل حلقات المسلسل المقرف على إقلاق أمنه، وإخافته على أسرته، وتكبيده أنواع المرارات، وخلق بواعث الغضب ومسببات القهر له أينما ولى وجهه.

وإذا كان عبدالباري طاهر تعرض للسجن والفصل من رئاسة تحرير "الثورة"، سنة 1975م، بسبب خطأ مطبعي تافه، فإن التاريخ كان يعيد نفسه سنة 1982م، فقد ذهب إلى الكويت للمشاركة في أحد الاجتماعات الدورية لاتحاد الصحفيين العرب، وشهد الاجتماع توتراً فائراً بسبب انعكاس خلافات الأنظمة العربية عليه، من ذلك خلاف في وجهة النظر بينه وبين العراقي قاسم محمود، رئيس اتحاد الصحفيين العرب، تجاه موقف العراق من فلسطين، فقد تحول ذلك الخلاف إلى مناكفة بين الرجلين حين طرح الوفد اليمني قضية مقتل مُحَمَّد علي هادي قاسم تحت التعذيب بسجن الأمن السياسي.

قال قاسم حمود مخاطباً عبدالباري طاهر: أنتم أيها اليمنيون حين تقتلون أحداً كيف تعملون؟

وأدرك عبدالباري أن الرجل لا يسأل، إنما يسخر، فأجابه: نحن نحب الستر، ندفنه مباشرة، أما أنتم فتقتلون القتيل وتمشون في جنازته!.

كان عبدالباري طاهر عندما حدثت تلك المماحكة يظن الاجتماع سرياً، وأن ما حصل بينه وبين حمود قاسم مجرد مناكفة لن تخرج من قاعة الاجتماعات، ولم يكن ليقدر أن غيظ حمود قاسم منه سيدفعه ليسرب الخبر إلى صحيفة "الوطن" الكويتية، وإلى وكالة الأنباء السورية، وأن مخبري السفارة اليمنية بدمشق سيعيدون إنتاج الخبر، وسيرسلونه إلى صنعاء، بعد إضافة التوابل المناسبة إليه، مثل زعمهم أنه قد ذهب إلى الكويت ممثلاً للجبهة الوطنية الديمقراطية، وأن جزءاً من مهمته كان مقابلة أمير الكويت. وقد عرف هو كل ذلك حين عاد إلى سوريا، إذ كان يقيم بها آنذاك، لكنه لم يفكر في تبعاته حين يعود إلى صنعاء، فقد كانت هي التهمة الرئيسية بين تهم أخرى في انتظاره، ليطبق عليه ظلام السجن العابث من جديد.

مع هذا يعتبر عبدالباري طاهر نفسه محظوظاً أكثر من زملاء آخرين، كان ابتلاؤهم بوقاحات السجون أشد من ابتلاءاته، فثمة مواقف كثيرة كانت إشارة كإشارة اليازلي سنة 1979م، يلامسه نقاؤها، فيبعده عن متناول السجان. من أجل هذا، كما من أجل بقية صفات الرجل الإنسانية المذهلة، وتاريخه الطويل في الدفاع عن المضطهدين، أجدني أفكر في إرث الولاية الذي يتكئ عليه كلما جال فكري في نجاته من براثن العسس عديد المرات، وكلما فكرت في قدرة الرجل، رغم تواتر المحن وتواليها، على البقاء والاستمرار.

عشرات الرفاق والزملاء والأصدقاء كانوا ذات يوم يجولون ويصولون كما يصول ويجول، ومع تتابع السنين، وتعاقب المحن والخيبات، غيَّر بعض منهم مساره، وتنكر بعض آخر، وقنع بعض ثالث بما قدم من محاولات للتغيير بالقلم واللسان، ودخل في خانة أضعف الإيمان، وهناك من أثخنتهم الصدمات والمواجع، وبدّلَ هول ما لاقوه مصائرهم كلية، فأصبحت عقولهم في خبر كان.. وبقي عبدالباري طاهر مع قلة قليلة يواصل مسيرة

النضال والتنوير، ويتوهج أكثر فأكثر كلما زادت الخطى، وتعقدت المنعطفات، وتوالت سنوات العمر.

***

صافح اسم عبدالباري طاهر أذني، لأول مرة، مقروناً بصورته، سنة 1984م، إن لم تخني الذاكرة، إذ أطل ذات مساء من الشاشة في حوار جمعه المذيع فيه مع البردوني، رحمه الله. كنت في الجيلانية وقتها، لكن رحلة متابعتي له بدأت منذ تلك الليلة، وتوطدت بعد أن عرفته في التسعينيات، إثر مجيئي إلى صنعاء. واليوم (مايو 2014م) بعد مرور ثلاثين عاماً على إطلالته تلك، أستطيع القول: بأنه كان يترسخ يوماً بعد يوم، ليس في ذهني وحدي، بل في أذهاننا جميعاً، أنا وأبناء جيلي، بوصفه أحد رموز اليمن الكبرى، وبوصفه أحد رموز الدفاع عن حرية الصحافة في الوطن العربي، وبوصفه كاتباً موسوعياً، ومثقفاً حقيقياً، ونجماً لامعاً في سمائنا لمعاناً له خصوصية لا يماثله فيها أحد. ولعل انغماسه في معركة الدستور، وترتيب مستقبل الحكم في اليمن، بعد قيام الوحدة سنة 1990م، ثم ثبات جنانه وصموده، وعدم تراجع حضوره بعد حرب 1994م، وهي الحرب التي دمرت المشروع الوطني الذي كان هو أحد صنّاعه، بعد أن كان من أشهر الحالمين والمناضلين من أجله، كانت من أقوى مرسخات احترامنا له، واعتدادنا بصلابته وقوة شخصيته، وإيمانه المتمكن من جميع حواسه، بضرورة الصبر على المكاره، والمرابطة على الحق، وإنجاز ما هو منذور له، مهما حُفّت الطريق بالمكاره، خاصة ونحن حين نربط هذه الصفات بنظافة يده، وتواضع مظهره، وعدم رغبته في الحديث عن نفسه، ولامبالاته بجمع تراثه الخاص، المتمثل في كتاباته الثرّة الكثيرة؛ نستطيع بسهولة العثور على أمثاله في تلك المرجعيات التي بدأنا المعاينة منها.

في السنوات الأخيرة، كان عبدالباري طاهر أكبر من مجرد علامة على المرابطة في وجه الاختلالات. لقد صار رمزاً خالصاً لضميرنا، وثمرة كبيرة لتاريخ طويل من الجهاد والاجتهاد، وقد سَهّلت الفضائيات وعوالم الشبكة العنكبوتية –وهذا يحمد لها– تحوّل

صورته إلى أيقونة لها ارتباط شرطي وثيق بالثقة والاحترام والتقدير، الثقة في علمه بكثير من الخفايا الكامنة وراء الأحداث، والاحترام والتقدير لقدراته على تقديم ما يعرفه، وقول رأيه فيه بطريقة تجتمع فيها الشجاعة، والنفاذ، والاتزان، والعقلانية، والإحساس بالمسئولية.. وهي سمات صارت أوضح وأصرح من أن تحتاج إلى دليل بعد مواقفه الرائدة، ومصابراته الصلبة والمتعقّلة في نفس الوقت، إبان هيجانات الشوارع عام 2011م، حين كان الناس ينظرون إليه كترمومتر تنعكس في تعامله مع الأحداث درجات جوهريتها من زيفها، لكن أكثر ما كان يلفت النظر هو قربه من شبان وشابات الجيل الجديد، الذين وجدوا فيه الأب، والحكيم، المفكر والعالم، وقبل ذلك العظيم القدوة، البسيط في تعاملاته، الزاهد في ملبسه، ومأكله ومشربه، المتواضع في سلوكياته، الشامخ في ترفعه عن الدنايا، الحقيقي في احترامه للناس، أشخاصاً وعقولاً، الصادق في إيمانه بالحرية ودفاعه عن الحق، وقدرته على القبول بالآخر... إلى غير ذلك من تصرفاته التي كانوا يعرفون تلقائيتها وعفويتها، وبعدها عن التكلف أو القصدية، في وقت كانوا يثورون فيه على الناهبين والمتسلطين، وعتاولة الظلم والاستبداد القابعين هناك في القصور، والمتمترسين وراء آلة حرب مفزعة، ويعايشون في الشوارع الكثير من الأدعياء، المفتقرين إلى العلم والأدب، وإلى الضمير الحي والمبدأ الصادق وأخلاق المواطنة الحقيقية، ممن تسلقوا على الدماء، ولبّسوا على جموع الشعب التي يصفونها بـ"العامة والدهماء".

تلك بعض أحوال الرحلة وأهوالها، وهي لا تعدو أن تكون معاينة أولى، قد لا يجد البعض فيها جديداً عن هذا العظيم، يساوي تعب الكتابة.

خيري شلبي..
المحمّل ببيئات لا حصر لها:

كثيرون هم الكتاب الذين شغفت بهم في رحلتي مع القراءة، ولكن غالب من شغفت بهم.. قرأتهم في سنوات التكوين الأولى.. السنوات التي كنت فيها أعيش في الجيلانية (قريتي) أقرأ الكتُاب من بعيد فأتصورهم شخصيات أسطورية.. شخصيات غير عادية..

يختلفون عن الناس في كل شيء.. لم أكن أتصور هؤلاء الذين أقرأهم وأجن بروعة وعبقرية ما يكتبون بشراً مثلنا.. لعل السبب أننا في تلك السن غالباً ما نفكر بهذا الشكل.. بل لعل السبب الأهم أنني لم أر في حياتي التي كنت أعيشها هناك كاتباً قط.. لم أعرف معرفة شخصية كاتباً يكتب وينشر كتباً أو حتى مقالات وإبداعات في المجلات والصحف.. كان كل الكتاب الذين أقرأ لهم حتى اليمنيين منهم من أماكن بعيدة عني... أول كاتب يكتب وينشر عرفته كان الصحفي الجميل فؤاد عبد القادر، الذي جاء نهاية سنة 1986م إلى منطقة القناوص من أجل تحقيق صحفي عن مجلسها المحلي.. وعندما عرف أن في المنطقة ولداً صغيراً يكتب الشعر ويقرأ كثيراً أحب أن يراني.. وحين التقيت به رحت أتأمله بإعجاب واستغراب فها أنذا ألتقي بكاتب لأول مرة في حياتي..

بعد أسابيع قليلة (مطلع سنة 1987م) كان فؤاد عبد القادر ينشر لي أول نصوصي في الصفحة الثقافية بصحيفة الثورة..

ضمت قائمة الذين شغفت بهم في سنوات التكوين عدداً كبيراً من المبدعين شعراء وروائيين ونقاداً.. منهم على سبيل المثال لا الحصر: العقاد، طه حسين، توفيق الحكيم، نجيب محفوظ، صلاح عبد الصبور، بدر شاكر السياب، الجواهري، محمود درويش، أحمد عبد المعطي حجازي، يوسف إدريس، سميح القاسم، جبرا إبراهيم جبرا، عبد الله البردوني،

عبد العزيز المقالح، أحمد الشامي، عبد الودود سيف، خليل حاوي، نزار قباني، أنيس منصور.

بعد الثانوية جئت إلى صنعاء وبدأ الشغف الخام والإعجاب المطلق يخف لصالح الفهم والوعي النقدي.. إلا أن رؤيتي مجرد الرؤية من بعيد لأي كاتب من أولئك الذين شغفت بهم كان يتحول إلى حدث يؤثر كثيراً في نفسي... ظل ذلك يلازمني طيلة الشطر الأول من التسعينيات..

سنوات كثيرة قضيتها أمارس القراءة الواعية.. القراءة المجيرة غالب الوقت لصالح كتابات أشتغل عليها، فكان ذلك كثيراً ما يفقدني متعة القراءة، خاصة حين تكشف المعرفة الواسعة عن عورات كثيرة في الكتابات التي أقرؤها.

أحياناً كثيرة كنت أحن إلى قراءة كتاب أو مادة إبداعية أخّاذة تذهلني عن نفسي وتعيد لي حالة الشغف تلك.. ونادراً ما كنت أجد الكتاب الذي يرسلني إلى تلك التخوم.. حتى صار يخالجني ضرب من اليقين أن ذلك الشغف إنما يرتبط بطفولة الوعي وأن متع الفهم والحس الناقد أثناء القراءة أهم كثيراً من تلك المتع العمياء.

وفي أغسطس سنة 2004م نشرت سلسلة كتاب في جريدة رواية الوتد لخيري شلبي.. لم أكن قد قرأت لخيري شلبي كتاباً من قبل.. كنت أقرأ أخباره وأخبار إصداراته منذ التسعينيات.. ولكنني لم أكن قد قرأته أو كلفت نفسي عناء الحصول على كتاب له..

فتحت أول صفحة من رواية الوتد الصادرة ذلك اليوم في كتاب في جريدة، وما أن دخلت في سطورها الأولى حتى نسيت نفسي.. كان خيري شلبي يعيدني بقوة إلى حالة الشغف تلك التي فارقتها من سنوات طويلة، ولكنه شغف واعٍ... شغف يعرف جيداً من أين يجيء.. أذهلتني لغته المختلفة.. أساليبه في نحت المفردات، وجرأته في توثيق الحياة من خلال مفرداتها التي يقنعنا بفصاحتها وبضرورة عدم التدخل فيها... أذهلني كشفه العميق لعوالم المهمَّشين وقدرته على سبر أغوار شخصياته.

ما أن أنهيت قراءة الوتد حتى توجهت إلى دار الكتب لأفتش عن كتب أخرى لخيري شلبي.. وجدت مجموعته القصصية (سارق الفرح) التي تحولت إلى فيلم من أجمل الأفلام المصرية.. ثم حصلت من مكتبة دار الكلمة على نسخة متربة قديمة أصدرتها دار الهلال من روايته (السنيورة) وهي من أوائل رواياته شهرة.

بعد أربعة عشر شهراً (8 اكتوبر 2005م) تعرضت زوجتي لحادث سيارة أليم فأخذتها إلى القاهرة للعلاج، وكان عليها أن تنام قرابة مائة يوم في الغرفة التاسعة من الدور الخامس في قصر العيني الفرنساوي.. وفي ليالي الشتاء الطويلة تلك لم تعد ممرضات قصر العيني يتحدثن عني إلا بوصفي (الراجل اللي بيقرا) وكان وصفهن في محله.. فقد كنت أسهر كل ليلة سبع أو ثماني ساعات قارئاً.. أمامي كومة من روايات خيري شلبي التي كنت أجلبها نهاراً من مكتبة صغيرة في شارع قصر العيني، ثم من مكتبة دار الهلال، ومن مكتبات الأزبكية، ومكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ودار الشروق وغيرها..

قرأت في تلك الأثناء روايات خيري شلبي (صالح هيصة، العراوي، ثلاثية الأمالي لأبي علي حسن ولد خالي، لحس العتب، بغلة العرش، بطن البقرة، رحلات الحلوجي الطرشجي، وكالة عطية، منامات عم أحمد السماك، موال البيات والنوم، فرعان من الصبار، صهاريج اللؤلؤ، زهرة الخشخاش) إضافة إلى كتابين له أولهما عن طه حسين، والثاني عن مؤرخي مصر القديمة.. وفي كل رواية من تلك الروايات كنت أشعر بذلك الشغف القديم بالكاتب وكتابته.. وصرت بعد ذلك لا أدخل مع أحد في حديث يتعلق بفن الرواية إلا وذكرت خيري شلبي، الذي أصبح اللقاء به بالنسبة لي ضرورة ملحة تتعمق في وجداني يوماً بعد يوم.. وهذا ما كنت أحدِّث به صديقي الشاعر مُحَمَّد العابد خلال الأسبوع الذي سبق سفرنا إلى القاهرة يوم 10 مارس 2010م للمشاركة في ملتقى قصيدة النثر العربية.

خلال أيام الملتقى الثلاثة وأنا أسأل عن خيري شلبي كتاباً ومثقفين مصريين.. كنت أفاجأ بإجاباتهم المتفقة حول عزلته وبعده عن الاختلاط بالناس الذي يجعل تلفونه

غير متوفر وأمكنة اللقاء به غير معروفة في الغالب.. كان أكثرهم يحيلني إلى صديقه الروائي مكاوي سعيد، وكنت كل يوم أذهب إلى مقهى زهرة البستان من أجل الحصول على تلفونه الذي وعدني مكاوي سعيد بالحصول عليه، ولا أحصل عليه منه..

وفي استضافة رائعة نظمها لنا تلقائياً الشاعر أحمد الشهاوي بأحد مقاهي الجمالية.. حدثت الشاعر فريد أبو سعدة عن معاناتي العجيبة من أجل الحصول على هاتف خيري شلبي أو عنوانه.. كان أبو سعدة يضحك مستغرباً: عايز منه ايه؟ فيما هو يعبث بأزرار الهاتف قبل أن يضعه على أذنه ويقول: ازيك يا أستاذ خيري؟ في كاتب يمني مجنون بيك وعايز يكلمك..

تناولت الهاتف منه.. وقلت: مساء الخير يا صالح هيصة.

فرد ضاحكاً: أهلاً وسهلاً بك.

قلت له: لا أريد أن أعود إلى اليمن دون أن أراك... علي نذر بذلك.

أجاب بمنتهى البساطة: أهلاً وسهلاً.. نلتقي بعد بكرة الساعة الخامسة مساء في كفتريا المجلس الأعلى..

مساء يوم 15 مارس 2010م توجهنا إلى المجلس الأعلى أنا والشاعران مُحَمَّد العابد وعلي جاحز.. ذهبنا إلى هناك قبل الموعد بأكثر من ساعة ونصف.. بعد جولة قصيرة في مكتبة المجلس الأعلى.. جلسنا في مكان جيد نرقب مجيء خيري شلبي.. ومُحَمَّد العابد يوالي علينا المشاريب.. في الخامسة تماماً أقبل الأستاذ خيري شلبي.. استقبلناه ولقينا بحفاوة بالغة.. أخبرته إلى أي درجة نحن نعجب به ثم قلت له: يبلغك السلام الكاتب مُحَمَّد القعود.. وهو أحد محبيك الكبار في اليمن.

قال: يا سلام.. ده راجل عسل.. انته تعرفه؟

قلت: هو صديقي جداً.

قال: بلغه سلامي الكثير.. أنا وهو نعرف بعض من مدة.. التقينا في أبو ظبي.. وعندي عنه انطباعات حلوة وبينا تواصل.

سردت له قصتي معه ومع كتبه.. وهو يتابعني ببشاشة، فجأة قلت له: لقد تأخر التقدير تجاهك... أليس كذلك؟

أجاب غير متفاجئ: آه.. بدأ الالتفات لأعمالي عند نهاية السبعينيات.

قلت: ما سبب ذلك في رأيك؟

أجاب: أنا لست حزبياً.. ولا أنتسب إلى جماعة أو شلة.. أو جهة تهتم بي وتروج لي.. كنت أصدر الكتاب بعد أن أكون قد تعبت فيه تعباً كثيراً.. فيمر بصمت ولا يذكره أحد.. ثم يصدر غيري كتاباً مهما تكن قيمته.. جيداً أو غير جيد.. المهم أن يكون صاحب الكتاب منتمياً لحزب أو تيار أو جماعة أو شلة، حتى تتبارى الأقلام في الكتابة عنه وتدبيج الصفحات في مديحه.. لكن العبرة بالخواتيم.

قلت: الخواتيم رائعة..يا أستاذ خيري.. فأنت الآن مقروء بشكل واسع.. وكتبك تصل إلى أماكن وقراء لم يكونوا ليخطروا لك على بال.. ناهيك عن الكتابات النقدية والدراسات والأطروحات الجامعية والحوارات والمقابلات الصحفية والتلفزيونية.. آخر مرة شاهدتك على قناة الحرة..

أجاب: صحيح كل يوم أتلقى تعبيراً عن هذا بطرق مختلفة.. كذلك من خلال الجوائز والترجمات وغيرها.

قلت له: ولكنك قليل السفر.

أجاب: حتى السفر يحتاج إلى علاقات وأشياء كثيرة.. وأنا إنسان مشغول بكتاباتي رغم أنني سافرت إلى كثير من البلدان العربية وغير العربية.

قلت له: ألم تفكر في زيارة اليمن؟

قال: كان الأستاذ يوسف الشريف رحمه الله.. انته تعرفه؟

قلت له: نعم أعرفه.. التقيت به في صنعاء أكثر من مرة.. فقد كان كثير المجيء إلى اليمن.. كما أنني قرأت له أيضاً.

قال: آه.. يوسف الشريف كان طرح عليَّ فكرة السفر إلى اليمن وكنا نجهز أنفسنا للسفر ولكن مع الأسف مات يوسف رحمه الله... أيضاً كان السفر إلى اليمن مطروحاً من قبل كاتب يمني صديق لي أحبه كثيراً.. رغم أنه ألعبان (قالها بمحبة ومزاح) أريد أن أتذكر اسمه. عبدال.. عبدال؟

قلت: عبد الودود المطري؟ (خطر على بالي عبد الودود المطري دون غيره لأن الكاتب الكبير صبري الحيقي كان قد حدثني عن علاقات المطري الواسعة داخل المجتمع الثقافي المصري).

قال: آآآآآآآه... عبد الودود المطري.. ده حبيبي... وكنا متواعدين نسافر اليمن ثم لم يتم الأمر.

قلت: نتمنى أن تدعى قريباً إلى اليمن.

أجاب: سأكون سعيداً بذلك.

لحس العتب.. من تجربة الطفولة إلى تجربة الكتابة:

كان الزميل الشاعر علي جاحز منغمساً في التصوير والتسجيل.. وكنت قد أكدت عليه أن يلتقط لنا صوراً فوتوغرافية بجانب الفيديو.. وأحسست أنني يجب أن أدخل مع خيري شلبي في حوار جاد...

قلت له ممازحاً: ندخل في (الغويط) يا أستاذ خيري؟

قال بأريحية: ما فيش مانع.

قلت: ما الذي فعلته بنا يا خيري شلبي؟ ما الذي أشعل كل هذه النار في إبداعاتك؟.. أريد أن نبدأ من البداية.. من لحظة الولادة.. من الأم.. من الأب.. من بيت الأسرة.. من لحس العتب.

تموضع في كرسيه جيداً.. ثم سرح بنظره بعيداً.. وقال:

خضت تجربة حياتية مروعة، فأنا صاحب طفولة قاسية، لقد ولدت في لحظة فارقة في حياة أسرة تبدلت بها الأحوال من الثراء الفاحش إلى الفقر الشديد.

في طفولتي طافت بي أمي على الأطباء الذين فشلوا جميعاً في تشخيص حالتي، ولم يستطع أحدهم كشف دائي، ومن ثم تحديد الدواء، إلى أن جاءتها الغجرية وقالت لها: علاج ابنك عندي، ونصحتها بأن تمزج الخميرة بالخل، وتضع الكوب في السطح ليسمع الأذان ثلاث مرات، وبعدها تسقيه المزيج على الريق ثلاثة أيام من أول كل شهر عربي ولمدة 3 أشهر، وبالفعل شفي الطفل، وراح المدرسة في الشهر التالي.

ذكرت في سؤالي (لحس العتب)؛ لأن خيرى شلبى أعاد في هذه الرواية بناء وصياغة وتطوير هذه القصة الحقيقية... وهو يقول عنها: لا تفارقني معاناة أمي، وهى تطوف بي على الحكماء، وقتها لم يكن اسمهم دكاترة، أو معهم الزمالة، صبرها على حيرتهم، وتعجبهم كان مضرب المثل، واستجابتها للغجرية كان إيماناً قوياً داخلها، بأنها يجب أن تفعل كل شيء ممكن، وأن تسير فى كل السكك، لإنقاذ طفليها من الموت لذلك كانت أمي هي بطلة روايتي «لحس العتب» بجدارة، وسجلت لحظات كفاحها في الرواية من أجل طفليها المريضين.

تحملت أمي مسئوليتنا، فيما كان أبي يبتكر مهنة له، ليحل الأزمات المتلاحقة التي لم تكن تحل علينا يوماً بيوم، إنما ساعة بساعة، ورغم الأزمات الكثيرة التي عاشتها أمي، إلا أنها استطاعت أن تحلها كلها، ولم تكن تقبل أن تحصل على الطعام من خارج دارنا، إلا بعد أن تتأكد من أنها سددت ثمنه، حساسيتها كانت شديدة لهذه الأمور.

لا يستطيع أحد أن ينكر أنني تعلمت منها الكثير.. هناك حقائق يجب الانتباه إليها، وهى أن الأم سواء في الريف، أوفى الحضر، هي العمود الفقري للأسرة، وادعاء الرجال بأنهم قادة البيوت ادعاء كاذب، لأنهم جميعاً، سواء كانوا في أعلى المراكز أو أدناها، خاضعون لها سواء الأم، أو الزوجة، أو الابنة.

قلت: ربما لهذا السبب تحضر المرأة (الأم أصلاً) في كل عمل من أعمال خيري شلبي.. نجدها، سواء أماً أو زوجة أو حبيبة، أو إبنة.

أجاب: إنها المنطقة الأثيرة لديَّ في الكتابة، فالأم سيدة الكون، وهذه حقيقة علمية، والطبيعة متحيزة لها، والدليل أنها تتمتع بالقوة والصبر والصمود.

المهن تتحول إلى روايات:

يستحضر خيري شلبي كثيراً من مشاهد بؤس الطفولة وأزمات الأب... ثم يعلق: كان حلمي أن أكتب قصة حياة أبي الذي تزوج بعد أن بلغ الستين من عمره وأنجب 17 طفلاً، فأصبح في هذا العمر مطالباً بأن يخترع لنفسه عملاً ينفق منه على أولاده. ولكن عندما اندمجت في تجربة «عمال التراحيل» حتى أستطيع الإنفاق على نفسي وإكمال تعليمي، تضاءلت قصة أبي وأصبحت لا تكاد تكون شيئاً بالنسبة إلى القصص التي كنت أستمع إليها من هؤلاء العمال والتي جسدتها في روايتي «السنيورة».

قلت له: ولكن رواياتك التي كثيراً ما يشعر القارئ بأن الراوي فيها هو المؤلف... هو أنت بغض النظر عما يمكن أن يطرح من كون ذلك مجرد حيلة سردية ليس بالضرورة أن يكون الراوي هو المؤلف... ومع ذلك فإن رواياتك.. والمعروف من تفاصيل حياتك التي نقرؤها.. تقول إنك عملت في مهن كثيرة بلا حصر.. وإنك عانيت في تلك المهن كلها ورصدت تفاصيل حيوات العاملين فيها.. كما رصدت تقاليد العمل في تلك المهن وكأنما كنت توثق لها... وبالمناسبة التوثيق في اشتغالاتك الروائية كثيراً ما يلفت انتباهي.. إذ ربما أكون من أكثر قرائك انتباهاً لهذا الجانب بسبب اشتغالي في التوثيق للإبداعات الشفاهية وما يتعلق بها.

رغم إصغائه الشديد إليَّ أجاب.. وكأنه لم يسمعني.. وكأن إجابته إنما جاءت استطراداً لحديثه الذي قطعته مداخلتي عنه: لقد عملت في مهن كثيرة، لا توجد محافظة في مصر لم أبحث فيها عن عمل، عملت سمساراً وبائعاً في محال كثيرة، عملت نجاراً وحداداً وكوّاء، وكنت وأنا كاتب معروف أعمل خياطاً في محل للخياطة، وصورت جانباً من تجربتي هذه في رواية «العراوي» كما صورت جانباً آخر منها في روايتي «زهرة الخشخاش».

السيرة تبدأ من وكالة عطية:

من أكثر روايات خيري شلبي تمثلاً لحياته روايته (وكالة عطية) وقد تم اختيارها من قبل اتحاد الأدباء والكتاب العرب من بين أفضل مائة رواية عربية.. ثم أنتجت تلفزيونياً في مسلسل شهير... هذه الرواية بحثت عنها كثيراً سنة 2005م وأنا في القاهرة.. بذلت لصاحب مكتبة من مكتبات الأزبكية خمسين جنيهاً لأحصل عليها.. ولكنه لم يفلح رغم ترددي الكثير عليه.. ثم وجدتها مصادفة في مجلد كبير يضمها مع كتاب من أطرف كتب خيري شلبي -أعني (رحلات الحلوجي الطرشجي) وحصلت عليها بسبعة جنيهات.

قلت له: لماذا وكالة عطية بالذات؟

أجاب: بالطبع هي رواية مميزة.. أنا عايشت تفاصيل الحياة التي تصورها الرواية.. وتعاطفت كثيراً مع شخوصها.. كانوا أناساً يبيتون في الوكالة واكتشفت أنهم يملكون قيماً وأخلاقاً عليا، كما أنهم ليسوا أشراراً كما يبدون لمن لا يعرفهم أو كما يمكن تصورهم من بعيد، لكنهم مثلنا.. وقد يكونون أحسن منا تمسكاً وحرصاً على شرفهم وقيمهم... كل ما في الأمر أن ظروفهم المادية سيئة، وهم هامشيون لا كيان لهم في المجتمع. رواية (وكالة عطية) تحاول لفت نظر القارئ لضرورة ألا نعامل الناس بالمظاهر.

إنها بمعنى آخر مكان على الورق لإيواء المهمَّشين والصعاليك والأشقياء.

علقت: قد يكون هذا جانباً من جوانب تميز هذه الرواية التي أُحتفي بها ترجمة.. وحصلت على جائزة نجيب محفوظ... لكن أعتقد أن ثمة جوانب أخرى تتعلق ببناء الرواية ولغتها وحسها التوثيقي أيضاً.

قال موافقاً: هي رواية تتحدث عن وكالة تسمى باسم مالكها الأول عطية، والوكالة مكان أثري قديم عبارة عن حوش فيه غرف عديدة موزعة على الدور الأول والثاني، مؤجرة لأشخاص من قاع المجتمع المصري، والوكالة في حد ذاتها آلت إلى شخص يُدعى «شوادفي» الذي بات يديرها بكل مالا يخطر على البال من نصب وإجرام وشر. يأتي ليسكن معهم طالب ريفي ترك دراسته بسبب اعتدائه بالضرب على مدرسه الذي

ظلمه، وفصل بسببه من المدرسة، هذا الطالب يقوم برواية كل ما يشاهده في هذه الوكالة، ويحكي حياة وقصص كل من فيها.. فالراوية فيها من ده على ده.

صالح هيصة...أهم روايات خيري شلبي (في رأيي على الأقل):

(صالح هيصة) أكثر روايات خيري شلبي التي شغفت بها.... هذه الرواية من أهم الروايات التي تموضعت المهمَّشين...كعادة معظم ما كتبه خيري شلبي المنتصر دوماً للمهمَّشين في طبقة القاع (كما يقول التعريف بها).. وهي أيضاً إبحار ممتع في عالم المثقفين وقاع مدينة القاهرة والصعاليك وغُرز الحشيش، ليتحول صالح هيصة إلى شاهد على العصر بأحلامه بانكساراته وانتصاراته والأحلام الكبرى التي لم تتحقق.. يقول صالح هيصة بطل الرواية: «ربنا خلق الدنيا هيصة! وخلق فيها بني آدم هيصة! كل واحد في هيصة!.. بيعمل هيصة! عشان يلحق الهيصة، ويا يلحق يا ما يلحقش!.. وكلهم كحيانين!.. بس كل واحد كحيان بطريقة!.. وأنا ملك الكحيانين!.. عشان كحيان بكل الطرق».

قلت له: ماذا فعلت في هذه الرواية؟ أعتقد أنها عمل فريد.. هذا ليس رأيي ولكنه رأي كل من قرأها.

قبل أن يجيب فتح علبة أنيقة أخرج منها سجائر بنية ملفوفة.. ضحكت ضحكة ذات مغزى يفهمها كل قارئ لخيري شلبي أشهر من كتب عن غرز الحشيش وعوالم الحشاشين.

فقال: لا والله دي سجاير عادية مش اللي في بالك.

قلت ممازحاً: أما القعدة إياها فلا بد منها.

فقال بمنتهى البساطة: دي سهلة خالص.

قلت له: نعود إلى صالح هيصة... لقد قضيت وقتاً أبحث عن قهوة معروف في القاهرة.. قيل لي: إنها هدمت وارتفعت مكانها عمارة شاهقة.

قال بأسى: في رواية صالح هيصة أنا حولت هذه الشخصية إلى شاهد على العصر.. كما قلت لك فقد رأيت وعشت تجارب غير عادية.. تجارب لم يرها الكثيرون،

إنها عوالم غريبة ترى فيها الوجه الحقيقي لتاجر الحشيش وهو يجلس أمامك يقسم قطع الحشيش ويأخذ رأيك في جودة الأصناف وأسعارها، وعندما أتذكر ذلك الآن أستغرب، حتى إن جسمي يقشعر من هذه الجرأة التي كنت فيها.. لقد كنت أعيش مع أناس مطلوبين يبحث البوليس عنهم من سنوات ولا أخشى أن يقبض عليّ معهم إذا باغتهم فجأة!.

قبل أن أسأله عدت بذاكرتي إلى الرواية التي تدور في شارع صغير بوسط مدينة القاهرة حيث تقع قهوة معروف التي يعمل فيها صالح هيصة الشخصية المتمردة على كل شيء...ومن خلال هذه الشخصية تتدفق الأحداث والإحالات، ويتمكن السرد البديع من استخراج كوامن وأسرار المكان والأزمنة التي جرى نهرها على صفحاته.. ليغدو المكان رمزاً معبِّراً عن كثير من المجريات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والتحولات السياسية.. وتتحول ظروف كل شخصية من شخصيات العمل الروائي إلى إدانة جارحة لكل الظروف التي أحاطت بالمكان وناسه.

ثم سألته: لماذا لم تتحول هذه الرواية إلى فيلم؟

نظر إليّ باستغراب قائلاً: هو في سينما عندنا اليومين دول؟!

قلت له: كم تخيلت أحمد زكي بطلاً لها.. وكان جزءاً من الأسى الذي أشعر به دائماً إزاء رحيله هو عدم تحقق ما تخيلته.

قال خيري شلبي: الله يرحمه...كان فناناً كبيراً.

قلت: أنت تنفي أن تكون في سينما حقيقية هذه الأيام.. ولكن السينما حولت قصتك (سارق الفرح) إلى فيلم رائع.. لا أنسى القرداتي حسن حسني ودوره في ذلك الفيلم... بالمناسبة ثمة شبه بينك وبين حسن حسني.. كلاكما أخذ شهرته الواسعة بعد أن تقدم في العمر.. أنت ذات مرة سميت حسن حسني بـ(القشاش).

ارتسمت على وجهه علامات استغراب أو حيرة دون أن يعلق.. كنت أفكر أن المقارنة بحسن حسني تضايقه.. فيما بعد قلت للشاعر مُحَّمد العابد: هل تذكر كيف استغرب خيري شلبي عندما ذكرت له وصفه لحسن حسني ؟ قال: نعم.

بعد بحث في الذاكرة قلت للعابد: أريد أن أتاكد.. لعلي نسبت لخيري شلبي كلاماً قاله غيره... وبالفعل وجدت أن الكاتب الراحل موسى صبري هو الذي وصف حسن حسني ب(القشاش) أما خيري شلبي فقد وصفه ب(المنشار) والوصفان وردا في مقالة عن حسن حسني في موسوعة ويكيبديا.

بيئات وتجارب = أسلوباً مختلفاً:

من أكثر ما كان يشغلني.. بل يعجبني جداً في خيري شلبي لغته... إنها لغة لا تشبه لغة أحد.. بل هي حفر في المفردات والاشتقاقات وطريقة خاصة في التعبير والتصوير وبناء المشاهد.. والقدرة على الإيحاء الذي لا يحد.

عبَّرت له عن هذا فقال: أنا محمّل ببيئات لا حصر لها وحصيلة من التجارب أفادتني في تناول طبيعة الشخصية المصرية وطريقة التعبير عنها باللغة..التي لم أكن لأتمكن منها لولا قراءاتي المتعمقة لأدب السير الشعبية والفلوكلور المصري.. أنا ابن ألف ليلة وليلة وابن الملاحم الشعبية، كانت هذه الملاحم أول ما قرأت في عالم الخيال الأدبي، والسير الشعبية... بعدها عندما نضجت أكثر قرأت الأدب الأوروبي مبتدئاً بدون كشوت لسرفانتس وهي تشابه سيرة عنترة بن شداد الفارس المغوار، وقرأت غيرها مثل قصص الديكاميرون التي كتبها بوكاتشيو الإيطالي تقليدا لألف ليلة وليلة... كنت دائماً أشعر بأن بضاعتنا ردت إلينا وأننا أساتذة العالم في القص والحكي، وإن كان للغربيين الفضل في ابتداع تكنيكات جديدة في بناء الرواية والتعامل مع الزمن وكيفية تقديم الشخصيات وغير ذلك.

كلام شلبي تؤكد عليه رواياته ويؤكد عليه نقاده.. فقد اخترع أسلوباً مختلفاً في الرواية.. ونجح بشكل كبير في سرد الحياة بلغة مختلفة تشبه تلك الحياة التي عاشها... فكما

أن حياته كانت مزيجاً من التجارب كذلك كتابته كانت أيضاً مزيجاً من التجارب في اللغة، في المعجم، في استدراج الفصيح إلى عوالم العامية، وسحب العامية إلى عوالم الفصيح.

اعتزال المثقفين.. أهم نصائح شلبي:

مرة أخرى عدت لاستعراض أسماء الكتب التي قرأتها له أكثر من ثلاثين كتاباً سردتها له.. وهو يسمعني غير قادر على إخفاء مشاعره التي كانت مزيجاً من الزهو بحضوره في وجدان القارئ.. وهو حضور يتسع يوماً بعد يوم.. والدهشة من معرفتي العميقة بكتاباته... فهو حتى الآن لا يصدق أن أحداً قرأه بهذا الشكل... فيما بعد عندما شاهدت الحوار على الكومبيوتر اكتشفت أنني أخطأت في تسمية أحد كتبه.. وبدلاً من كتاب (منامات عم أحمد السماك) قلت (منامات عم أحمد السقا) أذكر أن تعبيراً لاح على وجهه ولكنه لم يشأ أن يصحح لي بعد استعراضي الفرح لأسماء كتبه التي قرأتها.

قلت له: أكثر من سبعين كتاباً يا عم خيري.. كيف كنت تنظم وقتك؟

أجاب: السر في العزلة والبعد عن الناس...خاصة المثقفين والكتاب.. وهي نصيحة مني لك.. إذا أحببت أن تكتب وأن يكون لك إنجاز كبير ابتعد قدر الإمكان عن الوسط الثقافي... في عالم المثقفين ستتكاثر عليك العداوات والقيل والقال، وستجد نفسك تكرر ما يقولون ويكررون ما تقول.. ولن تتخلص من النميمة ووجع القلب.. أنا عشت بعيداً عن الناس حتى أنجز مشروعي الإبداعي والثقافي... عشت وسط مجمع مقابر في القاهرة، وهي تجربة إنسانية منحتني الدفء الذي افتقدته خاصة بين المثقفين، فضلاً عن مجموعة من القيم أهمها أن الحياة مؤقتة ولا بد من إنجاز شيء خلالها.. ولا تنسى أن الموت محفز مهم على الإنجاز.. الإحساس بأن الموت قادم يستنفر إمكانات الإنسان وقدراته في أن يفعل شيئاً قبل رقوده الأخير..

قلت له: يذكرني كلامك هذا بكتابك (موال البيات والنوم) بذلك الشاب الذي هو أنت رغم كل مواضعات السرد هو أنت... ذلك الشاب الذي أتى بفطرته الأولى إلي القاهرة ثم وجد نفسه عاجزاً عن الحصول علي مكان يؤويه بل حتى علي ما يسد رمقه..

فيظل لأيام يبحث عن كسرة لا يجدها.. لا يجد الأصدقاء وإن وجدهم فسيئات الاحتكاك بهم هي ما يجنيه.. إنها تجربة عميقة نجحت في التعبير عنها.. بل هي كما أعتقد سيرة ذاتية بالغة الأهمية.

أمّن على كلامي وقبل أن يتكلم حانت منه التفاتة إلى الساعة فارتسم الانزعاج على وجهه وفهمت أن الوقت قد انتهى.. إنها السادسة حيث تبدأ مشاركته في إحدى الندوات كما قال لنا..

قلت له: إذن نستأذنك أيها المبدع الكبير فقد أسعدنا اللقاء بك ونرجو ألا نكون قد أثقلنا عليك.

قال: بالعكس دا انتو نورتو...وأنا سعيد بناس وشباب زيكو..

ودعته وودعه رفيقاي الشاعران مُحَّد العابد وعلي جاحز.. غادرنا كافتريا المجلس الأعلى للثقافة متجهين إلى جاردن سيتي حيث أسكن أنا ومُحَّد العابد ونحن في أعلى أعلى عليين النشوة.. فقد تم لنا اللقاء الذي كنا نتمناه.

استأجرنا تاكسياً.. انطلق بنا إلى جاردن سيتي ونحن لا حديث لنا إلا كيف تحدث خيري شلبي وماذا قال... بعد أن نزلنا من التاكسي فاجأنا الشاعر علي جاحز قائلاً: فضيحة كبيرة يا جماعة!! المشاريب التي شربناها قبل أن يأتي خيري شلبي، والمشاريب التي شربناها معه لم نحاسب عليها.. لقد نسيتم دفع الحساب.

شعرت.. بل شعرنا جميعاً بأن برميلاً من الماء البارد جداً قد انسكب على رؤوسنا.. شعرت بفتور مرير... وتخيلت أن الانطباع الجميل الذي تركناه في نفس الرجل سيتحول فوراً إلى لعنات تلاحقنا كلما خطرنا على باله..

كان كل منا ينحي باللائمة على نفسه.. لقد طلبنا عصيراً وبناً أكثر من مرة وعزمنا على خيري بفنجان من القهوة لا غير.. ثم تركناه يتحمل الحساب كله.. الشاعر علي جاحز كان لا بد له أن يعود فوراً إلى أسرته في أرض اللواء... ركبنا التاكسي الذي

يقله.. ورغم تأكيده لنا أنه سينزلنا بالقرب من المكان إلا أنه أنزلنا بعيداً عنه.. فرحنا نجري لاهثين أنا والشاعر مُحَمَّد العابد حتى دخلنا الكافيتريا واتجهنا صوب المحاسب..

قال لنا: الأستاذ خيري حاسب...

كم كان الحساب؟

قال: أربعين جنيها.

قلت له: كان يجب أن نحاسب نحن... والآن نحن في ورطة.. سيظن الرجل أننا دعوناه ثم حمَّلناه حساب مشروباتنا التي لم يطلبها هو لنا.

قال: خلاص... ما فيش فايدة.. هو حاسب وخلاص.

قال الشاعر مُحَمَّد العابد: نحن سنعطيك الحساب.. وأنت بذمتك وأمانتك تعيد إليه فلوسه.. وتفهمه بالغلطة اللي حصلت. وتبري ذمتنا أمامه.. وأنا متأكد أنك ستفعل ذلك..

كان مُحَمَّد العابد يقول هذا الكلام في نفس اللحظة التي وقف معنا أحد العاملين في الكافيتريا الذي ما أن فهم الموضوع حتى قال: خيري شلبي موجود فوق في ندوة بالدور الثالث..

يااااااااه... انزاحت غمة عن أنفسنا.. وفرَّج الله علينا.

ذهبنا إلى المصعد جرياً، ثم دلفنا إلى القاعة التي تقام فيها المحاضرة فدخلنا وخيري شلبي يتحدث.. كان يلقي كلمة عن الكاتب الراجل مُحَمَّد جلال.. أثناء متابعتنا له.. كانت أنظارنا مركزة عليه كأننا نريد أن نقول له: ها قد رجعنا لتصحيح الوضع ودفع الحساب الذي نسينا دفعه... وكان نظره أثناء ذلك يقع علينا مراراً.. همس العابد في أذني: الآن يقول في نفسه: يا بجاحتهم، وكمان ليهم وش يبصوا ليا.

لم يصبر العابد.. فما أن أتم خيري شلبي كلمته حتى صعد إليه إلى المنصة وناوله ورقة كان قد كتب فيها: أستاذنا الكاتب الكبير خيري شلبي.. نأسف ونعتذر بكل شدة..

فقد نسينا دفع الحساب.. وها قد عدنا فدفعناه... نرجو أن تمر بالكافيتريا لتأخذ الفلوس التي دفعتها.. ونعتذر جداً لهذا الخطأ.. مع خالص احترامنا وتقديرنا.

قرأ الورقة بتركيز بالغ ثم قال: خلاص أنا دفعت والله.. فقلنا له بصوت واحد: آسفين يا أستاذ.. احنا دفعنا وحقك تأخذه من الكافيتريا.

تبلجت أساريره وهو يؤكد أن ما فيش مشكلة.. ونحن نؤكد على اعتذارنا.. والقاعة التي لم تفهم شيئاً مما بيننا وبينه تضحك وتستغرب، وكان بين الضاحكين المستغربين الكاتب الكبير يوسف القعيد.. الذي كنا قبل لقائنا بخيري شلبي قد قصدناه في ركنه الذي يجلس فيه وسلمنا عليه.. وتحدثنا معه حديثاً قصيراً..

حضرنا جزءاً من الندوة ثم عندما حان وقت الاستراحة انصرفنا مبتهجين.

قلت للعابد: رب ضارة نافعة.. بعد هذه المفارقة التي ارتبطت بلقائنا الأول معه.. لن ينسانا خيري شلبي بقية حياته.

يحيى عوض..
الشاعر الذي دخل بقصيدة وخرج بقيدين

هو واحد من الشعراء الذين قدموا صورة حقيقية وناجحة لمواجيد الإنسان اليمني خلال الـ50 عاماً الماضية، كما أنه واحد من الشعراء المهمين في التاريخ اليمني كله. وهو واحد من مبدعي زبيد الذين تذكِّرنا توهجاتهم الفنية بأن زبيدًا، رغم كل ما نالها من تجفيف وتيبيس وزحزحة كاملة عن صفتها كأهم مراكز العلم والثقافة في تاريخ اليمن، لا تزال فيها عروق تنبض بدماء معطاءة.

ولد الشاعر يحيى عوض مُحَمَّد الحداد، في مدينة زبيد سنة 1942، وتلقى تعليما نظامياً وصل به إلى الصف الرابع الابتدائي، قبل أن يلتحق بالمدرسة العلمية في جامع الأشاعر، حيث كان من شيوخه فيها أحمد علي السادة وعبدالله بن زيد المعزبي. تتلمذ أدبياً وإبداعياً على الشاعر الكبير عبدالله عطية، وارتبط كثيراً بخاله قاسم عمر محرقي، حتى نسب إليه وعرفناه نحن بلقب "المحرقي" لا بلقب "الحداد"، ومن خاله تعلم مهنة المحاماة، فقد كان خاله يمارس الوكالة في المحاكم للمتخاصمين. ويدل ما كتبه المؤرخ عبدالرحمن الحضرمي في كتابه "الحركة الأدبية في تهامة 1948-1990م"، أن الرجل كان من ذوي النبوغ المبكر، فقد برز في مهنة المحاماة، و"أجاد ممارستها"، وخبر خفاياها وخباياها "حلاً وتعقيداً أثر على نفسيته"، كما يقول الحضرمي. وكان نبوغه في المحاماة يتوازى مع نبوغه الشعري، وتأهيله الثقافي والعلمي، ليكون مدرساً بمدرسة الفوز بزبيد، على شروط التعليم في ذلك الوقت، لا على شروط التعليم اليوم. كل ذلك وهو يداحف الـ17 من عمره (حصل فيما بعد على معادلة من وزارة التربية والتعليم بليسانس في علوم الشريعة الإسلامية واللغة العربية).

وسمات يحيى عوض التي يعبِّر عنها ذكاؤه في التحصيل العلمي والثقافي، ونبوغه الشعري المبكر، لا تنفصل عن سمات أخرى سترتبط برحلته في الحياة والإبداع والنضال الوطني والجهاد التربوي. وأهم ما أقصده هنا سمتان، هما: الحدة والميل إلى المواجهة، فقد لازمت تكوينه الأول فلتات تمرد ووعي ثوري تقدمي طامح، وكان في أوج سن المراهقة حين فر إلى عدن هارباً من أمر اعتقال أصدره في حقه نائب الإمام آنذاك، بتهمة الشيوعية. وهناك تعرَّف على مجتمع ثقافي أكثر انفتاحاً واتصالاً بالعالم، وانتخب عضواً في الهيئة الإدارية للاتحاد اليمني، التي تشكلت بعد انسلاخها عن قيادة الزبيري والنعمان، إثر الحركة التي قادها علي مُحَمَّد الأسودي، والشاعر علي عبدالعزيز نصر، وزملاؤهما ممن كانوا يؤسسون لحزب القوى الشعبية. كما مارس التعليم في إحدى المدارس العدنية، مدة تزيد على سنتين، قبل أن يعود إلى زبيد نهاية عام 1961م. وبعد أقل من عام، وصل إلى صنعاء على رأس وفد من أعيان ومشائخ زبيد، لمساندة التغيير الذي استجد بقيام ثورة 26 سبتمبر 1962م، ودوى صوته بقصيدة أمام الرئيس عبدالله السلال، فأصدر أحمد المروني، وزير الإعلام آنذاك، توجيهاً بضمه إلى فريق المذيعين في إذاعة صنعاء، لكنه لم يمكث فيها أشهراً حتى عاد مرة أخرى إلى زبيد.

الملاحظ هنا أن الشاعر يحيى عوض لم يصمد طويلاً في عدن حين ذهب إليها سنة 1959م، على ما توفره عدن وقتها من ميزات مثالية لمبدع طامح مثله. كما أنه لم يصمد طويلاً في صنعاء بعد انضمامه للثوار، وعمله مذيعاً بالإذاعة سنة 1962م، على ما كان يمكن للإذاعة أن توفره من شهرة له.. ناهيك عن الفرص الكثيرة في المناصب والأسفار والتكريس الأدبي التي يفترض أن يحظى بها نابه مثله في ذلك الوقت المبكر. والعلة في ذلك طبيعته التي تأنف الخضوع والمجاراة، وتأبى الضيم والظلم والإجحاف، وهذا هو سبب تركه صنعاء، وقد تعرض لظلم وعسف واضحين أثناء عمله في إذاعة صنعاء. كان عليه أن يغطي بثاً خارجياً للإذاعة صباح العيد، وقد أمره سعد غزال، مشرف الإذاعة المصري، أن ينتقل إلى بث خارجي بمجرد سماع ونانات موكب الرئيس عبدالله السلال،

الذي يقع بيته خلف الإذاعة، ونفذ المهمة، فما إن سمع الونانات حتى أعلن للمواطنين انتقال البث إلى الجبانة، لنقل شعائر صلاة العيد التي تقام بحضور رئيس الجمهورية، وقام بالتغطية، ولكنه اكتشف أن صوت البث منعدم تماماً، ليس سوى وشوشة الهواء، وراح ومعه آخرون يتفقدون أجهزة البث، محاولين فهم المشكلة دون جدوى، فاضطر للاعتذار للمستمعين، وواصل بث البرنامج العادي. بعد ساعة فوجئ بجزمات عسكرية تهز الأرض وتدق أبواب الاستديوهات، وعرف أنهم جاؤوا بأوامر من الإدارة للقبض عليه (كان مدير الإذاعة وقتها الشاعر عبدالله حمران)، وصدمه أن في انتظاره قيدين حديديين، وأمراً صارماً: قيدوا أبوه...

وانفجر يحيى عوض ضاحكاً..

قال الآمر: لماذا تضحك؟

ورد يحيى عوض: لقد بح صوتي منذ الأمس، وأنا أقرأ الدستور اليمني المؤقت: لا جريمة إلا بنص ولا عقوبة إلا بعد محاكمة عادلة.. أريد على الأقل أن أعرف جريمتي..

وصاح الآمر: لا بد من القيد.. قيدوا أبوه..

تم تقييده وأودع السجن. وبعد أسبوع استدعاه الشاعر عبدالله حمران، ليعتذر له، فقد صادف لحظة انقطاع البث الخارجي صباح العيد، اكتشاف محاولة انقلابية على الرئيس عبدالله السلال، وساد الاعتقاد عند القيادة أن المذيع يحيى عوض قطع البث عمداً لاشتراكه في تلك المحاولة. لكن الشك في عوض تبدد بعد أن عرفت الإدارة أن ميكرفون الإذاعة كان مربوطاً بخط تلفون مقطوع، وأن لا دخل له فيما حدث. أما محاولات حمران للاعتذار له فقد باءت بالفشل، كما باءت بالفشل محاولات إقناعه بالبقاء مذيعاً في إذاعة صنعاء. وظل عوض يتندر بالحادثة كلما رواها، مقدماً لها بهذه الجملة المعبرة عن غرابة المفارقة فيها: دخلت إذاعة صنعاء بقصيدة، وخرجت منها بقيدين.

قبل مشاهدتي للشاعر وهو يروي قصته مع الإذاعة في برنامج وثائقي أنتجته قناة "السعيدة" عنه، كنت أحاول تفسير سبب تركه العمل في صنعاء، بغواية مدينة زبيد التي

تصر دائماً على استعادة شاعرها، ثم أحاول تفسيره بانتمائه إلى تيار ما (يساري مثلا)، حتَّم عليه العودة للاستفادة منه في تنظيم واستقطاب عناصر جديدة. وكنت شبه متيقن أن معظم السبب يكمن في قلق الشاعر وحدّيّته وصداميته التي لا يمكن أن يتحملها منه الآخرون كما يتحملها منه أهل مدينته ومسقط رأسه، وأنه كان يشعر في صنعاء، كما في عدن قبلها، أن حدته التي تقوده للاصطدام بالآخرين، تكسبه عداوات، وتقوده إلى خوض صراعات قد تكون مؤذية، لأنه بغرارة سنه –وقتها– يخوض صراعاته بعيداً عن روافعه الاجتماعية، عريّاً من ظهر يحميه، ومن مكانة في المكان يستجنّ بها.

كنت أضع تلك الاحتمالات دون معلومات تؤكد أو تنفي، وهذه إحدى مآسي كسلنا حيال التوثيق، فلطالما التقيت بالأستاذ يحيى عوض، خلال السنوات الممتدة بين 1997م و2010م، دون أن أفكر في الانفراد به ساعة من زمن، أسجل فيها منه ما يفي بغرض الكتابة عنه، وقد جاء وقت الكتابة عنه بعد أن حال مرضه دون إمكانية الاستيضاح منه.

***

لكن جوانب أخرى كثيرة من حياة الشاعر الكبير، تبقى خافية، يجري خفاؤها إلى القول مرة أخرى: لا معلومات تؤكد أو تنفي، لكني أقارب وأتأول منطلقاً من خيوط واهنة أوردها المؤرخ الحضرمي في ترجمته لعوض، ومنها نفهم أن مكانة أستاذه الشاعر الكبير عبدالله عطية، كانت مثار إعجاب، ومثل إعجاز له، وأنه كان يطمح لتجاوزه. وهنا يجب التذكير بأن اللحظة التي انبثق فيها وجود يحيى عوض الإبداعي والاجتماعي والنضالي، كان أستاذه عطية يجلس على عرشين في زبيد: عرش الزعامة الشعرية والثقافية والريادة في مجالات التنوير والتحديث، وعرش المكانة الاجتماعية والوظيفية والحال الميسور. وهذا موقع وصل عطية إليه بعد رحلة شاقة تميزت بالعصامية والدأب والمثابرة والصبر والاجتهاد. ومعنى هذا أن مزاحمته في مكانته الرمزية أدبياً وثقافياً واجتماعياً، ليست أمراً سهلاً بمقدار ما تدل على طموح مميز عند من يفكر فيها، وهو طموح يجب أن يعطى حقه من التقدير.

وفي ظني أن حدية عوض، واصطدامه بالنظام الإمامي، ثم هروبه إلى عدن، وبعدها انضمامه إلى ثوار سبتمبر، واشتغاله في إذاعة صنعاء.. تمكن قراءتها في سياق ما كان يموج به الوضع اليمني العام في ذلك الوقت، وينخرط فيه المبدعون -من مناطق اليمن المختلفة- شعراً وممارسات ثورية. كما تمكن قراءته بوصفه ممكنات كان يلجأ لها عوض من أجل لفت نظر زبيد إليه، وإشعارها بأنه يمكن أن يكون قطباً في المدينة كأستاذه. حتى انتماءاته الأيديولوجية في عوالم اليسار، يمكن أن تقرأ بالمثل، وعلى نفس المنوال، دون أن تنفي القراءة الأخرى. وإذا كان عوض حصل من زخم عوالمه الشعرية على أجنحة جعلته يضارع أستاذه إبداعياً، ويتجاوزه حداثة، بل يتفوق عليه شعبية وجمهوراً، فإنه كان يحاول من خلال المتكأ الأيديولوجي، أن يشكِّل إدارة استقطاب يتوسع بها حضوره الاجتماعي والسياسي، بما يؤهله ليكون منافساً لأستاذه، لكن الصراع في بعده الخاص بالنفوذ الاجتماعي والسياسي، لم يكن متكافئاً، فقد كان عطية رجلاً محنكاً، وكانت علاقاته أوسع، ومكانته أكثر رسوخاً. وقد ردّ الحضرمي ذلك إلى أن يحيى عوض "لم يحدد نوعية مسيرته كما حددها أستاذه بعد تجاربه". وإذا صح أن رأي الحضرمي يعبر عما شاع بين أهل زبيد من وجهات نظر في صراع الرجلين، فإن معنى كلامه يذهب إلى قلق عوض وتقلّباته وحدِّته وصداميته، مقابل ثبات عطية ومثابرته على مشروعه.

لكن الصراع نال من يحيى عوض، وتحول عنده، كما عند أستاذه، إلى نوع من العناد، كما نال صراع الرجلين من زبيد أيضاً، وهذا ما عناه الحضرمي حين قال: "فازداد تعقيداً -يقصد يحيى عوض- أدى إلى صراع مستمر مع أستاذه، كل يريد أن يكون (أنا)، لم تستفد منهما زبيد سوى التمزق والشتات بين الشباب".

ولعل حدِّة عوض كانت دائما تحول بينه وبين التواؤم مع المحيطين به في كل حالاته، سواء ما يذكره الحضرمي عنه، أو ما استنتجناه من عدم بقائه في صنعاء أو عدن. فبعيداً عن صراعه المباشر مع أستاذه عطية -وإن كنا نستبعد أن يكون ذلك بعيداً

بالفعل- فقد رأس عوض نادي السلام الرياضي والثقافي في زبيد، قال الحضرمي: "وسرعان ما حدث انشقاق بينه وبين الإداريين والأعضاء، أدى إلى التمزق".

وفي زحام الصراع مع أستاذه على مدى عقود الستينيات والسبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي، اشتغل يحيى عوض منذ سنة 1964م، تربوياً وموجهاً لمدارس زبيد وبيت الفقيه، ثم موجها لمدارس زبيد فحسب، وعضوا في الحزب الديموقراطي الثوري اليمني، وفي السبعينيات كان عضواً في الهيئة الإدارية للتعاونيات، وعضوا في المنظمة القيادية للحزب الاشتراكي اليمني بمحافظة الحديدة، وفي الثمانينيات كان مؤسساً في المؤتمر الشعبي العام.

أما على الجبهة الأكثر اتقاداً في صراعه مع أستاذه، وهي الجبهة التي تمثل القيمة الاعتبارية الأعمق لوجوده، فقد ساهم عوض في الاعتمالات الأولى للتفكير بإنشاء اتحاد وحدوي للأدباء والكتاب اليمنيين، حسب منشور في صفحته على "فيسبوك"، بتاريخ 20 مايو 2013م، ثم ساهم فيه عضوا مؤسسا وعضوا في المجلس التنفيذي، كما يقول تعريف به على الغلاف الأخير من مجموعته الشعرية الوحيدة "هو الحب"، ثم أميناً للحقوق والحريات في الأمانة العامة 2005-2010م، كما نعرف جميعاً. وكانت دورات صراعه مع أستاذه على المكانة الأدبية، تبدأ من المقايل، وتحتدم في هيجانات المهرجانات الوطنية والأمسيات والفعاليات المختلفة التي كانت تقيمها المراكز الثقافية والأندية الأدبية في زبيد، وقد تمتد إلى خارجها. وبإمكاننا أن نتصور الاحتفالات التي كانت تقيمها مدارس زبيد في مناسبات تخرج دفعات حملة الشهادة الابتدائية، بعد ثورة سنة 1962م مباشرة، والتي كان يطلق عليها "يوم العلم في زبيد"، وكيف كانت تتحول إلى معارك تستنفر فيها كل طاقات الرجلين إبداعاً وإلقاءً من أجل تأكيد الذات ومكانتها، والنيل من الآخر.

غير أن الطرق لا تفترق بالمبدعين الكبيرين طوال الخط، يذكر الحضرمي في كتابه "تهامة في التاريخ"، أن عوض حين ترك العمل الإذاعي في صنعاء، وعيِّن موجهاً بالتربية والتعليم في زبيد، استخرج لأستاذه عطية قراراً بأن يكون مديراً لمدارس زبيد. وهذا يدلّ على أن الصراع بينهما كان في بداياته، أي في مرحلته الناعمة التي لا نعدم أن نجد لها

أشباهاً ونظائر في أماكن أخرى، كان يحلو للبردوني أن يوصّف علاقة شوقي بحافظ، أو العقاد بطه حسين، أو أم كلثوم بعبدالوهاب، أو حتى علاقته هو بالمقالح، بكونها "ود ينطوي على كراهية، أو كراهية تنطوي على ود".

حتى بعد تواتر الصدامات بينهما، ظلت هناك قواسم تجمعهما، خاصة حين يتعلق الأمر بالشأن الوطني العام، ففي هذا الميدان كثيراً ما وجدا نفسيهما "في الهم شرق"، أو "في الهوى سوا"، أو كما قال الشاعر إسماعيل مخاوي:

في سورة الابتلاء المر وفي المعاناة أنداداً وأشباها

جمع المعتقل بينهما سنة 1965م، في الحديدة، بسبب انخراطهما في نقد استمرار الحرب، وسجنا معاً في حركة القوقر المطالبة بحقوق التهاميين، سنة 1967م، رغم أن سياق ما يذكره الحضرمي عن الحدثين كليهما كان يُظهر عطية أطول باعاً في الفعل والمبادرة، بحكم وزنه ومكانته السياسية على الأقل -كتفسير عام- وبحكم وقوف عوض منه موقف التلميذ أيضاً.

ذكر الحضرمي في كتابه "تهامة في التاريخ"، أنه إثر خروج الشعراء عبدالله عطية، وعلي سعد الحكمي، ويحي عوض، من السجن، سنة 1965م، سأل عوضُ عطيةَ: هل ستقول شعراً بمناسبة عيد الثورة؟

وجاء رد عطية فورياً:

جلالها للمعاني لا ولا الكلمُ أوحت إلي ولكن هذه العظمُ

فيم التساؤل هل لا زلت شاعرها وملء جنبي هذا الشدو يضطرمُ

ذكرى يقدسها شعبي أعظمها؟ إذن أنا صخرة صمّا، أنا عدمُ

ظنوا البلابل لا تشدو إذا جرحت أحلى الأغاريد ما أوحى به الألمُ

إلى آخر القصيدة التي وصلت أبياتها 44 بيتاً.

وهو جواب يدل على تفريق عطية بين انحرافات السلطات الثورية، وبين الثورة كفكرة مثالية أتاحت إمكانات للتغيير، وتحتاج مساندة المؤمنين بها كي تتغلب على محاولات المتسلطين الجدد حرفها عن مسارها، وذلك ما تؤكد عليه الأبيات التالية:

فيم التساؤل يا ابن الشعر عن أدبي	**غيري بمنعرجات الدرب يصطدمُ**
الشعب أعلنها حراً وأطلقها	**قذائفاً ضد من عاثوا ومن ظلموا**
وهو الذي سوف يحميها مكاسبه	**كي لا يعيث بها مستهتر قزمُ**

في حين يدل سؤال عوض على موقف يربط شرطياً بين تجربة المعتقل التي آلمه بها النظام الحاكم، وبين الثورة التي يحكم باسمها ذلك النظام، وهو ربط يعيدنا إلى سمة الحدية في شخصية عوض، وهي حدية ترى أن ما عاناه مع رفاقه في المعتقل، لا يدل على انحراف النظام الحاكم باسم الثورة فحسب، بل يدل على انحرافها هي أيضاً. ولعل هذا ما أكدته تجارب السنوات اللاحقة، ولم يتخل عوض عن الهجس به، فحين خاطب عوض الشباب 1966م، بقصيدته "رسالة جريئة"، كان يعبر عن ذلك المعنى ضمن مضامين أخرى استحرت بها لواعجه:

سواي على التضليل والدجل أقدر	**وغيري بتزييف الحقائق أخبر**
تعودت أن ألقى المواقف واضحاً	**كوجه النهار الصحو لا يتغير**
أيغفر لي شعبي؟ أيمنحني الرضا	**ضميري؟ وقد باركت ما بت أنكر**
فلم نأتِ كي نعطي الفساد ولاءنا	**ونسجد إكباراً غداة يزمجر**
ولم نأتِ كي نضفي على الليل حلة	**الصباح وملء الليل بغيٌ ومنكر**

مع ذلك، وبغض عن تباين موقفي الشاعرين من الحدث، واختلافهما في فهمه وتفسيره، فإن توجيه عوض السؤال لأستاذه يمكن فهمه كمحاولة للاسترشاد برأيه، ومعرفة

تأثير التجربة على نفسه. كما يمكن فهمه بوصفه محاولة استفزازية تؤكد على ما بين الرجلين من خلاف في الرأي والرؤية. وفي هذه الحالة تمكن قراءة الموقف بينهما بوصفه حلقة من حلقات الصراع الذي يتبدى صريحاً حينا، ومموها حينا آخر. وهذا كثيراً ما يحدث بين الأساتذة الكبار وتلاميذهم النابهين، وكان يحدث بين شيوخ التصوف ومريديهم المميزين (شمس الشموس أبو الغيث بن جميل وتلميذه الباهوت أحمد بن علوان).

وبسبب غياب الرواية لموقف مشابه يضيء ردة فعل الرجلين على ما نالهما في الحركة الاحتجاجية المعروفة بحركة القوقر التي قام بها أبناء تهامة سنة 1967م، فإنه يتعذر قراءة العلاقة بينهما من خلال الحدث بشكل واضح. غير أنه يمكن القول بأن يحيى عوض كان جزءاً حياً من وقودها، لكن عطية كان من صنَّاعها، وأحد قادتها، وعبارة الحضرمي في كتابه "تهامة في تاريخ" تفصح عن ذلك فيما هو يترجم ليحيى عوض: "وسجن في حركة 1967م التي قام بها مُحَمَّد يحيى منصر، مع عطية وعلي سعد، ومجموعة من شباب بيت الفقيه والحديدة".

بعد سنة 1967م، سيفترق خطاهما على نحو واضح. سيزداد تحقق عطية من خلال قوته ومناصبه في زبيد، ومن خلال علاقته بالسلطة ورجالها في صنعاء، وتحالفاته مع القوى التقليدية ذات النفوذ الواسع في تهامة، وكل ذلك سينضاف إلى حضوره الأدبي القوي الذي راح يتكيف وفق ظروف المرحلة ومقتضياتها التي يجدها مقنعة له ومستجيبة لقطاع غير منكور الحضور من جمهوره في زبيد وخارجها، وسيحصل على التقدير الرسمي بنيل وسام الآداب والفنون من رئيس الجمهورية سنة 1989م.

وعلى خط موازٍ، سيتبلور عوض شاعراً كبيراً واسع الشعبية، تلهج ألسنة الناس بأشعاره المستجيبة لأوجاع المكدودين والمقهورين، وأحلام الشباب الطامحين، والمعبرة عن السخط على الأوضاع والحاكمين، والمستلهمة لمعاناة المناضلين من أجل وطن أجمل وغد أفضل. وهذا، إلى جانب تطور تجربته في اتجاه الحداثة شكلاً ومضموناً، ناهيك عن سماته الشخصية، جعله مثالاً رائعاً لأكثر شعراء زبيد الذين جاؤوا من بعده، فقليلاً ما تحاشت

تجربة تالية الاستفادة من تجربته بشكل أو آخر. وكان نضاله ضد عنجهية المتسلطين، والتزامه بقضايا الناس، واستعداده الدائم لدفع الثمن، يجعله ملهماً حقيقياً للشباب. وفي واحد من "ثلاثة مقاطع أوحتها زنزانة السجن المركزي للأمن الوطني بالحديدة عام 1982م"، يصور يحيى عوض بشكل دقيق ما كان يعانيه المعتقلون السياسيون من صنوف التعذيب والتدمير النفسي، لكنه يعدها صلاة مميزة الطقوس:

ويا أحباب
خارج هذه الجدران
أسعدتم مساءً واقرأوا أم الكتاب
ولا تصلوا قبل أن آتي
فإن السجن علمني صلاة لم تصلّ بعد
صلاة تبتدي في الساعة الأولى
من النصف الأخير من المساء
وتنتهي عند الصباح
على صدى وقع السياط
ورعشة الأجسام
تحملها مقوسة الظهور
تلاصق الركب الذقون
وسائل الصلب الذي ابتدعته
آخر بربريات الزمان الصعب

ولعل صموده وتجليات روحه الإبداعية في تلك الظلمات، وعدم انحنائه لوسائل الإخضاع المختلفة التي تناوبته، هي ما جعله هدفاً لحادث سير غامض بتاريخ 1983/8/3م، كاد يودي بحياته، وظل أياماً إثره لا ينطق، ولا يعرف أحداً، قبل أن

يستقر شهراً في مستشفى الثورة بصنعاء، لينقل من ثم إلى ألمانيا مرتين للعلاج. وقد فاحت من الحادث شبهة محاولة للتصفية، وثارت حوله تساؤلات كثيرة، حسب ما أورده الحضرمي في كتابه "الحركة الأدبية في تهامة". واستعاد المناضل العتيد صحته بعد معاناة طويلة زادت على العامين، فإذا به يَزُوْكُ ويتحدى كما كان:

لا تقولــوا هــد الزمــان قــواه   لم يــزل بســمة الضــحى ورواه
لا تقولـــوا تخرمتـــه الليـــالي   فالليـــالي في قبضـــتيه أمـــاه
لا تقولــوا خبــا بريــق أمانيــه   وشـــدت إلى الأســـى رئتـــاه
لا تقولـوا مـا زال يلتحـف الغيم   كنســـر لم تنعطـــف قـــدماه

الشاعر يحيى عوض
معلم الأجيال والوطن والحب

عند مطلع السبعينيات من القرن الماضي تحديداً في تاريخ 24 / 4 / 1971م أنجز الشاعر يحيي عوض درته الخالدة " أنا المعلم ":

أيقظـت علـى زنـدي الفجـرا ... وحملـت إلى الـدنيا البشـرى
وسـفحت نضـارة أيامـي ... كـي أزرع حقـلاً في الصـحرا
ومشـيت وجرحـي في كبـدي ... يتنـزى.. أسـتبق العمـرا
لا أخشـى إلا أن أفـنى ... والبـذرة لم تطلـع زهـرا
وبجسـمي قطـرات دمـاء ... قـد تصـلح زيتـاً أو حـبرا
عمـري ؟ أتمـنى لـو أدري ... كـم مـن سـنواتي مـرّا
لا أذكـر إلا أن يـدي ... قـد صـنعت مـن رمـل تـبرا
وأمـرّت سـحر أناملهـا ... بالصـخر فأنطقـت الصـخرا
وتسـامت فالـدنيا أمـلٌ ... ينـدى..وشموس تتعـرى
والجـدب جنـان وارفـة ... والفقـر فـراديس خضـرا
والبـؤس رخـاء تتمطـى ... الآمـال بعينيـه سـكرى
واليـأس طمـوح خـلاق ... لا يعـرف عسـفاً أو قهـرا
كـم ليـل عشـت مقاطعـه ... اسـتلهم أنجمـه السـهرى
كلمـات أوبعـض حـروف ... أنظمهـا شـعراً، أو نثـرا

أكتبهـــا بدمي..بـــدموعي		أعصـر روحـي فيهـا عصـرا
كـي أصـقل عقـلاً..أو أهـدي		روحـاً كانـت تبـدو حـيرى
وأضـيء لجيـل مسـلكه		في درب مسـيرته الكـبرى
كـم يـوم أفنيـت ضـحاه		كـي أنقـش في صـخر سـطرا
وأُقـوّم غصـناً معوجّـاً		وأشـذّب أغصـاناً أخـرى
وأصـارع كـي أفـني شـرّاً		أو أنـزع عـن قـبح سـترا
أحـترق لأشـعل مصـباحاً		يهـدي في الظلمـات الفكـرا
ذقـت الحرمـان ولم أشـك		لم أضـجر.. لم أفقـد صـبرا
وسـقيت المـرّ ولم آبـه		لم آنـف أن أشـرب مـرّا
ولقيـت صـنوفاً مـن عنـت		مـن دهـري، فعـذرت الـدهرا
وطويـت حشـاي علـى سـغب		ورضـيت ولم أضـمر غـدرا
قـدماي ارتختـا مـن تعـب		أصـبحت أجرهمـا جـرا
ويـدي مـا عـدت أحركهـا		ممـا عانـت إلا قسـرا
وعيـوني غـار الضـوء بهـا		فصبـاي علـى ضـعفي انتحـرا
واحـدودب ظهـري يا ويلـي		هـل زرعـوا في ظهـري صـخرا
ووفيـت لآمـال بـلادي		وحملـت أمانيهـا حـرا
وسأمضـي أكثـر إصـراراً		لأداء رسـالتي الكـبرى
أحتضـن بيمنـاي يراعـي		وأشـيل الشـعلة باليسـرى
ميـداني الفصـل..وأمتعتي		الكلمـات أشعشـعها نـورا
وسـلاحي..إيمان بغـد		نحيـا فيهـا الـيمن البَـرّا

يمـــن العرفـــان جوانبهـــا   يكســـوها الحـــب رؤى خضـــرا
يمـــن الإنســـان فـــلا مـــرض   نخشـــاه..ولا نشـــكو فقـــرا
فـــإذا مـــا كـــرمني قـــومي   أو أحيـــوا لجهـــادي ذكـــرى
أو هتفـــوا باسمـــي واعتـــزوا   بنضـــالي ووفـــوني شـــكرا
فـــلأني كنـــت ليقظـــتهم   رمـــزاً.. ولمـــوكبهم جســـرا
وسأمضـــي أكثـــر إصـــراراً   لأداء رســـالتي الكـــبرى

والنص الذي تعمدت إيراده كاملاً من أهم النصوص التي كتبت في المعلم ورسالته الخالدة على مر التاريخ.. وإذا كان أمير الشعراء أحمد شوقي قد تحدث عن المعلم وأهمية تقدير رسالته في قصيدته الشهيرة:

قـــم للمعلـــم وفّـــه التبجـــيلا   كـــاد المعلـــم أن يكـــون رســـولا

فإن المعلم هو الذي تحدث عن نفسه ورسالته في قصيدة الشاعر يحيى عوض.

لقد تحدث شوقي بلغة الحكيم العاقل المقدر بالتأكيد لهذه الرسالة المقدسة وهو يدعوالناس إلى احترامها واحترام من يقوم بها..أما عوض فقد كان هو الرسالة ذاتها بقدسيتها وجلالها.. بتعبها ومعاناتها..فهو الراوي وهو السيرة والحكاية والحبكة والمواقف كلها.. أما الفارق الأهم بين النصين فهو بالضبط الفارق بين الشاعرين وظروفهما..فقد كان شوقي مصرياً قاهرياً وكان سلطة أيضاً ومعنى ذلك أنه مركز داخل المركز المصري الذي هو بدوره مركز المراكز العربية كلها وكل بيت شعر يتفوّه به يطير في مشارق الأرض ومغاربها..

أما يحيى عوض فهو شاعر كبير لكنه ليس مركزاً كما أنه لا يسكن في المركز اليمني – أعني العاصمة – حيث الأضواء والتكريس الإعلامي وهو كيمني يعد من أبناء الهامش العربي..أي أنه مهمش يعيش في هامش داخل بلد مهمش...

رغم كل هذا فقد ملأت شهرة قصيدته "المعلم" أرجاء اليمن وحفظها الأدباء والمثقفون والمعلمون والطلاب.

وبقيت طازجة الحضور عقداً بعد عقد.. وستظل غصباً عن وزارة التربية والتعليم التي لم تحاول وضعها في مناهجها ولا حاولت تقدير شاعرها حق قدره..مع أن عشرات المسئولين عن الوزارة في صنعاء قد سمعوها بالضرورة مراراً وتكراراً على الأقل حين يحضرون مناسبات يوم المعلم ممثلين لوزارتهم في زبيد أو الحديدة..

قصيدة عوض من ذلك النوع من الإبداع الشعري الذي يزداد إشعاعاً بمرور الزمن ويجد كل حين لنفسه أسباب تقديم مختلفة، فقبل سنوات تصدى الفنان عارف فقير لتلحينها وشارك في أدائها طلبة من مدارس عدة في أرجاء زبيد وعندما تم تقديمها في حفل زاخر شهدته مدينة زبيد بمناسبة عيد المعلم بتاريخ الثلاثاء 13/ 4 / 2010م استقبلها الناس استقبالاً مذهلاً عده التربويون تكريماً لهم ولنضالهم من أجل تنوير العقول وبناء الأجيال..وأضاف الأدباء والمثقفون اعتبار ماحدث ضجة ارتدادية تجيء بعد أكثر من أربعة عقود على الضجة التي أحدثتها القصيدة إثر انتشارها الأول.. وقد حال مرض الشاعر الكبير دون رغبتي في الاستفسار عن شعوره الخاص تجاه نجاح نصه البديع.. ولعله أحس حين كتب القصيدة أنه يكتب واحداً من نصوص. العمر أما نجاحها مغناة على ذلك النحو فهو بلا شك قد أشعره بنوع من التكريم طالما حجب عنه.

وهو تكريم يمكن أن نفهم منه أن أحداً لم يعرف قدر الشاعر يحيى عوض كما عرفه الطلاب..وهذا يدل على أن جهده المخلص في خدمة التربية والتعليم لم يذهب سدى ففي مايو من عام 2013م تعرض لجلطة دماغية ألزمته غرفة العناية المركزة وقتا طويلاً وتقاعست الجهات الرسمية عن نجدته كعادتها مع معظم المبدعين..لكن طلبة المدارس كانوا قد استبقوا مرضه واختاروا من شعره " أجل وانطلقنا " وهو واحد من أجمل نصوصه وأقدمها ليقدموه بتاريخ السبت 4 مايو 2013م في احتفال محافظة الحديدة بعيد المعلم،

بل إن وفداً من طلاب وطالبات مدارس زبيد قد ذهبوا عقب الحفل زهوراً تحمل زهوراً إلى منزله..ليستقبل هو بالدمع السخين قُبل الزهور الطاهرة على جبينه..

حدث دار هناك بعيداً عن المركز وإعلامه.. فلم يكن عوض قاطع طريق ولا كان إرهابياً كي تتهافت الفضائيات والصحف على بث احتفاء الزهور به في خبر عاجل أوحتى بائت.. وحده الشاعر مُحَمَّد شنيني بقش أذاع الخبر في منشور على صفحته بموقع التواصل الاجتماعي فيس بوك مشفوعاً بهذا التقدير الحار:

إذا الزهـــر صـــلى بخـــد القمـــر — وقبّـــل رب الجبـــين الأغـــر
علـــى ركبتيـــه جثـــا خاشـــعاً — بـــروح تـــداعت لـــه كـــالمطر
سـلوا موكـب الزهـر عنـه وعـن — أغـــاني صـــباحات بحـــر وبـــر
أجـــل وانطلقنـــا" أجـــل ربهـــا — به أخصب الشوق نبض البشر

ولم يكن الطلاب والطالبات الذين كرَّموه من تلاميذه لكنهم بالتأكيد تلاميذ تلاميذه..وربما تلاميذ تلاميذ تلاميذه.. فاختيار النص وتوجيه المناسبة للاحتفاء بالشاعر الكبير هي بلاشك فكرة إدارات وموجهين وأساتذة.. وهي مبادرة قل أن تعرفها حياتنا في هذا الزمان لذلك يمكن اعتبارها دليلا ساطعاً على مقدار الأثر الذي تركه يحيى عوض فيمن علمهم ورباهم

***

بعد نشر ما كتبته عنه تحت عنوان: يحيى عوض.. الشاعر الذي دخل بقصيدة وخرج بقيدين.. تلقيت اتصالاً من الكاتب الكبير عبد الباري طاهر أبدى فيه ارتياحه لما كتبت ثم أخبرني أن الشاعر يحيى عوض قد سلَّم له سنة 1984م ديوانه الشعري وكان ديوانا ضخماً يضم مجموعة منوعة من القصائد التي أنجزها الشاعر الكبيرحتى ذلك الوقت.. وقام طاهر بكتابة مقدمة للديوان ثم تم إرساله إلى إحدى دور النشر في بيروت حيث طبع

وشحن على باخرة إلى اليمن.. وفي الطريق غرقت الباخرة وتلف الديوان..أما اللبناني صاحب دار النشر فقد أفلس واختفى، وتعذر التواصل معه أو الوصول إليه...

شعرت بالأسف متأخراً وأنا أقلِّب مجموعة الشاعر الوحيدة " هو الحب" هل هذا ما تبقى ؟ بعد غرق الديوان مع الباخرة؟ ولكن الأديب أحمد رسام أخبرني أن عوضًا ظل يحتفظ بأصول القصائد.. رغم الأسى الذي حل به وبمحبيه في زبيد لضياع الديوان المطبوع..

وهكذا فباستثناء تلك المحاولة السيئة الحظ، فإنه على مدار رحلة مع الإبداع تزيد على 55 سنة، لم يصدر يحيى عوض إلا مجموعة شعرية واحدة تحت عنوان " هو الحب " تقع في 162 صفحة من القطع الصغير، وتضم مقدمة رائعة كتبها الشاعرالكبير الدكتور سلطان الصريمي ثم27 نصاً قد لا تمثل عشر ما احتفلت به تجربته عبر تاريخها الطويل إلى جانب تعريف بالشاعر في الغلاف الأخير.. وقد صدرت منها طبعتان عن طريق اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين الأولى سنة 2003م والثانية سنة 2010م..

وأنا استبعد أن يكون هو قد عمد إلى اختيار هذه النصوص بوصفها التعبير الأمثل عن تجربته.. وأعتقد أن شروط الطباعة في اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين قد فرضت عليه هذا الحجم.. ولعلهم بتلك الدواعي غير المقنعة إزاء تجربة كتجربة عطية قد فوتوا فرصة مهمة لنشر أكبر قدر من منجزه الإبداعي الباذخ.. وقد ألمح هو في البرنامج الوثائقي الذي بثته عنه قناة المسيرة إلى قرب ظهور مجموعة أخرى وكان ذلك مطلع عام 2012م ولا شك أن مرضه في ربيع عام 2013م قد حال دون ظهورها أو أخرها على الأقل.. إلى جانب ذلك فقد ضمَّن الحضرمي في كتابه " الحركة الأدبية في تهامة 1948- 1990م " خمسة نصوص من شعره في ترجمته له..وفي كتابه " تهامة في التاريخ " أردف ترجمته بسبعة نصوص بعضها موجود في مجموعة " هو الحب " وفي موقع الأعلام أُلحقت ترجمته بمجموعة مقاطع من قصائد مختلفة له..وفي معجم البا بطين أيضاً وهناك مجموعة من النصوص منشورة على صفحته في موقع التواصل "فيس بوك" نشرت بين مطلع 2013م وأغسطس

2014م ومعظمها إن لم تكن كلها منشورة في مجموعة "هواجس " وعلى الشبكة العنكبوتية مقال كتبه هشام ورو في صحيفة الجمهورية يحتفي بصدور الطبعة الثانية من مجموعة "هواجس " ومقال آخر في صحيفة الأولى كتبته أنا عنه بعد إصابته بجلطة دماغية في مايو 2013م..إلى جانب الفيلم الوثائقي الذي أنتجته قناة السعيدة عنه ومشاركات بعض محبيه في المنتديات بمختارات من شعره "أنا المعلم " غالباً و بضعة أخبار عن فعاليات شارك فيها خلال السنوات العشر الماضية.. هي تقريباً كل ما يخص عوض في هذا العالم الافتراضي الواسع " – حتى كتابة هذه السطور في سبتمبر 2014م، وهو أقل بكثير من حجمه وقيمته الإبداعية والتربوية والنضالية.. وهذا ليس خطأه فهو كمعظم مجايليه في بلادنا من الصعب أن يتعامل مع هذا العالم.. لكنه خطؤنا نحن أيضاً..فنحن من يجب أن يتصدى لمثل هذه المهمة..أما التقصير الذي وقع فيه عوض فهو عدم اهتمامه بنشر شعره في مجموعات متوالية منذ البداية.. فبعيداً عن رؤيته الخاصة للموضوع وقناعاته المتعلقة به كيفما كانت تلك القناعات..فإن عدم نشر أمثاله من ذوي التجارب الغنية لأعمالهم.. يحرمها من التوثيق الجيد في أوانها..التوثيق الذي يجعلها فيما بعد شهادة حية على شاعرها وعلى مواقفه واهتماماته وتحيّزاته وردات فعله المرتبطة بالأحداث الإجتماعية والوطنية والعالمية ومفاصل حياته العاطفية والفكرية وتطور تجربته نفسها لغة وشكلاً وموضوعاً ورؤية..

عدم الالتفات لأهمية النشر في أوانه يعرِّض التجربة حين يصدرها الشاعر في آخر حياته إلى تدخلات كثيرة يقوم بها كأن يغير في بعض النصوص أو يلغي نصوصاً كاملة بسبب ارتباطها بموقف أو حدث أو فكرة تجاوزها الزمن أو تغيرت وجهة نظره هو فيها..

أما حين يذهب الشاعر إلى الحياة الأخرى دون أن ينشر شيئاً من تجربته أو وقد نشر جزءاً منها فحسب.. فإنها غالباً ما تتعرض للإهمال ويلقى أكثرها الضياع.. ويتم التدخل فيها وعليها من قبل من لا يعرفونها ولا يقدِّرونها حق قدرها..أيضاً فإن تأخير النشر يحرم المنتج الشعري من تناولات الدارسين وقراءات النقاد.. وأعتقد أن بحثاً في مكتبة

النقد والدراسات الأدبية اليمنية خلال العقود الأربعة الماضية سيسفر عن نتائج مخيبة فيما يتعلق بالتناولات الخاصة بهذا الشاعر الكبير.. ونفس النتيجة ستواجهنا فيما لوبحثنا خلال نفس الفترة في أرشيف صحيفتي الثورة والجمهورية..لأن الدارسين قليلاً ما يتعبون أنفسهم في البحث عن تجارب لا تزال مخطوطة.. فما با لك حين تكون تلك التجربة مخطوطة وفي مكان ناء عن الدارسين حتى لو كانت تخص شاعراً بحجم يحي عوض يملأ زبيدًا ويشغل الناس فيها..

***

رغم كل ما أسلفته فإن عوالم مجموعة " هو الحب " تضعنا أمام مختارات مقطرة بعناية من تجربة عوض الطويلة.. فإلى جانب قصيدة " المعلم" التي أوردها كاملة.. سيصدق على بقية نصوصها ما قاله في واحد منها:

هي رحلة أخرى على بؤر الأفاعي
يستوى فيها المسدس واليراع
وتستوي فيها القصيدة.. والقذيفة
والحروف هجينة.. وهزيلة إمّا ارتخت
وأظافر الغربان توشك أن تمزق
وردة الفجر التي اختصر الأباة حياتهم
كي يمنحوا أوراقها دفء الحياة

وسنقرأ فيها وعيه بوضع لم يتغير منذ ستينيات القرن الماضي:

قليلون جداً... هم الواقفون
وسقف المدينة ينهار

وسنقرأ فلسفته في الحياة والنضال.. وهي فلسفة ترتكز على قوة الشكيمة والثبات على المبدأ ورفض الإنحناء للعاتيات مهما كان:

اغضب.. لكن لا.. تحزن

اغضب.. وتمرد

لن ينهي بؤسي.. أو بؤسك

أن نحزن

أن نطرق نجتر الآهات

أن نحني لليأس الهامات

لسنا في البؤس.. وفي الحرمان

وظلام المحنة إلا اثنان..

وفلسفة المقاومة والثبات على المبدأ عند عوض لم تتغير طيلة حياته ولعل هذا ما قصد إليه الحضرمي في كتابه " الحركة الأدبية في تهامة " حين قال عنه " يعد من الشعراء المجيدين لم تضعفه الأحداث" ومعنى هذا أن ما قاله عوض في رثاء البردوني ينطبق عليه هو أيضاً:

ها ما يزال كعهدنا

الشامخ الصلب القناة

لم تحن قامته الخطوب

ولم تلنه المغريات

يحدو زحوف المبصرين

إلى الحقيقة في ثبات

وسنقرأ في المجموعة مواقفه الوطنية والتربوية التي تتبرج في قصائد تجمع بين المنبرية المجلجلة وجزالة اللغة وقوة أداء المعاني كما في هذا النص الموجه للشباب والذي يعود إلى سنة 1966م:

شباب الغد المأمول هذا وجودكم **بأحقر ما تبغي الحقارة يزخر**

فساد على طول البلاد وعرضها **وبغي وظلم صارخ وتجبر**

وجود كدنيا الغاب أقوى وحوشها **إله ومن فوق الإله وأكبر**

شريعته الفوضى ومنطقه العلى **وأخلاقه عفو العلى لست أذكر**

ولعله قد ألقاه في إحدى مناسبات زبيد التي أشرنا في الوقفة السابقة – مع الشاعر – إلى احتشادها بالمنافسة وبالصراع على الزعامة الأدبية والاجتماعية في زبيد.

وسنقرأ فيها مقاربات من زوايا مختلفة للموضوع الوطني وقضايا الإنسان والثورة على الطغيان والظلم وهي ثيمات أساسية في تجربته كشاعر ملتزم ينطلق من دوره كمعلم وناشط تقدمي يساري.

كما سنقرأ التفاتات إلى رفاق العمر في دروب الحياة والإبداع والنضال مثل البردوني وجار الله عمر.. أما أجمل مافي هذا الجانب من تجربته فهو جلال ما كتبه في رحيل أستاذه ومنافسه اللدود الشاعر الكبير عبد الله عطية:

سيداً كان مثلما ترتجي العلياء **عزماً.. وفطنة.. وطماحا**

كان رمزاً لحنكة وتوارى **بعد أن أثخن الزمان جراحا**

كان إن تعتم الليالي فناراً **يتحدى ظلامها، بل صباحا**

كان صلباً إذا الرزايا تداعت **صنعت منه للصمود وشاحا**

أفأرثيه ؟كيف أرثي عظيماً **يكره الدمع.. والرثا والنّواحا**

سأغادر ساحة هذا الشاعر الكبير وكلي أمل أن يثير ما سطرته اهتمام آخرين بالتوجه إليه.. أو يستفز قارئاً ينبهني إلى جانب غاب عني أو خطأ وقعت فيه.. وبعيداً عن

هذه السجعة غير المقصودة أظن أنني سأكون أول المتوجهين إلى ساحته... سأفعلها ثالثة انصياعاً لسحره، ومحاولة لإنصافه، وتحرياً للتبري من أخطاء لا بد أني قد وقعت فيها.

عن أحمد ناجي أحمد
عتبات كثيرة لإنسان واحد

يمثل أحمد ناجي أحمد وجهاً أبوياً لمعظم أبناء جيلي..وبمقدار ما يشكِّل وجوده في المشهد الثقافي اليمني حالة تهدئة مستمرّة لبواعث القلق التي تعصف بعشرات المبدعين – جرّاء الافتقار إلى مؤمّنات العيش واهتزازات اليقين في أشياء كثيرة – عبر الحلول المختلفة التي يبتكرها، والفرص التي يساهم في خلقها..وما يمتلكه من طاقات روحية، وقدرات مذهلة على الإيثار والعطاء...فإن تمتعه بسمات القائد، وتميزه بحسّ المبادر الرائد يجعله فريداً لا نظير له في اجتراح الأفكار والدفع بطاقات الكتاب إلى مسالك غالباً ما تحتاج إلى شجاعة المغامر أو دكمة المقامر..لكنها تنجح في فعل أو حتى افتعال وقائع تغيّر الواقع.

أحمد ناجي أحمد نقابي جيد.. وحزبيّ من الدرجة الأولى.. وصاحب باع طويل في العمل الوطني..ثم هو شاعر وكاتب ومثقف كبير.. لكنه قبل ذلك كله إنسان بامتياز..لأن صفة الإنسان فيه بما تمثله من قوة التحليق بالروح والعقل فوق الدّنيّات والصغائر التي يمكن أن تتولد عن تصنيفات الحزبيين، وحسابات النقابيين، ومزايدات المشتغلين بالعمل الوطني، وحساسيات الشعراء والكتّاب والمثقفين..هي أبرز السمات التي تنطبع عنه في أذهان وتجارب وذاكرات من يعرفونه، أو يحتكون به، أويتعاملون معه.

وهي سمة تتغذى باستمرار من صوفيّته النقيّة الخالية من الدعوى....أقصد صوفيّة الأحوال والأفعال لا صوفية المظاهر والأقوال..كما تتغذى من طبيعته كمبدع أصيل الموهبة..ومن تكوينه الثقافي المتعدد وجذوره المرجعيّة الضاربة في التسامح..كما في التواضع الذي غِرسته فيه تنشئته الأسرية..

في ناحية الإبداع والكتابة.. يعد أحمد ناجي أحمد واحداً من أكثر المبدعين والكتاب الذين تفتّقت عنهم مرحلة الثمانينيات من القرن العشرين حضوراً في حياتنا..فهو من قلة لم ينقطعوا..واستطاعوا تطوير أساليبهم..وإدامة حضورهم من خلال شق قنوات شتى للتواجد، وخلق الذرائع المتتالية للتشبيك والتواصل..هناك دائماً أذرع ممدودة في اتجاهات كثيرة..وثمة منابر تتلقف في كل ناحية..

لم يكن هناك فارق زمني بين بروز أحمد ناجي كناشط حزبي ومشتغل بالهم الوطني إبّان مرحلة الثانوية العامة..وبين تدشين نشر بداياته الشعرية في الصفحة الثقافية بصحيفة الجمهورية في تعز قبل نهاية عقد السبعينيات من القرن الماضي...

ولم يكن ثمة فاصل بين انغماسه في الدراسة الجامعية وممارسة أنشطته الحزبية..والتماهي التام في الفعاليات والأنشطة الأدبية داخل الجامعة وخارجها...

وحين أنهى دراسته الجامعية في قسم اللغة العربية بكلية التربية جامعة صنعاء نهاية عام 1982م..كان بتزامن يضع قدماً في الوظيفة التربوية..وقدماً أخرى في اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين..وسرعان ما تم تكليفه مطلع عام 1984م مسئولاً ثقافياً لفرع الاتحاد بصنعاء ليبقى كذلك حتى عام 1993م وهو العام الذي انتخب فيه عضواً في الأمانة العامة للاتحاد وأميناً للفروع الداخلية حيث سيبقى في هذا المنصب تسع سنوات كاملة..وخلالها سنعرفه ونتعرّف عليه نحن القادمين من أماكن بعيدة عن العاصمة و ما يشتجر فيها.. لنجد فيه الدليل الجيد لخطواتنا في مجتمع ثقافي تكونت أهم الوجوه فيه أثناء فترات العمل السري والملاحقات الأمنية....وقد تربّت على الولاء المطلق لأحزابها وتطبّعت بطباع الرّيبة والشك..فكل قادم جديد إلى المشهد إن لم يُعرف انتماؤه يكون في عيونهم إمّا مدسوساً من النظام ومخابراته...وإما صاحب مشروع مشبوه..وإما متطفل.. وإما مجرد عنصر مقطوع الظهر لا نفع فيه..

وإذا كان الراحل الكبير عبد الله علوان قد جنّد نفسه لتقديم أبناء جيلنا أدبيّاً إلى المشهد الثقافي ونذر نفسه للاحتفاء بأعمالنا الأولى...فإن أحمد ناجي أحمد قد جنّد نفسه

لتبصيرنا بالحفر والوهدات والمتاهات التي يعج بها هذا المشهد..وهي حفر ووهدات ومتاهات تنتجها الصراعات والتجاذبات الحزبية والسياسية..كما تساهم في خلقها الأمراض المناطقية..والمنافسات الأدبية والزحام على الصدارة والزعامة في المشهد وقد راح ضحيتها عديد الأنقياء، وسقط في ظلماتها كما تلوث بوحلها كثيرون ولم ينج منها الاّ من رحم ربي فقادته خطوات الغريب المرتبكة – برع في تصويرها صديقنا الشاعر أحمد السلامي – إلى واحة أبي الرجال الآمنة..

كان أحمد ناجي أحمد ترمومتراً جيداً لصوابية أو عدم صوابية خطواتنا وما نفعله..وحين كنا نُقدم على خطوة أو ننشر رأياً يرى فيه أبو الرجال خطأً أو مجانبة للصواب فإن وجهة نظره كثيراً ما تثبت صحتها ولو بعد حين..

كنا نشغل أنفسنا بمحاولات فهم شخصيته البصيرة الشديدة النفاذ..نتأمل بدهشة تكتيكاته واستراتيجيّاته البارعة...الإحجام الذي لا تنفع فيه الإستثارات والدفع والتحفيز..حتى ليصيبنا الإحباط منه أحياناً...ثم الإقدام المندفع الشبيه بالتهور الذي لا يمكن كبح جماحه.. أو تهدئة هيجاناته.. ليتبين لنا فيما بعد أن إحجامه كان في محله..وأن إقدامه كان في محله أيضاً..وأنه في الحالين كان يفعل كل شيء بحدس أشبه ما يكون بالكرامات والكشف لا بتقديرات العقول والأفهام..

بعضنا كان يفسر هذه السمة فيه فيعزوها ببساطة إلى تمرسه بلؤم السياسيين وحقارات مكائدهم وبعد نظرهم ومكيافيلّيتهم أيضاً..ومعرفته كل ألعاب ومخاتلات الحزبيين القذرة وغير القذرة..ووعيهم الخبيث بمجريات الأمور وخفاياها.. لكنه كالحاوي الماهر الذي يبهرنا تحكمه في ثعابينه، وكالساحر الذي يحبس جنيّه في القمقم.. يسلط ثقافته الواسعة وتصوفه الشفاف، وتوازنه الواعي..وقبوله الكبير في المشهد على تلك الخبرات الشيطانية فيضعها في الفريزر.. يجمدها تحت درجة الصفر.. يمتلك القدرة على تحييدها..لكنه أيضا يستطيع استدعاءها..غير أنه لا يستدعيها إلا عند الضرورة الملحة وبعد أن يستنفد كل المحاولات الخيّرة تجاه الموقف الذي يستدعيها لأجله..

من هنا فإن كل من يعرفونه يدركون جيدا..أن الحرص على حضوره والتعاون معه والاستفادة من خيريّته أفضل وأسلم من أية محاولة لتهميشه أو إقصائه أو إعلان الحرب عليه ومناوءته..لأن الرجل الذي يسهل عليه كثيراً خلق المبادرات الإنسانية الخيّرة..من تهيئة مناخات القبول بالآخر ومساندة المظلومين..والبحث عن الوظائف للمبدعين..والسعي للصلح بين المتنافرين... يسهل عليه أيضاً بناء التحالفات وحشد التأييد..واستنفار الطاقات لمعاركه وصراعاته حين يطاله الأذى ولا تفلح كل ميزاته الطيبة في صد بوادره عنه..

لأجل ذلك كله يحظى أحمد ناجي أحمد بكل هذا الاحترام في الساحات الوطنية والاجتماعية والثقافية..

بيده كتب مبادرة كسر الحصار عن العراق سنة 1999م معبراً عن توجهات اللجنة الوطنية لمناصرة القضايا العربية التي كان يمثل اتحاد الأدباء فيها..ونتج عنها إرسال طائرتي نقل محمّلتين بالأغذية والأدوية مع وفدين رسميين وشعبيين إلى بغداد سنتي 1999و2000م..كما ساهم بقوة في إعادة اتحاد أدباء فلسطين إلى عضوية اتحاد الأدباء والكتاب العرب في بغداد سنة 2002م بعد تجميده إثر اتفاقية أوسلو سنة 1993م..وله مبادرتان وطنيتان أحدثتا صدى واسعاً على مستوى اليمن كلها..الأولى مبادرته لإنهاء حرب صعدة عام 2007 م.. والثانية مبادرته لحل القضية الجنوبية عام 2009م.. كل هذه الأنشطة في المجالين النقابي والسياسي والوطني والقومي..وهذه المبادرات التي لا يفكر فيها أديب أو كاتب فرد سوى أحمد ناجي أحمد لا يمكن فصلها عن نشاطه الثقافي في الاعلام التربوي الذي عمل فيه فترة.. ثم في اللجنة الوطنية للتربية والثقافة والعلوم..أو مساهماته في رسم السياسات الثقافية لوزارة الثقافة بين عامي 1997و2003م..أو مشاركته في رسم وتصورات فعاليات صنعاء عاصمة الثقافة العربية 2004م.. أو الضجيج الذي أحدثه من خلال مقيل الاثنين الثقافي في اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين حين كان نائباً للأمين العام ومسئولاً عن الحريات والحقوق بين عامي 2005 و2010م.

وقد كانت تلك ذروة من ذرى نشاطات أبي الرجال حيث تحول مقيل الاتحاد إلى ورشة عمل انصقلت فيها مواهب عديد الكتاب وانفتحت للحرب عليه بسببها أكثر من جبهة..وقد خاض تلك الحروب بروح الفارس وعقلية السياسي المحنَّك..وبنفس قيادي شجاع لا يزدهيه النصر فيطغى..ولا تكسره الهزيمة فينهار... في حالة النصر كان يمد يد المسامحة والإقالة من العثرات لخصمه..وفي حالة الهزيمة.. كان يعلن بمنتهى البساطة: لقد استشهد أبو الرجال... ثم يختفي لأيام نعلم بعدها أنه كان يرمم روحه في إحدى زوايا التصوف..أو كان في رحلة عمرة طاف فيها بالبيت العتيق وزار قبر حبيبه المصطفى.. ليعود وقد استعاد كامل طاقاته الروحية والنفسية والعقلية..

إن نظرة يلقيها المرء بجدية على مسيرة أحمد ناجي أحمد ومنجزاته.. كافية بكل سهولة لإقناعه بمدى أهمية الرجل..وهي أهمية أعود وأكرر أنها تنبع من كونه قبل وبعد كل اشتغالاته وانتماءاته وحتى مواهبه إنساني با متياز..تنعكس انسانيته بقوة على تعدده المتسامح ورعايته للمبدعين والكتاب وتعبر عنها إبداعاته وكتاباته كما تعبر عنها مبادراته وأنشطته..

الحس الإنساني والتوجه الرباني هما مفتاح شخصية هذا العملاق الروحي ومنهما تفتّقت دراسته الشهيرة (قراءة لنص تراثي في السياسة الشرعية في ضوء الحالة اليمنية) وهي عبارة عن قراءة نقدية لرسالة الإمام علي إلى الأشتر النخعي صدرت سنة 1999م وقد حشد لها كل طاقاته الروحية وثقافته الواسعة..فكانت مقاربته لها فريدة فرادة رسالة الإمام على نفسها..

ومن حسه الإنساني وتوجهه الرباني تخلّق كتابه الثاني (الربانية في الثقافة) الصادر عام 2000م، وهو كتاب يتأسس على خبرات طويلة في العمل الثقافي والتربوي كما في الحياة الصوفية والروحية التي يشهد بها برنامجه (تربيتنا الروحية) الذي تبثه إذاعة صنعاء يوميا منذ ما يزيد على عشرين عاماً..

وليس بعيداً عنهما وإن توهّمنا ذلك ما أنجزه في كتاباته النقدية التي قدم لنا منها طعمةً في كتابه النقدي (قراءة نقدية في إبداع متنوع) المنشور ضمن إصدارات صنعاء عاصمة الثقافة العربية 2004 م..

ولعل فرادة اشتغالات أحمد ناجي أحمد تجد ذروة تمثلاتها في استغلاله الذكي والرائع لشبكة التواصل الاجتماعي فيس بوك..من أجل مدّ جسور المحبة والتواصل الابداعي والمودة الانسانية والتلاقح الثقافي مع عشرات المواقع والمجموعات ومئات الأشخاص في العالم.. وقد حصد هذا التوجه ترجمات شعرية إلى الإيطالية والإنجليزية ومشاريع نشر وتواصل لا تقتصر عليه وحده. إنما يعود خيرها على أدباء اليمن والمشهد الثقافي جميعه..

يبقى أن أعترف أن مدى أحمد ناجي أحمد النبهاني أو سع كثيراً من مقاربتي التي تحكّكت بالجدران، ووقفت على العتبات.. فهناك عشرات المواقف التي كان يمكن استثمار سردها بوصفها شواهد ناصعة على ما ذكرت من صفاته..وهناك الجانب الشخصي في علاقتي الخاصة به وأياديه البيضاء عليَّ.. وهناك في مجال الإبداع والكتابة أكثر من مئتي نص شعري أنجزها رحلته مع القصيدة.. وعشرات الدراسات ومئات المقالات والمحاضرات التي يستطيع – لو عزم – أن يصدر منها ما لا يقل عن عشرة كتب..

إن ما كتبته هنا مجرد تحية عابرة ليس إلا..

أحوال الفتيح..
من الأنين والشهقات.. إلى اللطم والبكاء

منذ سنوات عدة وأنا أعد نفسي بالكتابة عن الشاعر مُحَمَّد عبد الباري الفتيح.. ولكن مواعيدي ظلت – كالعادة – خارج المتحقق.. لا تفسير لديَّ لهذا التسويف.. لأن الفتيح الشاعر مثل الفتيح الإنسان كلاهما من ذلك النوع الذي يقودك إلى الكتابة عنه برغبة عاصفة ومحبة لا حدود لها.. فأنت بمنتهى البساطة تجد نفسك أمام حالة استثنائية، وفي حضور رشيق تأسرك فيه بساطة الإنسان وبهاؤه بمقدار ما يتوغل في وجدانك الشغف بالشاعر حساً طافراً.. وذوقاً مؤزّراً بوعي وثقافة مع خبرة لا تتعالى.. أو تتحذلق لكنها تشهق للجمال الإبداعي كلما لاح في مشهد فني أو صورة شعرية أو فكرة طازجة أو منظر طبيعي تتخايل آياته..

يعود تعلقي بالفتيح إلى سنوات بعيدة – قبل أن أعرفه شخصياً – فقد شغفت على نحو استثنائي بشجن الفنان عبدالباسط عبسي ولوعته وهو يشعل الحرائق في مواجيدنا بتلك الأغنية المتفردة:

واقمري غرد ما عليك من هم — خلك معك وانته بقربه تنعم
مش مثلي اتجرع كؤوس علقم — سقيم بحالي.. بس ربي يعلم

ولم تكن حلاوة اللحن وعذوبة الصوت وتماهيهما مع الألم المر الممزوج على نحو ساحر ببساطة الكلمات وقدرتها على الإنغراز عميقاً في الوجدان هو ما يربطني بتلك الأغنية.. بل فوق ذلك معرفتي بما تفعله في قلوب المنتظرات للغائبين في مجتمع أكلت الغربة معظم رجاله، وراحت سنين العمر تنهدر وتجف مشاقرها قطفة تلو أخرى.. وقد شاهدت

بعيني وعايشت بنفسي لحظات الإجهاش التي تتجاوز خطوط المكابرة وحدود التحفظ وصوت العبسي الحنون يحطم جدران الصبر المغلوب:

اشكي بعاد خلي أيحين شاشوفه   لمن ترك وردة خيار قطوفه
صباح مساء أحلم ولو بطيفه   يا قمري والخل ما ذكر أليفه

فتتحول حالات الإجهاش تلك إلى ارتجافات تشبه رقص طيور مذبوحة.. في المقطعين التاليين:

نيسان هيجني واشعل كياني   والشوق يضني والفراغ براني
ماله الحبيب: يا هل ترى نساني   يا ليته يدري بالذي أعاني

***

والريح حلفته ونجم سحره   يقول له يكفيك اغتراب وهجره
شبابنا شسرح يا ألف حسره   لو ذبلت زهوره.. زهره زهره

وأذكر كم كان المقطع الأخير من الأغنية يغريني بالمراقبة والتأمل رغم اندماجي في المشهد المتكرر واحتراق وعيي بما يلتبس في تلقيه من عذابات وأحلام واعدة، ذلك أني كنت أحاول أن أتلمس خلف غيوم الدمع المتهاطل سيناريوهات ومشاهد لحظات اللقاء المنشود وهي تتشكل على نوافذ الخيال متحفزة بما يرسمه الفتيح..

يوم السلى يا قمري يوم وصوله   شواجهه بالفل شاكيد عذوله
حتى الطريق بالورد شافرشه له   واطعمه بيدي جهيش سبوله

وإبداعات الفتيح الشعرية ليست إلا سيرة حياته بتجلياتها المختلفة فهناك الفتيح الهائم المتلاشي تماماً في الطبيعة وجيراننا فيها الذي يتجاور عنده حضورها البكر بحضورها

الوظيفي بماهي حقول وسنابل تمنح الحياة و مشاقر يتفجر فوحها بهجة ورغبات في جوانح العاشقين وبكونها تجمع مع هذه المفردات الأساسية مفردات أخرى فهي أيضاً مواسم وسحائب خير، ودنيا تتعاشق فيها مكونات الوجود و تتخلّق منها فنون الإبداع حيث تمتزج المناهل بروائح التراب وغناء الحراث أو صياح الشرّاح بشقشقات الجوالب.. كل ذلك يعيد الفتيح إنتاجه مضمخاً بحنين يشق القلوب لكنه يفتحه على أفق واسع.. أفق إنساني لا تحده حدود، بعد أن ينسجه بروح الفنان ونفس العاشق المثقف ليقدم من خلاله أسلوباً متفرداً في الكتابة الشعرية اليمنية ويقودنا إلى مفاتن تكتنز بها اللهجة التعزية بشكل يستحيل أن يفعله غيره وهو بذلك من أكثر مبدعي اليمن قدرة على التعبير عن روح المكان وناسه.. عن وجودهما ومحمولات ذلك الوجود الروحية والثقافية وبصماته وخصوصياته كما في هذا المقتطف:

عيشك حلى واجولبه

مع جولبك ومع الصبا

يا ساكبة الحان الغرام

على السوائل والربى

***

بنت الغصون زيدي سجيع

صبي سلا فوق الجميع

ذري حنانك عالقلوب

وبشريها بالربيع

وكما في هذا المقتطف أيضا:

شمس الشروق بين الجبال لواهب.

شوقي أنا تشرب ندى الأ سوام والشواجب..

شربة هنا وأسراب صبايا أقبلين مواكب..
خلالنا يبرعين عمقان والجواجب
بأحلى غنا

وهناك الفتيح المناضل الوطني القومي العروبي الملتزم بقضايا الحرية والعدالة والمساواة والتقدم الاجتماعي الرافض للظلم والاستبداد المنحاز دائما للشعب.. لنقاء البسطاء والشقاة القادر على التضحية في سبيل المبدأ والمؤمن بالنصر نتيجة حتمية لكفاح الشعوب.. ونضالات البسطاء.. كما يعبر هذا النص الذي نشره الكاتب الكبير منصور السروري في كتابته البديعة الجامعة بين التوثيق لحياة الفتيح ومقاربة سيرته في ضوء إبداعه ومواقفه الوطنية وحضوره الفني والإنساني الفريد تحت عنوان (زخات استقرائية من كفاح سيرة وتجربة الفتيح الإبداعية(:

سأعود يا أنشودتي لا تعجلي
سأعود يا حلم الفؤاد ويا رؤى مستقبلي
سأعود فالفجر المؤمل يا مناي لاح لي
أنا من دمي قد صغت فجري كي أعود لمنزلي
رصّي عقود الفل يا هذي وتيهي هلّلي
واستقبلي الزحف المظفر زغردي للجحفل
ها نحن نبعث من جديد فابشري وتفاءلي
ها نحن نطوي الليل، ليل الظلم، ليل الباطل
ليل الأولى امتصوا دمي باسم الكتاب المنزل
وبنوا القصور لهم وللدخلاء لكل مضلل
هم شيدوها من رغيفي من كفاحي الأنبل
من بؤس من قد هاجروا من كبرياء السائل

ليخططوا فيها رغائب من عليهم معتلي

ليمزقوا فيها العروبة كي أعيش بمعزل

لن تخبو نار الحقد في قلبي وها هي تصطلي

إلا إذا ديست جباه العابثين بأرجلي

ولن يغيب عن أذهاننا أن شعور الفتيح بالكرامة.. كرامة الشعوب.. وكرامة الإنسان.. كان يشكِّل حضوراً دائماً، بل مركزياً في وعيه.. وكان ذلك الشعور يمنحه صلابة استثنائية حين تصبح المواجهة حتمية ويأبى المتجبرون إلا أن نواجه..كما يوضح ذلك نص آخر من نصوصه التي كشف عنها السروري في كتابته سالفة الذكر:

با زحف لأني على عيش الهوان ما اقدر   بازحف لأني بشر با قابل الشر بالشر

ولن يغيب عن أذهاننا أيضاً أن وراء اشتغالات الفتيح الإبداعية والتزامه بقضايا الوطن والإنسان وعوالمه المتشكلة من كل ذلك مرجعية تتمركز في تكوينه الفريد الذي يجتمع فيه زهد الصوفي.. وعصامية العبقري.. المركبين في نفس أبية شريفة تقدس العمل.. وتحترم العلم.. وتعلي مكانة الإنسان بمسئولية يندر وجود مثلها فقد كانت حياته بين مولده في «معامرة قدس» بمحافظة تعز عام 1932م ووفاته بعد صراع مع المرض بمدينة تعز يوم الخميس 13 يونيو 2013م رحلة عناد وإصرار ضد الظروف الصعبة بكل ما تخلقه من معيقات ومتاعب وإحباطات.. تحدى الفتيح ظروف حياته ومعيقاتها بروح عالية وأحلام لا تنضب.. وقدرة مجيدة على الكفاح والمثابرة والاستمرار.. واستطاع أن يضع نفسه في المقدمة علماً وإبداعاً ووجوداً يفرض على الجميع احترامه وتقديره والإعجاب به. بدأ رحلة التأهيل من معلامة القرية، قبل أن يدرس الابتدائية في عدن حيث كان والده يعمل. ثم قادته رحلة الشقاء في سنه الصغيرة تلك إلى السعودية فعمل حرفياً في أعمال « الجص » كما عمل «خياطاً»؛ دون أن يشغله ذلك عن تحصيل العلم والمثاقفة والتثقف.. بحرص وعصامية كان يستغل أوقات الفراغ —على محدوديتها – في القراءة مركِّزاً على مصادر المعرفة الكبرى وعلى

رأسها أمهات الكتب المشهورة في التراث العربي ولعله كان يفعل ذلك غريزياً فلا أظنه كان يعي بوضوح أنه بتركيزه على تلك النوعية من القراءات كان يضع المداميك الراسخة لتكوينه الثقافي.. لكنه قطف أولى ثمار إصراره على التثقيف الذاتي فقد تفتح وعيه كنتيجة حتمية لقراءاته باتجاه ضرورة أن يغادر واقعه الذي تفرضه عليه ظروف العيش.

أقول هذا دون إغفال الموجهات الأخرى السياسية منها والأيديولوجية التي لا أشك في تحريكها لدواخله وهيمنتها على وعيه فلا أحد يجهل قيادة النخب التعزية لكل أنواع الحراكات الوطنية آنذاك، ما يتعلق منها بالتعليم وتنمية المجتمع أو ما يتعلق منها بالتنظيمات الحزبية والنقابية.. هكذا قاد الفتيح طموحه الواعي وعصاميته الحازمة فدرس الإعدادية في عمان، والثانوية في سوريا، وهي بيئات كانت توفر له حواضن أكثر تشجيعاً على تنمية الذات معرفة ووعياً حتى قفز قفزته المميزة إلى مدار أبعد فدرس الآداب والتاريخ واللغات السامية في «المجر» وحصل على شهادة البكالوريوس والماجستير وهناك تبلورت سمات شخصيته وتحددت توجهاته ليعود إلى الوطن مبدعا تثبت السنون سنة إثر أخرى كونه مدرسة مميزة في الساحة الإبداعية اليمنية.. ومساهماً فعَّالاً في الأنشطة السياسية والثقافية والنقابية والاقتصادية فكان واحداً من مؤسسي البنك المركزي في الحديدة وقد بقي يعمل فيه مدة خمس سنوات (1970-1975م). نشط أثناءها ناشطاً فعَّالاً في الاعتمالات السياسية التي تشهدها المدينة وذلك انطلاقاً من موقعه في حزب الطليعة الشعبية.. كما نشط في المشهد الثقافي صادحاً في الحفلات الشعرية و مشاركاً في تأسيس اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين ومساهماً في تحرير مجلة الكلمة.

حين عاد الفتيح إلى حواضن طفولته في تعز بعد منتصف السبعينيات كان قد اكتمل تكويناً وأنضجت التجارب إبداعه ووعيه فقدم عبر عمله في الهيئة العامة للآثار والمتاحف نموذجاً مثالياً للاستقامة النابعة من الضمير الحي ورهافة المبدع..وتفاني العاشق للمكان ومفرداته العارف معرفة كبيرة بتاريخه.. لكن الفتيح الذي ظل في تلك الوظيفة حتى أحيل على التقاعد عام 2002م لم يكتف بهذا الدور فقد تحول إلى ولي تدور حوله بهجة

إبداعه، وتنشد حلاوة القرب منه قلوب وعقول وأرواح المبدعين من جيله ومن الأجيال اللاحقة..

ولم يكن الفتيح ليرضى نفسه أستاذاً أو أباً أو مربياً لهم فجمال روحه وتواضعه وخصائصه الإنسانية تنفر من ذلك، إنه صديق مجرد صديق رغم أن الجميع كانوا يعلنون يوم وفاته أنهم فقدوا الأب والمربي والهادي فقد كان بالنسبة للكثيرين ديوجين الحكيم الذي يحمل الفانوس ليضيء للآخرين.. أكثر شيء أعجبني في سيرة الفتيح أنه كان في مراحل عمره المختلفة حين تضيق ذات اليد أو تحاصره المكائد من أغبياء السلطة أو من بلداء رؤسائه في الوظيفة لم يكن يتوانى لحظة عن النزول إلى الشارع ليشتغل في أي عمل يدوي يحصل منه على لقمة شريفة تليق بعزة نفسه وكرامته.

عندما التقيت الفتيح وجها لوجه سنة 1998م أحسست كأني قد التقيته قبل هذا بكثير وأن بيني وبينه صداقة قديمة..وفسرت ذلك بقوة شغفي بإبداعاته وقديم معاشرتي لها..ولكن جزءاً كبيراً من إحساسي ذاك كان سببه روح الفتيح العالية ومحبته التي يغدقها على الجميع وهذا كان يتأكد في كل لقاء تلى ذلك اللقاء.. على أني حظيت من الفتيح بمواقف أحببتها كثيراً لأنها كانت من بصماته الخاصة به وحده بمقدار ما كانت تمثل وجوهاً مختلفة من سماته وخصائص حضوره الإبداعي والثقافي والإنساني التي دُرت حولها فيما سبق..ولعل سرد موقفين من تلك المواقف يعزز لدى القارئ وجه الفتيح كما عرفته ويشعرني في نفس الوقت بأداء بعض الواجب تجاه ذكرياتي معه.

***

في 30 ديسمبر سنة 2007م كناً معاً في مهرجان للأدب بمدينة زبيد.. ولم تكن أيام المهرجان قد أبقت من الفتيح شيئاً.. فقد توحدت روحه بالمكان.. المساجد والأبواب، الدار الناصري.. ومقبرة سهام، اللواوين وروائح التراب، طيبة الإنسان ومذاق التاريخ.. تجمعت أزمنة زبيد الفارهة كلها فيه ليصبح حالاً مجرد حال من الأحوال لا ينطق ولا يحاول أن ينطق.. قسمات وجهه وحدها تعبر وإن بدا تعبيرها بعيداً على فهم من لم يمنحهم الله

نعمة الذوق ومعرفة أين يكون الرحيق.. وبسبب ذلك عز الحديث معه على كثرة ما احتلنا له.. ووفرة ما حايلنا عليه ليأخذ بطرف من أطرافه معنا.. لكن ليلة الختام كانت ليلة الفتيح..وموعد تجليه البديع، أقيم حفل الختام في الهواء الطلق شرق باب الشبارق.. هناك تجمع جمهور يتجاوز الألف.. وجلس الفتيح بيني وبين أخي مهدي المولّه به مثلي وزيادة.. وتوالى الشعراء على المنصة.. شعراء كثر اعتادوا على الإلقاء المنبري المجلجل حسب التقاليد الزبيدية.. لكن هذا النوع من الإلقاء رغم كونه يليق بالشعر وبالشاعر لأنه يعطي الشعر حقه.. ويسمح للشاعر بالتبختر والخيلاء كما يجب.. إلا أنه خادع مراوغ يوقع قليلي الخبرة بالشعر في حبائله.. ويوهدر بضعيفي الحساسية للجمال فيه.. وكان يبدو لنا أن معظم الشعراء قد تواطئوا على لفلفة المتلقين بالإلقاء.. محاولين به تغطية عيوب قصائدهم التي تتوزع على المعاني.. والصورة التقليدية المكرورة أو الأفكار الساذجة.. وأحياناً كثيرة الهنات الواضحة في الأوزان.. ولا أدري من الذي أفهمهم أن الاحتفاء بالإلقاء بديل مرضٍ عن الدأب والمثابرة، والقراءة والمثاقفة، والاهتمام المتواصل بإنجاز نصوص تنطبع عليها بصماتهم وشخصياتهم وخصوصياتهم.

أثناء متابعة الشعراء استطاع الفتيح أن يسرقنا أنا وأخي مهدي من النظر إليهم.. فقد كانت انفعالاته وهو يتابع الشعراء مقياساً حقيقياً يمكن أن نرصد في حساسيته المذهلة مواضع الإنفلاتات الفنية المجنحة فيما يلقونه.. كما يمكن أن نرصد ظلمات النصوص وتثاؤباتها.. وارتكاساتها في وهدات التقليد.. والبؤس الفني..

كان الفتيح يكرّم أي انفلاتة فنية سكرى يحلق بها المتوالون على المنبر بشهقة تسحبنا معها إلى مفاتن ذوقه.. ومداراتها الساطعة في سماوات عالية.. يُشعرنا بطعم آخر لجمال الشعر رغم أننا نعرفه ونتذوقه ونمتلك من غنى التجربة معه ما يتيح لنا أن نُطوّل فيه الدعاوى ونعرّض...لكن شتّان بين طريقتنا في معرفة الشعر وتذوقه وبين طريقة الفتيح.. إن كل شهقة من شهقاته كتاب في حد ذاته في تذوق الشعر والإحساس بحلاوة مبناه وإدراك عميق معناه.. والعكس يصدق على شعوره بالعيوب والخيبات والمزالق والارتكاسات البائسة،

والعثرات الوزنية التي كان يخيل لنا أنها طعنات تنغرز في قلبه.. وأنه يتلقاها كما يتلقى أبٌ خبر رسوب فلذات كبده في المدرسة.. لذلك كان يعبر عن وجعها بأنّةٍ حادة تجرح الحشا فيما هو يتقلقل في مكانه وطرفا عينيه تنتقلان بيني وبين أخي مهدي.. وكأنه كان يشهدنا على ما يسمعه من بوار.. قلة من شعراء الكثر تلك الليلة قدموا زخم إجادة مبهج من خلال نصوص زخمة (بالمعنى التهامي) جاوب زخمها جمال الإلقاء.. على رأسهم الشاعر العراقي الراحل علاء المعاضيدي ذي الوله الفائق بزبيد.. وشاعر امزخم التهامي أحمد سليمان.. كان إبداع تلك القلة بمثابة السلوى لإحساس الفتيح المرهف تجاه التجليات الساحرة التي يمكن أن يخلقها شاعر موهوب ومثابر.. على أن المفاجأة كانت تنتظر الفتيح في الفقرة الختامية حين قدم الحفل فناناً زبيدياً شاباً يعشق الفنان الكبير أيوب طارش.. ويقدم أغانيه.. بإحساس يورط سامعه في عملية مقارنة فورية بينه وبين الفنان الكبير.. تجلى الفنان الشاب وتأرّجت لحظاته في تلك الأمسية وتفاعل الجمهور المشتعل مع (أحبك والدموع تشهد) و(هيمان) و(مكانني ظمآن) وتجلى معه الفتيح شهيقاً والتماعات وزفرات تحترق لها القلوب..وحين بلغ الفنان الشاب الذروة في رائعة (طائر امغرب) طار صواب الفتيح.. ولم تعد الشهقات لتعبر عن مقياسه الجمالي.. فقد تجاوز به الحال من مقام الشهقات إلى مقام أعلى.. فانخرط في البكاء... وهو يعلن بصوت عالٍ هذا أعظم تكريم لأيوب، بل أعظم احتفاء بحضوري إلى زبيد.. ولا سبيل إلى وصف كيف حلّ فينا حاله.. ولا ما فعل بنا أنا وأخي مهدي ومعنا الشاعر أحمد سليمان الذي انضم إلينا أثناء الفقرة الفنية.. فلم نعرف كيف نعبر عن تماهينا مع الاحتشاد الوجداني الذي أشعلنا به إلا بسيل من القبل أمطرنا بها جبينه النوراني النبيل.

***

مرة أخرى في مايو عام 2010م في فندق هوليداي إن بمدينة تعز.. كنا نصور إحدى الحلقات التمهيدية لبرنامج (شاعر اليمن) الذي أنتجته قناة العقيق.. كانت تعز محطتنا الثالثة بعد حضرموت وعدن.. وكان قد تجمع في الفندق حوالي تسعين شاعراً من تعز وإب.. وبعض مناطق ذمار.. وكان القائمون على البرنامج قد ميَّزوا الحلقات التمهيدية

بفكرة جديدة وجيدة.. وهي أن يشاركني التحكيم في كل محطة أو تجمع لمجموعة من المحافظات.. حكمان من أبناء المكان.. وهكذا سعدت فيي حضرموت باثنين من كبار الأدباء وأروع الأكاديميين في اليمن هما: الدكتور سعيد الجريري... والدكتور عبد القادر باعيسى.. كما سعدت في عدن باثنين من كبار المبدعين في الشعر الغنائي والتراث الشعبي والصحافة الفنية أعني الأستاذ علي المحلتي والأستاذ علي حيمد.. ثم كانت مفاجأة أكثر من سارة أن أعرف في تعز أن شريكي في التحكيم هو الشاعر المتفرد مُحَمَّد عبد الباري الفتيح.. ومعه الأستاذ زين العودي الذي تعرفت عليه ذلك اليوم.. لكن المرض لم يسمح له إلا بربع ساعة معنا.. فكان علينا أن نكمل يومنا البديع بحكمين فقط: الفتيح وأنا.. وعلى مدار ما يزيد على ثماني ساعات من التصوير المتواصل.. وفيما كانت عروض المواهب الشعرية المتباينة المستوى تترى أمامنا تحت الأضواء.. قدم الفتيح لي وللشعراء وطاقم البرنامج، وجمهور الحاضرين ضروباً من المتعة لا أروع منها ولا أجمل.. فشهقات الإعجاب بالانفلاتات الفنية الآسرة في النصوص الشعرية.. التي كان يذهلنا بها في زبيد..تطورت اليوم لتتآزر معها ضربات باليدين على فخذيه.. ولم يكن ما يفعله مجرد ضربات..فقد بدت لي وهو ينفذها بفرح طفولي وكأنها رقصات يعبر بها عن طربه لما يسمع.. بل إن ثمة في حركاته تلك ما لا تسعفني لغتي هذه اللحظة بألفاظ مناسبة لوصفه لكنه كان ينقل إليَّ أحاسيسه.. بل يجعلني أتصف بحاله كما يقول المتصوفة.. أما عثرات النصوص ووهداتها من ركاكة أو سذاجة أو محاولات بدائية يحدث أن يشارك بها شباب واهمون لا مواهب لهم، ولا قدرة على كتابة الشعر.. فقد كان الفتيح يقابلها بأنات الوجع مضافاً إليها هذه المرة ضربات قوية على صدره وخديه، بشكل يجعلني أشعر بأن النصوص التي أسمعها أكثر من كونها مجرد نصوص تعتورها النواقص ويشوبها التقصير والارتباكات.. وأن شعراءها يحتاجون للتوجيه والتقويم.. وأن أقسى عقوبة يمكن أن ينالوها هي الخروج من التصفيات الأولى للمسابقة..كانت أنات وتوجعات الفتيح وضربات يديه القوية على صدره وخديه تُشعرني بأنني في مأتم وتُخيّل لي أن تلك النصوص مآس لا حول لنا فيها ولا قوة.. ولا سبيل إلى التعبير عن اعتراضنا عليها إلا باللطم وإظهار

الحزن والندم.. وكأننا في عزاء حسيني.. ومرة أخرى كان على شاعر استثنائي التحليق كمعاذ الجنيد أن يدفع الفتيح إلى مقام أعلى كثيراً من مقام الشهقات والضرب بالكفين على الفخذين.. فقد وقف معاذ أمامنا هائما هيام عاشق يحلِّق بجناحين، جناح يفرده على حبّ اكتوي بتلوناته.. وجناح يفرده على إبداع امتلك ناصيته.. وسيطر على أدواته.. وطفق ينشد بحضور شدّ أهدابنا إليه بخيوط من سحر:

عاد الهوى عندي بدا

الآن يحلي والجرح نايم لا تصَحِّي منامهْ

والقلب مِنَّك قد عرَف كيف يسلي

وهام في غيرك وجدَّد غرامهْ

والحلوه عادِهْ كمَّلَهْ تِتصلّي

وحبها أرسى وثبَّت خيامهْ

***

أفطر على جرحك وبالدمع احلِّي

بوجد زاهد ما انقطع عن صيامهْ

أعصي عشانك كبريائي ونُبلي

واجمع من اوجاعي وأساي ابتسامهْ

***

أحاول اتقطع لوجهك يولي

ويا كم وكم حاولت أثير اهتمامهْ

جيتك على أقدامي وجيتك مظلي

مشيت متواضع ومرفوع هامهْ

كانت قضية كيف أرضيك شغلي

جيتك سما صافي وجيتك غمامهْ

كتبتلك شعري فصيح ومحلي

مهجل تعزي ومن زوامل تهامهْ

وما نِفِع..غنيتلك يا هِزِلّي

يا سارية يا ساجية يا حمامهْ

شكيت في شكلي وغيرت شكلي

حاولت ألبسلك ثياب الوسامهْ

قلت اِمكن اسمي ما عجَب ذوق خِلي

غيرت إسمي زيد.. تامر.. أسامهْ

أكيد هي ما تعشق السُمر مثلي

كنت اقتلب أحيان (راغب علامهْ)

كان الفتيح يصاحب إنشاد الجنيد بالشهقات وضربات كفيه على فخذيه تتوالى..لكنه مالبث أن أجهش بالبكاء.. كان يبكي وهو يخاطبني ويخاطب معاذ الجنيد والشعراء وطاقم البرنامج: كيف لا أبكي وأنا أسمع مثل هذا الشعر.. كيف لا أبكي وأنا أسمع مثل هذا الشعر..ثم التفت إليَّ متوسلا: أرجوك يا ولدي يجب أن يكون هذا مسك الختام.. بعد الثالثة من عصر ذلك اليوم أنهينا التصوير.. وخرجنا لنشاهد الحالمة تعز من موقعنا العالي.. كانت جبالها الشامخة تتباهى بجمال خضرتها بعد أكثر من شهر أو يزيد من الأمطار الغزيرة المتوالية.. وكان منظر السحاب القريب الذي تتساكب مثالبه على جهات تعز الأربع يثير في النفس بهجة تضاعف البهجة التي سكبها الفتيح في قلوبنا منذ صباح ذلك اليوم.. وكان الفتيح يقف بجانبي حين لاحظ اندهاشي بسحابة سوداء مترعة.. وهي بحق من أعجب مناظر السحاب التي شاهدتها في حياتي... كانت السحابة تتقدم بلهفة عاشقة

معطاء.. ليس إلى قمة جبل صبر، بل إلى صدره.. وفي ذروة احتفالي بذلك المشهد البديع.. وفيما كانت مثالب تلك السحابة تتساكب محازم بديعة من غيث هادر.. قال لي الفتيح بلهجته المعشّقة بالشعر: كل الأماكن ترفع يديها لتطلب المطر إلا صبر.. ينتظر صامتاً حتى تمر به سحابة فيهمس في أذنها: شوية مطر... ولأنها همسة عاشق حقيقي لا تجد ربة الخصب إلا الاستجابة له.. ولم يكن ما قاله الفتيح وليد تلك اللحظة، إنما كان تاريخاً من التماهي مع المكان وطبائعه الإنسانية.. ومنها هذه السمة التي عبَّر عنها الفتيح ذات يوم بقوله: جبل صبر عالي حتى على الشمس والغادية يهمس بأذنها همس هذه بعض من مشاقر الفتيح التي عبق في شراييني عرفها.. وها أنذا أستحضرها لأكتب عنه.. ولكن بعد رحيله.. ولا أدري إلى متى سأظل كلما رحل واحد من أقمار الروح المتألهة أجد نفسي عرضة لوجعين: وجع الفراق... ووجع الندم بسبب التقصير في الكتابة عنه أثناء حياته.

محمد العابد...أكثر من كل هذا:

لم يعرف المشهد الثقافي اليمني مثقفاً من نوع الأستاذ مُحَّد العابد...ونحن بالمثل لم نعرف مقيلاً أدبياً وثقافياً وفكرياً متنوعاً في صنعاء يساوي مقيل العابد اتساعاً للحب وانحيازاً لروح الإبداع وحريته، وقرباً من المبدعين وشجونهم، وما يشتجر في أيامهم من هموم..

وعلى مدار سنوات طويلة كانت جولة كنتاكي التي يقع منزله بالقرب منها قبلة مواجيدنا كل ظهيرة.. وجميعنا كنا نجيء إليه حاملين صعوباتنا، صعوبات على أكتفانا، وصعوبات في رؤوسنا، وصعوبات في الحياة من حولنا، ولم يكن مُحَّد العابد ساحراً يلمس التراب فيتحول إلى ذهب..ولكنه صاحب قلب كبير يعرف كيف يواسي وكيف يشعر بمعاناة الآخرين.

وهو في تماهيه مع المبدعين والكتاب ينطلق من كونه جزءاً من هذه الشريحة.. فهو ليس رجلاً ميسور الحال يكتمل بريستيجه بتحويل مقيله إلى ملتقى لمجموعة من المثقفين..إنه ابن مهره فهو شاعر في الأساس، ولقد شغلته الوظيفة العامة، وشغله تحمله المبكر لتربية إخوته عن التعود على الكتابة... ولوتفرغ مُحَّد العابد للكتابة لكسبت اليمن كاتباً كبيراً بكل المقاييس فهو ليس مثقفاً كبيراً ورجلاً واسع التجارب فحسب، بل إنه صاحب عقل نقدي حقيقي.. ويمتلك مواهب تفكيكية تثير الإعجاب.. ومعظم الكتاب والمثقفين الذين يرتادون مقيله يصيبهم الذهول كلما فرد جناحيه وبدأ يزلزل المعارف البديهية التي اطمأنوا لسلامتها منذ دراستهم الابتدائية في تفسيرالقرآن والسيرة النبوية، وفي التاريخ كما في ثقافة المجتمع وعاداته وسلوكياته، وفي الأفكار السائدة والمسلَّمات العامة وأشياء كثيرة أخرى..ويصل تجليه ذروته حين يتناول خطاب الإعلام خصوصاً الخطاب الإعلامي اليمني فهو يمسك به من أذنه يجرجره ويشهر به فاضحاً أخطاءه وسقطاته وعثراته

واستسهالاته وخبالاته بدءاً من نشرات الأخبار مرورًا بالبرامج الحوارية والأعمال الدرامية وصولاً إلى الإعلانات ومضامينها..وهو يفعل ذلك بجدية المثقف الملتزم..وحرارة الوطني المخلص الذي يسوؤه الخطأ، وتنخش عينه التشوهات، ويستفزه الجهل سواء في الصحيفة والمجلة والكتاب أو على شاشات الفضائيات...وتلك كلها مهارات ومواهب غير الشعر الذي يكتبه.. ويتعامل معه بحذر ويماطل في طباعته، رغم خصوصية ما يبدعه فيه

وحين يكتظ مقيله بأعداد من الأدباء تضيق بهم المتكآت ويضطر بعضهم إلى الاتكاء على أرضية الديوان، يتحول دخان سجائرهم الخانق وضجيج أصواتهم وضحكاتهم العالية إلى سعادة تفيض من عينيه وابتسامته..ويتحول الغبار المعرَّش على شعر رؤوسهم وأجفانهم وأهداب أعينهم جراء اللهاث اليومي في شوارع صنعاء إلى تيجان كتلك التي تضعها آلهة الإغريق على رؤوسها..وإلى هالات من نور يرى وجوههم تشرق بها، فهم في عينيه أيضاً ملائكة وأرواح سماوية تحلق ويفيض عنها ما لا يفيض عن سواها.. ورغم مايكلفه المقيل من تبعات قد ترهق جيبه في بعض الأحيان إلا أن ذلك كله لا يؤثر في سعادته بهم..إنه ينظر إليهم نظرة مسئول عنهم، متعاطف معهم ..متحمس لإبداعاتهم .. منغمس في قضاياهم الثقافية والفكرية وهمومهم الوجودية..فهم في نظره ذخيرة اليمن..ومن الممكن لو توافرت لهم العناية اللازمة أن يكونوا بإنجازاتهم هدايا الحاضر إلى أجيال المستقبل..

بمنتهى البساطة هذا رجل يمتلك أبوة غامرة.. ويمتلك أخوة فائضة على الحد وهو مستعد طوال الوقت لأن يبذل أبوته وأخوته لمن يطلبهما.. ولمن يشعر بأنه يحتاج لهما حتى وإن لم يطلب..إذ هو يتمتع بإحساس عال، بل قرون استشعار تجاه حاجة الآخرين وما ينتاب حياتهم من ضوائق مادية أو معنوية.. ولا يمكن لكل من يعرفون العابد ويصحبونه أن يقارنوا مدى التزامه تجاه حاجات المبدعين والمثقفين بالتزامات غيره أياً كان هذا الغير.. ففي كل الأوقات ومهما تكن الظروف ستجده مستعداً للوقوف إلى جانبك.. كي يخفف عنك عبئك.. أو حتى كي يجنب بك كلية.. وهذا يجعلني أقارنه دائماً بكبار ذوي المروءات

الذين تحفل كتب التراث الأدبي العربي بحكاياتهم ومآثرهم..لكن العابد يتجاوزهم في مواقف كثيرة.. فقد كان ذوو المروءات في التراث العربي يجدون من ينشر أخبارهم ويروي مواقفهم ويذيع تجليات طبائعهم الكريمة.. وكانت قيم المؤسسات الرسمية في ذلك الزمان تمتاز بالخيرية وتشجع على الخير فكان أمثال العابد في ذلك الزمان يتلقون سيولاً من عطاءات الخلفاء والأمراء والحكام والولاة تحت شعار جميل هو: أعينوا ذوي المروءات على مروءاتهم...أما العابد فإنه يفعل ذلك في زمن يجد من يمتلك مزاياه نفسه محارباً في وظيفته ولقمة عيشه.. ومضايقاً في مفاصل حياته كافة.. لأننا في زمن الإستكثار..زمن شعار المؤسسة فيه تجاهه وتجاه أمثاله يتلخص في عبارة واحدة هي: ومن هو حتى يفعل هذا..؟ بل من الممكن أن تؤول أفعاله بوصفها جزءاً من مركزة الذات وتكريس حضورها.؟ أو جزءاً من طموح يشتغل لتحقيقه..

والعابد يذكرني أيضاً بذلك النوع من الأولياء الصوفية الذين اشتهروا بأخلاق العناية..ورصدوا جزءاً كبيراً من حياتهم وجهدهم ومالهم وجاههم وعلمهم في سبيل نفع الآخرين – خصوصا أهل العلم والأدب والفضل والصلاح – دعماً وتربية ورعاية وإقالة عثرات وتسهيل جاجات وتمكيناً في سبل الحياة كلها..

***

كثيرون هم الأدباء الذين كانت لهم مواقف مسبقة من العابد ومن مقيله ومن سيرته ومكانته التي يحظى بها وسيرة مقيله أو منتداه التي ينتشر صيتها في كل مكان..وكانت معظم تلك المواقف تنبني على تصورات نمطية تنتجها عادة أمراض المشهد الثقافي اليمني التي تتغلغل فيها الشللية والاصطفافات غير المبررة وحرائق النميمة والقلقلة والحشوش.ولا علاقة لها جميعها بالواقع أو الحقيقة.. وحين كان الواحد من هؤلاء على مضض وتوجس يجد نفسه ذات ظهيرة في المقيل بدافع من تشجيع أو استدراج واحد منا – دون علم العابد طبعاً – فإنه يسبقنا اليوم التالي إليه ولا تقف شوكة الواحدة ظهراً عند منتهاها حتى يكون قد اختار أفضل زوّة (زاوية) في الديوان..واندمج في حوار مع قاسم

الجمال(شاب تهامي ربّاه العابد كواحد من أولاده)..قبل أن يكون العابد قد تجهز للمقيل..ولا يكون مستغرباً أن نجيء بعد يوم آخر لنجده يشارك العابد وأولاده ومن معه من ضيوف طعام الغداء والقات (يندر ألا يكون للعابد ضيف على غدائه وقاته).. ثم يندر ألا نجده بعد أيام وقد صار من أقرب المقربين إليه.. وسبب ذلك كله صفات العابد وما جبل عليه من سعة صدر، وحب للناس، وكرم فطري، وشخصية جاذبة ومميزة.. وهي صفات تشكل فرقاً كبيراً بين أصحاب المقايل الثقافية المشهورة في صنعاء خاصة وفي اليمن بشكل عام..ثمة مقايل ثقافية ما أن تطرق أبوابها حتى تشعر أن صاحب المقيل لم يفتح لك الباب إنما نزعه ووضع بينه وبينك حائطاً بدلاً منه..وأنك طوال المقيل موضع ريبة وكأنك لم تدخل من الباب إنما قفزت من فوق السور.. وأنك على شفا أن تجبر في أي لحظة لتلقي بنفسك من النافذة.. وما ذلك إلا لأنك قد جئت إلى مقيل مغلق يرتاب في الآخرين، يخشى كل قادم جديد..وهو يرتاب ويخشى..لأنه يتثاقف بالنميمة والحشوش وبأمراض التوجس المترسبة من أزمنة العمل السري والملاحقات الأمنية.. وربما يكون مرتادوه لم يعانوا من متاعب تلك الأزمنة لكنهم تشربوا ثقافة الخوف والتوجس وتركوا خواطرهم نهباً لأوهام لا حقيقة لها..وهذا يجعلها تشعر بالأمان في الحيطة والحذر وغلق الأبوب والنوافذ والشواقيص ووضع اللواصق على كل خدش في الجدران أو في زجاج النوافذ والقمريات..فكل وافد جديد إلى المقيل هو بمثابة شاني يحتمل أن ينتج عنه وجع في الرأس.. وأفكار هذا الوافد الجديد قد تبلبل أفكارهم أو تخيفها فتتحاشاه وتهرب منه كما يهرب قطيع غنم من ذئب مفترس.

أما مقيل العابد فهو من مقايل قليلة تنفتح فيها الأبواب والنوافذ وتسقط الجدران أيضاً.. وميدان الحرية فيه واسع سعة الكون وما يعج به من إبداعات وأفكار وكتابات وثقافات..والعابد واحد من الحاضرين يطرح أفكاره كا لآخرين ويختلف معهم ويختلفون معه..أو يتفق ويتفقون دون أن يخص نفسه بميزة أو يفكرأن يجعل من نفسه كنترولاً لهم أوعليهم..

عشرات الأدباء والكتاب والمثقفين وجدوا في مقيل العابد أخصب واحات المثاقفة.. وأذكى اشتعالات المقابسة وتلاقحات الفهوم..وشهدت متكآته المترعة بالحميمية تخلّق أفكار ومشاريع ثقافية وكتابية لا حصر لها، وفي ساعاته السليمانية ولدت مئات القصائد والقصص والمقالات والنصوص الأدبية الخارجة عن التجنيس.. وكتبت السطور الأولى من روايات وكتب كثيرة تزينت بها أرفف المكتبات فيما بعد.. وما لا يتصوره أويعرفه كثيرون أن العابد تكفل في أوقات مختلفة بطباعة عديد الأعمال الأدبية لعدد غير قليل من الكتاب.. وساهم في طباعة أعمال أخرى..وموّل مادياً غير واحد من الأدباء أثناء إنجاز أعمال كانت ظروفهم المادية الصعبة تحول دون استكمالها..

وهو لا يتحدث بهذا ولا يريد لأحد أن يتحدث به..لكني أكتبه بدافع الحرص على كتابة شهادة منصفة وقول كلمة حق عن رجل أنا شخصياً أدين له أكثر من أي كاتب آخر مع علمي بأنه سيتخذ موقفاً مني بسبب هذا وغيره مما ذكرته في هذا المقال..

وكان العابد ينسج على نفس المنوال حين أنشأ موقع "أشياء" الإلكتروني بعد منتصف عقد الألفية الأول ..فقدكان مشروع الموقع يقوم على محاولة استغلال الفضاء الإلكتروني لمد جسور التواصل بين المبدع اليمني ومبدعي البلاد العربية والعالم.. وكان يفعل ذلك بالتوازي مع اشتغال آخر تمثل في التعريف بأعداد كبيرة من مبدعي اليمن الذين أدخل سيرهم ونماذج من إبداعاتهم في موسوعة شعراء العالم..وقد نجح العابد في عمله عليه نجاحاً رائعاً، إذ تحول الموقع خلال فترة وجيزة إلى واحد من أهم المواقع الأدبية المقروءة، وكان مماجعله مقروءاً حرص العابد على أن يكون الموقع حضناً دافئاً لإبداعات الأحياء..وشجرة وارفة لحياة الراحلين.. أما الإطار العام الذي ظهر به الموقع فهو جهد العابد الذي لا يرضى إلا بأن يكون في أعلى درجات التحدي.. وهذا ما أجج قلوب أعداء النجاح الذين قاموا باختراقه وتدمير محتواه..وكانت صدمتنا أشد وأقوى من صدمة العابد فنحن لم نتصور قط أن يرمي شخص عاقل الخلب على مائدة خير ممدودة للجميع بلا تمييز.

تصرف كهذا كان جديراً بتغيير مزاج رجل تعب كثيراً وبذل من جهده ووقته وماله ما يزيد على طاقته وظروفه..إلا أن ذلك كان يقتضي أن يكون صاحب المشروع رجلاً غير العابد.. الذي لم يزده استهداف الموقع إلا انهماكاً فيما عرف عنه من عناية بأهل الحرف وتماهياً في الرعاية لهم.. فقد اعتبر أن المستهدف بذلك الفعل الشائن ليس موقع " أشياء" ولا العابد نفسه.. إنما المستهدف تلك الكائنات الجميلة من الكتاب والمثقفين والمبدعين الذين تحول الموقع إلى موسوعة ضخمة لنتاجاتهم المتوهجة ضوءاً وألقاً بديعاً..

وليست هذه الصفات وحدها هي ما جعل العابد مركزياً في ساحة مثاقفاتنا وحياتنا الأدبية خلال الفترة من مطلع الألفية وحتى اليوم.. فمن أهم ميزاته أنه مد جسوراً للتواصل بين عشرات المبدعين والكتاب والمثقفين كان ارتياد مقيله سبباً في تعارفهم ثم في لقاءات كثيرة جمعت بينهم..لتتحول المثاقفات المحتدمة بالآراء والأفكار والقراءت وحتى المماحكات والجدل إلى صداقات متينة ووشائج إنسانية وأخوية لا تنفصم عراها..

وما أكثر ما تعطرت أنفاس ذلك المقيل النبيل بتوهجات شعت بها أرواح وعقول وقلوب مبدعين ومثقفين من أمثال أحمد ناجي أحمد، مُحَمَّد المنصور، مُحَمَّد الحاضري، صبري الحيقي، أحمد الزراعي، منصور السروري، عبد الناصر مجلي، سلطان عزعزي، عبد الله الكباري، طه الجند، عبد الإله القدسي، علي جاحز، مُحَمَّد عبد الوكيل جازم، مُحَمَّد عثمان، شهاب اليوسفي، علي هلال القحم، مُحَمَّد عبيد، علي دهيس، أحمد السلامي، مُحَمَّد العديني، رياض السامعي، نبيل قاسم، نبيل سبيع، مُحَمَّد منصور(الاعلامي)، يحيى اليازلي، جميل حاجب، عبد الوكيل السروري، أسامة الذاري، عبد الرقيب الوصابي، عبد المجيد التركي، أحمد سليمان، عبد الحفيظ الخزان، فارس العليي، محيي جرمة، عبد الرحمن السماوي، عز الدين العامري، أحمد أبكر الشحري، أحمد الأهدل، مُحَمَّد الجبلي (رحمه الله)، عبد الرحمن سيف (رحمه الله)، وغيرهم وغيرهم كثير كثير.

هذا غير الذين مروا به في مناسبات مختلفة واحتفائيات بكتاب أو مؤلف أوجاءوا بدافع الرغبة في التعرف على أجواء المقيل رغم أن ظروف عملهم لا تسمح لهم بالمواظبة عليه من أمثال: الدكتور نزار غانم، الكتور حسن الكحلاني (رحمه الله)، مُحَمَّد القعود، جميل مفرح، علي ربيع، وليد دماج، جلال الأحمدي، عبد الرحمن مراد، ياسين التميمي. وغيرهم ممن لا تحضرني أسماؤهم الآن

على أن مقيل العابد أو بالأحرى منتدى العابد الثقافي كثيراً ما تتسع متاكيه لاهتمامات تتجاوز الأدب والإبداع والمثاقفات المتصلة بهما إلى جوانب أوسع تتصل بالفكر الإجتماعي والسياسي والاقتصادي وبالنشاط الحقوقي.. كما أن الحضور فيه يتنوع ليشمل شخصيات وكتاباً يمثلون توجهات سياسية وفكرية مختلفة وناشطين في مجالات الحريات والحقوق.. وهي كلها مجالات للعابد فيها قول ورأي بحكم تجاربه وثقافته واهتماماته وأنشطته الواسعة..

لكل ذلك يظل مُحَمَّد العابد كما قلت مراراً وكما كتبت ذات مرة أكثر من كل هذا إنه ليس مجرد صديق غمرنا عطاؤه حتى ليعز علينا أن نختار ماذا نتذكر منه وماذا ندع. ولا مجرد شجرة لحياتنا..أو ندى لعطشنا..أو ملاذًا لأرواحنا الهاربة من أذى الحياة والناس.. وهوليس مجرد مخزن لأسرارنا.. وجدار نعلق عليه ذكرياتنا..كما أنه ليس شغفاً عابراً عشناه وقتاًمّا..ولاوجود اً موسمي الإخضرار ننعم به ثم يجف وينقضى.. إنه أكثر من ذلك وأوسع دلالات ومعاني.. أكثر من أن نقول الأخ والأب والصديق أو الإنسان. .ربما بسبب ذلك نعجز -أعجز شخصياً – كلما هممت بالكتابة عنه، ربما أعجز ليقيني أنه لا يجدر بمقامه الا كتاب كامل ولا أظن كتاباً يستوعب مزاياه.

الحداد.. البدوي
الذي باع بندقيته ليطبع كتاباً:

ما أكثر ما استهوتني صحبة الشاعر والروائي والموثق الكبير مُحَمَّد سالم الحداد..أهي طبيعتي الباحثة عن شبيهاتها.. أم شغفي بالمختلفين من المشتغلين بالإبداع والكتابة...

لربما كان في الأمر شيئ من هذا وذاك، غير أن الحداد كان مذ عرفته أوسع عالَماً مما ذكرته... إنه نموذج لمبدع وباحث عصامي حفر طريقه الخاص بأظافره.. وبنى نفسه بجهد ذاتي لافت..وعانى ظلم الجغرافيا.. وتعالي الموهومين..وجهامة المؤسساتيين..لكنه مع ذلك بقي متماسكاً محافظاً على احترامه لنفسه وإبداعه لم يبتذل ولم ينكسروا لم تفتر حماسته طرفة عين..ومثّل بدأبه ومثابرته قدوة للطامحين إلى النجاح في ظروف صعبة.وبيئة غير مواتية..وهذا يكفي في بلاد غير بلادنا لتقدير كاتب من هذا الطراز، وإشباعه حفاوة وإجلالاً بل إقامة التماثيل له.. لا أن يتم اعتباره مؤذناً في مالطة..أو يقال له: من داري بسعيدة في سوق الحطب.؟

****

ولد مُحَمَّد سالم الحداد في نصاب محافظة شبوة سنة 1957م، ونشأ في كنف والده، في بيتهم الذي يقع في وسط المدينة.. وتلقى تعليمه الأولي في مدرسة الإحسان الخيرية في المدينة نفسها، حيث درس القرآن الكريم وعلوم الفقه والحديث.. وما أن أجاد القراءة والكتابة حتى وجد نفسه مهووساً بكل مكتوب تصل إليه يده.. وعلى ضنك الحياة وفقر زمن الطفولة..فإنه بالإصرار كان يتلمس طريقه إلى المعرفة بكل الأساليب الممكنة.

في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمره كانت بداية رحلته الحقيقية مع القراءة، التهم السيرة الشعبية حمزة البهلوان التي أثارت بعوالمها التخييلية عقله الطفل..ثم وجد نفسه

دون تخطيط أوتوجيه يعانق رواية إحسان عبد القدوس (في بيتنا رجل) التي أحدثت أثراً حاداً في وجدانه المراهق، وكان وقتها يدخل في الخامسة عشرة من عمره ويواصل دراسته في مدرسة الإحسان الخيرية، وهي مدرسة دينية كما هو معروف..وعند هذا المنعطف بدأ يواظب على قراءة مجلة العربي الكويتية التي لم يكن يستطيع شراءها. بل كان يستعيرها من أولاد الموسرين ومن العائدين من الاغتراب في مدينة عدن..

كانت مجلة العربي بالنسبة له مدرسة متكاملة توفر له وجبة شهرية من الإبداع والمعرفة، فيقرأ فيها الشعر والقصة والنقد والاستطلاعات الباذخة والدراسات الفكرية والموضوعات الثقافية وسير الشخصيات المميزة إلى جانب أنها كانت تفتح عينيه على العالم وعلى جماليات الصورة.. وتجعله يعيش داخل المشهد الثقافي العربي والعالمي الواسع – رغم عيشه في مكان ناء–..

ومن واقع تماهيه مع مجلة العربي ومجلات أخرى تعرَّف عليها لاحقاً.. بدأ يحلم أن يكون كاتباً.. وقد أصر على أن يتحول حلمه إلى حقيقة ففي نهاية سنة 1971م أو مطلع سنة 1972م اختبر أول محاولة للكتابة، وقد تجلت تلك المحاولة على شكل قصة قصيرة بعنوان (77 قبلة في المقبرة)، وهي قصة يتضح من عنوانها مدى تأثره بما يقرأه في العربي وغيرها من المجلات..

ثم استمر بعد ذلك يكتب القصص القصيرة..إلى جانب محاولاته في الكتابة الشعرية.. غير أن معظم ما كان يكتبه من القصص في بداياته تلك كان لا يتجاوز العشرين سطراً..والغريب أن ميوله للتوثيق وإحساسه بإمكانية الاشتغال على الابداع اتكاءً على موروث المكان وتفاعلات الحياة اليومية فيه قد بدأت منذ ذلك الوقت المبكر.. وصار ينحو هذا المنحى بعيداً عما فعله في قصته الأولى –أقصد إنجاز محاولات تتجلى كصدى للقراءات ليس غير كما يحدث لمبدعين كثيرين في بداياتهم..

في إحدى قصصه الأولى يرصد عادات المكان وناسه الذين كانت حياتهم تقوم على التساند المعلن والملزم للآخرين بما فيهم من يتم التساند معه..فعندما يبني شخص بيتاً

جديداً يتناوب جيرانه الواحد بعد الآخر القيام بكفاية العمال (الشقاة) من مأكل ومشرب ليوم كامل.. وكان صاحب الواجب يصعد على سطح دار ويقف منادياً بصوت عال منغوم " جباكم يا شقاة الصبوح والغداء والقهوة من فلان بن فلان الفلاني ". الحداد كان منذ طفولته المبكرة شغوفاً بهذه العادة التي كانت توفر له فرصة لتناول بعض الفتات مما يقدم للشقاة..لكن طقوس العادة نفسها كانت تثير خياله..بل إن رصده لها واتكاءه المبكر عليها وعلى غيرها من المظاهر في كتابات إبداعية تمثل دون شك المداميك الأولى لبناء تجربته الأدبية كما تبلورت وتجلت فيما بعد..وهي تجربة تقوم على ثلاثة أضلاع: الشعر، والسرد، والتوثيق.

****

طفق الحداد يمارس الكتابة باحثاً في تلك البيئة النائية عمن يشاركه ما يبثه للورق من كلام تتخالج به روحه..وراح يحاول خلق متلقين لوساوسه من أصدقاء ورفاق عمر، وكان يستغل المناسبات كالأعراس مثلاً ليأخذ بعض الشباب إلى جانب من المكان أو ساحة مجاورة ويبسط أمامهم ما يكتبه من محاولات قصصية أو شعرية..وكانوا يستجيبون له معبِّرين عن إعجابهم رغم عدم قدرتهم على تقديم رأي تقييمي لتلك المحاولات..ولربما كان يعجبهم منحى التوثيق لعوالمهم فيما يسطِّره صديقهم العجيب..وقد استمر بحثه عمن يشاركه خوالجه، بعد أن تزوج وانتقل من شبوة إلى مأرب.. التي استقر فيها حتى اليوم..

****

تكوين الكاتب مُحَمَّد سالم الحداد الذي تواتر ذاتياً أتاح له تقبل كل أشكال الكتابة دون تحفظ أو مواقف قبلية..فقد حاول سنة 1973م أن يعبِّر عن استجابة عواطفه لمعركة العبور المجيدة التي خاضتها القوات المصرية وفوجىء بنفسه يكتب قصيدة نثر..

لكن الحداد الذي ظلمته الجغرافيا وحاصرته ظروف العيش في مجتمع بدوي ظل يعايش تجاربه باحثاً عن مخارج لها مدة عشرين عاماً تلت أول كتابة عزفتها أنامله... فقد

نشر أول نص شعري سنة 1992م وكانت بعنوان (على هذه الرابية) وكانت صحيفة الأمل هي أول مبتهج بكتاباته..

غير أن سنوات المعاناة بعيداً عن منافذ النشر منحته فرصة جيدةً لتنمية معارفه وتوثيق علاقته باختياراته في عوالم الكتابة، أما ولادته الحقيقية فكانت سنة 1997م حين أصدر كتابه التوثيقي الأول (فنون الزامل والمهيد في اليمن) الذي لم يقتصر جهده فيه على الجمع فحسب، بل عززه بدراسة النصوص وتحقيقها باذلاً في ذلك وقتاً طويلاً ينم عن إحساس بالمسئولية وإيمان لا حدود له بما يفعل، وليس أدل على إيمانه وصدقه من إقدامه علي بيع سيارته من أجل إنجاز التوثيق الذي كان يقتضي الانتقال إلى مناطق الرواة وبيئاتهم بما يستلزمه ذلك التنقل من مصاريف باهظة..ثم إقدامه وهو البدوي المعتز بسلاحه على بيع بندقيته كي يطبع الكتاب..وذلك تصرف لم يسلم من المؤاخذة عليه بيد أنه لم يبال.. لأن تصرفه هو الصواب ولأنه بدون الكتاب والاشتغال به لن تتخلص اليمن من السلاح وما يجلبه عليها من ويلات تمزق لحمة المجتمع، وتعوق التنمية وتقف في وجه الحياة المدنية.

بعد كتابه (فنون الزامل والمهيد) انفتح المجتمع الأدبي في العاصمة صنعاء للحداد وتخايل جهده على منابر المؤسسات الثقافية مثل مؤسسة العفيف واتحاد الأدباء والنادي الأدبي وغيرها، كما توالت إصداراته (رتوش الصبابات) سنة 1999م وهو ديوان شعر يعبر عن جزء كبير من شهقات روحه، وتحرقات وجدانه، مضافاً إلى هذا مجموعة قضايا ذاتية وعامة عاشها وتمازجت بها حروفه.. وقد تبعه ديوان آخر هو (قاعات وإيقاعات) سنة 2003م، ليعود بعدها إلى الاشتغال في التوثيق فيقدم (أسمارشبوة..دراسة ونقد) سنة 2003م..قبل أن يصدر ديوانه الشعري الثالث (أبخرة الرؤى) سنة 2004م حيث عبَّر من خلاله عن نضج تجربته الشعرية ورؤيته للكون والحياة وشعوره بأنه من موقعه في مأرب يقدم منطلقاً جديداً للإبداع وإمكانية موازية للتنوير:

من سهلنا الشرقي تنبلجُ الرؤى

وتشعُّ نوراً

يُجهض الظلماتِ

ياشاري البرق المُبشِّر بالندى

أيقظتَ قلباً هادئ الخلجاتِ

خمنتُ ذاك البرق

فوق مرابعي

وخيامهم ويقيّت الفلوات

وفي تلك الفترة كان قد بدأ ينغمس في مشروعه الكبير المستمر حتى لحظة كتابة هذه السطور (منتصف يوليو 2014م) أعني توثيق التراث الشعري بمختلف تجلياته، من قصيد وزامل ومهاجل وحزاوي وأمثال وحكايا وقصص وشخصيات مبدعة وأخرى راوية، متعلقة بهذا التراث المتناثر في عشر محافظات تقع كلها في النطاق البدوي، أو على تخومه في اليمن..وقد أصدر من هذا المشروع ثلاثة أجزاء من خمسة أبرزها "شعراء من حضرموت" دراسة تحليلية ونقد "و"من عيون قصائد وزوامل الشعر الشعبي في اليمن"..و"نفحات من الشعر اليافعي" والبقية في طريقها إلى الظهور..ويعد الحداد أول موثَّق يمني يشتغل على موروث منطقة لم تطأها أقلام الدارسين اليمنيين من قبل.. أقصد محافظة المهرة.. وأعني هنا الدارسين من اليمنين من غير أبنائها، وإلا فقد درستها أقلام مهرية بجهد المقل كما درستها أقلام أوروبية كثيرة.. لكن الحداد كان أول الملتفتين إليها كموثق.. وقد ذهب إلى هناك عدة مرات ليقترب من تراثها شعراً وأمثالاً، جامعاً النصوص في لغتها المهرية وإلى جانبها ترجماتها بالعربية، وهو عمل نستطيع تخيل مدى صعوبته والوقت والصبر اللذين احتاجهما منه، ناهيك عن التكاليف المادية وصعوبات التنقل وما إلى هنالك...

وتتقدم تجربة الحداد لتحفر لنفسها نهراً آخر كنا قد بدأنا الحديث عنه من خلاله، أعني نهر الإبداع السردي الذي عاد إليه ناضجاً هذه المرة من خلال روايته " منظار طفل "

الصادرة سنة 2006م وهي رواية مهمة جداً ظلمتها الصورة النمطية التي اعتاد المشهد الثقافي اليمني على رسمها لكثير من المبدعين والكتاب، وهي صورة نمطية لامبالية تخترع انطباعات بتجريد هؤلاء المبدعين من أحقية الحفاوة النقدية، وتتعامل معهم تعامل المزارع مع الأعشاب الضارة إن لم يستطع اقتلاعها فإنه لا يرحب بها ولا يني يستنكر وجودها بين زرعه ويعلن عن ضيقه بها.

"منظار طفل " تكاد تكون سيرة روائية للحداد تصور حياته الأولى طفلاً صغيراً في بيئته البدوية..وتدور أحداثها عند مطلع الستينيات من القرن الماضي حيث يترك الأهل الطفل وحيداً في الخيمة أو البيت..لكنه يظل طوال كل يوم من أيام وحدته تلك يرصد العالم من ثقب في الدار..تمر أمامه الوجوه والأشكال رجالاً ونساءً كباراً وأطفالاً وتمر المواشي، ويظهر السوق بدكاكينه القليلة، وتتبدل ساعات النهار..يتغير الظل.وتتوهج الشمس أو تتوارى وراء السحب..وتشتد الرياح وتثور الزوابع. وتعبر الطيور.والطفل يراقب..تتكشف لعينيه أسرار الحياة.. ويرى عجائب التصرفات الإنسانية حين يظن الإنسان أن لا أحد يراه..وتفاجئه تجليات الجسد الأنثوي التي تكشفها مصادفات الطبيعة دون قصد، ويصور الحداد ارتباكات الطفل وهو يشاهد نتؤات النساء التي لا تستطيع الملابس الشفافة إخفاءها، كما يصور بعذوبة بالغة مشاعر الطفل ودقات قلبه العاصفة حين تأتي صالحة إلى بيتهم...وتدور الحوارات بين الطفل ونفسه تستفسر وتفسر وتعبِّر عن حيرتها أو عن فهمها العفوي لما تشاهده..

فكرة الرواية مذهلة..وقد سألت الحداد إن كان قد قرأ رواية " الجحيم " لهنري باربوس.. الرواية الشهيرة التي تدور أحداثها في أحد فنادق باريس حيث يتلصص نزيل من خلال ثقب في غرفته على نزلاء الغرفة المجاورة مستكشفاً تصرفاتهم وأفعالهم حين يكونون فرادى أو أكثر من شخص.. ويكتشف الحياة العارية بكل ملاذها وما تحمله من تداخل إنساني أو مفارقات وجودية مثل الخيانة والمرض والموت.. وفي خضم ذلك كله ينطلق خياله بتشظِّيات فوضوية لا كابح لها، وهي من أشهر روايات العبث التي توقف عندها كولن

ويلسن في كتابه الذائع الصيت " اللا منتمي " باعتبارها عملاً مفصلياً بين الأعمال المعبِّرة عن هذا التيار.

لكن الحداد لم يقرأ رواية الجحيم.. وروايته المتسمة بالبساطة والعفوية.. والتي يكمن جمالها في اتكائها على نوستالجيا الحنين مقارنة بعوالم رواية باربوس الفلسفية يتفجر موضوعها من نفسه من ثقافته وخبراته الشخصية، وقدراته كمبدع على ارتياد عوالم مميزة وتكييفها للسرد..لكن "من يقرأ لعريج خطها" كما يقول المثل.. فالحداد من أبرز مبدعي هذه البلاد الذين يتعرضون للظلم والتهميش، وانعدام الحفاوة من النقاد..فقد تم تنميطه وفقًا للهجته البدوية وانتمائه إلى مأرب وشبوة ولبسه الجنبية..ووضع نهائياً في خانة الكتاب الأدعياء الذين يترفع الكتاب الحقيقيون عن مقاربتهم حسب الوهم الغبي السائد بين الكتاب القاطنين في العاصمة بشكل خاص..

****

وللحداد رواية أخرى اسمها "اغتيال السبات" ومجموعة شعرية هي "نتوءات البراكين".. وثمة كتابات أخرى للحداد في موضاعات شتى.. وثمة كتب جاهزة لتدور بها المطابع، على رأسها كتاب طريف اسمه " ابتهالات الشعراء الشعبيين" يتتبع فيه لحظات التأزم الوجودي لأولئك الشعراء ولجوئهم العفوي إلى خالقهم معبِّرين عن أزماتهم بشعر تخشع القلوب لرقته وتجلياته السماوية المذهلة.

فوق كل ذلك فقد حمل الحداد لسنوات طويلة همَّ محافظات على رأسها محافظة مارب، وهي محافظات طالما هُمِّش حضورها في المحافل والمهرجانات الأدبية اليمنية..وفي أنشطة مؤسسات رسمية ونقابية مهمة مثل اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين ووزارة الثقافة..وقد تجشم عناء ملاحقة فعاليات تلك المؤسسات في صنعاء وعدن وغيرهما سنوات طويلة قبل الوحدة وبعدها رافعاً صوت الهوامش ومصراً على حضور فاعل لها تضعه تلك المحافل في اعتبارها، وتعترف به المؤسسات ضمن برامجها واهتماماتها..وليس غريباً إن ذكرت أن أول تعرفي على الحداد قبل واحد وعشرين عاماً كان في مؤتمر اتحاد الأدباء

والكتاب اليمنيين سنة 1993م..وكان ذلك في قاعة مركز الدراسات والبحوث اليمني بشارع بغداد.. كان الوقت بعد المغرب، وكان ثمة بدوي يلبس ثوباً باهتاً وعسيباً وشنطة في يده وقد وقف يصرخ محتجاً على تهميش محافظات مأرب والجوف وشبوة، واستثنائها من أي تمثيل في مؤتمر الاتحاد، كما في عضويته ويعلن نفسه ممثلا لتلك الجهات المظلومة..

ولعل أكثر من يعرفونه اليوم قد عرفوه مثلي وهو يشغب لسنوات طويلة من أجل استحضار عالم واسع من تلك المناطق البعيدة عن المركز يريد لها تمثيلاً في اتحاد الأدباء..ويقدم لوزارة الثقافة جهده المتواصل من أجل توثيق تراثها.

****

على المستوى الإنساني عرفت الحداد على مدار عقدين من الزمن.. وأعترف أنه يدير رأسي دائماً بتضحياته من أجل مشروعه الإبداعي وتحمَّله من أجله.. فحين با ع سيارته وبندقيته لإنجاح هذا المشروع كان الناس يعيِّرونه بما فعل ويعدونه أحمقاً..حد أن سياراتهم كانت تعبر به في الطريق وترفض أن تقف له لتقله على يدها، استهانة بقدره بعد أن فعل فعلته..أيضاً باعتباره في نظرهم منحوساً تعيساً با ع سيارته وبندقيته في سبيل شيء غامض أو تافه لا نفع فيه.

ومازال الحداد مصرا على البذل والتضحية رغم شح الظروف واتساع مطالب العائلة "لديه عشرة من الأبناء بين ذكور وإناث".. وانعدام العناية والرعاية المؤسسية.. حتى وقد صادر المرض في الأشهر الأخيرة جانباً من قوته بعد تعرضه لجلطة دماغيه.. فإنك تلقى الحداد وهو بهيكله الضخم يتحايش في مشيته.. وفيما تتوقع أنت منه أن يبدأ في الشكوى مما يعاني منه، فإذا به يحدثك عن مشروع كتاب جديد..وينثر حولك زهور آماله بإنجازه.

تحفل صحبتي الطويلة للحداد بمواقف لا حصر لها..منها ما تكشفت لي فيه ميزاته الدالة على الوفاء والمروءة والصدق والرجولة.. ومنها ما يتعلق بطرائف وحكايات ومواقف، تحتاج إلى وقفات طويلة يسمح فيها الزمان للكيبورد أن يسترسل ليسطِّر ما يليق برجل قل من أخلص لهدفه كما أخلص..وهو رغم كل ما عاناه يظل وفياً لمبادئه وما فطر عليه وتربى

فيه فهو عدو للبخل والسماجة والغدر والقبح والنميمة..ينحاز للجمال والخير والشهامة والحب..ويتمتع بحس فَكِه.. وظُرف بالغ..والجلوس معه متعة لا تنقضي لخفة روحه..وحلاوة حديثه..وكثرة ما يحفظ من أشعار وأمثال وحكايا وطرائف ونكات يوردها ممزوجة بنبض قلبه الطيب وخبراته الواسعة في الحياة..

عبد اللّه علوان
نصير العصافير

لم يكن عبد الله علوان مجرد أديب من أدباء اليمن بالنسبة لنا - كان عبد الله علوان أكثر من ذلك بكثير، كان أباً وأستاذاً وصديقاً وموجهاً وناقداً ومقدماً لنا إلى المشهد الثقافي، وإلى الناس، وإلى أنفسنا أيضاً..

ولم يكن عبد الله علوان مجرد كاتب كبير، ولكنه كان إنساناً كبير القلب واسع الصدر والروح والعقل، صاحب علم ودراية..ومتصفاً بصفات الفضلاء من تسامح وتعال على الصغائر، ومتسماً بالمروءة وأخلاق العناية..

وهو إلى جانب كل ذلك كان يجمع بين عدد من الصفات التي تبدو للناظر إليها بغير إمعان وتأمل مجموعة من النقائض..لكننا حين نسبرها تتبدى لنا عالماً من الدوائر المتكاملة التي تتشكل منها شخصيته، وتتضح بها صورته..فقد كان يجمع بين الشجاعة الأقرب إلى التهور والتواضع المتسامح إلى درجة مدهشة... وكان يجمع بين حدة الرأي – خاصة حين يستثار - وقوة الصبر حين تتكنفه المكاره.. وتشتد عليه غلبات الرجال...

كانت شجاعته تجعل أصدقاءه... وتلاميذه في مأمن معه فهو لا يتخلى عن صاحبه تحت أي مبرر وفي أي ظرف.. بل إنه ليجبرك حين يقف موقفاً يناصرك فيه على أن تحاول أنت كبح جماحه..وكان تواضعه يجعل باب المسامحة والعفو واللا مبالاة بإساءات الآخرين إليه طبعاً من طباعه الراسخة..وكانت حدة رأيه وعدم قابليته طبعه للتخلي عن قناعاته تجعله هدفاً لعداوات وأعداء لا يتحلون بصفات النبل والتنزه عن إيلام الآخرين، كما يتصف هو..فكانوا ينالون منه إقصاءً وتهميشاً ونبذاً واستبعاداً..وتسخيفاً لمنهجه في

الكتابة، ومقترباته من النصوص، وآرائه في المشهد الثقافي، ووجهة نظره في الحداثة والكتابة الجديدة..وقراءاته للأفكار، ورؤيته للعالم إلى آخره.

ولأنهم كانوا أكثر عدداً، وأوسع نفوذاً في المؤسسات السياسية والثقافية والإعلامية..ناهيك عن تحليهم بالقدرة على اجتراح القبح...واستمراء ضروب الكراهية..فقد كانوا يحكمون طوق الحصار حوله بدءاً من محاولات التقليل منه ناقداً ومثقفاً وقيمة فكرية..مروراً باستثنائه من المشاركة في كل ما يستطيعون التحكم فيه من جوانب المشهد الثقافي والأدبي وعلى رأسها المشاركة في الفعاليات والمهرجانات وإتاحة النشر والظهور الإعلامي.. و الإيحاء بعدم التعامل مع آرائه وكتاباته كمرجعيات في الدرس الجامعي أو كموضوعات لأطروحات جامعية، وصولاً إلى موارد الكسب والحقوق المكتسبة التي يجدر بمن هو مثله، علماً وأدباً وثقافةً وفكراً..أن ينالها..

وهنا كانت تتكشف قدرات عبد الله علوان على الصبر..بمقدار مايتكشف ذلك الرجل البسيط المتواضع الزاهد عن كبرياء وعناد يطاول شامخات الجبال...

كان يعرف أن زيارة واحدة لفلان من الأدباء، أوكتابة موضوع مرضي عنه، أوحتى السكوت على الاعتلالات التي يخلقها للمثقفين وللساحة الثقافية بسبب إصراره على أن يتم كل شيء وفق رؤيته ووجهة نظره وما يخدم استراتيجيته ومصالحه.. ستعفيه من عناء كثير..أقله الحصار والعنت الذي يلقاه جرّاء التضييق على تلاميذه والمتصلين به — خاصة أولئك الذين يخافون وهما أو إيحاءً أو حقيقة – أن قربهم منه بأي شكل كان يعني أن يخسروا ميزات كثيرة قد توفرها لهم جهات لا يعجبها عبد الله علوان، ولا ترحب بمن يتصلون به على أي حال من الأحوال..

وما أكثر ما تلقى عبد الله علوان من أدباء وكتاب ومثقفين سهام النقد الجارح، والكيد المؤذي، والتهم الملفقة الفارغة..لا لشيء إلا ليثبتوا لجهات بعينها أنهم بعيدون عنه، مجافون له، و أنهم يبلون البلاء الحسن في النيل منه..وأنهم يستحقون أن يكال لهم الرضا، وتصب آياته عليهم صبًا..

مع هذا فهو لم يكن يبالي بهم..بل كان يتخذ من كل ذلك وقوداً لعزيمته القوية..ووعيه النضالي..ورغبته الدائمة في الكتابة والإنجاز..وضرورة أن يقول ما لديه بوضوح وشفافية وجرأة تضع إصبعها في عين أي معترض عليه بالباطل..ولعلنا اليوم ونحن نتأمل بقاءه الباذخ فينا رغم رحيله المفجع.. نستطيع رؤيته على نحو أفضل من رؤيتنا له حين كان جسده معنا..

اليوم نستطيع القول بيقين قاطع بأنه كان صديقاً حقيقياً لعصافير الإبداع..وأباً مثالياً لزقزقاتهم.. كان سنداً حانياً لمحاولات طيرانهم الأولى..يقيل عثراتهم، ويفرح بتوهجاتهم.. كان رافعة لهم وحضناً دافئاً لتطلعاتهم حين كانت الدنيا تتجهمهم..وركناً شديداً حين كان يجبههم جهل المشهد الثقافي بهم أو تجاهل بطريركياته لهم..

لقد كتب عبد الله علوان عن عشرات الأدباء والأديبات من كتاب الشعر والسرد والمسرح والنقد وغيرها من فنون الكتابة..وسجل أكثر من جميع كتاب اليمن – حد علمي – حالات احتفاءات أولى بكتّاب وكاتبات جدد على ساحة المشهد الثقافي اليمني بدافع ذاتي..لا بطلب منهم أو حتى إيحاء بطلب..

احتفاؤه بأي كاتب جديد وبطريقته تلك التي غالباً ما تفاجىء الكاتب وهو يخطو خطواته الأولى في عالم الكتابة ولا يحلم حتى بمجرد التفاتة تشجيع من قامة عملاقة كقامة عبدالله علوان..كانت تقدم دافعاً مهما ورائعاً لأولئك الكتاب..وتمنحهم ثقة غير عادية بأنفسهم..غير أن احتفاءه بأي قادم جديد لم يكن يقف عند ذلك الحد..بل كان يرفد الكتابة عنهم بمصاحبتهم ومد جسور صداقة متينة بينه وبينهم..فيعودهم على الالتقاء الدائم به..وارتياد بيته حيث ينهلون من مكتبته العامرة بالكتب وأكاد أجزم باستحالة أن تجد كاتبا ممن اتصلوا به وليس عنده كتاب أو أكثر من كتاب من كتب عبد الله علوان استعاره ولم يعده أو استعارها ولم يعدها. فوق ذلك كان يفتح لهم جيوبه بكرم وتواضع لا ادعاء فيه ولا استعراض...وإلى جانب المثاقفة والاستفادة المباشرة من نقده وتوجيهه وتعدد عوالمه المعرفية وموسوعيته كان يحضر فعالياتهم ويقدمهم على منابر المؤسسات الثقافية

ويذكر أسماءهم في معارض وسياقات كتابية أخرى تخص غيرهم.. حتى حين كانوا يختلفون معه في الرأي لم يكن ذلك يؤثر في حميميته معهم. بل كان يمعن ببساطة فائقة في مناقشتهم بندية واحترام.. ويعاملهم بمحبة وإكرام..

بعبارات أخرى..كان الرجل يشكِّل لكل قادم إليه منظومة دعم ثقافي ونقدي ومعنوي ومادي متكاملة.. وكان يفعل للواحد منا كل ذلك دون أن يشعره به..فأنت في خضم تواصلك اليومي معه واستعارتك من كتبه وقراءتك معه..وقراءة مايكتبه عنك أو عن الآخرين. أما يكتبه في موضوعات ومعارف أخرى، وأكلك في بيته وجلوسك معه في المقهى، واستمدادك المال من جيبه حين يخلو جيبك من المال..تنسى أن هذا المتواضع الكبير يعطيك كل شيء ولا يأخذ منك شيئاً.. مع ذلك فهو يبدو سعيداً بك أكثر من سعادتك به.

لهذا السبب. بل لهذه الأسباب التي تنضاف لبقية صفاته الإيجابية ككاتب كبير متعدد الاشتغالات خدم العلم والمعرفة والإبداع والنقد والمشهد الثقافي لأكثر من أربعين عاماً بدأب لا ينقطع..وعصامية تثير الإعجاب، فإن شعورنا جميعاً بالعرفان تجاه عبد الله علوان يظل ناقصاً.. وإذا كان هو قد أسهم في ذلك منذ البداية حين رسم تعامله معنا على النديّة..ولم يسرِّب إلينا أي إحساس بجميله علينا..ولم يلزمنا بأستاذيته لنا ولا حتَّم علينا ألقابه أو منّ علينا بأياديه..ولم يكن ممن يعاقب من يخرج عليه أو يتساهل في حقه حتى بالعتاب الجميل المازح....فإن تعامله معنا على ذلك النحو لا يبرر تقصيرنا في حقه..بل يفترض أن يؤكد واجبه ويضاعفه عندنا..

ثمة عيب إذن في ضمائرنا نحن..ثقافتنا وسلوكياتنا تقوم على الجحود والنكران والأنانية وقلة الإنصاف.. بعضنا بعد أن رسَّخت أقدامهم في الساحة الثقافية كان يتعامل مع عبد الله علوان بوصفه محطة أولى مرّ بها ثم فارقها.. وأن من طبائع الاشتغال بالأدب والفن أن تجد في محطات حياتك الأولى من يقف إلى جانبك.. بعضنا الآخر لم يحاول الاحتفاء به..بل كان يقف ضد أي توجه للاحتفاء به لظنه أن في ذلك مجازفة ثمنها كبير

لأنها قد تغضب آخرين لا يعجبهم عبد الله علوان..وبعض ثالث منا كان مازال يرتبط به ارتباطاً وثيقاً ويكن له المحبة والاحترام والتقدير ويرغب في الاحتفاء به..لكنه يستسلم لانشغالاته ركوناً على أن في العمر متسعاً لذلك..

إن التدهور السريع لصحة الأستاذ عبدالله علوان ومارافق ذلك من عدم اهتمام رسمي به وبمرضه..ثم رحيله الفاجع صبيحة الثلاثاء 25 مارس 2014م ومشهد وداعه الخالي من حضور كان يجب أن يحتشد فيه تلاميذه، وأصدقاؤه إلى جانب من يحتشد من الجهات الرسمية والشعب.. أقصد الاحتشاد الذي يليق بقامة كقامته الأدبية والفكرية والإنسانية..قد فتَّح عيوننا.. على عيوبنا عيوب واقعنا الثقافي والاجتماعي والسياسي والانساني أكثر من أي وقت مضى.

عبدالله علوان ومشرطه الذي يجرحه دائماً

كان عبدالله علوان يعيب على من يسميهم " نخبة النخبة الأدبية " أنهم يتخلقون في تعاملهم مع المشهد الأدبي والثقافي بأخلاق السياسة، و سبب عيبه لهم بكل بساطة هو أن السياسة لا أخلاق لها..فهي دائماً لؤم مموّه، أو سفالة أنيقة، أو وساخة ملفوفة في ورق سلوفان، وهي في كل الأحوال كذب رشيق يزيف كل شيء..

أما دليله على ذلك فهو أنهم لا يعارضون السلطة، بل يتقربون منها ويفخرون بتقريبها لهم، وأنهم يكسبون من ذلك القرب المناصب والجاه والمال والتكريس والشهرة، مع ذلك فهم لا يخدمون المشهد الثقافي ولا يستخدمون قربهم من السلطة لخدمة الأدباء والمبدعين، لأنهم من خلال تحليهم بأخلاق السياسة الدنيئة يعملون كل ما بوسعهم لإبعاد كل مثقف أو كاتب لا ينتمي لمجموعتهم من الوصول إلى أي منصب، فهم لا يريدون لأي أحد أن يعرف خفايا صلاتهم بالسلطة..ودناءة التواطآت التي بينها وبينهم.. ثم هم ضد أية مبادرة أو سعي أوجهد لتحسين أوضاع الكتّاب والمثقفين..فذلك كما يفكرون جدير بتحريرهم من الفقر المذل، ومن العجز عن الحركة، وسينزع الأغلال التي تمنعهم من السفر ورؤية العالم والاختلاط بالآخر والتواصل مع الأدباء العرب وغيرهم من أدباء الدنيا..وهذه خاصة أهم المحظورات لأنها تصيب في الصميم احتكارهم للحديث باسم اليمن وأدباء اليمن..

وكان عبدالله علوان يرى أن نخبة النخبة تلك كانت دائماً وراء كل الويلات التي يعاني منها المبدعون في اليمن، وهي رغم كونها أقلية داخل المجتمع الأدبي اليمني، فإنها لا تتحلى بسمات الأقليات المسيطرة، سمات الأقليات المسيطرة أنها ذات قدرات على إيجاد الحلول للتحديات وللمشكلات، وأنها تسيطر على الأغلبية لأنها تقدم للأغلبية النفع، أما

هؤلاء فهم يصنعون العقبات في طرق المبدعين، هم يخلقون التحديات ويعملون على تفاقم المشاكل، ثم من قال إنهم جزء من المشهد الثقافي والإبداعي..هم شوية متسلبطين أدعياء.. استباحوا جهد المبدعين وادعوا الزعامة عليهم وراحوا ينطقون باسمهم..

ولا أدل في رأيه على كونهم ليسوا جزءاً من مشهدنا الثقافي من أنهم لا يتعرضون لما يتعرض له سائر أفراد هذا المشهد.. فمنذ مطلع تسعينيات القرن العشرين وحتى نهاية العشرية الأولى من الألفية الجديدة أصيب عدد كبير من المبدعين اليمنيين بالجنون.. هل رأيت أحداً من هذه النخبة مجنوناً؟

ولم يكن عبد الله علوان ليكف لحظة واحدة عن دأبه على تعرية تلك الشلة المستعلية على المشهد بغير ما وجه حق..وكانت نقاشاته لنا في مثاقفاتنا معه تتحول من جانبه إلى امتداد لما يطرحه في كتاباته..وحين كنا نخالفه الرأي يقول ضاحكاً: لقد استغلوا سذاجتكم وضحكوا عليكم..لقد بدأ الضحك عليكم وأنتم على مقاعد الدراسة في الجامعة.. وقد أخذكم الوهم بهم فلم يخطر على بالكم حتى وقد تحولتم إلى كتاب معروفين أن تستكشفوا معايبهم وجهلهم الفاضح، وزاد الطين بلة انخداعكم بالحداثة المزيفة..

وحين نقاطعه: مالها الحداثة يا بن علوان..

يقهقه متهكماً:

- الحداثة أكبر عملية تزييف عرفتها الثقافة العربية..خذ أي كتاب من كتب هؤلاء فلن تجد إلا تأويلات متنطعة، وتخريجات ممجوجة.

بالنسبة لنا لم يكن ابن علوان دائماً على صواب.. لكن هذا رأيه.. وهو أديب وعالم كبير ويجب أن نحترم رأيه..حتى وإن خالفناه..

كانت مؤاخذاته على النخب المشتغلة بالنقد تتحول إلى عواصف لا تقف عند حد -على سبيل المثال - كان يعيب تعليلات النقاد لخروج الكتاب على قواعد اللغة والنحو والصرف، ويعيب تعليلاتهم لخروج الشعراء على قواعد العروض الخليلي.. ويعتبر تلك التعليلات مهازل لا دخل لها بالعلم وكثيراً ما كان يصرخ مشمئزّاً كأنه يعيّرنا بهم: يا

أولادي علماء العروض الحديث، مثل نازك الملائكة وعز الدين إسماعيل ومُحَّد مندور يدرسون أعاريض الشعر العربي وضروبه وأوزانه وقوافيه ليس وفق منهاج الخليل ابن أحمد، بل وفق مناهج الشعر الأوروبي الحديث، وعلى ذلك يحاكمون الخليل ابن أحمد محاكمة هزلية تجسد جهلهم بقواعد الشعر العربي، كما تجسد ولاؤهم وخنوعهم لثقافة المستعمرين (بكسر الميم)، شعراء الحداثة ومنظروهم ليسوا سوى أبواق للاستعمار والصهيونية كذلك ليست قواعد الشعر أو اللغة من الأمور المتغيرة كما يدعون. بل هي من القواعد الثابتة، فلكل لغة قديمة أو حديثة قواعد ثابتة، لا تتغير إلا في ثباتها، كذلك قواعد الشعر هي من الأمور الثابتة، فليس الشعر إلا أنساقاً بلاغية مهما خرج عليها الشاعر يبقى خروجه محكوما بتلك الأنساق، و إلا فهو النثر، وحتى شعر التفعيلة هذا ليس سوى كلام مسجو ع ومرصع تماماً كما وصف ابن رشيق ما يشبهه منذ قرابة ألف سنة، وهو إلى النثر أقرب منه إلى الشعر.

وكنا نشعر ونحن ننحاز للشعراء ولتعليلات النقاد بأننا نخون ابن علوان ونخذله، مع ذلك لم نكن نتراجع، فنحن نعرف من جهة حبه للنقاش والاختلاف كما نعرف من جهة أخرى أن بعض الشعراء يتحول انشغالهم بانضباط اللغة والوزن إلى قيد على الشعر يحبسه ويمنع عنه الهواء والماء.. فقواعد اللغة والوزن والقافية بمثابة العقل الذي يسيطر على حركاتنا ويقول افعل ولا تفعل... والشاعر محتاج لأن يضع نفسه موضع ذلك الملاك الذي ينفخ في الصور فتقوم قيامة الإبداع وتتحرك الصور والمشاهد.. ومخالفة الشعراء للقواعد مسألة أزلية، وثمة جانب كبير من المدونة الشعرية العربية في الماضي والحاضر وقعت عليه تُهم الخطأ اللغوي والاختلالات العروضية، لكنه ظل من أجمل وأعظم ما أبدعه الشعراء.. ونحن حين نقرأ – على سبيل المثال – النص المنسوب إلى خفاف بن ندبة السلمي في رثاء خاله الشاعر تأبط شراً:

إن بالشعب الذي دون سلع   لقتيلاً دمه ما يُطلُّ

قـــذف العـــبء علـــيّ وولى   أنا بالعـــبء لـــه مســـتقلٌّ
بـــزني الـــدهر وكـــان غشـــوماً   بأبيّ جـــاره مـــا يُـــذلُّ

فإننا لا نأبه للزحاف في الوزن فقد حلَّق جمال الشعر فوق وهدات الوزن وزحافاته، بل إنه ليخيل لنا أن الانعطافات التي يصنعها الزحاف هي مصدر الجمال.. وخالق تحليقاته، وقد قيل لأبي العتاهية، قد خرجت من العروض في قولك:

عتب ما للخيال خبريني ومالي؟

فقال: أنا أكبر من العروض..

نفس الظاهرة نجدها في الكتابة الشعرية العربية المعاصرة وقد اشتهر بها شعراء المهجر، على وجه الخصوص جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وإيليا أبو ماضي.. وقد عاب العقاد ذلك في غير موضع من كتبه أشهرها نقده لقصيدة جبران " المواكب " عند صدورها سنة 1919م، وهو منشور في كتابه " الفصول " قال العقاد " أما القصيدة فليس في استطاعتنا أن نسميها شعراً صحيحاً كما وصفها صاحب المقدمة وإن كنا نتبين منها أن ناظمها يفكر تفكير شاعر، وأول ما نشير إليه أن مبنى القصيدة ليس مما يوصف بالصحة لما فيها من الخطأ اللغوي وما يعتورها من ضعف التركيب وغلبة العبارة النثرية على النغمة الشعرية، وقد فتحنا الكتاب فوجدنا في أول شطرة من أول بيت خطأ من هذا القبيل في قوله:

" الخير في الناس مصنوع إذا جبروا"

يريد "أجبروا" ولم ننته من الصفحة إلا على خطأ ثان في قوله:

فأفضـل النـاس قطعـان يسـير بها   صـوت الرعـاة ومـن لم يمـش ينـدثرُ

والواجب جزم " يندثرُ " في البيت. وهذا وليس في الصفحة إلا أربعة أبيات "

وقد رد ميخائيل نعيمة على العقاد موافقاً على ماذهب إليه، لكنه فسر ما يحدث عند هؤلاء الشعراء بأنه انشغال بالوظيفة التعبيرية للغة أكثر من الانشغال بانضباط حركاتها.. أما طه حسين فقد طلب من إيليا أبو ماضي – رغم إعجابه البالغ بشعره وروعة موهبته – أن يتعلم مبادئ النحو وقواعد اللغة.

وحين أصدر الشاعر نزار قباني ديوانه الأول " قالت لي السمراء" سنة 1944م، تسبب الديوان في موجة رفض عاتية كان جزء منها يتعلق باللغة والعروض والأوزان وكتب الشيخ على الطنطاوي في عدد مارس 1946م من مجلة الرسالة - المجلة المصرية الذائعة الصيت وقتها - يسخر من الديوان وينعى عليه سقوط جانبه الفني بسبب عدم التزام الشاعر بسلامة اللغة والعروض والأوزان " وفي الكتاب تجديد في بحور العروض يختلط فيه البحر البسيط والبحر الأبيض المتوسط، وتجديد في قواعد النحو، لأن الناس قد ملوا رفع الفاعل ونصب المفعول، ومضى عليهم ثلاثة آلاف سنة وهم يقيمون عليه، فلم يكن بد من التجديد "

الملاحظ أن حضور النماذج الشعرية المتهمة بعدم الانضباط ظل دائماً يغلِّب صراخ النقاد واعتراضاتهم عليه.

كنت أقول هذا ومثله لابن علوان فيرد عليَّ مشوحاً وقد ابتسم ابتسامته الشهيرة:

-أنت فقط تحب التبرير لأصدقائك المعاصرين

ويكون محقاً في ذلك بمقدار إيماني بما أقول فأنا شخصياً كنت ومازلت غارقاً في إعجابي بتجارب شعراء من نوع علي الشاهري، وجميل حاجب، ومختار الضبيري ولاحقاً طه الجند، ومن قبلهم امناجي ثواب.. وهم جميعاً لا يهتمون بقواعد اللغة والنحو والصرف.. أو لا يعرفونها حتى..وهناك شعراء مثل مُحَمَّد القعود، ومُحَمَّد السودي – ظهر مؤخراً– لا يهتمون كثيراً لانضباط الوزن والقافية مع أنهم يكتبون شعراً مذهلاً..

لكن قيامة ابن علوان كانت تقوم حين يرانا نبتهج بلمحة جمالية في شعر يعاني خللاً مّا في وزنه، أولغته، ولما كانت معظم أعمال الشباب المطبوعة تأتي إليه وعلى أول

صفحاتها مقدمات للمقالح..والمقالح رجل يجامل كثيراً.. وقد يكتب بعض المقدمات إما بدافع التشجيع الأبوي، وإما تحت وطأة الإحراجات، كنا نحاول تفهم هذه الناحية. لكن عبد الله علوان كان يراها تزييفاً لتاريخ الأدب وخداعاً لمن يكتب لهم تلك المقدمات لأنها توقعهم في الوهم وتنفخهم بدون داع ثم يعلل إكثار المقالح من كتابة المقدمات.. وتورطه في تقديم أعمال لا تتوافر على الحد الأدنى من شروط الإبداع وامتلاك أدواته بكونه لا يعبر إلا عن شره نفسه وحاجته كي يكون اسمه موجوداً على أول صفحة من كل كتاب، وأنه رجل لا يشعر بالمسئولية الأدبية..ولا يهمه ماذا يكتب ولا عم وعمن يكتب.. المهم أن يكون حاضراً وموجوداً في كل شيء وفي كل مكان.. وأنه في سبيل ذلك يجعل من البعوضة جملاً، ومن الحصاة جبلاً، وأنه يزمر للبهلوانات، ويدق طاسات البرع للمحتالين.. وأنه لو كان يفعل ذلك جهلاً لكان فيه نظر.. أما وهو يفعله لؤماً فإنه جرم لا يغتفر.

ينظر ابن علوان إلى الواحد منا مبتسماً ويقول بسخرية مرة: يا أولادي لقد خدعكم المقالح، ولقد اعترف بخداعه لكم حين قال:

إلهي

سأعترف الآن أني خدعت العصافير

أني هجوت الحدائق

من هي العصافير التي خدعوها المقالح غيركم أنتم أيها الشعراء الفقراء يا حدائق الحب والسلام، هو اعترف بخداعه لكم. لكنكم لا تريدون إلا أن تكونوا مخدوعين.

وكنا نضحك ثم نقول له: ولكنك أنت نصير العصافير المخدوعة وصديقها، وما دمت معنا فلن يضيرنا خداع المقالح ولا غيره.

ويقول ابن علوان: بطلوا هبالة أنا لست سلطة و لا حزباً ولا رأس مال. فبأي شيء أكون نصيراً لكم.. ثم تتشعب انتقاداته وتتسع لتتجاوز نقد نخبة النخبة إلى شعرها فهو كعادته دائماً يشوِّح بيديه في الهواء ساخراً ويقهقه متهكماً ويقول: أما شعر الحداثيين فهو مجرد بعث للأساطير والخرافات والخزعبلات الفولكلورية.ارجع، ارجع إلى شعر السيَّاب

وأدونيس وخليل حاوي والمقالح ستجد كيف أصابته الأساطير بالضحالة لامن حيث صياغته الخبرية، بل من حيث مفهوم البعث قوميا ووطنيا، فهو مجرد تقارير خبرية جميلة لا غير.

ونصرخ مستنكرين:

-لا يا أستاذ عبد الله ؟

لكنه يواصل:

-اقرأوا البردوني يا مخدوعين، هناك تجدون صوتا ثغره الوجود، وصياغة تدهش العقل قبل العاطفة، أما شعر الحداثة الرأسمالية التي تكتبونها أنتم ويكتبها هؤلاء فمجرد صياغة تزعزع الروح وتهد مقاييس الجمال الشعري، عليكم أولاً إدراك ذلك من خلال نظرة في الاتجاهين إلى وظيفة الشاعر وإلى رسالته ثم إلى أسلوبيهما البلاغيين.

وينشر عبد الله علوان مثل هذه الآراء بل ما يتجاوزها من آراء حادة أو صادمة، وتبدأ ردود الفعل ظاهرة وخفية، الخفية أكثر من الظاهرة، توجه إليه سهام الاتهام بالخلط وانعدام المنهجية، وتشتغل الأيدي القوية على إيذائه في السر والعلن.

عبد اللّه علوان:
عظمة الكاتب ونقاء الإنسان

ولد عبد الله أحمد علوان الحناني سنة 1946م ونشأ في مسقط رأسه ذبحان/ التربة، مديرية الشمايتين، محافظة تعزّ ثم بدأ رحلته مع الحرف بحفظ القرآن الكريم، وتعلم مبادئ القراءة والكتابة على يد أبيه في المعلامة، حيث كان أبوه فقيها مرموقاً، وانتقل إلى مدينة (التربة)؛ فدرس فيها الفقه، وعلوم العربية، وعلومًا أخرى لمدة أربع سنوات. وكانت معرفة والده بالقاضي حسين الجنداري عامل الإمام في التربة ذات تأثير كبير عليه فقد استفاد من علوم الجنداري بمقدار ما استفاد من تأسيس والده له.. وهو ماكان يلهج به في أحاديثه معنا بشكل دائم.. فعلى يديهما تعلم منظومة المفاهيم والمقولات والقوانين التي يتبعها العلماء في بيان هذه الحقيقة أو تلك، سواء كانت هذه الحقيقة مادية أو روحية، ولذلك كان يردد دائماً أن فقيه المعلامة هو بشخصه منهج تربوي وتعليمي، ولكنه منهج غيرمعلن، ولا مفصل،إنه منهج محدد ومجمل، منهج لا يقتصر على المعالمة وهم تلاميذ المعلامة، بل تشمل اشتغالاته أبناء القرية وأبناء الناحية والقضاء وتشمل الرجال والنساء والكبار والأطفال لأن فقيه المعلامة ظل لزمن طويل الرأس الذي يحمل التراث العربي والإسلامي، عبر التاريخ، وينقله من رأسه إلى رءوس المعالمة، في قاعة المعلامة، أو في صحن المسجد. وهو لم يتأثر بهذا التأسيس علمياً فحسب، بل تأثر به في سلوكياته ومعاملاته فقد كان فقيه القرية كما في حالة والده هو المسئول الأول في القرية أو المنطقة عن إقامة الشرع بين الناس، والمسئول أيضاً عن حماية الأخلاق الفاضلة من الرذائل، وإصلاح ذات البين، وفق النواميس الشرعية، ووفق الأعراف المتبعة في أوساط الفلاحين والحرفيين، والمشايخ والأعيان، وكان فقيه القرية يشرف على أفراح الناس وأتراحهم، يؤبن الموتى ويبكي عليهم، ويقيم أفراح الأعراس والمواليد والأعياد، ويمارس كل ذلك وفق الشريعة والأعراف، و يجتهد

وفق القوانين الجديدة،وإ ن لم يكن الاجتهاد من مهامه، فعليه اتباع مذهبه بكل تفاصيله، وعليه معرفة فقهاء المذهب الذي يتبعه

كما أن فقيه المعلامة في الحضارة العربية الاسلامية كان حجر الزاوية في عملية التربية والتعليم وفي صنع العلماء والأدباء والمثقفين ذلك أن معلِّم الصبيان كان عليه أن يعلِّم تلاميذه حروف الهجاء وحركاته، وعليه أن يلقنهم القرآن معربا ومجودا... كما سمعه من مشايخه، يدخل مبدأ الفهم والحفظ معا، فلا حفظ للنصوص، بدون فهم الحروف وبناء الكلمات،ولا قيمة للكلمات، بدون حفظها ونطقها بالشكل الصحيح والفصيح.ولا حفظ للنصوص بدون فهم المعاني القرآنية، فكل مفهوم محفوظ، وكل محفوظ مفهوم، ومن هذا الحفظ والفهم تنشأ عمليتي التفكير والاجتهاد فالتفكير لايدور إلا في ميادين العمل والإنتاج، وفي ميادين التخالط الاجتماعي، أوفي إطار النصوص. وفي هذه المستويات الثلاثة تدور عمليات التفكير والاجتهاد..

وقد أوضح عبد الله علوان كل ذلك في مقالة عنوانها " منهجية فقيه المعلامة " لعليَّ كنت دافعه الأول لكتابتها فقد أحببت أن يوثق رؤيته لدور فقيه المعلامة وأن يكرَّم من خلالها والده الذي كان شديد التقدير له..

بيد أن عبد الله علوان كان يرى في الحديث وفي الكتابة عن هذه المنهجية رداً على كل من كانوا يتبرمون بتناولاته النقدية الحادة ويتهمونها بالافتقار إلى المنهجية وفي هذا الجانب كانت اتهاماتهم له تعد امتداداً لاتهماتهم للبردوني من قبله، فعبد الله علوان مثل البردوني.. لم يحظ بالتعليم الجامعي لكنه بسبب تلك التأسيسية الجيدة انتقل من التربة إلى تعز مكتمل الأدوات وجاهزاً ليبدأ رحلته مع الكتابة والنشرواقفاً على مداميك راسخة.. وحين كان بعض الأكاديميين يغمزون من قناة البردوني في الجانب المنهجي ويعيدون ذلك إلى عدم أكاديميته كان عبد الله علوان يرد وكأنه يدافع عن نفسه: هذه مغالطة واضحة غرضها التقليل من شأن البردوني في وعي الجماهير وفي وعي الطلبة الجامعيين، فكم من هؤلاء يدرسون البردوني، على أساس منهجي، هم يصنِّفونه روما نسيا، حينا، وحينا

يصفونه بالحداثة، وثالثة يصفونه بالكلاسيكية وأنه لم يخرج على عمود الشعر وهذه التوصيفات كلها تؤكد منهجيته ومغالطاتهم.صحيح أن الشاعر عبد الله البردوني، ليس أكاديميا ولكن قولوا لي: ومتى كانت الأكاديمية واحة الشعر النضرة، أو شجرة الحياة المخضلة...؟ لكن البردوني شاعر منهجي، ولا يمكن أن يكون الشاعر بلا منهج يسير به.

***

لم تتوقف مفاعيل الفترة التأسيسية في حياة الكاتب عبد الله علوان على المداميك العلمية والثقافية التي تلقاها عن والده والقاضي الجنداري وغيرهما ممن نشأ في كنفهم إبان طفولته بمنطقة التربة، بل تشمل التأسيس لمجموعة المزايا السلوكية التي سبق الحديث عن بعضها في تناولنا الأسبق له تحت عنوان " نصير العصافير عبدالله علوان "..

لقد مارس عبد الله علوان في حياته أعمالاً مختلفة كان خلالها مثالاً للإنسان الحقيقي الذي يعلي مقام الضمير ويرفع من شأن الكرامة الإنسانية. فحين كان موظفاً مرموقاً في نقابة المواصلات التي ساهم في تأسيسها عام 1973م تحول راتبه إلى عائل لعشرات الأدباء والمثقفين والناشطين في العمل الحزبي والسري وتحول بيته في الحصبة إلى مأوى للجائعين والمتخفين منهم، هذا ما أخبرني به المفكر الكبير عبد الباري طاهر غير مرة مؤكداً أنه هو نفسه كان واحداً ممن لجأوا مراراً إلى عبد الله علوان وعاشوا في بيته عندما كانت تطاردهم الدكتاتوريات أو يضيق بهم العيش مؤكداً أن عشرات من الأدباء والحزبيين المشاهير ممن لم يحضروا جنازة عبد الله علوان ولا عزاءه كانوا ضمن اللاجئين إلى كنفه ذات يوم.

وفي العزاء الذي أقامه اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين لعبد الله علوان تحدث الأديب والفلكي والوزير السابق المهندس محمود صغيري عنه حديثاً يؤكد على تلك السمات الفارقة في طباعه وسلوكياته قال صغيري: ليس من عادتي حضور العزاءات لكن جميلاً قديماً لعبد الله علوان في عنقي هو الذي جاء بي إلى عزائه اليوم، فقد انتميت أنا وأختي إلى تنظيم سري عند مطلع الثمانينيات.

من القرن العشرين، وكان ذلك دون علم الأسرة فأبي كما تعرفون لن يوافق على ذلك التوجه من قبلي فما بالكم وقد جررت معي أختي، تلك إذن مصيبة لا قبل لأحد بمواجهتها، وصادف أن كنت على موعد أنا و أختي مع منحة دراسية إلى دمشق لكن إجراءات ذلك الوقت كانت تقتضي أن تختم أوراقنا جهة اعتبارية مهمة تكون مسئولة أمام الجهات الأمنية، كنت شاباً غريباً في صنعاء أحمل أوراق معاملاتنا ولا أدري ماذا أفعل وبينما كنت أسير في التحرير على غير هدى عارضتني سيارة ثم توقفت وأطل منها رجل يسألني: من أنت ومن أين؟ أخبرته باسمي وأنني من تهامة، سألني مالك؟ أراك تمشي مشغول البال.. فأخبرته بخبر المعاملة وخبر الختم والضمانة المطلوبة، ابتسم وبمنتهى البساطة أخرج ورقة وكتب الضمانة باسم نقابة المواصلات ثم أخرج الختم من حقيبته وختمها، كل شيء تم في تلك اللحظة قبل أن أعرف حتى إن اسمه عبد الله علوان. خلال يومين أنهيت إجراءات سفرنا أنا وأختي وبمجرد وصولنا إلى دمشق تم القبض على كل أفراد المجموعة السرية التي كنا ننتمي إليها، فكبر جميل عبد الله علوان عندي فهو لم ييسر لي أمر السفر فحسب بل أنقذني أنا وأختي من الهاوية ولولم تقدني المصادفة إلى شهم كريم شجاع مثله لكنا وقعنا مع من وقعوا ولكان إلقاء القبض على أختي يوم النهاية في حياة أبي ونهاية حقيقية لمقام أسرتي في ذلك الوقت.

***

تزامن نشاط عبدالله علوان الوظيفي مع نشاطه النقابي فإلى جانب مساهمته المهمة في تأسيس نقابة المواصلات شارك في السنوات الأولى من سبعينيات القرن العشرين في تأسيس اتحاد الأدباء والكتاب اليمنين كما شارك في تأسيس نقابة الصحفيين إلى جانب انغماسه في العمل الحزبي المتصاعد آنذاك وكغيره تعرض لمطاردات كثيرة. وقد قضى زمنا متنقلاً بين صنعاء وعدن حتى إنه امتلك بيتين أحدهما في صنعاء والآخر في عدن، كان ككثيرين من الأدباء والناشطين في ذلك الوقت تضيّق عليه سلطات صنعاء فيفر إلى عدن، وتضيّق عليه سلطات عدن فيفر إلى صنعاء وحين استولت السلطة على بيته في عدن ولم

يستطع النفاذ بأسرته إلى صنعاء أسكنه الجاوي في مقر اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين حيث بقي مع أسرته في مقر الاتحاد حتى حلت مشكلة البيت، كان ذلك واحداً من قرارات الجاوي التي تليق بمقامه لكنه كان يعرف قيمة ابن علوان ويقدر أن من جعل بيته ملاذاً للأدباء الجائعين والمطاردين يستحق أن يكون اتحاد الأدباء والكتاب ملاذاُ له ولأسرته حين يضايق ويطرد.

ولم يكن انغماس عبدالله علوان في كل تلك الأنشطة السياسية والنقابية والوظيفية ليشغله عن الكتابة والإنجاز فقد كان من أكثر كتاب جيله إنجازاً رغم ما شاب مسيرته من قلة الإصرار على إصدار إبداعه وكتاباته بشكل مضطرد، مع ذلك فقد كانت صحف أكتوبر والجمهورية والثورة ومجلات اليمن الجديد والثقافة والحكمة والكلمة وغيرها تعبق بكتاباته شعراً وقصة ومقالات ودراسات.. لكنه طيلة سنوات نشاطه في السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي لم يصدر إلا عملاً واحداً هو مجموعته الشعرية "مزامير الزمن القرمطي" التي صدرت عن دار الهمداني في عدن سنة 1984م. وكان يستطيع قبل عام 1988م أن ينشر المزيد فقد كان في سعة من العيش والصحة.ففي ذلك العام زار موسكو وعنّ له أن يجري عملية إزالة لثعلول تحت إبطه لكن الأطباء عند إزالة ذلك الثعلول اكتشفوا إصابته بمرض السكر وهو المرض الذي تعايش مع شروره ستة وعشرين عاماً قبل أن يصيبه بالغرغرينا ويقوده إلى القبر..

أثَّر المرض بمتطلباته العلاجية على حياة عبد الله علوان لكنه لم ينل من عزيمته على الكتابة فقد كان تأثيره على صحته يتم بالتدريج وعندما دخلت ساحة المشهد الثقافي في صنعاء سنة 1991م كان عبد الله علوان في الخامسة والأربعين من عمره، وكان في قمة نضجه الثقافي والمعرفي والإبداعي وفي ذروة عطائه الكتابي. كان مقاله شبه الأسبوعي في ملحق الثورة الثقافي أول ما تبحث عنه عيني لحظة شرائي للصحيفة في الكشك وأول ما يطلب البردوني مني أن أقرأه له حين أصل إليه صباح كل جمعة ينشر فيها مقال له.

بيد أن معرفتي الشخصية به تأخرت إلى عام 1997م ولقد بقيت طوال العامين السابقين لتعرفي عليه دائم السؤال عنه.. وكان الشاعر مُحَمَّد القعود يستغرب لسؤالي الدائم يجيبني كل مرة: كيف لم تلتق به بعد ؟ إنه موجود بشكل دائم.. حين التقيت به ذات مقيل من نهاية يوليو 1997م بمقر اتحاد الأدباء في صنعاء فوجئت ببساطته ورحابة صدره بمقدار مالفتني سرعة ألفتي به وألفته لي.. قلت له: أتابعك من سنين طويله، فأجاب وأنا أيضاً أتابعك أنت من الشباب المؤسسين بشكل جيد أنت قارىء ألمس قراءاتك في كل كلمة تكتبها..ليلتها قال لولم نلتق لكنت فوجئت بكتابة لي عنك لكن مادمنا قد التقينا فزودني بمجموعة من قصائدك لكي تتسع قراءتي لتجربتك أعطيته عشرة نصوص وبدأ اقترابي المباشر منه أخذني إلي بيته وأخذته إلى بيتي..كان يتناول الغداء عندي حين وصل ملحق الجمهورية الذائع الصيت وعلى صفحة كاملة منه دراسة عن البناء الدرامي في تجربتي الشعرية، ضحك وهو يقول: لم أخبرك أحببت أن تكون مفاجأة لك، كان ماكتبه جميلاً وكان وقعه عظيماً عليَّ فقد كانت تلك أول قراءة في تجربتي الشعرية. وقد ظلت قراءاته بعد ذلك تتوالى لتشكِّل ما يصلح أن يكون كتاباً مستقلا بذاته.

***

كان نشاطه الواسع في الاحتفاء بأبناء جيلي يتم سنة بعد سنة فيما المرض يتمكن منه والخصومات تلقي بظلالها على حياته من جميع الجوانب وحين أهلت سنة 2004م وهي أخصب مواسم الثقافة التي عرفتها اليمن في تاريخها الحديث كانت تلك مناسبة جيدة لإقناع ذلك المحارب العتيد بضرورة نشر بعض أعماله، طبعت له وزارة الثقافة حينها مجموعته الشعرية "روضة الحارثي" وكتابه "المأسوي والهزلي في شعر البردوني" وأصدر اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين مجموعته القصصية" رقبة الزير" أتبعها عام 2010م بإصدار كتابه " القصة اليمنية الموقف والأسلوب " ثم مطلع عام 2013م كتابه المهم جداً " بردونيات النص والمنهج ".. عقب صدور الكتاب أخبرني أن بعض أرشيفه تعرَّض للعبث لكنه

يحتفظ بمعظم نتاجه الذي صدر والذي لم يصدر على قرص مضغوط يومها قلت له: تعرف محبتي لك وحرصي على تراثك ؟

قال: نعم.

قلت: انسخ لي نسخة من هذا القرص احتفظ بها عندي أخشى... ولم أكمل.

قال ضاحكاً: تخشى أن أموت هذا طبيعي واحد عنده سكر وأمراض متلتلة وفي نهاية العمر وفي هذا الزمان كيف لا يكون موته محتملا في أية لحظة، على العموم أنا أيضا فكرت في وضع نسخة عندك..

مساء ذلك اليوم مربي في مكتبي وأعطاني النسخة وفيها إلى جانب كتبه الصادرة مجموعة من أعماله التي لم تصدر وهي "شعر الزبيري من التنوير إلى التثوير" و"نظرية المعرفة القرآنية" و"دراسة في النقد الأدبي" و"حمينيات.. دراسة في الشعر الحميني" و"مأساوية الشاعر العربي" و"مواسم الجدب" (خمسة دواوين شعرية) و"الإنذار الأخير وزمن النحس (مجموعتان قصصيتان) و"نقد الشعر الحديث". إضافة إلى عشرات المقالات والدراسات الأخرى..

لقد ألمت بعبد الله علوان في السنوات الأخيرة من عمره نكبات أسرية مفجعة تمثلت يومها في موت شابين من أبنائه مع ذلك كان شديد الجلد لم ينحن للموت ولا انثنى أمام أهواله.. كان ابنه عاد سنة 2013م يعمل في ورشة فسقطت عليه رافعة ضخمة قصمت الشاب الثلاثيني نصفين.. وحين قصدته للعزاء كنت أفكر في الرجل ذي السبع والستين سنة الذي أنهك السكر ناظريه إلى درجة قاسية وأتخيل ماذا سيكون حاله، ولقد أذهلني حين وجدته متماسكاً قوي العزيمة شامخا كعادته يغالب داخلاً منخوراً بالمرض والحزن وكثرة ما أكل الخصوم من الروح القلب..

عند إطلالة عام 2014م كان على موعد مع الانفلات من عالمنا التعيس، شهور من المرض والانتكاسات المتوالية ختمتها الغرغرينا بألم مرير وفقد متواصل لأجزاء من القدمين خلال عشرة أيام قضاها في مستشفى الثورة

تخلت عنه الحكومة وتخلى اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيون وتخلى أصدقاء العمر كنا أربعة في وداع ذلك العظيم أنا والشاعر مُحَمَّد القعود والفنان عادل سمنان وأحمد عمر إلى جانب ابنه عقيل وابنته لينا وشخص ثالث لا أذكر اسمه، كان مكفناً وأنا أقبِّل رأسه وأبكي معتذرا عن ذلك الخذلان.. أخذوه إلى مسقط رأسه ولم أستطع العودة إلى بيتي فظللت أجوب شوارع صنعاء دامع العين حتى التاسعة ليلاً.. وعندما عدت إلى بيتي وجدت زوجتي تصرخ بي أين أنت ؟ الأمانة العامة لاتحاد الأدباء والكتاب قلبت الدنيا عليك يريدون بيان نعي لعبد الله علوان لقد أحرجهم تأخر البيان أمام الناس.. ضحكت حتى سالت الدموع وبدلا من كتابة البيان كتبت مقالاً بعنوان " اضحك يا عبدالله علوان اضحك "

صالح البيضاني
من سوء فهمه إلى التوكل عليه

مقتصد في كلامه.. ومقتصد أيضاً في إظهار مشاعره.. وهو كذلك مقتصد حتى في مخالطة أقرب الناس إليه.. لكنك لا يمكن بعد معرفتك به أن تنساه.. أما إذا توثقت وشائج الصداقة بينك وبينه.. فسيكون من المستحيل تخيل حياتك خالية منه.. سواء كنت تلقاه بشكل متواصل.. أو كنت بعيداً عنه.. فذلك لن يغير شعورك به.. لأنك ستحس أنه قريب منك بشكل دائم.

مع هذا فهو لا يعبر عن مشاعره نحوك إلا نادراً وبشكل عارض وبجمل، بل بكلمات قليلة جداً.

هو يفسر ذلك بالخجل الذي يظنه سمة تنطوي عليه شخصيته، ويتوارى مع جملة من السمات الأخرى خلف مظهره الجاد وتعابير وجهه الصارمة.. ولا بد أنه محق في ذلك لأنك تستطيع اختبار صحة وجود أية سمة فيه بتحفيز مثيراتها المناسبة لها. إذا أردت – مثلاً – أن تتأكد من صفة الخجل فيه فجرِّب أن تمتدحه أو تشيد ببعض خصاله أو تشكر له موقفاً من مواقفه الناصعة.. ثم انظر إلى أذنيه، وستلاحظ على الفور إحمرارهما وهو يتجاوب مع محاولته الهروب بعينيه منك ومن الآخرين إن كان معكما آخرون..

صالح البيضاني – أيضاً – من ذلك النوع من الناس الذي يجب أن تعرفه بعمق كي تحبه، وكي تكون بينك وبينه صداقةٌ ما.. المعرفة السطحية به تقود كل من يعرفونه إلى سوء الفهم.. صالح في الغالب لا يعجب من يعرفونه معرفة أولى أو معرفة سطحية.. إنه صادم بصراحته.. صدامي في مواقفه وآرائه.. أما بعد أن تعرفه جيداً فأنت ستدرك أن أكثر ما ينفعك منه.. هو نفس تلك الصفات التي كانت تصدمك فيه.. وتلك المواقف التي كانت

تجعلك تصطدم به حين كنت تلامس شخصيته ملامسة خفيفة من فوق فوق.. أقصد حين كنت تعرفه معرفة سطحية..

بعد أن تتعمق معرفتك به ستجد فيه صديقاً لك يمكن أن تركن عليه.. فهو يتعامل بمسئولية ونضج.. وتفكيره كشخصه تفكيرٌ واثق، منظمٌ، ومتعال على الصغائر.. ملتزم بإنجاز ما يلتزم به، فهو من ذلك الصنف الهمّام الذي يعتبر التزاماته هموماً يجب التخلص منها بالوفاء بها..

وثمة جانب آخر من سماته فصالح الذي يبدو دائماً قليل الكلام.. ميالاً إلى الصمت.. هو كنز معلومات فظيع.. تحفل ذاكرته بملفات عديدة لأشياء كثيرة.. شخصيات وأحداث.. خفايا وملابسات.. قصص ومواقف، يدور الحوار – مثلاً – عن حدث مّا سياسي أو اجتماعي أو ثقافي بطله فلان من الناس.. تنشغل أنت والآخرون بظاهر الحدث.. وما يترتب عليه.. تبنون تحليلاتكم واستنتاجاتكم على ما يمكن أن يبوح به الخبر المنشور أو المتناقل، فيما يكون صالح معتصماً بالصّمت كأن لا دخل له بالكلام ولا معرفة له به، أو التفات إليه.. وبعد أن يدور الكلام، ويتم تقليب الموضوع على مختلف وجوهه.. يفتح صالح – فجأة – ملف فلان بطل الحدث.. معرّفاً به وبخلفياته، مرجعياته وارتباطاته.. ودور كل ذلك في الحدث.. سواء من حيث الدافع أو من حيث التأثير.. أو من حيث المساعدة على فهم الحدث وتجلياته.. وتبقى محتاراً كيف يمكن لرجل كهذا قليل المخالطة بطبعه أن يلم بكل هذا.. ما يزيد عجبك أنه ممن لا يتناولون القات.. والقات كما هو معروف يساعد على الاختلاط بالناس في المقايل.. كما يعين على الثرثرة.. وتساعد حميميته على تسهيل تسرب الأسرار.. والمعلومات وتتكشف على متكآته أشياء لا يمكن تكشّفها بعيداً عنه..

***

ولد صالح البيضاني في قرية ذي وين في محافظة البيضاء في عام 1976م، درس الإبتدائية بين قريتة وأبوظبي حيث قضت أسرته هناك زمناً، لكنه ابتداءً من مرحلة الصف

السادس الابتدائي صار يسكن مدينة الحديدة الأثيرة إلى قلبه وفيها سيكمل الابتدائية بمدرسة عمار بن ياسر و الاعدادية في مدرسة الفاروق، والثانوية في مدرسة الثورة قبل أن يلتحق بقسم الكيمياء في كلية التربية جامعة الحديدة ليدرس بعدها الصحافة والاعلام في جامعة العلوم والتكنولوجيا.

كانت فترتا القرية وأبو ظبي مؤثرتين جداً في تكوينه الأولي، في الأولى اختزنت ذاكرته الكثير من قصص الماضي وحكايا الأجداد والجدات، أما في الثانية فربما كان المكان المختلف بما فيه من ثراء ومظاهر حياة خالبة إضافة إلى توافر وسائل العصر تجعله ذا ميزة خاصة في مخزون الطفل الذي سيصبح كاتباً فيما بعد، سيما أن اتصاله بعالم الكتاب قد بدأ هناك ومن خلال رواية الآمال الكبيرة لتشارلز ديكنز التي قرأها وهو في الصف الخامس ابتدائي وهي من أشهر الروايات العالمية.

بداية البيضاني مع المعرفة تختلف عن كل من يتموضعهم هذا الكتاب تقريباً، تدشينه شغف القراءة برواية عالمية سيجره إلى كتب من نفس الجنس، لقد اعتمدت كتب التكوين في حياته على الروايات العالمية، ومنها تناسج وعيه وعلى أساليبها الأخاذة تشكَّلت ذائقته، وتطور حسه تجاه الحرف، فقد غرق في الأدب الروسي حتى الثمالة، ولسنوات من زمن تشكُّله كانت روايات تولستوي وقصص تشيخوف ومعها كم هائل من روائع الأدب العالمي لكتاب من نوع همنغواي وشتاينبك والأخوات برونتي وغيرهم وغيرهن زاداً لروحه وقلبه وعقله.

من ثم تقلبت ريحه وارتفعت غيمة الحبر في شرايينه وبدأت إرهاصات الكتابه لديه، كان ذلك في وقت مبكر لكن البيضاني مفطور على الحذر، كتب وتوجس فيما كتب لذلك خبأ كثيراً في البدايات، ثم عند منتصف التسعينيات من القرن العشرين شعر بأنه يسطِّر أشياء ناضجة، وأن ثمة على شجرته ما يمكن أن يؤكل، عند تلك اللحظة فحسب بدأت الصحف تتلقف إبداعاته

***

بعد سنتين من تدشينه النشر بدأ يلفتنا بقوة، ففي سنة 1997م صار اسماً معروفاً، كان يوالي نشر قصصه وكتاباته في ملحق الجمهورية الثقافية، وملحق الثورة الثقافي، كان هو وقتها في الحديدة، وكنا في صنعاء.. آنذاك كان الحراك الثقافي الذي خلقه التسعينيون في أول ذروته، وقد وفّقت وقتها مجموعة من المنابر على رأسها ملحقا الجمهورية والثورة، ومؤسسة العفيف، والنادي الأدبي، واتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين في تلقفه..

وكان كتاب القصة الجدد يشكِّلون مع الأصوات النسائية المتفجرة، ودعاة قصيدة النثر، أهم ظواهر المشهد التسعيني لفتاً للأنظار.. إلى جانب كثرة الواردين الجدد إلى المشهد ممن قذفت بهم الهوامش إلى العاصمة.. كتعبير عن اتساع مخرجات التعليم.. أو كعلامة من علامات الواقع الجديد الذي تخلّق بعد قيام الوحدة اليمنية.. وعودة مئات آلاف المغتربين من دول الجوار بعد أزمة الخليج.. أو كأحد إفرازات التعددية السياسية الحزبية التي نتج عنها تعدد منابر النشر المتمثلة في عشرات الصحف الرسمية والحزبية والأهلية..

وفي خضم تلك التموّجات التي يزخر بها المشهد الثقافي بمكونه الشبابي الواسع والمتعدد، كان يصعب تمييز الحقيقي من الخادع، صاحب الموهبة الحقيقية من الموهوم، الواعي بالكتابة ممن يخبِّط فيها خبط عشواء.. أو يتقحمها تقحم الجاهل الجريء.

كانت الأسماء التي تعفيك من التوجس.. وترغمك على احترامها، ووضعها نصب عينيك مباشرة.. أسماء قليلة.. وفي الصف الأول منها صالح البيضاني.. أو سائق الباص المتهور كما أطلق عليه مُحَمَّد عبيد في مقاربة مبكرة لشخصه وإبداعه نشرت في الجمهورية الثقافية آنذاك.

كان صالح يفرض علينا احترامه ثلاث مرات؛ مرة لأنه من بين تلك الأسماء القليلة التي تمتلك قدرات حقيقية على الكتابة.. ومرة أخرى لأنه أقنعنا بموهبته وفرض علينا حفظ اسمه من أول قراءاتنا له.. ومرة ثالثة لأنه لم يكن في العاصمة.. حيث وفرة المنابر والمقايل، والشلل والنقاد.. والفعاليات والأضواء كلها.. بل كان هناك في الحديدة مع مجموعة من

زملائه.. أمثال مُحَّد عبيد، ومحيي الدين علي سعيد، وفتحي أبو النصر، وفؤاد الجيلاني، وعزت مصطفى، ومُحَّد الحاشدي، ونور الدين النهاري وعلي الجنفدي.

أذكر ذات ظهر من ظهيرات النادي الأدبي في أغسطس عام 1997.. أن جاء لزيارتنا الكاتب عزت مصطفى.. وبمجرد أن تعرفنا عليه بدأ احتفاؤنا به كامتداد عفوي لاحتفائنا بمجموعة الحديدة تلك.. ولشدة شغفي بصالح البيضاني ومُحَّد عبيد وتوقي لمعرفة من هما بدأت بسؤال عزت عنهما.. طلبت منه أن يصف لي شكل كل واحد وثقافته وظروف حياته، وموقعه بين الآخرين.

ما زلت أتذكر أوصاف عزت لهما.. فقد كان موفقاً، وهو يؤكد على قوة شخصية صالح البيضاني وجديته.. قبل أن يذكر لي بعضاً من صفاته الأخرى التي منها أنه لا يسمح لأحد بالنيل منه.

حين جاء صالح إلى صنعاء في السنوات التالية "نهاية 2009 أو مطلع2000م" وتتالت لقاءاتنا به، لم نستطع في البداية استيعاب طباعه.. بدا لنا مشاكساً عدائياً، وكثير المشاكل.. الحقيقة أنه لم يكن كذلك، لكننا نحن الذين كنا قد أَلِفْنا.. أو بالأحرى أَلّفْنا وصنعنا لأنفسنا جواً ملوثاً بالشللية.. يستشري فيه النفاق والحشوش والوشاية والنميمة.. كنا في بعض الحالات كمن يعيش جوار بالوعة، اعتاد على روائحها فلم تعد تؤذيه.. وجاء هو نقياً، سليم القلب مع ما فطر عليه من عدم قدرة على النفاق، والمواربة أو المداهنة.. واحتمال الظلم والصبر على الضيم.

كان صالح يسلط ضوء صراحته الكاشف على تشوهاتنا فيفضحها.. كما أنه لم يكن يرضى بمجرد فضح التشوهات بل كان يضع إصبعه في عين الواحد منّا وهو يقول له: لقد كشفتك..

وقد اندفع الجميع للدفاع عن أنفسهم، وعما كانوا يتوهمونه محاولات منه لإيذائهم وتفريغ ما كانوا يصفونه بعقده النفسية عليهم.

لا شك أنه عانى من سوء فهمنا له في تلك الفترة التي أعقبت وصوله إلى صنعاء.. ولا شك أيضاً أنه عانى أكثر من عدم قدرته على بث ما تكنه نفسه؛ لأن من بين صفاته كبت حرقه، وكبرياء تتعالى به على الشكوى.. ويرى فيها ضعفاً لا يليق..

غير أن صالحًا في النهاية استطاع أن يجبرنا جميعاً على احترام طباعه.. وخصوصية ما فطر عليه.. كما أجبرنا من قبل على احترام إبداعه، والنظر إليه بوصفه صاحب تجربة مميزة في السرد والكتابة بشكل عام.

مع ذلك فإن أمثال البيضاني ممن لا يحبذون الزيف، ولا يحبون التزلف.. ناهيك عن الكراهية المتأصلة في نفوسهم للأضواء حتى ولو جاءت تبحث عنهم.. يظلمون كثيراً، ويهال التراب على إنجازاتهم ومواقفهم البيضاء.. بل قد تنقلب محاسنهم إلى مساوئ عند من لا يرون مزية لغيرهم إلا أن تكون من جنس مزايا يتحلون بها هم..

***

تحتل تجربة البيضاني السردية موقعاً مهماً في المشهد السردي اليمني فهو يقدم تجربة لا تسير في سياق ما يكتب ولا يهمها ذلك، كما أنها لا تمتثل لمواضعات النقاد، ولا تستجيب لحسابات القارئ، لكنها تعبر عن حاجاته هو، عن قسوة العالم المحيط به وبؤس قواعده وضوابطه، وتحكّم الواقع القاسي فيه وأحكامه عليه، لغته السردية مثله، لغة راقية مقتصدة.. منتقاة وشاعرية وفيها عين كاميرا ترصد وتوثق ولديه قدرة كبيرة على اللعب على ثيمات الطفولة من أحلام وتصرفات ومنطق مليء بالمفارقة والأسئلة الصريحة والضمنية إلى غير ذلك من السمات التي تميز ما قدمه في مجموعته الأولى "أحلام ما قبل الطماطم" الصادرة سنة 2000م، غير أن نزوعه إلى التحرر من القواعد المعتادة في كتابته السردية يتحقق أكثر في مجموعته "محاولة أخيرة للحلم" الصادرة نهاية سنة 2013م فهذه التجربة أشبه ما تكون برحلة حرة للذاكرة كي تسطر أحوالها وتنثر بأشكال مختلفة ما اختزنته عبر سنوات العمر غير ملتزمة بشيء سوى الكتابة ليجيء النص ابناً للحظته، ومعبراً عن وارده تماماً كما يكتب المتصوفة وارداتهم الراصدة لمختلف تجليات الأحوال التي يتعرضون لها. ثمة

قدرة على العيش خارج ما يعتلج في عقل العالم كما في قصة "إغفاءة" وثمة هروب إلى الطفولة في أكثر تجلياتها وجعاً أعني تلك التجليات المرتبطة بعقاب الأهل ومحاولاتهم تعديل السلوك والتصرفات، لكنها رغم وجعها تحتل قلب النوستالجيا المعذّبة والتي تتجلى في خاتمة قصة " يوم آخر ": المرآة المشروخة مازالت مثبتة هناك منذ كانت أمه تمشط شعرها الداكن أمامها وعلى الطاولة ما زال ينتصب كوب فارغ كانت تجرعه اللبن من خلاله.

الذبابة تقف على حافة الكوب ووجهه الشاحب ينقسم إلى شطرين متماثلين يفصلهما شرخ متعرج، أصبح له شاربان مشدودان رقيقان، وهناك أنفان معقوفان، وخصلتان من الشعر في مقدمتي رأسيه المدببين.. تحت الطاولة يختبيء من أمه التي تبحث عنه.. يستلقي تحتها ويستسلم لنوم عميق لكنه لن يجد من يبحث عنه هذه المرة.

نهاية شاعرية دفاقة، فليست المرآة المشروخة إلا حياة كائن إنساني غير متآلف مع الحاضر وغير قادر على ابتلاعه إلا من خلال نوستالجيا الحنين التي تحول الماضي إلى جمال مطلق حتى وإن بدا ذلك الماضي متعباً حين كنا نعيشه.

وتلعب هواجس الانشطار والانكسار دوراً محورياً في إيماضات النصوص القصيرة المتلاحقة التي تنسرد تحت عنوان " كوابس صغيرة " في نص" إخفاق " يتساءل: هل تلقي به الظروف على شاطيء الانكسار والذل ؟ وفي نص"انكسار" يقرر: كلما رآها أصابه الانكسار والخوف. وفي نص ""هروب" يتحقق معنى الانشطار بين ماضي المهاجرين وبين لحظة العودة الصادمة، معنى الانشطار يأتي ضمنيا: نزل الرصيف الذي صعد منه قبل سنوات طويلة، كانت كما هي وهو عاد كما ذهب؛ غير أنه عاد ناحلاً مرتجفاً ليجد امرأة عجوزاً في انتظاره وشابين غير عابئين بعودته.

مشهد قاس ترسمه لغة مقتصدة، وتقدمه بلاتزويق ولا رحمه.

نفس الشرخ ونفس خيبة الأمل سنلاقيهما في نص "عودة " وهو بلا شك نص من أجمل نصوص المجموعة اكتنازاً بالدلالة على بؤس الكائن والأسى الذي تلحقه به الحياة: ارتسم خطان متوازيان تحت عينيه الذابلتين.. كانا لا يوصلان للسعادة..

أترابه يلعبون في الساحة، يتقاذفون بحبات البرد المتساقطة.. يمر، يجرجر ساقيه وعموداً من الظل الشاحب الذي تفزعه سعلاته المتلاحقة، كان يضم يديه المرتجفتين تحت إبطيه أراد أن يلتقط حبات البرد المتكومة في ركن الباب تصنع الرصانة، تلفّت يميناً وشمالاً كان الشارع خالياً وكان الأطفال يرقبونه من زاوية قريبة، دلف على عجل تشيِّعه عيون مختفية في الزوايا القريبة، ألقى جسده الهزيل، ارتطم بالفراش الرخو، ذهب في نوم عميق.. وفي اليوم التالي جلس ينتظر حبات البرد القادمة من بعيد.

إنه التحويل القوي للجزئي كي يكون أساسياً، وأنا أزعم هنا أن هذا المنحى في الالتقاط يحتاج إلى توجيه الانتباه إليه، وإعطائه حقه من التأمل ففيه الكثير من القدرة على الإيحاء والرمز بمقدار ما يقدم لنا بهجة المفارقات الحياتية، تلك البهجة المتخلقة من مكائد الحياة للكائن البشري، وهو ما يتأكد أكثر في قصتين من أكثر ما أنتجه جيل البيضاني تميزاً وروعة أعني قصتى " حكاية للقمر كي ينام " و " محاولة أخيرة للحلم " ففي الأولى سخرية عميقة من لعبة التوافق المصطنع مع الشعارات التي ستبدو جوفاء نظراً لما تفرضه مواضعات الحياة الغارقة في الزيف والكذب والفوضى، وفي الثانية سخرية ساحرة من السيناريوهات القاتلة التي تقودنا إليها الحياة بينما نحن نمضي في طرقات العمر، فالطفل الذي كان يضيق بأمه وهي تقلِّم أظافره عنوة ويحلم بأن يكون نبياً قبل أن يمر بسلسلة تساؤلات معرفية وحياتية مختلفة ينتهي به المطاف رجلاً خائب الآمال يحلم بحمامة برية وفرصة لائقة لتقليم أظافره.

لكأن الكاتب يستحضر الحدث ولا يرويه.. فليس الحدث إلا وسيلة لعرض المفارقات الساخرة من المآلات التي تشعر بأنها تحز في قلبك كمدية ساخنة يتم وضعها على قالب من الزبد.

ستندرج معظم نصوص العمل بعد ذلك في عناوين فرعية يظلها عنوان كبير هو " ظلال ذاكرة تتدحرج سريعاً "

إنها نصوص تلعب فيها المفارقة والتهكم والاستحضار المنفصم والمتضاد المعتمد على تداعي الأفكار مرة وعلى تحطيم منطق السرد واللعب بالألفاظ مرة دوراً كبيراً كما في نص " نهوض "

استيقظ ذلك اليوم سعيداً ومذعوراً

يتلمس سريره المتهالك

ذرع غرفته الصغيرة

اليوم تجيء الحرية

اليوم يشاهد ضوء الشمس بلا قضبان

فتح الباب على وجل

وصعد الدرج إلى الحرية

كان هزيلاً

كانت قدمه مرتبكة

لم يلحظ تغييراً في الخارج

حتى الشمس كما كانت دوماً

حتى الحرية

أراد أن يعود لكن الباب العملاق أقفل أبوابه الصغيرة في وجه الرجل الشاحب

فألقى نفسه للمصادفة تبقيه خارجاً أو تعيده

هكذا يتحول شبه السرد إن جاز لي أن أقول إلى حساسية فنية باذخة تستعيض عن قواعد الحكي وتقنياته التقليدية بخدع التوازيات المتخلّقة من الأوضاع المفارقة ومن العناية بالالتواءات غير المتوقعة الناتجة عن سوء تموضعنا في الحياة، حتى لنشعر أننا لسنا أمام حكاية إنما أمام كتابة تتلذذ بالألم كهدف في حد ذاته، كتابة تتقصد ليس الحكي إنما خلق الانطباع الذي يتملكنا لحظة قراءتها..

كذلك يحضر الشعر معبراً عن نفسه من خلال الكثافة والصور المشهدية والمجازات لترقى بعض النصوص إلى مرتبة قصيدة النثر "جوع " مثلاً:

العين والأنف طرفان

عندما ترى عيناك وتغل يدك

عندما يصبح الدخان مشاعاً

والغذاء حكراً

المعدة تأكل جدرانها

والوهن يعم البدن

التفكير يومض وينطفىء

قلت في نفسي من خلق هذا ؟

ومن وهبه لهذا ؟

افترشت الرصيف

وذهبت في إغفاءة طويلة

أحلم بخيط دخان يجري

وأغبط فماً كبيراً يسيل الدهن حوله

بينما يسيل لعابي

معظم النصوص تقوم إما تصريحاً وإما تلميحاً على المطابقة بين متقابلين أزليين الطموح والحلم والسعادة في جانب، والبؤس والخيبة والانكسار في جانب آخر لينتج عن ذلك تصالب عابث يلعب بالمصائر لعبا، وهذا ليس إلا جانباً من فنيات هذا الاشتغال، مجرد جانب واحد لاغير.

لقد اقترب النقد من تجربة صالح السردية في مجموعته الأولى "أحلام ما قبل الطماطم" كما اقترب بشكل خفيف من مجموعته هذه.. لكن ما حظيت به مجموعتاه من النقاد كان أقل بكثير مما حظيت به مجموعات قصصية أقل قيمة فنية منهما..

***

في سياق آخر وإن لم يكن بعيداً قدم صالح البيضاني جهداً غير عادي في الدفاع عن حرية التعبير، وحرية الفكر، فخاض بصراحة وشجاعة كل المعارك الثقافية التي أثارت المتربصين بالإبداع والكتابة.. عموماً بين أعوام 1997م، 2002م.. وقد بلغت مواقفه الجادة ذروتها سنة 2002م، حين دخل السجن على خلفية مساندته لصديقه الروائي وجدي الأهدل، إثر أزمة رواية "قوارب جبلية" ولعله الوحيد من أبناء جيلنا الذي دفعه إيمانه بحرية الكلمة ووجوب الدفاع عنها إلى تأليف كتاب كامل بهذا الخصوص أصدره سنة 2003م وهو كتابه "أقلام وهراوات".

لكنه عمل لم يحظ بالتغطية الواجبة والقراءة الجادة، رغم ثراء هذا الجهد، وغوصه في تاريخ الصعوبات التي واجهها الإبداع والفكر عبر العصور.. من محاكمات وتكبيلات وحرق كتب، ومصادرات وعذابات.. ورغم أهمية الشهادات المعاصرة التي وثَّقت للكتاب.. وقدمت تجارب يمنيين معاصرين مع الكتب قراءة وتأليفاً وصعوبات، ورقابة ومعاناة مختلفة..

وألف كتاباً آخر عن الدكتور عبد العزيز المقالح بعنوان "المقالح أطياف من الذاكرة، وأطراف من المواقف" صدر سنة 2006 وهو كتاب يفصح بشكل قوي عن ذكاء البيضاني وقدراته على اجتراح ما يميزه عن غيره، فقد تأتّى لهذا الكاتب وهو يعرف كثرة الكتابات التي تتموضع المقالح لذلك ركز بوعي على الجوانب التي بقيت دائماً في الهامش من اهتمامات الكاتبين عن الرجل وتناولات المقتربين من تجربته حياة وشعراً وكتابة، واستطاع عبر اقترابات مختلفة منه أن يقدم زاوية جديدة تستحق الإشادة والإعجاب.

كل ذلك إلى جانب كتاب خامس جاهز للنشر اسمه "قصة مدينة" يقدم فيه رؤيته للأمكنة، ويغوص في ثناياها تاريخاً وواقعاً معاشاً.. تراثاً وتطلعات للمستقبل.. جمال روح.. وأوجاع وظروف.. وكتاب سادس جاهز للنشر أيضاً تحت عنوان "الظواهر الأدبية" يقدم فيه جهداً يشبه جهده في كتابه السابق "أقلام وهروات" من حيث القدرة على البحث والملاحظة والتتبع الحصيف وزوايا الرؤية المختلفة عما عند الآخرين.. وإن كان الموضوع مختلفاً عن موضوع "أقلام وهروات"... هذا غير كتابات أخرى كثيرة مما نشره في صحف ومجلات يمنية وعربية.. ناهيك عن كونه مراسلاً لإحدى الصحف العربية الكبيرة "العرب اللندنية، والعرب الأسبوعي".. وصاحب موقع إلكتروني إخباري محترم.. وخبرة طويلة في تحرير الصفحات الثقافية في "الثورة"، و"البلاغ" و"معين" و"نوافذ" وغيرها.. ورئاسته لتحرير صحيفة "سرد" قبل سنوات..

****

على المستوى النقابي يتميز البيضاني دائماً بالأداء المهني الناصع.. سواء حين كان في قيادة فرع اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين في الحديدة.. أو كقيادي في الأمانة العامة للاتحاد منذ تم انتخابه أميناً إدارياً صيف عام 2010م.

فرغم كون الفترة تعتبر من أسوأ الفترات في تاريخ الاتحاد الذي انعكست عليه الأحداث، وأثرت على مستوى أدائه.. إلا أن صالحًا كان الأكثر التزاماً وشعوراً بالمسئولية تجاه ضرورة بقاء الاتحاد فاعلاً وموجوداً.. وإليه يعود الفضل في تمثيل الاتحاد داخل مؤتمر الحوار الوطني.. فقد سعى لذلك وناضل من أجله حتى تحقق.. وقد كان إلى جانب الأديب مُحَمَّد ناصر عولقي يمثلان رمزية الاتحاد.. ويعبران عن صوته وإرثه المجيد في تلك الاعتمالات التي حاولت قدر الإمكان.. ورغم الصعوبات صياغة مستقبل أفضل لليمن..

لكن نشاط صالح في هذا المجال وما يماثله لا يقتصر على الاتحاد.. فله نشاط واسع في هذه العوالم.. إذ كان من أهم مؤسسي نادي القصة. ومن أهم المؤسسين والمشاركين في عديد المبادرات الشبيهة مثل اتحاد كتاب الانترنت، والإشراف على مجموعة من المواقع

الثقافية النوعية. هذا غير اهتماماته في مجالات تنمية الذات والمبادرات الإيجابية وحماية البيئة وغيرها.

كاتب مثل هذا بوسعه أن يذبح الناس تباهياً بنفسه، ، وإدلالاً بمنجزه الشخصي.. لكن هذا الكاتب كي يفعل ذلك فإنه يجب أن يكون شخصاً غير صالح البيضاني..

فهذا الرجل الضخم الذي يمنعه نبله من المداهنة، والمداراة، ومن بعض السكوت على الباطل ليكسب رضا الناس، أو لتتهاطل عليه كتابات النقاد.. هو أيضاً الذي يمنعه نبله من استغلال وضعه كي يوحي للآخرين بالكتابة عنه.

هنا يجب أن أنتقل إلى جانب آخر من شخصية صالح البيضاني.. كنت أخفيه حتى الآن عن القارئ.. لقد تحدثت عن شجاعته، ورفضه للضيم، وعدم خضوعه للابتزاز أو السكوت عن الحق.. لكني أريد أيضاً أن أقول إنه من أكثر الناس الذي تأمن في وجودهم.. فهو رجل ذو مروءة، من طراز نادر.. لا يمكن أن يتخلى عنك مهما تكن الظروف صعبة.. ومهما تكن الأوضاع قاسية. فثمة بين ثنايا الجد والحزم والصراحة والصرامة.. التزام أخلاقي تجاه الآخرين يثير الإعجاب.. وأنت لن تجربه إلا إذا تعرضت لوضع إنساني صعب.. أو أوقعك بعض الأوغاد في ورطة مؤلمة.

وثمة قبل كل ذلك وبعده قلب طيب لا تكتشفه إلا حين يبتسم صالح كطفل صغير تناغي طهره ملائكة السماء.

محمد الحاضري
ثمن الخيارات الصعبة

نسي أسرته، ونسي قبيلته التي تحكم اليمن..واختار الانحياز لقضايا الشعب وطروحات النخب المعارضة.. ولم يكن ليخطر على باله أنه سيجد نفسه بعد سنوات طويلة من النضال الحار ك"المنبت الذي لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى"..

فمهما تطرف في نقد السلطة ونقد القبيلة التي تنتمي إليها السلطة..فهو دائماً القبيلي الذي يتطفل على النخب المثقفة، وهو موضوع دائماً في دائرة التوجس والشك بسبب انتمائه للقبيلة التي تحكم..رغم نبذ القبيلة له وحرمانه من كل خيرات الحكم وميزات المنتسبين إلى قبيلته..

وفي خضم إصرارهم على تعريفه بانتمائه القبلي..ومؤاخذتهم المستمرة له بأخطاء القبيلة الحاكمة وتناسيهم لكل نضالاته وكتاباته التي ندر أن يكتب أحد في مستواها شجاعة وأسلوباً وموقفاً.. كان يعيش مفارقة تشبه تماماً مفارقة ذلك الفيلسوف الذي ألقى بنفسه في فوهة بركان.. وحين راح يهوي في تلك الفوهة أطار الهواء الساخن حذاءه..واستدل الناس بحذائه على مغامرته المؤلمة.. وكان مؤسفاً أن يتذكره الناس وأن يستدلوا عليه بجزمته لا بفكره وفلسفته..

لقد ظل الحاضري يحمل وزر المكان والسلطة المنتمية إليه، وباسم هذا الوزر.. كان يعاقب طوال الوقت، وكانوا يهمِّشونه دون أن يرف لهم جفن لأن خطيئته في نظرهم واضحة لا لبس فيها.

ولست أنسى موقفاً شهدته معه سنة 2008م. فقد تناولنا الغداء معاً ثم ذهبنا إلى أحد المقايل المشهورة في صنعاء.حيث يؤمه لفيف وافرٌ من الكتاب والمثقفين الحزبيين..كان

الحاضري يومها في حالة غضب من السلطة.. وكان منذ منتصف النهار يلهج بأخطائها ويتفنن في استعراض إخفاقاتها والمصائب التي تصيب الشعب جراء تلك الإخفاقات..وقد ظل يحوم حول هذا الموضوع قبل الغداء وأثنائه.. ثم في الطريق إلى ذلك المقيل ولم يتوقف إلا ونحن ندخل..وقبل أن نلقي السلام على المقيّلين فاجأنا أحدهم يخاطب الحاضري بلغة صادمة بدأها بعبارة (أنتم السبب) في كل ما يعاني منه الشعب من فساد وظلم ونهب..و.. و..و..وانفجر الحاضري كجبل بركان تعرض لزلزال عنيف.فلم يبق لمخاطبه ولم يذر، بل مسح به بلاط المكان كله..وكان منطقه قوياً، شجاعاً، وحاسماً حدّ أن خرس كل الموجودين في المقيل، فلم يعقِّب أحد على رده..ولا أثير الموضوع مرة أخرى طيلة المقيل..

يعاودني ذلك الموقف ومواقف أخرى مشابهة له كلما جلست مع الحاضري بعد ذلك، وما أكثر ما نجلس..فانعدام اليقين الذي كثيراً ما نشعر به في أحاديثه إزاء الوطن والسياسة والثقافة وإزاء الحاضر والمستقبل، بل الحياة نفسها ما هو إلا نتيجة لمثل تلك المواقف التي يدل تكرارها على كثير خلفها، يقال وراء ظهره ولا يقال في وجهه، وهو أذكى من أن يجهل ذلك..مع أنه يتحلى بالقدرة على الصمود كما يتحلى بالقدرة على المواجهة..لكن ما يتراكم من تلك المواقف على المدى الطويل ينحفر في النفس إحساساً بانعدام اليقين..وبأنه إذا كان لكل اختيار ثمن نبذله وتضحية نقدمها ونتحمل تبعاتها برضا ومحبة فإننا نتوقع على الجانب الآخر أن نحصل على التقدير المناسب لما فعلنا، بعبارة أبسط نتوقع أن يكون لذلك معنى..أن يكون له صدىً مّا.. أما أن يكون حظنا الجحود والنكران وأن نكون موضوعين تحت طائلة الرفض أو التوجس، أن يكون التعامل معنا بوصفنا عنصراً صالحاً للاستغلال ضمن تكتيكات مرحلية للاعبين أنذالاً فهذا يفرّغ اختيارنا من معناه، لا يصبح هناك فرق بين النضال من أجل الشعب أو التآمر عليه، وعند هذه النقطة بالذات تصير الحياة كالموت تماماً، ويشعر المؤمن بأن الشك، بل انعدام اليقين، وتلاشي الأمل، وتبدل الثوابت، واحتقار الخيارات النبيلة، وعدم الشعور بالتضامن مع القضايا التي يصطف الآخرون حولها، أو التفكير في المكاسب الآجلة سواء كانت مادية أو وظيفية، معنوية أو

اعتبارية واستبدالها بالمكاسب الآنية مهما تكن تافهة أو ضئيلة لأن الثقة في الآجل منعدمة كما هي منعدمة في الحاضر..وثمة مفارقة أخرى في رحلة الحاضري فقد كانت كتاباته القوية المؤثرة تجعله يبدو كطالب ينجح بتفوق دائماً، لكن إجحاف النخبة المثقفة في حقه تجعله يلقى ما يلقاه الطالب الراسب..

لذلك فإن على كتابة تحاول أن تكون رائدة في مقاربة تجربة هذه القامة الباذخة والمظلومة..أن تبدأ معها من البدايات..

****

بدأ مُحمَّد الحاضري رحلته مع المعرفة صغيراً في أوائل السبعينيات من القرن العشرين..كان في مدينة جدة في المملكة العربية السعودية وقتها، وبالمصادفة وقعت عيناه على كتاب تعليمي يتعلق بفن الخط اسمه " المفرد العلم في رسم القلم" وأثره في حياة الحاضري يقتصر على كونه أول اتصال له بالكتاب خارج المنهج الدراسي..ومن هنا بدأت الرحلة التي تنوعت منعرجاتها علي صفحة ذلك العقد من الزمن، ليجد الفتى الصغير نفسه ترتج وتجيش بهواجس الإبداع والكتابة.

وكمعظم الكتاب بدأ يعبر عن هواجسه ولواعج نفسه شعراً.. لكنه بعد رحلة قصيرة مع الشعر تحول ليتلبس بميل جارف للكتابة خارج هذا المدار، ثمة صوت في داخله كان يناديه باستمرار: لست للشعر إنما أنت للفكر وقضاياه..

حينها كان واقعاً تحت تأثير ثلاثة من كبار المفكرين هم جمال الدين الأفغاني رجل الإصلاح والتثوير وصاحب الشهرة الواسعة عند مطلع القرن العشرين، والمفكر الإيراني علي شريعتي الذي اندفعت أمواج شهرته عند نهاية السبعينيات ومطلع الثمانينيات في كل جهات العالم بوصفه ملهم الثورة الإسلامية في إيران..كما كان متأثراً بالمفكر الفرنسي روجيه جارودي الذي صدم الغرب سنة 1981م بإعلان إسلامه وخاض صراعات مريرة مع مدارس الفكر الأوروبية، في نفس الوقت الذي كانت جهات ومراكز فكرية عربية وإسلامية تتلقى تحوله بحبور ما عليه مزيد.

وشهد عام 1981م نشر أول مقالة للحاضري، وقد لامست تلك المقالة عيون القراء على صفحات صحيفة 13 يونيو التي ظل ينشر فيها طيلة الثمانينيات من القرن الماضي بعد تغيير اسمها إلى " 26 سبتمبر" كما اتسع مدى النشر عنده ليشمل معظم الصحف اليمنية المعروفة آنذاك..كان اهتمامه حينها ينصب على محاولة تثبيت اسمه في أذهان القراء وفي أوساط النخبة المشتغلة بالكتابة والأدب والثقافة والسياسة والصحافة أيضاً..لذلك كانت السمة العامة لما ينشره يقع تحت توصيف " كتابات خفيفة " إن صح التعبير..مع استثناءات قليلة تميزت بالعمق وكان فيها موقف اجتماعي يبشر بنضج قريب وكاتب كبير قادم.. ولعل أهمها تلك الكتابات التي تموضعت القطاع العام ونشرت في صحيفة 26 سبتمبر قبل قيام الوحدة اليمنية بمدة وجيزة من الزمن.

كان وقتها وبدافع ذاتي قد أمعن في قراءات نوعية.. وقد أحدث كتابا " إحياء علوم الدين " لأبي حامد الغزالي و"المنطق وفلسفة الطبيعة " لهيجل رجة كبرى في روحه، وعصفاً ذهنياً مزلزلاً في عقله

بعد 22مايو 1990م نتج عن توحد شطري اليمن أفق واسع للتعددية السياسية والحزبية ومعه آفاق أوسع لحرية الكتابة..وتعددت بسبب ذلك مناحي التناول الكتابي والاشتغالات الفكرية..وكانت أحداث كبرى مثل أزمة الخليج وانهيار الاتحاد السوفيتي، وسقوط جدار برلين، وتدشين عصر العولمة..ثم الأزمة السياسية التي انغمست فيها النخب اليمنية عقب قيام الوحدة..عوامل التقت مع نضج الحاضري تجربة وفكراً وثقافة واحترافاً للكتابة.. وقد دفعه وعيه بالمشهد في تجلياته المختلفة كي يتحول - مدعوماً بقراءات واسعة في الفكر والفلسفة – إلى ناقد اجتماعي وسياسي..وحظيت كتاباته بين عام 1990-1995م والتي نشر معظمها في صحيفة الثورة بموثوقية واحترام كبيرين، إذ كان يتجلى فيها نفس جديد يجمع بين قوة الطرح، وحرية الرأي، واختلاف التناول.. فالحاضري وقتها كان في طليعة كوكبة من الكتاب الجدد الذين يقدمون التعبير الحقيقي عن المناخ السياسي والثقافي والاجتماعي الذي استجد على الساحة اليمنية بعد عام1990م وسرّعت اختماره ونضج

ثماره الأزمة السياسية بين شركاء الوحدة.. تلك الأزمة التي تكشفت فيها أوراق كثيرة، وتهدّمت تحت وطأتها تابوهات ومحظورات لا حصر لها سواء في ناحية الجرأة على الكتابة أو في ناحية إتاحة المعلومة، أو فيما كان يتطلبه الصراع المتعدد المستويات من مقارعات تقتضي خطاباً تتساند فيه المعلومة مع المعرفة مع أدوات الإقناع من أسلوب كتابي جيد وقدرات على التحليل والتفكيك والتفنيد والمحاججة..

اشتغل الحاضري بعمق على القضايا الاجتماعية في كتاباته تلك.. ولعل أكثر ما يلفت النظر في اشتغالاته أن أفق الوطن الواسع.. وأرضيات التلاقي عليه كانت خيطاً ناظماً فيها..ولم يكن ذلك إلا نتيجة لمعرفته بعماء السياسيين.. وشعوره بخطر الكتابات التي تعبر عن ذلك العماء والتي تسطرها أقلام متسلقين تربطهم المصالح بعماء السياسيين بمقدار ما يفصلهم الجهل وضعف الضمير عن مصلحة الشعب وهموم الناس..وثمة جمع من مقالات ذلك الوقت الملتهب تضمنتها إصداراته..على وجه الخصوص كتابه " ثقافة المشترك" الصادر عام 2000م.

***

عند منتصف التسعينيات كان الحاضري قد ترسَّخ تماماً في أذهان القراء كما في أذهان النخب الثقافية والسياسية بوصفه كاتباً واسع المقروئية..قوي الرأي والحضور واضح الالتزام بقضايا الناس.. مخلصاً لما يراه وغير مستعد للتنازل عنه..وكان واحداً من كتَّاب قليلين – مثل عبد الباري طاهر، وأبو بكر السقَّاف، وعبد الكريم الرازحي – لم تكسرهم نواتج حرب صيف 1994م.

وقد وجد الحاضري نفسه أمام مشهد مفجع يحتِّم على كاتب ومثقف مثله أن يساهم في ممارسة الضغط باتجاه رفض واقع مختل يفرض على الشعب نفسه بقوة السلاح، وقوة التخلف، مصحوبين بآلة إعلامية ضخمة تزيف وتكذِّب وتشوّه.

ومع أول الكتابات في هذا الاتجاه وجد الصحف الرسمية التي اعتاد على نشر أغلب كتاباته فيها..تضيق مساحاتها بآرائه، فتوجه إلى صحف المعارضة التي راحت تتلقف كتاباته بنهم وجوع لا مثيل لهما..

كانت مرحلة مميزة وثرية..وكان الحاضري في أوج نضجه وتألقه وفي ذروة عطائه وتجليه.. وتميزت مقالاته التي راحت تتوالى في " الوحدوي " و " الثوري" و " الشورى" و " والأمة" و " المستقبل" وغيرها بالحدة والغضب والعمق..حتى كادت كل مقالة منها تثير ضجيجاً وتحدث أزمة.. ومنذ مقالته " عصابة الأربعة " التي نشرت في الوحدوي حدود نهاية عام 1996م، وهي المقالة التي هزت الدنيا وجننت رأس الدولة وتغير بسببها بعض الوزراء..تحول الحاضري إلى مهماز في جنبي النظام لا يكف عن الوخز والمشاكسة والتعرية..

وإذا كان الكاتب الذي اختار الضد – في بلد لايستطيع الحكام فيه التخلص من ثقافة القمع وتقاليد الديكتاتورية – يسعده أن يكون في الواجهة على رأس المواجهين بكل ما يعنيه ذلك من أخطار، فقد كان الحاضري ذلك الكاتب..وإذا كان اتساع المقروئية واحداً من الأحلام الكبرى للكاتب أي كاتب كان..فقد كانت مقروئية الحاضري إبان ذاك في ذروتها..

منذ عام 1996م صار شعور الحاضري بمكانته ككاتب مميز، مقروء ومطلوب بإلحاح دائم، يميل به إلى قراءة نفسه، ثمة ما يميزه بين أولئك الذين يجرون معه أو يجري هو معهم في نفس المضمار.. وكان الثلاثة الذين وجد الناس يقدمونه بوصفه رابعهم..يشاركونه الهم لكنهم يختلفون عنه في الظروف الخاصه ظروف الذات وظروف المكان – إن جاز التعبير–.

كان عبد الباري طاهر كاتباً كبيراً وناشطاً حقوقياً وصاحب وضع مميز كرئيس لتحرير الثوري ونقيب للصحفيين.وصاحب تاريخ طويل في النضال الوطني الذي طورد بسببه ودخل السجن عديد المرات.

وكان الدكتور أبو بكر السقّاف أكاديمياً كبيراً وفيلسوفاً ومناضلاً يمثل أنّات الجنوبيين وأول أصوات الحراك، وقد دفع ثمن مواقفه وكتاباته ضرباً واضطهاداً وتنكيلاً.

وكان الرازحي شاعراً لامعاً، وكاتباً ساخراً ومقروءاً..تؤازره النخبة التعزية وتشكل غطاءً حامياً له..

وكانوا جميعاً ينتمون إلى حواضن حزبية واجتماعية ذات صلة بالثقافة والكتابة، وقد نشطوا انطلاقاً من تنشئة منظمة وموجهة..

أما الحاضري فقد كان عريّاً من معظم تلك الميزات سوى شعوره الخاص بالظلم والانسحاق..وفوق ذلك فهو أفقر عناصر المجموعة وأقلهم غطاءً..تكوينه ذاتي..ومنطلقاته في أساسها فردية..لذلك كان – رغم امتلائه الفكري والثقافي – يتميز بالعدائية والحدية وقوة الإصرار على المواجهة.وكان يستغل معرفته بمواطن وجع السلطة فيضغط عليها أو يفحصها.. كان – مثلاً – في جانب من جوانب المواجهة يركز في العموم على إبراز مدى شكلية التغيير الذي تم بعد ثورة سبتمبر 1962م حيث آليات إنتاج قضايا الواقع التقليدي لم تتغير..لذلك بقي نموذج الدولة شكلياً، لأنه علاوة على عدم تغير آليات إنتاج قضايا الواقع، كان مفهوم الدولة سطحياً، ساذجاً وارتجالياً، لا يتجاوز ما تقدمه الدولة من مشاريع بنية تحتية متواضعة المستوى..إنها مجرد دولة تمتلك الهيكل والتشريع والكادر، لكن بدون أداء وظائف الدولة..وهذا ليس العيب الوحيد..فالإرادة السياسية غائبة والخيارات السلطوية لمن جاءوا بعد سبتمبر أسوأ من الخيارات السلطوية لمن كانوا قبله بدليل أن أقارب صالح في السلطة أكثر بكثير من أقارب أحمد حميد الدين (فحوى مقطع من إحدى مقالاته).. لذلك لم يسلم من الأذى وقد ذكر الكاتب عبد الباري طاهر في مقال له بعنوان " الحرب على الصحافة " الحاضري مع مجموعة من الكتاب تعرضوا خلال العقدين الماضيين للضرب أو الخطف أو الضرب والخطف معاً بسبب مواقفهم..

بمرور الوقت بدأ الحاضري يعي أن ما يجمعه بتلك الكوكبة من الكتاب هو المقروئية الواسعة وقوة الأثر التي تحدثها كتاباته وكتاباتهم.. لكنه يختلف عنهم في الامتيازات التي تترتب

على ما يقدمه..فهو في هذه الناحية يجد نفسه دائماً مع الصف الثاني من الكتاب لأن الأحزاب تتخذ منه ومن أمثاله أسلحة لمقارعة السلطة وبعبعاً لإخافتها..أو ابتزازها

وأن عليه هو وأمثاله أن يكتبوا..أما المكاسب فلقيادات الأحزاب ووجهائها.. "أنت تكتب والزعماء هم..فهم الوجه الآخر للسلطة..وذلك هو واقعنا وهو واقع ابن سوق، معرص وابن كلب"..

لكن هذا الوعي ظل طي النفس فقد كانت حماسته لكونه يمارس وظيفة المثقف الذي يمتلك رؤية ولديه رسالة ويشعر بالمسئولية هو الإحساس الطاغي عليه..ولعل اتساع دائرة قرائه والشهرة الواسعة التي تمتع بها كانت تجعل شعوره باستغلال الأحزاب له يبقى في الظل.وربما أنه بجانب ذلك لم يكن قد قطع الأمل في تصحيح مسار المعاملة بينهم وبينه..

****

بموازاة التوهج والإنتاج الغزير والمواجهات العاتية التي خاضها آنذك..كانت تتنامى في اهتماماته التوجهات نحو التصوف والفلسفة، وكانت قراءاته التي تتوجه ذاتياً في هذا السياق تنعكس على كتاباته كناقد اجتماعي وسياسي، تمنحها مذاقاً خاصاً..وتضفي عليها مسحة معرفية..أو رونقاً تنويرياً يميزها عن غيرها..

وفي مقالات كثيرة كتبها آنذاك يبدو جلياً أثر انهماكه في قراءة الفلسفة واعتماده على التلقي الذاتي لها والتطور الفكري من خلالها في مضامينه فهو رغم الحدة وعنف المواجهة يتمنى أن تكون للنظام فلسفة، وللقيادة فلسفة، وللأحزاب فلسفة، ولبيوت المال فلسفة، وأن يعرف كل هؤلاء أن قوة العقل أهم كثيراً من قوة السلطة والجيش والحزب والمال والقبيلة..وأن استعماله أجدى من استعمال السلاح والنفوذ والهيلمان والاستعراض بالمظاهر والزنط..وأن العقل وحده هو الذي يمكن أن نتغلب به على مشكلات الشعب وأزماته وتناقضات الواقع وتحدياته وأنه المخرج الوحيد من أمراض التخلف والفقر وأمراض الماضي والحاضر..وهو الضمان الوحيد للمستقبل..

لكن شعوره باستغلال الأحزاب له صار أكثر وضوحاً عند نهاية التسعينيات..ولم يعد بإمكانه التستر على ضيقه بالطريقة التي يعامل بها..إنه بين شقي رحى لا يكفان عن طحنه..السلطة تضطهده والمعارضة تستغله.. وهو بينهما يكتب ويكتب... يكتب خالي الوفاض..إنه واسع المقروئية لكنه لا يحصل على التقدير المناسب من قبل النخبة، ثمة حقوق مكتسبة كان يجب أن تترتب على جهده وكفاحه..حقوق مادية ومعنوية..لكنه لا ينالها..وإن تجاهله يتم بشكل متعمد..فهو لم ينصف ولم يعترف به أو له بشيء "تكتب للمزايدين بك وحين تحتاجهم يتهمونك بالعمالة وبالاندساس عليهم"..وهو رغم الشهرة التي حققها في حرب مستمرة مع الجوع..كما هو في حرب مستمرة مع الغلط الذي تمارسه السلطة.. والمكر الذي تطبعت به المعارضة..ويعاني أوجاع الكتابة قبل ذلك وبعده.

****

حالة التطور الذاتي المستمر التي صاحبت رحلة الحاضري من بدايتها شهدت أطول فتراتها من حيث تواصل الحلقات وتراكم الخبرات بين عام 1995 م وعام 2010م وكانت تتمثل في انغماسه الذاتي والفردي الكبير في عوالم التصوف والفلسفة..أو في نهج التصوف الفلسفي.. وهو يفهمه فهماً بعيداً إلى حد مّا عن فهمنا للتصوف الفلسفي إذ هو عند الحاضري عكس التصوف الديني أو غير الديني... التصوف الفلسفي عند الحاضري يدور في عوالم ديكارت وهيغل وهو يجد بغيته عندهم لأن الحقيقة كما يقدمونها هي جزء من عملية التطور..وهو يشعر بها دائما تشده إلى ذاتها، وتعرض نفسها عليه كحقيقة يتطور بها وفيها..

لقد كان تأثير التصوف الفلسفي كبيراً على الحاضري وقد شكَّل جُنّة له تحميه وتساعده على التوازن كلما وجد نفسه في العراء.. وكان نفعها كبيراً له حين وصل إلى طريق مسدود وتوالت عليه صدمات المعارضة بعد صدمات السلطة.. لقد قرر أن يتجه إلى التأليف، وقد اتجه إليه مسلَّحًا بخبرات كتابية واسعة ومخزون صوفي وفلسفي منحا مؤلفاته محمولاً معرفياً وروحياً إلى جانب المنطق الجدلي والرؤية الإنسانية الشاملة..

وكانت باكورة إنتاجه " ثقافة المشترك " الصادر سنة 2000م، وقد ثبّت فيه انحيازه للفكر على حساب الهم السياسي المباشر..حيث خفف نبرة النقد واستحضر معارفه الفكرية والفلسفية والصوفية..إذ كانت فكرة الكتاب تتأسس على النزعة الإنسانية أو تنبع منها، كون النزعة الإنسانية بطبيعتها تدفع صاحبها إلى الدفاع عن المجتمع وعن المشترك الإنساني بين أبنائه..وتدعو إلى الترفع عن الخلافات التي سيبدو أكثرها غير جوهري، لأن المشترك ونقاط الإتفاق بين بني الإنسان أكثر بكثير وهي نقاط قوة حقيقية..فالمشترك الإنساني هو الحقيقة، والحقيقة هي مضمون الفكر الإنساني..وهي أهم شروط الإنسانية التي تتسع لكل الناس، إنها الأخلاق والقيم وحسن التعايش والتوافق.

هذا المنحى واصل الحاضري الاشتغال عليه وبلوره بشكل أعمق وفهم أوسع ورؤية أكثر تطوراً في كتابه الثاني " آفاق المشترك المثالي المادي" الصادر سنة 2002م..

أما كتابه الثالث " المجتمع اليمني " الذي قدمه إلى المكتبات سنة 2003م وهو أكثر كتبه مبيعاً فقد كان تشخيصاً دقيقاً لعوائق تطور المجتمع اليمني وعلى رأسها السلاح والقات ونماذج المرحلة السيئة..التي قدمت دائماً بوصفها التجليات العليا للنجاح من نوع السارق والناهب وقاطع الطريق والمبهرر..إلى غير ذلك.

بينما يعتبر كتابه الرابع " التصوف على قاعدة المشترك " الذي صدر سنة 2004م رحلة كبيرة واستثنائية لتوضيح فكرته عن التصوف بوصفه فضاءً إنسانياً واسعاً في كل العالم..إذ المقصود بقاعدة المشترك ذلك الجوهر بين الدين والفلسفة..وما يتفرع عنهما..وينعكس فينا وعياً بالعالم وقيماً إيجابية خيرة ومنتجة للتحضر والسلام.

وبرصانة عاد سنة2006م ليقدم كتابه الخامس " دولة الشعب " هوامش حول الدولة الوطنية اليمنية، ثم آزره سنة 2008م بكتابه السادس " مشترك المثالية المادية والوطنية الإجتماعية "

ولا ينفصل عن توجهه في كتابيه السالفين كتابه الأخير "حركة 13 يونيو " الصادر عام (2014م) فإذا كانت مرحلة 13 يونيو تمثل للحاضري كما تمثل للغالبية العظمى من

أبناء الشعب اليمني لحظة انعتاق سياسي واجتماعي وتنموي تشبه الحلم.. فإنها تتميز لدى الحاضري بأكثر من معنى..فلها عنده خصوصية ذاتية إذ عاشها بقلب وعقل المبدع الحالم في سنوات التكوين.. وتدخلت تلك اللحظة التاريخية في تشكيله وتحديد جزء من مستقبله والكثير من توجهاته بشكل مباشر..كما أن لها عنده خصوصية أخرى ناتجة عن شعوره بالواجب تجاهها من جهتين، جهة الإنصاف والشهادة وقول كلمة الحق، وجهة المعرفة العميقة بالفترة وخالقيها وطول معاشرة موضوعها، والقدرة على تقديم رأي موثوق فيها، وقد فعل كل ذلك على أحسن وجه.

****

كانت اشتغالات الحاضري الفكرية، وإصدارت كتبه المتوالية على صدر سنوات العشرية الأولى من الألفية..تتم بالتوازي مع قطيعة ملحوظة إن لم تكن شبه تامة في معظم الأحيان مع النخب في السلطة والمعارضة والأحزاب بشكل عام..وبمقدار ماكان يشعر باليأس من تلك الجهات..كان يتماهي مع من يسميهم "جماعة الحقيقة" هيغل، إيمانويل كانت، ديكارت، وروسو، وأمثالهم من فلاسفة الحداثة الذين شعر بالانتماء إلى فكرهم..وبقدرة ذلك الفكر على تلبية احتياجاته الروحية ومتطلبات تطوره الذاتي..وكانت العقلانية والتنوير والكونية التي يمثلونها تقدم له الإلهام..وهو ما لم يكن يراه في فكر وفلسفة ما بعد الحداثة..هنا كان يصطدم برغبات الهدم والتدمير فينأى ويتحاشى..لكن هذا لم يكن ليشكل مشكلة كبيرة عنده..المشكلة الكبيرة عنده كانت تتمثل في التناقض بينه وبين الواقع الاجتماعي الوطني..كان يرى ذاته تتطور معرفياً وفكرياً فيما تتخلف اليمن ويتراجع فيها المشروع الحداثي المتقدم لصالح المشروع المتخلف الذي تمثله القبيلة والجماعات الدينية المتطرفة بالشكل الذي تمظهرت به بعد حرب عام 1994م.. وهو المشروع الذي تجني اليمن اليوم ثماره المتمثلة في التمزق والفوضى والحروب والاصطفافات المذهبية المفجعة.

لقد كان الحاضري لسنوات طويلة من أكثر كتاب الرأي والفكر السياسي والاجتماعي اليمني معرفة بالحياة السياسية اليمنية ودهاليزها..يعرف كواليس اللعبة ويعرف ما

يدور منها في العلن كما يعرف ما يدور منها في الخفاء..وكان باستمرار ينغمس في مقاربات تجمع بين قوة الموقف والانحياز للشعب، والرؤية المتقدمة باتجاه الدولة المدنية، والممارسة السياسية السلمية والإدارة القائمة على الإرادة المنتجة..كان بين قلة في الساحة اليمنية يعرفون اللاعبين وإمكاناتهم وأهميتهم ويعرفون الزائف من الحقيقي من النص نص..لكنه بعد صف طويل من الصدمات المثبّطة.. بدأ بعد منتصف العشرية الأولى من القرن الحالي يعيش نوعا من التحول لعله كان نوعاً من الواقعية في البداية..فقد بدأ يفاسح في دخيلة نفسه وقناعاته ليقين جديد ظاهره الضيق الشديد بسخافات النخبة المتحكمة في اليمن بكل تمظهراتها عسكرية وقبلية وسياسية حزبية.. وباطنه الشعور باللاجدوى لذلك كف عن النقد المباشر..وعن مطالبة الجميع التزام قواعد اللعبة..لأن الغاغة والارتجال والفوضى هي القواعد التي صار على يقين أن الجميع يجيدها ولا يحبذ أية قاعدة سواها..

هل كان في ذلك شيء من الإرهاق الفكري والنفسي أو حتى القرف الروحي.. يجوز هذا في ضوء أسباب سبق ذكرها وأسباب أخرى ستأتي..منها أن الحاضري من الكتاب القلائل الذين تقاطعهم حفاوة المؤسسات الرسمية والأهلية، وتجافيهم حفاوة النقاد والدارسين، وتفتقر مسيرته كاتباً إلى كتابات التشجيع والنقد الإيجابي التي تشعر الكاتب منا بجدوى الكتابة.. وأنه يحلِّق فوق العالم كله حتى وإن كانت ظروفه الحياتية وأوضاعه المعيشية في أسفل السافلين..وليس سهلاً على كاتب مميز وجاد ومؤثّر أيضاً أن يبقى لأكثر من عشرين عاماً يحمل هموم الوطن على كتفيه صاعداً هابطاً دون أن يتلقى كلمة شكر..المؤكد أنه ظل يكتب للآخرين فيما تحاصره عزلتهم له.. يفكر فيهم والغربة تأكله وتجتاح روحه..

وتعبيراً عن حالة نضج متقدمة يعيشها.وبحثاً عن طرائق عالية التحدي في مجال الفكر والتفوق حاول الحاضري عبر أربع سنوات (2006- 2010م) من الكتابة في صحيفة الوسط تقديم مشروع كتابي تنويري يتكىء على عمق معرفي، ويقدم نقداً جوهرياً لعديد الإشكالات القائمة..كان وقتها يعيش حالة عصف ذهني غير عادي.. ويعيش ذروة

اشتغالاته الفكرية. كان يكتب بيقين أن ما ينشره هو من أعلى ما كتب في العالم من فكر ونقد..لكنه كان مصدوماً بقلة تأثيرها..

لم يفكر الحاضري وهو يعاني جراء ذلك في احتمال تغير المزاج العام، أو في ارتفاع مستوى المكتوب حتى عن مستوى النخبة من القراء.. لكنه فكر فيما يضاعف شعوره بالغضب والحزن معاً..قال لنفسه: أنت في اليمن..ولا مكان في اليمن لمعرفة كهذه..

ومع عدم استبعادي للعاملين السابقين..فإن الأكيد أيضاً أن الحاضري كان محقاً في تفسيره..ولا أدل على صحة تفسيره من إصداره ثمانية كتب في التصوف الفلسفي والنقد الاجتماعي والسياسي والفكر الإنساني دون أن تهجس مؤسسة ثقافية بإقامة فعالية لمناقشة أفكاره وآرائه. أو حتى الاحتفاء بجهده..

لقد شعر الحاضري منذ وقت مبكر بتجاوز الأفغاني وشريعتي وجارودي، الذين بدأ متأثراً بهم..ووجد بغيته في الفلسفة العالمية التي رأى فيها ذروة النشاط العقلي الإنساني..ولقي فيها فكراً خلاقاً ومميزاً يصغر عنده أي فكر..وقد اشتغل طويلاً على هيغل حتى ليظن من كثرة معاشرته له أن لا أحد في اليمن يفهم هيغل كما يفهمه هو..وكل هذه الأفكار تستحق المناقشة والدرس..وما يلجأ إليه أغلب المثقفين اليمنيين من تعامل مع الطروحات الجادة والكتابات العميقة من خلال التقييم الشفاهي المقايلي.. أوالتنفيس عن الاختلاف مع الآخر عبر تقييمه تقييماً سلبياً يبخسه حقه..لهو من أسوأ ما يمكن أن يلحق بالكاتب من إجحاف..

لقد كان تأثير التلقي السلبي لكتابات الحاضري الناضجة بين عامي 2006 – 2010م عميقاً على نفسه إلى حد كبير..وحين تفجرت هيجانات الشوارع سنة 2011م..كان يعيش حالة انسحاب إلى الداخل..فلم يكن لتلك الأحداث تأثير عليه..لم يشعر بالحماسة لها..كان متوحداً مع ذاته راكناً على تفسيره الخاص لما يجري..بعبارة أخرى كان مهتماً ومتابعاً من فوق فوق، أو من بعيد، لكنه كان يشعر بأنه غير معني بالمشاركة في الرؤية

العامة..فقد بدا أن هيجانات الشوارع تنسى تماماً جهد ثلاثين عاماً من النضال قدمها هو وأمثاله..وكان يتوقع أن تكون مخرجات مثل هذه الهيجانات أكثر نسياناً منها..

****

اليوم وبعد رحلة ثلث قرن مع الكتابة والفكر لا شعور في داخل الحاضري ينازع شعوره بأن الواقع سلبي، وأن الانخراط فيه مدمر، وأن الانسحاب إلى الداخل هو أعلى مراحل التوحد والإحساس بالانتعاش .. التوحد بالضوء والمطر بالزهرة والطائر، بالجمال الوافر في الطبيعة..بعيداً عن نخب ثقافية وسياسية لا هم لها إلا الحرب على المبدعين والمفكرين..

ثمة واقع يمني مرّ..وككاتب حر ومفكر تنويري أنت بالنسبة لهذا الواقع بنية مفارقة، كلما حاولت تغييره للأفضل..يسحبك للأسوأ وفي واقع كهذا يجب على المبدع أو المفكر أحياناً أن ينأى عنه ليعيش مع الله.. الله بمعناه الفلسفي أو كما يتجلى في مفردات الطبيعة..

وفي تماهيه مع موقفه تجاه الواقع يكتفي بإصدار الكتب.. لأنها الأقدر على البقاء..ولأنها ستجد قراءها في المستقبل..ولأنه مادام يصدر كتباً فهو غير محبط..

طه الجند
في حيز لا يكفي نملة

طه الجند نسيج وحده – لا مفر من استعمال تعبيرات القدماء – فهو مخلوق من شعر خالص.. إنه قصيدة تمشي على الأرض.. وهو إذا قرنا أن نتعامل مع اللحظة التي عرفناه فيها شاعراً أقصد نهاية تسعينيات القرن الماضي سيعدُّ نابغة بكل معنى الكلمة... فقد قدم ديوانه الشعري الأول (مراث لزمن الجراد) سنة 2000م.. وكان عمره حينها 37عاماً.. وكنا نظنه مثل أكثر الكتاب والمبدعين اليمنيين ممن يهملون تجاربهم الإبداعية أو نتاجاتهم المكتوبة بشكل عام..وقليل منهم من حاول نشر جزء من إبداعاته وكتاباته – وهذا القليل - حين يفعلون ذلك - يقومون به في وقت متأخر نسبياً عند البعض..ومتأخر جداً عند بعض آخر..وهناك بعض يتولى مهمة نشر إبداعهم أصدقاء لهم وتجيء المبادرة في الغالب بعد فوات الأوان أعنى بعد رحيلهم إلى الحياة الآخرة.

لكن طه الجند أخبرني وهو يضحك ويسخر من نفسه كالعادة أنه رغم شغفه المبكر بكتاب يمنيين كالبردوني وعبدالودود سيف والمقالح وأدباء عرب مثل محمود درويش والبياتي وأمل دنقل وغيرهم.فإنه عاش سنوات طويلة وهو يتردد في دخول عوالم الكتابة..فالكتابة لم تكن مشروعاً له، لم يعتبرها هدفاً..أو مآلاً لحياته.. وما هو عليه اليوم بوصفه شاعراً متفرداً تحظى تجربته باحترام كبير لم يكن ليخطر على باله حين كان في الخامسة والثلاثين من عمره..

كان الجند يحلم بمشاريع أخرى، مشاريع كان يعتقد – ومازال – أنها يجب أن تكون هدف جموع الشعب الكادحة.. من فلاحين وعمال وأصحاب حرف ممن يصنعون

الحياة وبهم تدور عجلتها.. وبهم يجب أن يتغير الواقع أو ينتزع انتزاعاً من سرّاقه ومن مزيفيه الذين لن يكونوا سوى حفنة من المتسلطين وذوي الجاه والنفوذ ..

ولد طه الجند في قرية الجند – بني مسلم، وصاب العالي سنة 1963م..من أسرة معروفة تنغرس جذورها في تاريخ فقهي وصوفي تتذكره كتب التاريخ والطبقات جيداً وإن بدا غابياً اليوم على كثيرين حتى من أبناء الأسرة نفسها رغم ممارساتهم اليومية لطقوس شعبية وروحية تعطر النفوس والأمكنة بروائح ذلك التاريح.. أما ما تعرفه الأسرة يقيناً فهوانغراسها في التربة الفلاحية المنتجة والمواطنة الصالحة كما يجب أن تكون، وهذا مايفاخر به طه الجند ويعتبره النسب والحسب الذي يليق به كمبدع ويليق بسائر اليمنيين أيضاً لأنه حقيقتهم الأجلى ..

كان قدر أي صغير يتخطى الثانية عشرة أن يتوجه في الغالب إلى السعودية حيث كانت الطفرة النفطية قبل منتصف السبعينيات من القرن الماضي في ذروتها.. وكان السفر سبيلاً لجني المال والبقاء في الغربة أو العودة بعد وقت لترتيب وضع مّا.. قليلون هم الذين يبقون في حضن الأرض وصحبة الزرع والماشية، وأقل من القليل من يواصلون دراستهم.. وكان هو من هذا (الأقل) الأخير..فبعد أن أنهى دراسته الإبتدائية في وصاب انتقل إلى صنعاء حيث التحق بمعهد الشوكاني للمعلمين..ومنه تخرج بعد سنوات لينخرط في التعليم زمناً قبل أن يكمل دراسته في قسم الدراسات الإسلامية بجامعة صنعاء. ويواصل من ثَمّ أداء رسالته تربوياً ثُمّ موجهاً .

***

أماّ صلة الجند بالثقافة والكتاب فقد بدأت في أسمار قريته وفي لياليها الرمضانية بالذات حيث تمتزج الحكايا الشعبية بالقراءات التي تمر من القرآن الكريم إلى كتب مثل الإسراء والمعراج لتنعطف إلى الحكايات مقروءة هذه المرة وممثلة ب "الف ليلة وليلة" فاتحة للخيال آفاقاً لاحدود لها..وكما حدث بالضبط للكاتب والباحث مُحَّمد سالم الحداد على تباعد الأمكنة وانعدام المعرفة بينهما، فقد شهدت صلة الجند بالكتاب – في نفس

السنوات بالضبط (مطلع السبعينيات) - تطوراً حين بدأ يتعرف على مجلة العربي في بيت عمه، واكتشف أن فيها شيئاً مختلفاً بالنسبة له.. اللغة غير اللغة التي ألفها في تلك الكتب الصفراء.. والورق له روائح مميزة.. وهي تنتقل بهذا القارئ الصغير بين كتّاب كثيرين وبلدان متباعدة، وتفتح عينيه على الصورة واللون كما تفتحهما على فضاء المعرفة عربياً وإنسانياً.

لكن هذا لم يكن المنعطف الحقيقي في حياة الجند رغم أهميته كمدماك أولى في تكوينه..فالمنعطف الحقيقي بدأ عقب التحاقه بمعهد الشوكاني للمعلمين.. حين وجد نفسه بين طلبة ينتمون إلى جهات شاسعة من اليمن.. كما وجد نفسه وسط العاصمة مركز السلطة والنشاط السياسي والثقافي. وكانت تلك فترة السبعينيات من القرن العشرين وهي فترة شهدت فيها اليمن ذروة الأمل في المستقبل قبل أن تتوالى عليها الفواجع والانكسارات.

انضم طه الجند —في تلك الأثناء - مع عدد كبير من زملائه المتحدرين من أسر فلاحية ريفية إلى العمل السري من خلال حزب الوحدة الشعبي الذي كان فرعاً في شمال اليمن— إن صح التعبير– للحزب الاشتراكي اليمني الذي كان صوته يعلو في جنوب اليمن على كل صوت ..

وبسبب نشاطه وحماسته وإيمانه بما يفعل فقد صار بعد وقت قصير مسئولاً عن الإذاعة في المعهد ومسئولاً أيضاً عن حلقات التوعية والصحف الحائطية.. وصاحبت تلك الأنشطة قراءات موجهة وأخرى حرة.كما صاحبتها مثاقفات وتجارب أنضجت وعيه، ووسعت مداركه ليبدو شاباً يجمع بين الشجاعة والاندفاع، وتضج روحه بعرام الحماسة للمبادئ والتوجهات التي يحلم بها ويتوقع لها أن تمتلك الغد وتغدق العدل والمساواة والحياة الكريمة على جموع الفقراء من فلاحين وعمال وحرفيين ممن يمثلون سواد الشعب الأعظم.. وترزح رقابهم تحت نير المظالم والدكتاتوريات المتخلّفة وأساليب الحكم التقليدية التي تعيق البلاد عن الانطلاق إلى المستقبل..

وقد أهّله نضاله وحماسته وتوقد وعيه السياسي والاجتماعي أثناء فترة دراسته في المعهد ليكون قائداً للعمل السياسي أيام الجبهة في مناطق وصابين وعتمة..وتلك تجربة أخرى صهرت روحه وعقله وجسده.. فهناك وضع كل الأفكار والقيم والمبادئ التي آمن بها على محك الواقع العملي حيث يمكن للكلمة أن تتحول في أية لحظة إلى رصاصة تطلقها أنت، أو يطلقها الآخرون تجاهك.. أو تجد نفسك في أهون الشرور غير قادر على الاستقرار مطارداً أو مسجوناً.. وكل ذلك عرفه الجند الذي عانى وضحى وأودع السجن في وصاب مدة أربعة أشهر.

***

يعتبر طه الجند نفسه واحداً من جيل الثمانينيات.. وهو يعتقد أن هذا الجيل على المستوى النضالي في المجالين السياسي والحزبي كما على المستويين الثقافي والأدبي أسوأ الأجيال التي عرفتها حقب القرن الماضي حظاً.. فهم الجيل الأكثر تعباً وتهميشاً وتغييباً..رغم أن هذا الجيل في رأيه أفضل الأجيال وأميزها عطاءً ومبادىء وتقديماً للنافع والجوهري في الحياة العامة..فهم الذين دشنوا المساهمة اليمنية في التعليم..وذهبوا إلى مختلف مناطق اليمن وأريافها، مدنها الثانوية الصغيرة وقراها..وهم فوق ذلك آخر الأجيال المستنيرة.. بل هم مفصل فارق في الحالة اليمنية..فقد كان سابقوهم ممن مثلوا توجهات اليسار والتيارات القومية نخباً تتحرك في أطر محدودة بسبب محدودية عددها، وانتساب جلها إلى أسر ذات وجاهات معينة كذلك بسبب ظروف البلد وتضييقات الأنظمة على الناشطين من الحاملين لأفكار جديدة.. أما هم فكانوا مجموعات كبيرة سمتها الغالبة الانتماء إلى أسر فلاحية وعمالية وحرفية تنتمي لغمار الوطن الواسع وأهم بصمة في تكوينهم هي عرق الكد والشقاء.. وروائح التراب.. وآثار المهن التي جاءوا منها.. وهم يصطفون في تيارات اليسار والحركات القومية وينتشرون بشكل واسع في جميع مفاصل الوطن خاصة مجال التربية والتعليم..

كما كانوا يختلفون عمن بعدهم في كونهم – وهذا لم يتبين لهم إلا فيما بعد- آخر جيل حمل المشروع الوطني ذا الملمح الإنساني الجميل..الذي سبق انهيار الأيديولوجيا، وتهدم القيم، وانسلاخ الجلود وابتلاع العولمة للإنسان داخلنا.. وقضاء التيارات المتطرفة المتمسحة بالدين على الفضاء الكبير الذي كنا نرى العالم من خلاله وينعكس على الجانبين الثقافي والابداعي كما ينعكس على المشروع الوطني تحديثاً، وتطلعاً باتجاه المستقبل.

ومن جهة أخرى فقد كان الجيل الثمانيني أكثر انتماءً للوطن..وأنجح في مجال الخدمة الوطنية.. وكان الناشطون في مجالات التعليم والسياسة والثقافة من المنتمين إليه يحملون ثقافة حقيقية جامعة لمعاني التسامح واحترام التنوع..وكانوا يفعلون ذلك ومازال أكثرهم يفعله في كل مكان بتواضع ومحبة.. وهم جيل كبير ورائع مقارنة بما نراه اليوم في الممارسات الثقافية والسياسية التي تُغرق الجيل الجديد في وحل المناطقية والمذهبية الطائفية وتوجهات الكراهية التي تمزق عرى الوطن وتعصف بالأواصر الإنسانية بين الناس.

لكن معضلة جيل الثمانينيات الذي ينتمي إليه الجند وظيفياً وثقافيا ونضالاً ووعياً سياسياً وإدراكاً ورؤية للعالم أنه جيل تحمل قسوة الصدمة وتحمل مراراة الهزائم في كل ماشهدته اليمن خلال العقود الثلاثة الأخيرة، بمقدار ما تحمل الهدر في أحلامه وحياته المعيشية وأوضاعه كلها، فالأجيال التي سبقت جنت ثماركفاحها صدراة في المشهد اليمني العام على مستوى المناصب والوظائف والوجاهة السياسية والاجتماعية والثقافية والأدبية ..ونالت مايليق بها تقديراً واحتراماً معنوياً ومكاسب مادية أيضاً، وكُتب تاريخها ووثّقَ لها بأشكال مختلفة.. أما جيل طه الجند فقد حرم من كل ذلك..ولم تتوقف المعضلة عند هذا الحد إذ قدر لأبناء هذا الجيل أن يتعايشوا مع جيل تال تشكلَ في الواقع الجديد، وتشكل الواقع الجديد به وهوجزء منه، لكنه - وتلك مفارقة مفزعة – لا يعي حجم المصيبة التي هو فيها.

***

ما الذي أخذ بكتابتي عن طه الجند إلى هذه الوجهة؟

لقد كنت أريد الكتابة عنه فحسب.. لكني كتبت عن جيل كامل، وعن أحلام ونضالات وأحزاب وعن شجون وطن كامل.. لا تفسير لما فعلت سوى القول بأن خصوصية الجند قد فرضت نفسها عليّ.. فهو من أولئك الناس الذين تشعر بأن ذواتهم تختصر الوطن في مجموع شجونه الحادة، وتختصر مراحل معينة من تاريخ أوجاعه، وتشعر أنه رجل لا يمكن الحديث عنه إلا من خلال الحديث عن الرفاق والناس ومفردات البلاد كلها.. فهو يعبر عن كل ذلك من خلال صوته القوي، وطرحه الشجاع الذي يصدر عن وعي سياسي عميق، وإدراك نابع من ثقافة حقيقية وتجارب في الواقع. وهو يؤمن بضرورة حصول أبناء جيله – خصوصاً – على حقوقهم فقد ظلموا وظيفياً ومعيشياً، وضاع حقهم المكتسب بالنضال والتضحيات..و ظل الفقر سيفاً مسلطاً على رقابهم. وبين براثنه تكونت عائلاتهم، وكبر تحت وطأته الأبناء والبنات .. ثم هو يرفض أن يُنظر إلي أبناء جيله بوصفهم هامشاً على الحركة الوطنية لأن ذلك حيفًا آخر يلحق بهم.. فقد كانوا جزءاً مؤسساً في نسيج اليسار، كما كانوا فاعلين بقوة في قلب الحركة الوطنية والحراك الاجتماعي ولم يكونوا قطّ مجرد جيل عابر.

مع غروب سنوات القرن العشرين كان طه الجند قد كابد كأغلب المنتمين لليسار اليمني مرارات انكسار المشروع الوطني وحلم الدولة المدنية. وفيما كانت الأيام تمر كابية ثقيلة الخطى وفارغة من المعنى .. راح المبدع المقموع في داخله طيلة السنوات السابقة يتبازغ متردداً بعض الشيء لكنه كان يتقدم ليعرب عن نفسه يوماً بعد يوم..

اعترف لي هو أن الشعر قد بدا له حرفة اضطرارية.. رغم أنه كان يشعر دائماً ب ستأتي مرحلة يكتب فيها.

وهذا معناه أن طه كان يشعر بأنه في ناحية التعبيرعن نفسه بالنضال السياسي من خلال الحزب ومن خلال كل الأساليب التي مارسها سابقاً في سبيل التحقق الذاتي قد وصل إلى طريق مسدود.. وأن العمر يمضي والحياة بلا معنى وأنه حزين لكل ذلك وأن حزنه كما عبر فيما بعد " مثل حزن الأغصان التي تسقط فاكهتها فلا يلتقطها أحد " أوأنه

يعيش في وسط " أكثر حزناً " بل هو " مثل السديم الذي تتنفسه الفاكهة التالفة " وأنه من خلال الشعر يستطيع أن يُخرج بَلغم المرارات التي تمتلأ بها رئتاه وتنسدّ بها منافذ التنفس في حلقه وخياشيمه، ويستطيع التعبير عن نفسه ويوفر لها التوازن ولو إلى حين:

أخاف أنني قد مت بالفعل

ولم أنتبه

فأتشاغل بالخربشة

حتى أجد من يقرضني تكاليف الدفن

هذا كل ما في الحكاية..

لكن بواكير تجربته الشعرية التي أسفرت عن نفسها في مجموعته الشعرية الأولى " مراث لزمن الجراد " التي طبعت سنة 2000م ظهرت شكلاً ومضموناً تحمل آثار ماضيه السياسي وفهمه للشعر الذي كان مرتبطاً بذلك الماضي.. وهو فهم يجعل الشعر ضاجاً بالشعارات الطنانة ومنحازاً للمنبرية، مباشراً في مضامينه ولغته ورنين تفعيلته وموسيقاها.. ورغم أن المجموعة كانت مواجهة واضحة لظروفه الشخصية والعامة، فإنها كتبت بشكل كان يقع وقتها خارج مدار التلقي الجديد.. ومعنى ذلك أن الجند كان في واد وحركة الجيل التسعيني الذي سينتمي إلى آخر موجاته شعرياً في واد آخر.. ومن جهة أخرى فإن معظم من هم في مجال حركته اليومية من الشعراء والكتاب ممن يتحتم عليه أن يثاقفهم ويسمعهم ويسمعونه..وأكثرهم شباب من أواخر المنتمين لليسار.. كانوا قد قلبوا ظهر المجن للالتزام بالقضايا الكبرى.. وأعلنوا سقوط المعنى.. وانحازوا لكتابة الذات من خلال قصيدة النثر ولغتها اليومية وتفاصيلها البسيطة..

وزاد الطين بلة أن الجند كان عديم الخبرة بالتصحيح والإخراج وقد غالطه الطبّاع الذي صف له المجموعة على الكومبيوتر وسلمه النسخة غير المصححة.. وحين خرجت المجموعة للنور كانت مثاراً للضحك والسخرية في كل مقيل ومقهى ومنتدى.. وكثيراً ما كان

أصدقاؤه يقولون له وقد علت ضحكاتهم: ليس فيها جملة يمكن أن تكون سليمة من الخطأ إلا اسمك المكتوب على الغلاف..

لكن الجند الذي يقتلنا اليوم ضحكاً كلما روى لنا قصة ظهور مجموعته الأولى..وماكان يتلقاه من تعليقات ساخرة عليها.. لم يكن ليفعل ذلك لولا أنه قد استطاع في مجموعتيه التاليتين " أشياء لا تخصكم " 2004م، و " رجل في الخارج يقول إنه أنا "2008م، تحقيق معجزة إبداعية ناجحة بكل المقاييس.

وإذا كان جيل التسعينيات الذي ينتمي طه الجند إلى آخر موجاته.. قد ظل يعتبر نفسه بعيداًعن أي امتداد لأجيال الشعر اليمني السابقة.. فإن طه الجند لم يعترف عملياً في متحققه الشعري بجيل التسعينيات وبدعاواه كلها كما لم يعترف بغيره من الأجيال... فقد راح يصغي إلى نفسه وأخبرته نفسه أن في ماضيه وفي حاضره وفي وقائعه اليومية ما يفوق الشعر وما يجعله غير محتاج إلى خيال يطير بعيداً، أو لغة تغرق في بلاغة بلهاء.. ثم اكتشف أنه محتاج إلى مزيد من البساطة والتلقائية ليقول كل ذلك، ولعله قد عبَّر عن أول اكتشافاته تلك حين قال:

كم يحتاج الغريق لتجفيف جثته
والذهاب إلى الجحيم دون مساعدة الآخرين
هذا ما فكر به البحر حين رآه
أما هو فقد ابتسم لألمعيته
سأستدرج الموج إلى البر
وحين يصير حفرة ضحلة سأملؤها بالرمل
هكذا أريحه من اللهاث والتبجح

لقد فعل ذلك تماما " استدرج الموج إلى البر" في " أشياء لا تخصكم " وراح يلاعب بحر ذاته المتقلب في محيط الحياة..

وقبل أن تذهب المجموعة إلى المطبعة وقعت بين يدي الشاعرين الراحل مُحَمَّد حسين هيثم والدكتورة ابتسام المتوكل وأذهلهما عالمها الشعري المختلف..فتطوعا بمساعدته على إخراج المجموعة مصححة بشكل جيد.. وكان طه قد اختار لها اسماً آخر..لكن هيثم بعد أن وقع نظره على " أشياء لا تخصكم " وهو عنوان إحدى القصائد فيها أشار عليه باختياره.. ثم ظهرت المجموعة مطبوعة، وعبّرت الكتابات النقدية الكثيرة التي تناولتها عن نجاح غير عادي حققه هذا الشاعر.. فقد أثبت أن أغلب توصيفات النقاد لقصيدة النثرفي غير محلها... وأن الشعر سواء كان نثراً أو تفعيلة أو عموداً أو خارج هذه التوصيفات كلها: هو كيمياء مختلفة.. وروح لا يمكن تفسير كنهها.. وأجبر طه كل فرقاء المشهد الشعري على الإصغاء إلى صوته الخاص... فالذين يزعمون أن قصيدة النثر تقرأ ويتم تلقيها بصمت، وأنها لا تحفل بالموضوعات العامة لأنها قصيدة ذات، وتفاصيل صغيرة لا تعني أحداً قدر ما تعني صاحبها.. وجدوا في قصيدة الجند ما يخرج بالنص عن توصيفاتهم..ولم يروا في ذلك غضاضة، بل رأوا فيه إضافة حقيقية للمدونة الشعرية الحديثة.. وبالمثل وجد المتعصبون للعمود والتفعيلة في نصوص الجند شعراً يدير الرؤوس أكثر بكثير مما تفعله معظم تجارب العمود والتفعيلة..

المثقفون الحزبيون وأكثرهم من المتشبعين بتقاليد القصيدة التي كتبها شعراء الستينيات والسبعينيات وجدوا أيضاً في قصيدة الجند موضوعاً يعبر عن العام قدر تعبيره عن الخاص..ولأن أكثرهم ينتمون إلى أحزاب المعارضة التي تعرضت لإنكسارات متلاحقة لأسباب مختلفة يمنية وعربية وعالمية فقد وجدوا في نصوصه ذواتهم وخصوصياتها.. كما وجدوا ما يعبر عن إحباطات مشاريعهم الوطنية والثقافية والوجودية العامة.

ولعل أسلوب الجند هو ما يحببه إلى المتلقي فهو يتعامل مع الشعر بعفوية وتلقائية بالغة.. ويجعل منه معبِّراً عن وجوده وتفاصيل حياته اليومية..وعلاقاته الإجتماعية.. ومثاقفاته، وآرائه السياسية، ويمزج فيه بين نكباته ونكباتنا، ونكبات المجتمع والوطن والعالم

كله.. ويسجل في جزء كبير منه ردات فعله الآنية على الأحداث..التي كثيراً ما تتخذ من المفارقة الساخرة منفذاً إلى هجاء الأوضاع السيئة وصانعيها... حين يصرخ مثلاً:

قفوا أيها السفلة

حتى نكمل الحكاية

نشعر جميعاً أن هذا صوتنا، وحين يخاطب مصادر وجعنا قائلاً:

لا نحن فقراء بما يكفي

ولا أنتم أثرياء كما يجب

وما يجمعنا هو الغبن

دعوا لنا إذاً شيئاً من الرصيف

ستدركون كم نحن مهذبون

حين تمتد أيدينا مثلكم بسلاسة للمحسنين

نشعر جميعاً بأن هذا صوتنا نحن، لذلك فإن كثيراً من تلك النصوص تجد طريقها إلى الصفحة الأخيرة لبعض الصحف الواسعة الانتشار مثل " الأولى " و"الشارع " ونحن نتلقاها كما نتلقى مقالات الرأي المهمة مضافاً إلى ذلك متعة الشعر الذي نجده فيها..

لقد اتسع حضور طه الجند في حياتنا كثيراً بعد صدور مجموعته " أشياء لا تخصكم " وعندما صدرت مجموعته الأكثر نضجاً " رجل في الخارج يقول إنه أنا" كان طبيعياً أن تحظى باستقبال أوسع من النقاد والشعراء الذين تسابقوا على الاحتفاء بها..فقد صار طه الجند يمثل حالة خاصة داخل المشهد الشعري اليمني..

وكان شيئاً جميلاً أن تتقدم تجربته دون أن تتخلى عن طبيعتها العفوية فالذي ينكتب هوطه الجند، وهو ينكتب بحلاوة وبساطة في آن، كذلك شجونه ومواجيده ومخاوف وجوده وسيرة أساه وتطلعاته ماثلة دائماً بشكل يثير الإعجاب:

الوقت ينبح في الخارج

وحيداً كمياه الينابيع

الأصابع تركض في البر

السيول تترقب المطر

وتمضي معه إلى البحر

وأنا كعجل صغير يحرك ذيله بتعجب

وينصت لما يجري بانبهار

ثم إنه يحتفي بالقصيدة قدر احتفاء القصيدة به وإعادتها الروح إليه:

الريح التي تهب على الحديقة تعيد دفقة الحياة

هنا حيث تغوص وتغرق

كتلة من الذكريات الميتة

لم تكن هناك حديقة، بل فقط وعاء للذخائر المقدسة

الخفق الذي تسمعينه ليس تحليقاً

بل مجرد اضطراب في رحم الأبدية

واستراتيجيات الجند لا تتوقف عند هذا الحد فهو لايكتفي بتحويل مصادرالخيبات والارتكاسات والألم إلى شعر....ولا يكتفي بأن يفعل ذلك بشكل احتفالي..بل يضيف إليه عنصراً آخر أكثر فعالية فهو يقنعنا بأنه يكتب كطفل يواجه قسوة العالم ومجهولاته ويواجه تحديات الوجود العابثة:

أنا خائف يا أمي

من وشوشات الليل

من رجل في الخارج يقول إنه أنا

وهو عنصر شديد الارتباط بطريقة الشاعر الخاصة التي يلقي بها شعره فكثيراً ما فشلنا في التماسك أمام أوجاع نصوصه وجراحاتها المتناثرة حين يلقيها علينا.. وكثيراً ما

تسربت الدموع غصباً عنا.. ولم يكن تسربها إلا دليلاً قاطعاً على أن وجعه الخاص هو وجعنا كلنا.

***

بشكل عام فقد عوض طه الجند في ساحة الشعر ما خسره في ساحة النضال الوطني.. ووجد فيه مصدراً للتوازن بعد الخيبات التي امتلأت بها حياته جراء الصراعات السياسية وتخبط مشاريعها وفساد رموزها.. كما وجد في الشعر معوضاً آخر عن عدم القدرة على تجاوز الأزمات النفسية التي تتولد من اختناقات الحياة المعيشية.. وهو وضع آخر كان مصدر ألم دائم لأن الجند كغيره من الموظفين الأنقياء لم يستطع تجاوز ظرفه الذي وجد نفسه فيه مذ ولد.. وفشلت محاولاته لتغييره عن طريق المشروع الوطني الذي كان يحلم بأن يسعده ويسعد غيره..ولو كان الجند في غير اليمن لكان نجاح تجربته الشعرية كافياً ليحقق له نجاحاً مادياً يوازي نجاحه المعنوي.. لكنه يعيش هنا في اليمن..وهنا كثيرٌ عليه أن ينجح حتى معنوياً.. فقد كُتب عليه أن يبقى في حفرة المتاعب، وأن يظل لسان حاله ولسان حالنا جميعاً كما قال:

في حيز لا يكفي نملة

أفكر وأزحف

أقامر وأدور

أحزن وأفرح

أشيخ وأموت

بين البكيرة ويعقوب
أوجاع رحيل المبدع.. ولذة عذاب الموثق

لا يشبه رحيل الشاعر والمسمع الكبير الشيخ عبد الرحمن بكيرة رحيل غيره من عباقرة ومبدعي اليمن الكبار.. الذين عاشوا فينا عمراً مديداً.. وقدموا لنا من إبداعهم وحضورهم الاستثنائي زاداً وفيراً.. أقصد أولئك الذين يقتلنا الأسى لفراقهم لأنهم رغم معرفتنا بأنهم أفضوا إلى ربهم بعد أن بلغ الزمن بهم غايته (عاش بكيرة 77 عاماً) وماتوا في عمر يرضى عنه معظم من يموتون فيه أو قريباً منه.. لكن حضورهم الإبداعي القوي في حياتنا يظل يقتلنا حزناً عليهم.. ونظل - بسبب شغفنا بإبداعهم — نشعر بأن وجودهم أحياء بيننا يشكِّل دليلاً مادياً يعضد رمزيتهم المعنوية الثرية..

رحيل بكيرة وإن كان يشبه رحيل غيره من العمالقة في هذه الناحية. إلا أنه أكثر أهمية وإيلاماً كون هذا العملاق يمثل حالة فريدة بكل معنى الكلمة.. إذ هو آخر الكبار في فن السماع التهامي الذي تتفرد به مدرسة مسمعي مدينة الحديدة.. وأعني بـ(آخر الكبار) أنه كان آخر عمالقة السماع المميز بأصوله وتقاليده الموروثة.. إلى جانب فرادته في الجمع بين عظمة الصوت سماعاً وإنشاداً.. وعظمة الإبداع شعراً مخصوصاً بفن السماع، وما يتفرع عنه من أفانين الإنشاد.. وتلحيناً عبقرياً يوازي عظمة الصوت وروعة الشعر.. وهي مجموعة مواهب لم تتوافر لأحد من معاصريه أو سابقيه ولاحقيه ممن خَلَفُوا فريد كل العصور الشيخ جابر رزق ومدرسته الإبداعية العظيمة..فقد كان المشتغلون بهذا الفن يضيفون لمواهبهم الصوتية روعة التجويد والإتقان لأداء الموروث، ويقارفون التلحين أحياناً.. كما كان بعضهم يكتب الشعر بمواهب متوسطة وكان بعض آخر يحاولون كتابة بعض الأبيات أو يعارضون في لحظات نادرة بعض النصوص التي تعاشرها أصواتهم.. وكانت انشغالاتهم تلك تأتي في

معظمها هامشية، رديفة، ينساقون لها بحكم المهنة والصنعة والاعتياد والاحتراف كما يحدث لغيرهم من المشتغلين بالإبداع في مجال الغناء على سبيل المثال.. أما اشتغالات بكيرة فهي كلها مواهب أصيلة، حقيقية وثرية.. وجهده يتوزع عليها بشكل متقارب.. فهو صوت عبقري غير عادي.. يحفظ ويؤدي كماً هائلاً من النصوص الموروثة التي يتسايل عبرها تراث قرون طويلة من المناسبات الدينية، والحياة الصوفية، والروحية والتقاليد والعادات الاجتماعية الخاصة بتهامة بكل ما تعنيه هذه الجغرافيا من حواضن علمية، وتاريخ ثقافي مائز..

وهو ملحن تستجيب فطرته –المتكئة على الذكاء والخبرة – لمقتضيات زمنه وروافد الفن الكثيرة التي يتلقفها سمعه المحتك بإبداعات الآخرين، فيقدم تجديداً يوسع أفق هذا الفن ويضمّن فيه ويعصرن أداءه.

وهو شاعر كبير تتوزع تجربته الشعرية على أكثر من شكل بدءاً من القصيدة الفصيحة التي أنجز فيها مئات النصوص مروراً بالأشكال التي استدعته إلى حوماتها اشتغالاته الصوتية مسمعاً ومنشداً، فكتب عشرات القصائد الحمينية والغنائية.. كما دخل في تحد مذهل وغير عادي مع عديد النصوص التراثية التي راح يواجهها تشطيراً.. وينوع على أبهائها تخميساً وتسديساً وتسبيعاً..

مع كل ذلك فالأسى لرحيل بكيرة لا يقف عند هذا الحد.. إذ رحيله من جانب آخر.. يرتبط بأسى يعشش في الشعور العام، وقلق يخالج متذوّقي فن السماع إزاء استمرار هذه المدرسة الفنية بعده.. فرفاق رحلته قد سبقوه.. والتابعون له ولهم ممن يفترض بهم أن يشكِّلوا امتداداً لما تعب هو ورفاقه من أجل المحافظة عليه، يتوزعون بين عائش في التجربة بكل تفاصيلها، متحمس لها وراغب في المحافظة على تراثها وتقديمها للأجيال القادمة، لكن الظروف ومصاعب الواقع وعلى رأسها تدهور أخلاق العناية تحول بينه وبين النهوض بواجبه..وبين واع بالتجربة قادر على تطويرها والتطور بها لكنه يريد لنفسه اجتراح طريق خاص، وبين الفريقين فريق ثالث لا يعول عليه، يضم خليطاً من الهواة المقلدين المستعصين على التوعية والتعلم..

لقد ظل بكيرة من مطلع خمسينيات القرن العشرين يقدم بنجاح فريد فن السماع، يشيع تقاليده.. ويحرص على عرضه محترماً عالي القدر والقيمة.. ليس من خلال تجويده والتجديد فيه فحسب، بل من خلال سلوكياته هو وأسلوبه في التعامل مع جمهوره، واحترامه البالغ لأهل الذوق المميز من محبيه.. وظل مع رفاق رحلته الإبداعية الكبار من أمثال الشيخ عمر بركات، والشيخ عبد الله علي سليمان، والشيخ حسن عمر، يقبضون على جمرة هذا الإبداع الراقي.. ويشنفون به مسامع السماوات..

وها هو ذا اليوم " ابريل 2014م " يختم توالي الرحيل الذي انتظمهم جميعاً.. تاركاً الساحة في صدمة تصيب بالبكم.. فبيوت العلم والوجاهات التي كانت تشكل حاضناً لمبدعي فن السماع.. وقيّماً على بقائه واستمرار عاداته وتقاليده لم تعد موجودة، والمؤسسة الرسمية بعيدة كل البعد عن تفكير مثل هذا، بل إن إهمالها وتهميشها لهذا الفن وأهله في تهامة بالذات ليشكل عاملاً من أكثر العوامل قتلاً له..الاستثناء الباقي يتمثل في وجود مهتمين من المثقفين يحترقون غالب وقتهم بنار العجز عن فعل شيء..

هنا – بالذات – تكمن روعة الجهد الذي يدأب على إنجازه الأديب العلّامة والباحث المميز الأستاذ أحمد حسن عياش يعقوب.. الذي يستشعر ضرورة التوثيق لهذا الفن ورجاله.. تاريخاً وتراجم.. سيراً وحكايات.... وهو إذ يفعل ذلك بأسلوبه الأنيق ولغته الرشيقة.. وتأنيه في البحث والتنقيب والاستقصاء –يوثق أيضاً لعادات الفن وتقاليده– ونصوصه ويوثق للأسر والوجاهات التي كانت حواضن طيبة له.. وما يقدمه من جهد في كتاب (عبد الرحمن بكيرة..لمحة خضراء من زمن جميل) ليس من ذلك النوع الذي يقدم في كتب التأبين التي توزع في أربعينيات الراحلين والتي تجمع كيفما اتفق بعض ما كتب عن رحيلهم وبعض ابداعهم.. ما فعله يعقوب ليس بسيطاً ولا عادياً، فهو جهد يعرف قدره كل من له أدنى اشتغال بالتوثيق وعوالمه المضنية المتعبة.. وما يجر إليه من اشتغالات متعددة ومركبة.. بين متون وشروح وتهميشات، وبحث عن مراجع مكتوبة، ومراجع صوتية وفيديوهات وصور.. وبحث مواز عن مراجع شفاهية يختلف ما تحصل عليه منها بين راو

وآخر ويجرك الاختلاف إلى الغرق في متاهات التثبّت والترجيحات إلى آخر ما هنالك من متاعب.. وقد تعامل الرجل مع كل ذلك في هذا الكتاب الذي يعتبر جزءًا من اشتغال واسع وعميق ومتعب أيضاً.. يعكف منذ سنين على إنجازه في كتاب عنوانه: (عطر الخزامة من تراجم أشهرمسمعي تهامة) كما أنه جزء من حفرياته في تاريخ أسر العلم والثقافة في الحديدة بشكل خاص، وفي تهامة بشكل عام.. وهو قبل ذلك جزء من اشتغاله على تجربة بكيرة الشعرية.. صدر سنة 2010م.. تحت مسمى (ديوان الشيخ عبد الرحمن بكيرة) -وهي أيضاً جزء من اشتغال ينجزه على بقية تجربة بكيرة الفنية صوتاً وشعراً.. وسيرة في الفن والحياة..

يعقوب فيما يقدمه وما يعمل على إنجازه ينسلك في عداد أهل العلم الذين يهبون أنفسهم للمنشود بصمت وإيثار وتضحية لا مثيل لها.. ويقدمون لنا الدليل بعد الدليل على أن جينات العلماء والأولياء والأدباء والمبدعين الذين احتشدت بهم تهامة في القرون الماضية.. لا تزال موجودة، ولا تزال مفاعيلها تذكّر في لحظات اليأس أن مصادر الضوء والجمال باقية باقية..

إنني أعرف تماماً مقدار التعب الذي عاناه في انجاز هذا الكتاب كما أعرف مقدار التعب الذي يعاني منه في إنجاز بقية مشروعه الكبير، لكنني أعرف أيضاً أنه عذاب لذيذ لا مثيل للذته خاصة حين يكتمل الجهد..وتكلل الرحلة بالنجاح.

تحية لروعة يعقوب ودأبه الفائض.. ورحم الله البكيرة الخالد في الجنة.. الباقي فينا..

عبد الرحمن مراد
غربة الفارس بين الحمّارة

ليس سهلاً الدخول إلى عوالم كاتب بحجم عبد الرحمن مراد، لاتساع تلك العوالم أولاً..ولتشابكها ثانياً..ولوعورتها وتعدد مسالكها..ثم لعذريتها وبكارة مداخلها التي لم يطرقها قلم من قبل.

عبد الرحمن مراد..واحدٌ من أهم الشعراء والكتاب في المشهد الثقافي اليمني..كما أنه واحد من أهم الحاضرين فيه...لكنه من أكثر مظلوميه إن لم يكن أكثرهم على الإطلاق.

ولعلي –أنا شخصياً– واحدٌ ممن ظلموه وتحملوا معرّة السكوت والغفلة عن منجزه الإبداعي والنقدي وفاعليته في الفكرالسياسي....فعلى وفرة ما كتبت عن المشهد الثقافي اليمني نقداً وشخصيات ودراسات ثقافية وشهادات ومثاقفات واعتمالات مختلفة، لم يسبق لي أن كتبت عن عبد الرحمن مراد لا بوصفه شاعراً ولا بوصفه ناقداً أوصاحب با ع طويل في النقد الثقافي السياسي..أو حتى بوصفه إنساناً..تجمعني به ميول مشتركة على البعد لسنوات طويلة..وتربطني به صداقة متينة، وصحبة شبه يومية منذ انتقاله إلى صنعاء سنة 2012م

وما زلت منذ صدر كتابي (أصوات متجاورة) نهاية عام 2010م وهو الكتاب الذي قاربت فيه تجارب عشرات الشعراء والشاعرات من الجيل التسعيني أعتذر لعبد الرحمن مراد كلما جئنا على سيرة الكتاب لخلوّه من أية إشارة له حتى ولو مجرد ذكره بالاسم..

لقد قطع عبد الرحمن مراد مسافات طويلة في دروب الثقافة والإبداع والكتابة بمختلف أجناسها..وهي رحلة تمتد لما يقرب من ثلاثين عاماً نستطيع اعتبار الفترة الأولى التي تمتد من 1984 إلى عام 1994م فترة تكوين ازدحمت بفضول محتدم للتعرف على العالم من

خلال الكتاب الذي تنوعت مصادره وتعددت مشاربه لتسهم منذ البداية في التأسيس لمعرفة تنحو نحو التنوع والشمول..وقد تخللت تلك المرحلة اشتباكات عاشقة مع الحرف محاولة لامتلاكه وسعياً للتبازغ منه..فكانت الكتابات الأولى بما فيها الشعر كما كانت المحاولات الأولى للنشر...

المرحلة الثانية امتدّت من عام 1994م إلى عام 1999م. واختصت بالبحث عن أسلوب خاص في الكتابة ورأي خاص في الإبداع والحياة بشكل عام، وفي نهاية هذه المرحلة بدأ اسم عبد الرحمن يتردد في مقايل العاصمة صنعاء..ويتكرر ذكره على ألسنة المتثاقفين فيها وكان نصه اللافت (سوزان) الذي احتفى بنشره الشاعر والناقد الكبير عبد الودود سيف في صحيفة البريد الأدبي سنة 1998م ذروة تلك المرحلة.

أما مرحلته الثالثة فهي مرحلة النضج والحصاد الذي عبرت عنه تسعة كتب توالت إصداراتها من سنة 2001إلى 2010م وكان تواليها كالتالي: وقوف على أطلال الفجر (مجموعة شعرية) 2001م، البردوني ناقداً ومفكراً (نقد ثقافي)2004م، قلبي على وطني (مجموعة شعرية) 2004م، مسافة الأحزان (نصوص شعرية غنائية) 2004م، قراءة في سفر الأقيال (مجموعة شعرية)2005م، وجهي والجدار(مجموعة شعرية) 2008م، وطني غائب كأبي (مجموعة شعرية)2008م، الهزيمة (نصان مسرحيان) 2008م، صورة الوطن في المنجز الشعري اليمني (دراسات نقدية) 2010 م والربيع العربي دم وعواصف عام 2014م.

وهو بطبيعة الحال كمعظم الكتاب اليمنيين لا يطبع الكتاب بمجرد انجازه..بل بحسب الظروف التي قد تتيح له ذلك أولا تتيحه فقد يتأخر ظهور الكتاب بعد انجازه سنوات وسنوات..لذلك فإن لدى هذا الكاتب الدؤوب مما لم يستطع نشره في الفترة المشار إليها ومما أنجزه بعدها في السنوات الأربع الأخيرة عدداً وافراً من الكتب منها (الفضول شاعراً ومجدداً)، (من اللا استقرار إلى اللا استقرار –قراءة في مفردات الصراع اليمني–)، وغيرها وغيرها...

أمام هذا الكم الهائل من الدراسات الثقافية والنقدية والابداعات الشعرية والمسرحية سيفاجئنا السؤال الذي لا بدّ منه: ما سر الصمت الذي تواجه به أعمال هذا الكاتب من قبل النقاد ولماذا هو بالذات ؟

ولكن الإجابة ليست صعبة كما قد يتبادر إلى الذهن..خاصة عند من يقنعون بالنظرة السطحية والقراءات السهلة العابرة..

لقد وقع عبد الرحمن مراد ضحية لمجموعة من العوامل ساهمت في تجاهل أقلام النقاد والكتابات المختلفة لتجربته وإسهاماته المميزة في حياتنا الإبداعية والثقافية لما يزيد على عشرين عاماً.

أول تلك العوامل عامل الجغرافيا..فقد كان اختياره البقاء في مدينة حجة وممارسته لدوره الإبداعي واشتغالاته النقدية من هناك عاملاً مهماً باتجاه تجاهل تجربته في بلد يستأثر المركز وساكنوه بالاهتمام كله ولايبقى للهوامش إلا الفتات.. وهذا عيب يبدأ من مشاريع البنى التحتية والتعليم والصحة والخدمات والمناصب والامتيازات الكثيرة وينتهي بأقلام النقاد والكتاب والصحف والمجلات والمنابر الثقافية والاجهزة الاعلامية..ولا يفلت فيه من دائرة التهميش إلا من يكسرون الحواجز بجهود ذاتية محضة..

لقد أنجز مراد بوصفه مثقفاً وكاتباً حقيقياً مجموعة أعماله التي ذكرناها سابقاً وكان ينشرها بالمراسلة في عدد كبير من الصحف والمجلات والدوريات اليمنية والعربية..وكان هذا إلى جانب حضور كتبه في المكتبات ومعارض الكتب يجعل اسمه حاضراً على ألسنة المتثاقفين بقوة.

لكن إنجازه الذي حفَّزته إليه همته وطموحاته العالية، ومكّنته منه موهبته القوية واستعداداته النفسية وثقافته وتجاربه الواسعة العميقة كان عامل البعد الجغرافي يحرمه من حفاوة الإعلام واحتفاءات النقد وهما في بلادنا يتحققان في وجود علاقات شخصية واسعة للكاتب وحضور شخصي له متواتر في المركز..ناهيك عن الدور الذي تلعبه الشللية والمجاملات وحتى التحيزات والمصالح والإحراجات وغيرها مما لا دخل له بأحقية الحفاوة وصدقية الاحتفاء..

أما ثاني العوامل وهو الأهم من وجهة نظري فيكمن في طغيان الجانب السياسي من اهتمامات وعلاقات مراد واستقطابه الدائم لزوايا نظرة الآخرين إليه..

لقد جرب عبد الرحمن مراد الحياة الحزبية التي دخلت حياته بقوة وهو ما يزال في سنوات التكوين الأولى.. وتبدلت به الانتماءات على مدار أكثر من خمسة وعشرين عاماً مضت بين اتجاهات حزبية مختلفة، محض بعضها الولاء الخالص لفترات..ومال لبعضها الآخر حيناً من الزمن، والتقى مع بعض ثالث في الخطوط العامة حيناً آخر..وفي كل تلك المراحل كان قلمه يسطر على صفحات صحف تلك الأحزاب ما يجلب له نقمة الأطراف المقابلة وأذاها دون أن ينال خيراً ممن يعبر عن وجهة نظرهم أو يلتقي معهم في وجهة النظر..

وما دمت لا تعرف مراد جيداً فإنك ستظل تعجب..لقوة قلمه وسعة مقروئيته..وشدة وقعه على من ينال منهم..حيث يحشد لما يكتب إيماناً حاراً..وثقافة كثيرة الروافد..وقدرة كبيرة على الربط والقراءة والتحليل وحتى التنبؤ بناءً على حسن فهمه لحيثيات الواقع وأشباهه ونظائره في الماضي وحتمية ما يمكن أن يتخلق منه أو يترتب عليه في الآن أو المستقبل ناهيك عن معرفته الجيدة بمقاتل الآخر التي يمكن إيلامه بالضرب عليها....لكنك ستعجب أكثر لقلة ما يناله من تقدير الجهات التي يتعاون معها..فكتاباته العميقة النافذة المتكئة على أسلوب فني رفيع يعبر عن قلم مقتدر..لا تُقدّر حق قدرها، ولا يقابلها ما يجب لها من تثمين للمكتوب وحفاوة بالكتاب..أقصد بالضبط أن ينعكس ذلك في امتيازات أدبية ووظيفية معيشية يستحقها..

مع ذلك فإننا لا يمكن أن نتجاهل كون جزء من أسباب الإجحاف الذي تلقاه كتابات مراد في الدراسات الثقافية والفكر السياسي يعود بمنتهى البساطة إلى عزة نفسه وشعوره العالي بالاحترام لذاته، وترفعه عن المزايدات والابتزاز والتكسب بما يكتب..وهذا هو السبب نفسه الذي يجعل الحزب أو الجهة التي ينحاز لها لا تحتفي به ولا تقدره حق قدره..فمن أهم عيوب النخبة السياسية والثقافية التي تقود الأحزاب وتهيمن على المشهد

الثقافي والسياسي برمته في اليمن ترسّخ عادات الابتزاز والادلال والمغالبة في البنية الثقافية وفي التكوين المرجعي العميق لهذه النخبة..

في الجانب الآخر فإن طبيعة عبد الرحمن مراد التي تسمُ شخصيته..ستجعله كأي مكابر مترفع شديد الإحساس بكرامته يلجأ حين يفيض به الكيل إلى الانسحاب الذي تفسره تلك العقليات الأنانية البعيدة عن الإنصاف المؤسسي بوصفه بيعاً وغدراً وخيانة..ولا تكلف نفسها مراجعة ما قدّم لها وما قدمت له..

لذلك ظل يغادر كل جهة موقوراً بعبئها كما يراه الآخرون..وبخراب ما بينه وبينها كما تراه هي ويراه هو..

بيد أن الخسارات لا تقف عند هذا الحد..إذ تتمدد آثارها إلى التعامل الإنساني والوظيفي معه، والموقف النقدي من إبداعاته..بدءًا من مسئولي الدولة المنتمين لتلك التيارات والأحزاب وانتهاءً بأقلام النقاد والمنابر الإعلامية والثقافية..الأهم من ذلك التأثيرات الخفية التي تتسرب في كل اتجاه داخل المشهد الثقافي على شكل إيحاءات تخلق صوراً نمطية لكاتب لا يخطر على البال تكريمه أو الاحتفاء بتجربته..وتلك ثمرة ذاق مراد مرارتها خاصة بعد انتقاله إلى صنعاء منتصف عام 2012م حين وجد نفسه مطلوباً بشدة لمنابر الفعاليات الثقافية والأدبية المختلفة والبرامج التلفزيونية في قنوات عديدة ولمساندة أحزاب وتيارات على صفحات صحفها وعلى صفحته في الفيس بوك..وقد فعل كل ذلك بتفان موّار وحميمية بالغة..واحتفى بعشرات الأسماء بدءًا من المقالح والبردوني والزبيري وانتهاءً بآخر القادمين إلى الساحة ممن يحتفون ببواكير أعمالهم..دون أن تفكر فعالية من الفعاليات الالتفات إليه..والإبحار صوب تجربته..كما لم يفكر تيار أو حزب سياسي مّا من تلك التيارات والأحزاب التي عرفها وعرفته بمساندته وظيفياً أو حتى إعلان موقف معنوي منه.وأنا هنا أتعمد قصر حديثي على التيارات والأحزاب دون ذكر الدولة ومؤسساتها..يقيناً بألاّ ضرورة لذكر الدولة مادام كل شيء تتقاسمه تلك التيارات والأحزاب والقوى والشلل وتغيب عنه المؤسسة ويغيب الإنسان..كما تغيب المواطنة المتساوية..وتكافؤ الفرص.. وتقدير الإبداع

والفكر..ذلك التقدير الذي يجب أن يقوم على الحق والإنصاف..لا على الاستسهال أو التحيزات والحسابات السياسية والمناطقية والأيديولوجيات التي لا تقنع بالكاتب إلاّ إمّعة أو مستغلاً..ولا تعترف بحقه إلا متمسحاً أو مبتزاً..

إنه لمن العار أن يعيش كاتب بحجم مراد هذه الدوامة السخيفة التي يعاني فيها مزيجاً من الإقصاء والاستبعاد المتعمد..واللامبالاة والاستهانة الموجعة..كما أن مواجهته لكل ذلك بصمت وعناد وكبرياء يعز نظيره..وعدم شكواه حتى لأقرب الناس إليه..لن يعفينا من الإحساس به..ولن يمنعنا من قراءة الألم وتلمس الضّرّ والمعاناة وكمد القهر التي يحاول جاهداً إخفاءها خلف هيبة محيّاه ورزانة خطواته، وأدبه الجم في الحديث والتصرفات..وليس قدراً مقدوراً عليه أن يبدو بين صغار نفوس مستغلين حقراء..كفارس نبيل في سواد عظيم من الحمّارة..

العديني..كمنجة يعزفها النسيان

كان أفراد بعض القبائل الإفريقية البدائية يذبحون طبيب القبيلة ويأكلونه، فهم يؤمنون بأن الرجل الذي يعرف مبادىء الصحة هو نفسه صحة وهم بأكله يرتاحون من تعاليمه التي يتعبهم الالتزام بها.. قرأت شيئاً بهذا المعنى في كتاب مّا في سنوات التكوين وكان الكاتب يرغب أن تأكل البشرية مبدعيها وحكماءها وفلاسفتها وأنبياءها بين الحين والآخر حتى تستريح من وخزهم للضمير الإنساني..

ظل تذكر هذا المعنى يلح عليَّ خلال الأيام الماضية.. وأنا أتساءل إن كان التهميش والإهمال الذي يطال أكثر مبدعي اليمن ومفكريها ليس إلا امتداداً لذلك التقليد أونوعاً شبيها به.. وإلا فما مبرر هذا الإجحاف الذي يطالهم من مؤسسات الدولة ونخب المجتمع.. وما مبرر أن يضرب هذا الطوق من التجاهل المرير على شاعر وناقد ومثقف من نوع مُحَمَّد العديني..

أدين للأستاذ خالد جرمل بعنوان هذه الكتابة.. أما العديني فأدين له بتوضيح أحد المعاني الصوفية التي طالما كتبت عنها وتحدثت حولها " المشهورون في بركة المستورين " فلم تكن العبارة واضحة في ذهني كما هي اليوم بعد اقترابي منه..

لقد تعمقت صلتي بالعديني خلال السنوات الماضية.. لكن ثمارها أينعت منذ ربيع هذا العام (2014م).. مع اعتقادي بأن دهشتي به لن تتوقف أبداً..

***

ما أوسع عوالم هذا المبدع.. وما أضيق الكوة التي نراه منها.. تنوع العوالم من أهم مفاتيح العديني التي نستدل بها على شخصيته.. وهو يتعامل مع هذا التنوع بوصفه استراتيجية مفصلية في حياته وتجاربه الإبداعية. إنه على نحو من الأنحاء فلسفته..

"التنوع المعرفي وتعدد المقروء يكسر الأدلجة التي تخلقها المناهج والفلسفات والتيارات الفكرية، ويقلل من خطورة الجنوح للسلطوي والإلغائي.. ومن ممارسات الإقصاء والتضليل التي تفرز أنساقاً غير سوية في الكتابة والتلقي وفي الممارسات العامة"

الفقرة السابقة مجرد نفثة احتبسها قلمي فيما كان العديني يتحدث بشكل تلقائي في مقيل جمعنا في بيته (كان معنا الشاعر طه الجند والعميد حسين الآنسي)..

وهو دون شك واحد من الملامتية الكبار في المشهد الثقافي اليمني، ثراؤه المعرفي مميز ولافت..ولغته في الحديث والمثاقفة قريبة جداً من لغته في الكتابة – وهذا نادر – فعبارته راقية ومنتقاة وتنعكس فيها قراءاته النقدية والفكرية والإبداعية..ثم هو صاحب وجهة نظر.. ولديه رؤيته الخاصة التي يدأب على بلورتها دون توقف.. فلم تكن تجاربه في الحياة وقراءاته وكتاباته إلا محاولات لاكتشاف الينبوع الإنساني..للوصول إلى الجوهر الحقيقي للابداع والفهم..ولمعرفة مركز الذات في هذا الوجود الغامض..

أكتب إذاً عن الشاعر والناقد محمَّد العديني.. عن تجربة فاتنة جديرة بالإحترام، فاتني الاقتراب منها حين كنت أقارب تجارب شعراء الجيل التسعيني الذين احتفل بهم كتابي (أصوات متجاورة) الصادر سنة 2010م.. وهو ما لا أستطيع غفرانه لنفسي..فقد كان حرياً بي أن أجعل هذه التجربة في القلب من تلك المقاربات... لكني مع الأسف الشديد كنت أقوم بدوري في واحد من أهم عيوب الحياة الثقافية اليمنية.. فنحن لا نكتب إلا عمن نعرفهم.. أو من تعلو أصواتهم بمناسبة وبغير مناسبة..وذلك يؤدي إلى إهمال تجارب مهمة.. ويتسبب في إقصاء مبدعين حقيقيين.. صحيح أني ظلمت العديني دون قصد..إلا أنه ظلم لا ينفع معه الاعتذار..فقد أنجزت كتابي على مدار سنوات طويلة..وقاربت فيه تجارب مختلفة لزملائي التسعينيين وأفردت لعدد كبير منهم قراءات خاصة بهم.. وغاب العديني ومعه الشاعر والناقد عبد الرحمن مراد..لا أدري كيف أغفلتهما.. ولم أعرف بعد صدور الكتاب كيف أعتذر لهما.. ورحت أبدي أسفي في حواراتي العديدة حول

الكتاب... ولكن ما جدوى الأسف وقد فات مافات.. وظل العديني يحاصرني بشجنه كلما سمعته يترنم بـ " السنديانة العاشقة ":

وهذي جراري من الصيف لم تبتدرها يد

ولا عاج أالحان من كان يؤنسني قربه

ولا بات يهذي بعشقي الغد

تنيخ الليالي

بأبواب قلبي

ولا عاشق

ولا ثائر

ولا موعد

لقد شعرت دائماً بأن هذا النص يعنيني أكثر من غيري.. مع أنه يعني غيري أيضاً..ومع أن العديني قد كتبه قديماً ونشر في العدد العاشر من البريد الأدبي – ديسمبر 1998م.

***

بدأ العديني رحلة القراءة في مرحلة مبكرة من حياته.. شغف بكتابات جبران حد الوله ووقع تحت هيمنته اللذيذة إلى درجة أنه كان يراه في المنام.. وقرأ كل أعمال ميخائيل نعيمة قبل أن تحتويه عوالم خليل حاوي الذي أثَّر فيه كثيراً، ومن حاوي انتقل إلى البياتي وأدونيس وغيرهما..

وبموازاة القراءة والنهم المعرفي الذي تصاعد عند ختام مرحلة الدراسة الثانوية.. كانت هواجس الكتابة تطرقه.. وكان يستجيب لها.. لكنه لم يكن يفكر في النشر.

بعد انضمامه للجامعة تعرف على العالم والعارف التونسي مُحَمَّد الهادي الحطابي.. كان الحطابي مثقفاً عملاقاً وموسوعياً يمتلك حضوراً مميزاً ويستطيع الاستحواذ على مقيل

عامر بالمثقفين.. بسبب لغته الجميلة.. وطرائق دخوله المميزة في أجواء المثاقفة.. وقد استمتعت شخصياً كما استمتع عشرات المثقفين والكتاب والأكاديميين يمنيين وعرباً بالحطابي في مقيل المقالح بمركز الدراسات والبحوث اليمني خلال النصف الأول من تسعينيات القرن الماضي..

كان الحطابي قد اندمج في الحياة اليمنية، يتجلى ذلك في طريقة اتكائه التي تختلف عن طريقة اتكاء أكثر الأشقاء العرب..الذين لا يبدون مرتاحين في متكآتهم لأن أجسادهم لم تعتد ذلك ولم تتثقف به..أما هو فكان يتكىء اتكاءة مخزن عاشق يتماهى في أجواءِ المقيل وعاداته.. وهو يتناول القات وقد غطى ركبتيه وساقيه بشال وهذا دالّ يشير عند فاعليه على تميز صاحبه ومزاجه العالي.. وحسن استعداده للتخزين..

وحين كان يأتي دوره في الكلام.. تشعر بأنه موسيقار يقود أوركسترا.. فكل الرءوس تنضبط على إيقاعه.. وكل العيون تتعلق به.. خاصة حين يكون للحديث علاقة بالتراث العربي، أما إن ذكر أبو حيان التوحيدي معشوقه الأول فالدنيا كلها تقوم وتقعد.. وكان شغفي به في هذه الحال لا تحده حدود..فقد كان التوحيدي أهم الجوامع بيننا.. مع ذلك لم أفكر في التعرف على الحطابي..أو تقديم نفسي له.. ولم أسأل عن كتاباته أونتاجاته.. وكنت أظنه يعمل في جامعة صنعاء.. والعديني هو الذي أخبرني –مؤخراً– بأنه كان يدرّس في صنعاء ثم انتقل لظروف خاصة إلى منطقة خولان وأنه لشدة تماهيه في المكان وناسه تزوج من هناك وأنه على علمه الغزير لم يكن يكتب ولم ينشر له شيء..وربما كانت له تعليقات وملاحظات ظلت حبيسة الأدراج..وبهذا تنطبق عليه هو أيضاً صفة من أهم صفات الملامتية وهي: معرفة الأسرار الجليلة ثم إخفاؤها والحرص على عدم نشرها... وكانت صدمتي كبيرة حين علمت أنه مات هنا في اليمن وقبل سنتين فقط..فيما كنت أظنه قد عاد إلى تونس منذ خمسة عشرعاماً..

ارتبط العديني بالحطابي الذي قاده إلى دروب أخرى في دنيا المعرفة فسلك معه طرق المتنبي والتوحيدي والجرجاني والآمدي صاحب (الموازنة بين الطائيين) وغيرهم.. وعن

طريق الخطابي تعرف على أدباء يمنيين وعرباً مثل المقالح وعلي جعفر العلاق وأحمد الزراعي..وخرج إلى حدمّا عن اكتفائه بالحدود الدنيا من العالم الخارجي..

***

حتى هذه الكلمة فإن ما أسلفته يرسم للعديني في مخيلة القارىء صورة وردية لشاب يقرأ ويكتب ويعيش حياة طيبة وخالية من المنغصات والآلام..

لكن الحقيقة غير ذلك تماماً وحين كتب العديني:

مقطوع من شجرة

أحتاج إلى غابة من نساء

كان يلخص مأساة يدفنها في صدره ولا ينفذ إلى قراءة ما يتسرب منها إلى عينيه إلا من عرفه عن قرب.. فهذا الشاب الوسيم الهادئ..الذي يلفتك بصمته الطويل.. ويثير إعجابك بعمق طرحه حين يتحدث.. هو صندوق يخبيء في جنباته تشظيات تتسلط على وجوده مذ كان في بطن أمه.. فقد عاش طفولته ممزقاً بين أبويه المنفصلين.. وحرمه ذلك من ميزات كثيرة ينعم بها الأطفال.. وحتى عندما كبر وتزوج ظلت تلك المعاناة تلاحقه.. وتحاول هز أمانه الأسري فيما هو يحاول تجنيب أطفاله وعورات عاشها ولم تكن له يد فيها..

ولعل هذا ما جعله حاد الوعي تجاه مأزقه الوجودي.. فقد اشتغل على ذاته، وثابر على ملئها..لم يكن الخارج يهمه بقدر ما كان يهمه أن يوفر لذاته قدراً جيداً من الإمتلاء.. لكنه ظل يجد نفسه محفوفاً بالمتاعب والصعوبات حيثما ولى وجهه.. حرم من المنحة رغم تقديره الدراسي العالي لأنه بلا روافع تسنده.. وحاول إكمال دراسته العليا فواجه من المتاعب والمعوقات ما لم يواجهه أحد. وعمل في الجامعة أربع سنوات متعاقداً دون أن يتم ترسيمه..

وكثير من تلك العوائق التي تواجهه لم يكن سببها دائماً فساد الحياة والمجتمع والنظام وتهاوي القيم وسقوطها، بل كان جانب من السبب يعود إليه هو.. إلى تكوينه

الذي ينشد الطريق عامرة بالضمائر الصحيحة والنفوس الخيِّرة.. والحق المطلق.. لقد عاش زمناً طويلاً داخل نفسه وداخل الكتب.. اتجهت به قراءاته شرقاً وغرباً.. وظل دائماً يبحث عن قيمه فيمن يتعامل معهم فلا يحصل إلا على الصدمات..فهو يرفض تحت أي ذريعة حتى لو كانت مصلحة تهمه أن يتعامل مع الناس ووقائع الحياة بدهاء السياسي أو باستعارة بعض أدواته المخاتلة.. وهذا يتصل برفضه في تجربته الشعرية كما في مقارباته النقدية على حد سواء أن يكون مردداً أو صدى لآخر..إذ هو ينحاز للاختلاف أكثر من أي شيء آخر:

الإتفاق أحجية

السياسي وذريعته

الإختلاف وردة

المثقف وشرطه

عند نهاية التسعينيات من القرن الماضي..عقب تخرجه من الجامعة تحولت غرفته في الحميدي بصنعاء القديمة إلى ملتقى نوعي لمجموعة من الأدباء على رأسهم الشعراء أحمد الزراعي وعادل أبو زينة ومُحَمَّد المنصور.. وكشأنه في الاقتصار على عدد قليل من الأصدقاء خالد جرمل فيما بعد وهو من المثقفين النوعيين، وعدد قليل فيما بعد من المقايل الثقافية (مقيل الشاعر عمار النجار ومقيل العابد مثلاً) فقد ظل ميله إلى نشر إبداعاته محدوداً طوال السنوات الممتدة بين 1991م وهو تاريخ أول قصيدة نشرها.. وحتى اليوم (أواخر أغسطس 2014م).

هو لا يخفي حذره تجاه النشر.. وحذره تجاه النشر يرتبط ارتباطاً شرطياً بدأبه على تقطير نصوصه.. واحترامه لتجربته في مشهد لا يفرق في أغلب أوقاته بين الغث والسمين.. لقد اشتغل كثيراً على نفسه.. وسنة إثر أخرى تطورت قراءاته الباحثة عن ضفاف للتعدد غاص في التصوف بمختلف تجلياته: العربي، الإسلامي الشرقي والبوذي.. واحتفل بتجارب متغايرة الجامع بينها تقطير الإبداع والإضافة للروح: الهايكو، لوركا ونيرودا، أوكتافيوباث،

ويتمان، الكتابات البوذية، الشعراء الهنود القدامى، الأساطير القديمة، شعراء فارس.. نيما يوشيج سهراب سبهري، فروغ فرخزاد، أحمد شاملو..

وفرضت عليه تجربته الشعرية ثم اشتغاله بالنقد أن يقرأ كثيراً في النقد، وعرف كيف يفرق بين التجارب المشغولة بنفسها والتجارب المشغولة باللعب اللفظي..وتلك المشغولة بتغريب الإنسان عن واقعه.. اهتم بالنقد في توجهه للحياة، قدر اهتمامه بالنقد كفكر ومناهج، منفتحاً على العالم بغية العثور على رؤية خاصة..ومتوجساً من خطورة أن يلجأ الناقد إلى الأيديولوجياً كبديل دائم للرؤية الخاصة.. وكقامع يقتل الإبداع بامتياز..

***

ديوان العديني " جهات محتملة – فراشة.. فراشة..سبح القنديل" جاهز منذ سنوات.. لم تتح الظروف لطباعته.. هو يعترض على سياسة النشر.. وقد تخلى عن جزء كبير من تجربته..لم يترك إلا المصفى منها.. وهذا أول مفاتيح قراءته فمسألة الكم لا تهمه.. الذي يهمه هو التقطير.. كيف تكون الصورة وكيف يتشكل المشهد.. كيف يكتب من خلال رؤيته الخاصة ويشعر هو قبل قارئه بتميز المكتوب وهو يرسم لنا مشهداً بالغ الدلالة على فهم للعملية الإبداعية:

أتعلم كيف أصغي للكلمة الأفق

وأنتظر كعصفور أو زهر أو طفل.

وهذه قصديّة لم تأت من فراغ فهي على ارتباط قوي بزهده.. برؤيته للحياة.. " تهمني الكيفية التي أعيش بها الشعر بمقدار ماتهمني الكيفية التي أعيش بها الحياة " – صرح لي بهذا ذات مرة – ثم هي على ارتباط قوي بوعيه الثقافي وأسلوبه في التعاطي مع العالم..لقد جعل من العزلة شرطاً لكل اتصال حقيقي بالعالم.. وغاص في قراءات فكرية فلسفية.. ومارس تجارب روحية..فاتسعت الرؤية وضاقت العبارة..لذلك كان لابد للتجربة أن تخرج مقطَّرة تستخرج الرحيق الصعب من ضديات كثيرة لا تراها أبصارنا.. بصيرته

وحدها هي من يستطيع تلمسها.. أذلك هو " بدّ العارف " الذي يجلوه لنا نصه المنشور تحت هذا العنوان في مجلة "بيت الشعر" الإماراتية:

كثيرون هم من يثبتون جدارتهم

كلّ يوم

با متياز

لكن في الجهة الخطأ

الطريق الصعب بُدّ العارف

وذخيرة المتقين

وإذن فهو يكتب وفق شروطه الخاصة.. وانطلاقاً من بصيرة نافذة تعرف كيف تعزل القشور وتحتفي باللباب.. هذا بالضبط ما تشير إليه الومضة الأولى من " بُدّ العارف":

الأغصان العارية

وهي تهوي

لا تجد ما يسندها

وحدها

الزهرة

تسقط

عالياً

لكن هذه النصوص المقطَّرة ستبدو معرضاً حافلاً لتجربة متعددة الأبعاد ستجد نفسك أولاً أمام ذات الشاعر في عذاباتها وابتئاساتها... لقد عاش العديني حياة مليئة بالفوات ..فوات فرضته عليه ظروف أسرية واجتماعية وسياسية وثقافية كثيرة..عاش فيه

طفولته..ومراهقته ودراسته وتكوين عائلته.. نضج فيه ونضجت على مر السنين رؤيته له وبه..

الفوات كان المعمل الذي تدربت على أوجاعه حواس التأمل عنده.. وحين تسامت الحواس على أجنحة التأمل الشفافة بدا له ذلك الفوات متواليات من الفقد والغياب والتعذر.. وهي مفردات يندر من يحتملها خاصة حين تكون أهم المكونات في طفولتنا، فما أكثر الحيوات التي تحولت بفعلها إلى خطر على الذات والمجتمع إذ هي وسائط مناسبة للكراهية والحقد والحسد والأفكار المتطرفة والأفعال الجانحة..وقليلاً ما تحولت إلى مولّدات للسلوك الإيجابي والسموالروحي..وهي لم تتحول في هذا الاتجاه إلا عندالأنبياء والأولياء والفلاسفة وعند قليل من الشعراء والفنانين..

وتبدو تجربة العديني على هذا الخط تجربة مذهلة شرط أن نتعمق قراءتها وأن نقترب منها بوعي وإدراك لخصوصيتها.. حين نفعل ذلك تتسايل مداراتها فيضاً من الإدراكات الكاشفة التي تصلنا بذات الشاعر وطبيعته ومزاجه، كما تصلنا بطبيعة اشتغاله عليها حيث تتناسج روح الفنان بوعي العارف.. وأقصد بوعي العارف إصراره على إغناء التجربة بموجهات فلسفية وصوفية تشكل تلميحاته إليها مفاتيح للمقتربين من عوالمه..أشير هنا مثلاً إلى تنصيصه لإحدى مقولات الفيلسوف مارتن هيدجر" يعوزنا فوات لندرك.. وغياب لنرى"

قرأت هذا التنصيص تحت أحد نصوصه الأخاذة:

عصفوراً.... عصفوراً

غردت الشجرة

فراشة... فراشة

سبّح القنديل

ودون قصد نسيت أني أكتب عن العديني...سبحت في بحر نفسي... كم من اشتغالاتي الكتابية جاءت إدراكاً بعد فوات..ورؤية تكشّفت بفعل غياب؟..

على سبيل المثال قضيت أوقاتاً حميمية أيام طفولتي أرعى الغنم..وكانت شجرة سدر معمَّرة وضخمة "عرج مُحمَّد سليمان " على الطريق بين قريتي (قرية الجيلانية) ومدينة القناوص ..ظلاً وارفاً لأيامنا.. ومر أكثر من ثلاثين عاماً بعد تلك الأيام منها عشرين عاماً قضيتها في صنعاء أحترف الكتابة.. دون أن أفكر في تناول قصتي مع تلك الشجرة.. ثم زرت أهلي قبل مدة بعد غياب طال نسبياً.. ولم أر الشجرة..لم تعد موجودة..فقد اختفت..وشعرت بأن الفراغ ليس في المكان الذي كانت تنشب فيه جذورها.. وتظلله بكرم لا حدود له.. الفراغ كان في روحي أنا.. طفقت أعاتب الأهل والأصدقاء جراء تفريطهم فيها.. لكنهم أخبروني بأنها جفت وفقدت الحياة قبل أن يزيلوها.. منذ تلك اللحظة زرعتها في روحي..وأنا أتذكر دامعاً مطلع المتنبي الشهير:

لـك يا منازل في القلـوب منـازل   أقفـرت أنـت وهـن منـك أواهـل

ومن يومها تحولت الشجرة وذكريات الطفولة المرتبطة بها إلى رغبة كتابة ملحة.. وحين اقتربت من تجربة العديني كان نصه " ندم " يشير إليَّ بعذاب أعمق وكأنه يخاطب تفريطي الخائب في شجرتي:

كم عصفوراً
وأدت
هذا الصباح
حين مضيت
ولم تكلم الشجرة ؟

فلم تمت الشجرة إلا بعد أن ماتت حيوات قبلها قتلها صمتنا ولا مبالاتنا:هكذا إذن " يعوزنا فوات لندرك..وغياب لنرى".

مع ذلك ورغم جوهر التجربة المشتعل حيال غياب تلك الشجرة الحبيبة فإني مرة أخرى أتهم نفسي فأنا أبسّط تجربة العديني مع متوالية الفقد والفوات والغياب تبسيطاً

مخلاً.. وهذه معضلة التمثيل فهو دائماً تبسيط لأمر عظيم.. لكن يظل عزاؤنا فيه أنه يوضح مقترباتنا... فالتمثيل نوافذ نفتحها حين لا يكفينا فتح الباب.. وعندما نفتح النوافذ فمعنى ذلك أننا بحاجة لمزيد من الضوء كي نرى الداخل بوضوح.. وما دفعني لفتح تلك النافذة..أقصد المثل..هو خصوصية تجربة العديني وعمقها.... خصوصيتها كقصة حياة ومجريات عيش عاناها..وخصوصيتها من حيث إحساسه بها واختزانه لعذاباتها وآلامها..وخصوصيتها من حيث وعيه بها واشتغاله الدؤوب على تغذيتها بما يقرأ..وأخيراً خصوصية كتابته لها..

العديني يدرك جيداً أن كل هذه الخصوصيات يندر أن تجد القارئ الجاد والمخلص.. وهو يدرك أن ذلك هو ماجعل تجربته تبقى بعيداً عن التناولات النقدية.. وهنا يجب أن نضيف خصوصية أخرى من خارج تلك السمات لكنها وثيقة الصلة بها.. أعني ملامتيته المتزمتة وزهده في الظهور وإقلاله من النشر..وتعاليه على كثير مما يتبعه الآخرون من عرض نتاجاتهم والتصريح للنقاد برغباتهم في أن تتناولها أقلامهم.. وكل ما أسلفته ليس بعيداً عن فهم ووعي وإدراك العديني الذي يصرح به على هذا النحو:

وحدك تسوق قطعان شجنك الغض

في براري الكلام

وتعلق ماء غربتك العتيقة

على مشجب ليل منبوذ

ستجد نفسك ثانياً أمام مزيج من التأمل الفلسفي والصفاء الروحي.. بل أمام نوع من الواردات العالية المأتى.. أمام كتابة تشعرك بالحاجة إلى إعادة تقييم ذاتك لأنها تقودك لمحاولة تجريب التأمل.. ولا تدرك نفسك إلا وأنت تفعل ذلك ولكن هيهات.. فأنت سرعان ما تتنبه إلى أن الأمر ليس بهذه البساطة..فلا يمكن الالتحام بالتجربة على هذا النحو السهل.. إنك كمن ينظر إلى بطل من أبطال السباحة وهو يعانق الأمواج الهوج بسلاسة بالغة.. فيظن أنه يستطيع أن يفعل مثله على الفور.. وينسى أن وراء ما يفعله

بطل السباحة استعداداً فطرياً وموهبة حقيقية وهواية نمت معه منذ الطفولة.. وتدريباً شاقاً، وسنوات طويلة من التجارب والمحاولات، وإصراراً على النجاح أوصله إلى ماوصل إليه..

حين تعي ذلك تعرف ما ينقصك لتكون مثله..ومبتسماً في سرّك تتذكر عندئذ أحد نصوصه المقطرة تلك:

(على جنب)

ترى كم جنباً نحتاج

حتى تكتمل وقفاتنا

وتشمل تأملات العديني مصفوفة طويلة من الأشياء والمفردات والأفكار التي نخالها صغيرة لكنها تملأ كوننا كله.. ومن خلال تلك الأشياء الصغيرة يلفتنا إلى مفارقات كثيرة على رأسها حجم المأساة المتغلغلة في كل تفصيلة من وجودنا نتيجة اهتراء أوضاعنا.. وبؤس الوجود الذي يصنعه لنا المتسلطون علينا كما في نص " الطغاة":

إنهم يجرفون أرواحنا

لا يبقون في ذاكرتنا

غير مخالبهم النتنة

آه كيف لم أتذكر تلك التفاصيل العبقة

لحياة أطفالي ؟

وما أكثر نجاحات هذا الشاعر في اجتراح المفارقة وهو يقدمها دون استعراض كما يفعل بعض الشعراء لأنها عنده خادمة للحظة الضوء الوامض القادم من حال تأمل كما في نص " مفارقة":

ليس ثمة شرق أو غرب

الشمعة محايدة لكنهم يطفئونها مرة

كل سنة ليستقبلوا عاماً جديداً

ونحن نشعلها كل يوم

لتصفية حسابات قديمة

وستجد نفسك ثالثاً أمام شاعر تتماهى ذاته في الأشياء من حوله على نحو يذكِّرك بأصحاب وحدة الوجود من الصوفية ونصه " للفراشات مساراتها الصامتة " المنشور في مجلة "غيمان" العدد الثالث خريف 2007م هو أحد نصوصه المرتكزة على هذا المنحى تقرأ فيه ما يشبه السيرة مكتوبة عبر نسق لفظي كنائي ومشهدي إشاري.. تتلامّ فيه أطراف العالم الشاسع على جناحي فراشة ملتاعة:

ها أنذا أضع مسودةً لأيامي الطاعنة في أحزانها،

محاولاً الإمساك بظلالها الهاربة والهجس بها

أعبر –الآن – أطراف العالم

تلتمع الضحكات المبعثرة في خابيته كالخناجر.

أحاول جمع شتات ذاكرة شجرية،

واللحاق بأقلام فارّة من تاريخها..

لا شيء يصحو في هذه المدائن اللدنة

غير فراشاتي الملتاعة

حين تقودني خطواتها الرشيقة لينابيع الضوء

فراشة واحدة تكفي لزلزلة قلب الغريب

تكفي لشمس أكثر سطوعاً ومباغتة

تومىء للنهر فينشق، للغصن فيتأوّد

للحجر فيحلم، للغيم فيهمي

تومىء لي فأضيء وأتحول..

ألا يذكرنا هذا ببعض ما رواه شمس الشموس أبو الغيث بن جميل من مواقف عن اتحاد شيخه الأهدل بالأشياء حدّ أنه اعتبر علوق شوكة في غصن من شجرة سدر ضوءاً كونياً يتجسد فيه خطاب من خالق الكون نفسه..

أليست لذة أولئك باتحادهم هي ذاتها لذة العديني بعد أن يضيء متحولاً بتلك الإيماءة:

- أغمس قلبي في عينيها فيفيض العالم عسلاً مختلفاً ألوانه

ثمّ الأحوال التي كانت تصيبهم إثر ملامسة ذلك الضوء لوجودهم.. فيخرج بعضهم عن طوره كما فعل الحلاج.. ويحاول بعض آخر تفادي الحال كما فعل ابن علوان.. أليست نفسها هي الأحوال التي يتقلب العديني في مدارجها وهو يقول:

أخشى اكتمال القمر قبل نضوج النهر

أخشى الأبدي في مملكة بشرية

أخشى النهايات السريعة

والطرقات الواضحة

فكل بداية:

حديقة

شرفة

فتح

وكل نهاية:

معتقل

مصيدة

خديعة

مقارنة بنص آخر هو " جدران" المنشور في صحيفة الجمهورية بتاريخ 24 / 12 / 2011م سيبدو نص " للفراشات مساراتها الصامتة " نص بسط زماني ومكاني نصًا يتخطى الحدود وتتجمع له أطراف الكون وتنبسط فيه سيرة الذات عبر سلسلة من الأفعال المضارعة " أضع، أعبر، أحاول الخ " لا تتوجس إلا من الكمال المطلق..حيث الكمال قاطع كل رغبة.. أما " جدران " فنص قبض يتبازغ ويخشى من تبازغه.. نص رهابي مليء بالقلق والتوقعات المتضاربة هكذا يبغتنا السؤال الإنكاري في مطلعي المقطعين الأولين:

ماذا لو داهمتنا الجدران وعلق دخانها بأغنياتنا؟

ماذا لو غادرت الجدران أماكنها أو تحررت الأماكن من جدرانها ؟

في حالة البسط التي يعبِّر عنها نص " للفراشات مساراتها الصامتة" كانت التجليات المتعددة للحال واضحة وكل شيء بيِّن فيه.. أما في نص القبض " جدران " فلاشيء يبدو واضحاً.. وإجابات السؤال " ماذا لو" تحيل إلى غبش من الإحتمالات والتوقعات غير اليقينية:

ربما يلزمنا أن نتحصن ونملأ أعيننا بالنوافذ.

ربما يصير اليوم اثنتي عشرة ساعة

وهذه ال" ربما" ما تلبث أن تتحول إلى سؤال آخر يفخخه الشك:

- هل يكفي ذلك لتزهر أيامنا ونتقاسم فاكهة الصداقة؟
- هل يكفي ذلك لنحرس أحلام أطفالنا من الضياع، وقلوب زوجاتنا من اليأس؟

النصان يزدحمان بالدلالات وإمكانات القراءة.. والحالة الوجودية التي أوّلناها بسطاً في النص الأول وقبضاً في النص الثاني.. وعلقها إدراكنا بوحدة الوجدود.. يمكن أن تقرأ من زاوية أخرى بوصفها تعبيراً عن موقف من العولمة مثلاً.. وفي هذه الحالة فإن مسارات الفراشات الصامتة تحيل إلى المسالك التي تسلكها هوياتنا الصغيرة تماهيا في القرية الكونية فيما هي تتجدد من خلال هذا التماهي الذي لا يرفض فيقع في العزلة.. ولا يندمج بكليته فيفقد خصوصياته... أما القبض أو المأزق الوجودي في نص " جدران"

فسوف يعبر عن تشكك المجتمعات والهويات الصغيرة والثقافات ذات الخصوصية العالية من جدوى هدم جدران الذات وإتاحتها للآخر بلا كوابح أو قيود.. وحين نسائل أنفسنا "ماذا لو" يكون المعنى: إلى أي درجة سيلبي ذلك احتياجاتنا الحياتية.. وسيغني أرواحنا.. ؟ لا إجابة لتساؤلنا غير الارتباك والقلق والتمزق..

وستجد نفسك رابعاً أمام احتفاء استثنائي بالضآلة فإمعان العديني الطويل في تأمل الذات سواء الذات في تقلباتها اليومية..أو الذات في تجربتها الشعرية..وتأمل الحياة من حوله كثيراً ما يحيله إلى الشعور بضآلة الذات والأشياء ويعري أمام بصيرته إدعاءات الآخرين، وفي نص عنوانه " منزلة" وهونص مائز وطويل نسبياً نشر في عدد 22 يونيو 2005م في صحيفة 26 سبتمبر يبلغ الشاعر ذروة عالية من التجلي الروحي والإبداعي..وينجح نجاحاً باهراً في التسلل إلى قناعاتنا ليضع فيها خلاصة ازدرائه للتكالب البشري البائس على أمجاد لا معنى لها يقول في أحد المقاطع:

كم تبدو فارغة

كل الإدعاءات

كم يبدو جميلاً وإنسانياً

أن نتخلص من بجاحتنا

ونجدع أنفنا الطويل حتى القيامة

ويقول في مقطع آخر:

تمنيت لو أمتلك رؤية من

حجر

بصراً من حديد

أو أفقد القلب والشعر

والأغنيات

تمنيت لو أمد جنوني

لأقصى مدى

لو أطعمه البحر

أو تكنسه الريح

أو يمتطيه القمر

أو يشربه الندى

تمنيت لو أطلع

غيماً أو وردة

في سماء

تشاطر أطفالنا حزنهم

تمنيت

يكفي ادعاءً

في تجل من تجلياته ذات مرة وأنا أثاقفه استحضر العديني واحدة من المقولات الأثيرة على نفسه.. هي مقولة الكاتب الياباني أوكاكورا مؤلف كتاب الشاي " إن أولئك الذين لا يحسون بضآلة الأشياء العظيمة في ذواتهم، ميالون إلى إهمال العظمة الكامنة في الأشياء الصغيرة لدى الآخرين"

لقد تكشفت له جواهر الأشياء.. وحين تتكشف لنا جواهر الأشياء يتساوى الكبير والصغير وتتغير زاوية رؤيتنا على هذا النحو المذهل الذي يتفنن العديني في إدهاشنا به:

قمر

يسطع

على

جناح خنفساء

من

يدين

للآخر.

أنا شخصياً أدين للعديني الذي استمتعت بما تعلمته منه قبل أن أستمتع بمقاربتي له ولعوالمه المدهشة..ويظل ما قد مته هنا مجرد محاولة أولى للاقتراب من تجربة إبداعية وإنسانية كبيرة ومتفردة بكل معنى الكلمة..

طاهر رجب.. أخر الرجال المستنيرين

عرفته أول مرة في أحد أيام الأسبوع الأخير من أغسطس سنة 2002م في مقيل جمعية الحديدة بصنعاء، وقد لفت نظري اختلافه عن الآخرين وتميّزه الواضح من بينهم.. كان أنيقاً بلا تكلّف.. وقوراً وقاراً لا كبر فيه ولا ادعاء.. أرستقراطياً لكن سمة التواضع والبساطة فيه أقوى.. كانت نقاشات المقيل تحتدم في أكثر من موضوع وإن كان أهمها ذلك اليوم موضوع الاحتفاء بذكرى المناضل والشاعر الراحل يوسف الشحاري.

أثناء احتدام النقاش كان الأستاذ طاهر رجب الذي لم يكن قد حفظ اسمي يقدم لي مفاتيح شخصيته المميزة واحداً تلو الآخر، كان يرفض الكلام خبط عشواء، ينفر من طبيعة المثاقفات المقايلية التي تقع في مستنقعات النميمة والحشوش، وتبتكر المشاريع وتخطط لها بشكل أشبه ما يكون بأحلام اليقظة المعلنة، وتجمع بين الجدي والهزلي، وتخلط الممكن بغير الممكن، والمؤكد بالظني، لذلك فإن أساريره لم تكن تتبلج إلا حين يسمع طرحاً منطقياً ينم عن علم أو تجربة أوبصيرة وفهم، وكان لا يتأخر عن إبداء إعجابه بالمتحدث حين تكون لغته راقية، وأسلوب حديثهً شائقاً وجديداً خاصة حين يجد الشخص حريصاً على احترام نفسه واحترام الآخرين أشخاصاً وعقولاً أيضاً.. أعجبت بالأستاذ طاهر رجب وتواترت لقاءاتي به في مقيل الجمعية ، يشوبها بعض الانقطاعات التي كانت تحتمها انشغالاتي.. لكن تلك الصلة به قد توطدت أكثر فأكثر منذ منتصف سنة 2006م حيث تعرفت عليه بشكل أعمق واقتربت من ميزاته وسماته الراقية.

كنا في المقيل يوم 17 / 11 / 2006م وقد استدرجت الأستاذ طاهر رجب إلى حديث شائق عن تجاربه الحياتية حين أطلق الأديب أحمد رسام شرارة حماستي لتوثيق سيرته، وهكذا فقد شهدت آواخرذلك العام بدءًا من 25 نوفمبروحتى 22 ديسمبر مجموعة

جلسات في بيته سجلت أثناءها جزءاً مهماً من سيرته ومفاصل حياته التي كانت تفسر وتبين لماذا هو على هذا القدر من التميز الواضح.

بين مطلع عام 2007 م ومنتصف عام 2008 م تواترت لقاءاتي به بشكل شبه يومي وكثيراً ماكنا نلتقي مبكراً نقضي بعض المشاوير ثم نتغدى معاً لنذهب إلى مقيل مُحَمَّد العابد في جولة كنتاكي أو مقيل مُحَمَّد أبكر شايع في الحصبة أو مقيل الشيخ إبراهيم الحكمي في شارع القيادة أو مقيل اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين في شارع الرقاص وفي كل مفاصل تلك الصحبة كانت تتجلى لي كل يوم ميزات الرجل وجوهره الثمين، قراءاته الواسعة وحسه النقدي وقدرته على تمييز الغث من السمين في تصرفات الناس وأحاديثهم وتجليات أحوالهم..

***

أطل طاهر أحمد رجب على الحياة سنة 1931م كان جده الرابع يوسف مُحَمَّد رجب واحداً من أهم أثرياء صنعاء وشخصياتها البارزة عند مطلع السبعينيات من القرن التاسع عشر وقد امتلك عدة بيوت وبساتين، منها بستان الخير أحد أشهر بساتين صنعاء في ذلك الوقت . وعندما جاء العثمانيون كان أحد التجار المخالطين لهم..ولذلك درس ابنه طاهر «الجد المباشر للأستاذ طاهر» في مدرسة عثمانية وقد تمكن من إجادة اللغة التركية إجادة تامة.. ولأنه جمع بين الذكاء الدراسي والنجاح التجاري والبروز والقدرة على بناء علاقات قوية متشعبة مع علية القوم في المجتمع ومع رجال الإدارة العثمانية في نفس الوقت..فقد تم اختياره عضواً في مجلس المبعوثان..مما حتَّم عليه الإقامة في استنبول زمناً.. تزوّج فيه امرأة تركية أنجب منها والد الأستاذ طاهر رجب وبعض إخوته وأخواته.. وقد انتقل في السنوات الأخيرة من حياته إلى كمران حيث اشترى بيوتاً ومزارع وشارك بقوة في اعتمالات الصراع السياسي والاجتماعي والثقافي الناتج عن تسابق القوى على ملء الفراغ الذي تسبب فيه خروج العثمانيين من اليمن سنة 1918م. أما أحمد رجب «والد الأستاذ طاهر» والمولود سنة 1901م.فقد درس هو أيضاً في إحدى المدارس التركية وقد توقف عن الدراسة عند إغلاق مدرسة الألسن في الحديدة قُرب أو بعد خروج الأتراك.. ولأنه كان هاوياً

للبحر فقد مارس التجارة بنجاح كبير وتعلم لغات أخرى منها الإنجليزية والأردو وظل محافظاً على المكانة العالية للأسرة وصلاتها بالوجاهات السياسية والاجتماعية كما كان أسلافه.. ولعل أهم مايعبر عن ذلك زواج إحدى أخواته بواحد من أبناء الإمام يحيى حميد الدين هو سيف الإسلام علي (بنى دار الحمد لأجل ذلك الزواج)، وإقناعه سيف الإسلام أحمد بإنشاء شركة الملاحة اليمنية مستعيناً في ذلك المسعى بالشيخ علي مُحَمَّد الجبلي والقاضي حسين الحلالي.. وقد قبل سيف الإسلام أحمد الفكرة.. وبدأ التنفيذ الذي كان يستلزم بناء أول سفينة تجارية يمنية.. وكُلّف الشيخ أحمد رجب بالسفر إلى إيطاليا للإشراف على بناء الباخرة التي ستعرف بالباخرة صنعاء وسيكون هو قبطانها إلى جانب كونه شريكاً في ملكيتها.. في هذا المناخ الأسري تفتح وعي طاهر أحمد رجب الذي بدأ دراسته بحفظ القرآن في جامع المعلق المجاور لبيتهم في الحديدة قبل أن ينتقل إلى معلامة الفقيهة جبرة، التي درس مع مجموعة من البنات والأولاد على يديها القرآن والخط والإملاء والحساب والصلاة وبعض المعارف الأخرى.

قضى طاهر رجب ثلاث سنوات في معلامة الفقيهة جبرة، ومن ثم انتقل إلى مكتب الشريف، كان وقتها في حوالي السابعة من عمره، وكان المكتب تابعاً للحكومة، تدرّس فيه مجموعة من الأساتذة اللامعين أمثال مُحَمَّد خلوصي المدرس السوري الشهير الذي درس على يديه كثير من أعلام مدينة الحديدة وكان هو مدير المدرسة، إضافة إلى الأساتذة مُحَمَّد كتري وأحمد نشأت الجيلاني ومُحَمَّد لقمان..

وبعد ثلاث سنوات انتقل إلى المدرسة السيفية حديثة التأسيس فقضى فيها ثلاث سنوات أخرى ولأن والده كان رجلاً مثقفاً يعرف قيمة العلم فقد أخذه مع أخيه إلى عدن.ليدرسا هناك في مدارس حديثه.

في حافة حسين بكريتر انضم هو وأخوه إلى المدرسة الثانوية الحكومية التي كان نظامها التعليمي يمتد لأربع سنوات، لكن طاهر رجب لم يكمل الثانوية في عدن فبعد ثلاث سنوات كان مقدّراً لطريقه أن يتغير..

لقد قررت الحكومة اليمنية أوائل سنة 1947م إرسال بعثة من أربعين طالباً للدراسة في لبنان كان بين الطلبة من مدينة الحديدة إبراهيم صادق وحسن مكي ومُحَمَّد الهنومي وحاول والده أن يكون هو وأخوه ضمن البعثة غير أن ذلك تعذر عليه كون البعثة كانت محدودة أكثر تشكيلتها من مدرسة الأيتام في صنعاء وثلاثة من الحديدة فقط لكن السبب الأهم لعدم ضمه مع أخيه إلى البعثة هو كون أبيهما كان كثير الغياب في البحر خارج اليمن فلم يعلم بموضوع البعثة إلا بعد اكتمال إجراءاته.

ولم يسكت والده فقرر أن ينقلهما إلى مصر، ولعله حين قرر نقلهما إلى مصر في أغسطس سنة 1947م كان يستشعر قرب رحيله عن هذه الحياة لذلك قاده ذكاؤه إلى فكرة بالغة الغرابة كثيراً ما كان الأستاذ طاهر يتندر بها ويتفنن في سردها ولكنها كانت ناجحة جداً، كان والده يريد الاطمئنان على مستقبل ولديه الدراسي والمعيشي في مصر.. ولكي يضمن ذلك كان لا بد أن يحصل لهما على رعاية ملكية من الملك فاروق ملك مصر والسودان شخصياً.. ولأنه كان قارئاً جيداً تسهّل له تنقلاته البحرية وإجادته مجموعة من اللغات الحصول على الكتب والمجلات والصحف بلغات مختلفة، فقد عرف أن الملك فاروق مغرم بالحيوانات النادرة الصفات.. وكان قد عرف أن السيد هادي هيج صاحب وادي مور يمتلك تيساً غريب الأطوار بضرعين يدران اللبن ويخرج منهما حليب غزير.. وأن ذلك التيس إن لم يُحلب يومياً فإنه يتأذى ويتألم ويملأ الدنيا مأمأةً طوال الوقت.. استهدى التيس من الهيج فأهداه له بسبب ما بينهما من جمالات وصحبة ومصالح مشتركة.. ولكن الهيج كان مستغرباً يسائل نفسه والحاضرين عن غرض الشيخ أحمد رجب من التيس.. أما الشيخ أحمد رجب فقد صنع للتيس قفصاً من خشب وأخذه وأخذ معه ابنيه إلى أسمره ثم من أسمرة على متن طائرة إلى القاهرة حيث كانت في انتظاره مفارقة جد مضحكة كان قد راسل الملك فاروق يخبره بالهدية وكان الملك قد رد على رسالته بالشكر والترحيب، وحين حطت بهم الطائرة في مطار الماظة اقتربت سيارة ملكية وحملت التيس لكن تخليص أوراق أحمد رجب

وابنيه تأخر كثيراً لدى سلطات المطار فتذمر الرجل الذي كان يتوقع استقبالأ مميزاً بسبب الهدية، وحين قدم احتجاجه لسلطات المطار قال له الضابط:

-عفواً يا حاج عندنا مشكلة بسيطة نعالجها مع الجهات الأمنية..

فسأله: وما المشكلة. ؟

أجاب: واحد من جوازاتكم اسم صاحبه طاهر رجب.. ونحن عندنا معلومات أن صاحب هذا الاسم تاجر مخدرات خطير فنحن نحتاج لموافقة الجهات الأمنية على دخوله.

فوجئ الوالد بما قاله الضابط ولكنه ما لبث أن انخرط في ضحكة عالية ثم دعا إبنه طاهر وقال للضابط هذا هو طاهر رجب ابني، فهل مثل هذا الطفل يمكن أن يكون تاجر مخدرات.؟؟

اندهش الضابط.. وراح يفحص الجواز ويتأكد ثم راح يتصل ويخبر الجهات التي كان قد اتصل بها قبلاً ليقول لهم إنه التباس مجرد التباس فصاحب الاسم صبي صغير في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمره.. وأبوه هو الحاج أحمد رجب الذي جاء بتيس نادر هدية لجلالة الملك فاروق..

وجاء ت الأوامر على الفور بإدخالهم. وطوال الطريق كان أبوه يغرق في الضحك ويقول له: هكذا يا طاهر تاجر مخدرات وانا مش داري ؟

في اليوم التالي استدعى القصر الملكي الشيخ أحمد رجب وحين سأله الملك عما في نفسه طلب الحصول لابنيه على منحة دراسية على حساب الملك.

استجاب الملك لطلبه وباشر طاهر رجب مع أخيه دراستهما في القاهرة في مدرسة قصر الدوبارة بشارع قصر العيني حيث كان من ضمن أساتذته الفنان الشهير كمال الشناوي الذي كان وقتها في مقتبل العمر يعمل مدرساً للموسيقى قبل أن يصبح نجماً، ويحكي الاستاذ طاهر أن طلبة الشناوي كانوا يتندرون عليه عندما بدأ العمل في السينما بأدوار بسيطة.. وأن تندرهم عليه كان يغيظه فيصرخ بهم قائلاً: وفيها إيه يعني ؟

كما كان من زملائه الموسيقار الشهير بليغ حمدي

حين أكمل طاهر رجب دراسته الثانوية لم يكن مجرد شاب عادي. بل كان يسير على منوال آبائه وأجداده الذين كانو يتركون بصماتهم حيثما وُجدوا، وكانت قراءاته الواسعة قد أنضجت تفكيره ورؤيته، كان يشعر بأن الفترة مفصلية وأن التطور لابد أن يقود إلى جديد.

انتمى إلى أحد التنظيمات اليسارية الطليعية بمعية مجموعة من كبار سياسيي ومثقفي وكتّاب مصر والعالم العربي.. ونشط نشاطاً كبيراً فيه.. ومارس العمل السري بشكل واسع وبسبب وعيه وقوة شخصيته والحماسة التي يتمتع بها أصبح محورياً في ذلك التنظيم، وعن طريقه انضم إلى التنظيم عدد من طلائع الدارسين اليمنيين في مصر آنذاك.. ممن سيكونون مستقبلاً على رأس الجهاز الإداري في اليمن، وزراء وسفراء ومسئولين ورؤساء بنوك وغيرها.. لكن نشاطه لم يكن مقصوراً على ذلك التنظيم الشهير الذي عُرف بـ«حدتو».. بل لقد لعب نضجه الفكري وثقافته وذكاؤه دوراً كبيراً في جعله يتبوأ المركز القيادي دائما في معظم الأنشطة الطلابية خاصة ما يتعلق منها بالجانب الحقوقي وقد كان على رأس مجموعة من الطلبة الذين تصدوا لإنشاء مكون نقابي طلابي يضم طلاباً من اليمن بشماله وجنوبه وكان من الطلبة الذين يساندونه في تلك الدعوة الشاعر إبراهيم صادق، والشاعر عبده عثمان، وخالد فضل منصور لكن نشاطه الطلابي إلى جانب نشاطه في حركة " حدتو" تسببا له ولزملائه في ملاحقات أمنية.. جعلتهم يتركون القاهرة ويتفرقون في عواصم مختلفة، توجه هو سنة 1955م إلى إيرلندا حيث أكمل دراسته الجامعية وتزوج امرأة إيرلندية، وحين عاد إلى الوطن عاد ممتلئاً بالأمل والرغبة في الإنجاز والتغيير فبدأ يعمل على محورين محور التنوير الثقافي والتنظير لليسار ومحور الوظيفة العامة وما تتطلبه من جهد وما ينتظره فيها من مستقبل، نجح في تنظيم مجموعة من الشباب النابهن في الحديدة بعد قيام ثور ة السادس والعشرين من سبتمبر، وإذا كان حسن مكي رجل الدولة المرموق فيما بعد يعد من أهم من نظمهم طاهر رجب في القاهرة إبان خمسينيات القرن العشرين فإن الكاتب والمفكر الكبير عبد الباري طاهر كان أهم من نظمهم طاهر رجب في مطلع الستينيات من ذلك القرن.

لكن طاهر المنتمي أصلاً إلى أسرة تجارية يجري النجاح المالي والتجاري والتفوق الوظيفي في عروقها سرعان ما قطع صلته بالنشاط الحزبي والتعلق باليسار واندفاعاته، ولعل مصاهرته لأحد قادة الجيش بعد الثورة ومعرفته عن قرب أسرار المطبخ السياسي والأمني إبان الوجود المصري واشتداد حرب الجمهورية مع الملكيين ثم ما كان يلقاه الناشطون الحزبيون من اضطهاد وما كان يتسم به نشاطهم من قلة جدوى في بلد شديد التخلف كاليمن هو ما جعله يغير شيئاً من مشروعه فتخلى عن النشاط الحزبي وركز جهده كله في النشاط المصرفي.

ولأنه معروف با نضباطه.. واستقامته الوظيفية.. وضميره اليقظ.. فقد كان إصراره على الانجاز يغلب دائماً طبيعة أداء الإدارة في اليمن تلك الطبيعة المتسمة بالاستسهال وغياب الوعي وضعف الجاهزية..وهكذا راحت تتقلب به المناصب والمسئوليات فيساهم بقوة في وضع البنية الأساسية للنظام البنكي في اليمن من خلال البنك اليمني للإنشاء والتعمير الذي وضع هو لبناته وكان رئيساً لمجلس إدارته مدة سنتين (1966 – 1967م).

منخرطاً بعد ذلك في المساهمة بتأسيس عديد المشآت الاقتصادية الوطنية وعلى رأسها بنك التسليف التعاوني والزراعي. ناهيك عن عمله عضوا في مجالس إدارة ومستشاراً لعديد البنوك باثّاً روحه الملتزمة وحبه للنظام والقانون والتفاني في كل من عملوا معه، وقد لمست ذلك بنفسي حين كنت أزور معه أحد تلك البنوك فترة صحبتي له، حيث كانت قيادات البنوك وموظفوها يتقاطرون عليه مسلِّمين ومرحبين ومعدِّدين ماله عليهم من فضل التعليم والمساندة والقدوة الحسنة، كان ذلك يحدث رغم أن الرجل كان قد تقاعد عن العمل منذ زمن طويل.

لكن قيمة رجل من نوع طاهر رجب لاتكمن في نجاحه الإداري وسيرته الوظيفية الناصعة فحسب.. لكنها أيضاً تكمن في كونه أحد رجال اليمن المستنيرين المنحازين إلى الحداثة والمستقبل والمتخلقين بسلوكيات حضارية وثقافية تختار دائماً الوقوف إلى جانب الوطن والإنسان، ترفض الهمجية والفوضى، وتنبذ مظاهر التخلّف وتُعلي من شأن النظام

والقانون والحق والخير والجمال.. وتسعد بخدمة الناس دون منٍّ أو استعلاء ولا ترضا بغير النجاح بديلاً..

سأقف هنا فليست هذه إلا طعمة يسيرة من سيرته العطرة التي أعد أن أنشر ما وثقته منها كاملاً .. لقد كتبت هنا ما رأيت أن من واجبي أن أكتبه اليوم " 21 مارس 2014 م "، ففي صمت مؤسف يرحل واحد من أبناء هذه البلاد الاستثنائيين فيما أنا والعشرات بل المئات من رفاقه وأصدقائه وزملائه نقضم أظافرنا ندماً لأننا لم نقدّم له من البر ما يستحقه، ولأننا لم نكن إلى جانبه خلال سنوات تعبه الأخيرة.

عبد الرحمن فخري..
الشاعر في غير زمانه

الشاعر الكبير والمثقف المختلف الذي كان يقيم الدنيا ويقعدها يرحل اليوم (22 أغسطس 2016 م) في صمت مطبق، هل ثمة غرابة في الأمر ؟ بالتأكيد لا، فهذه من أكبر عاهات الحياة الأدبية في اليمن، حيث النسيان موت قبل الموت.

ولد عبد الرحمن فخري في عدن عام 1936م.وتخرج في الجامعة الأمريكية ببيروت . قسم الاقتصاد والعلوم السياسية.عمل وكيلا لوزارة الاقتصاد، ثم عمل حوالي 20 عاما في منظمة اليونسكو الدولية. بعدها دخل في المنطقة الضبابية التي فرضها عليه الجحود والنكران قبل أن يفرضها عليه التقدم في السن.

في السبعينيات من القرن الماضي كان فخري صوت الحداثة الشعرية وبمقدار ماكانت نصوصه الجريئة تهز حتى التقدميين في عدن كان هو على جاهزية دائمة للتحدي فلم تكن المسألة بالنسبة له مجرد حداثة على الورق كانت الحداثة في وعيه هي حداثة الموقف بامتياز، وقد حدث - كما روى الكاتب فضل النقيب - أن تم تحريف جملة شعرية له نصها " سأمنح كل كلب زهرة " فصارأحد قادة الحزب يقف في اجتماعات المكتب السياسي المتوترة معرّضاً به ومكايداً زعماء آخرين ويقول " ستنبت في ذيل كل كلب زهرة "

لقد ساهم فخري أثناء تلك الفترة في تأسيس اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين، كما كان واحداً من نجوم المهرجانات الشعرية اليمنية والعربية وارتبط بصداقة واسعة بأدباء كثيرين شملت في اليمن قامات مثل عمر الجاوي وعبد الله البردوني وعبد الرحمن إبراهيم واتسعت عربياً لتشمل وجوهاً وتجارب مميزة على رأسها أدونيس الذي بلغ من شغفه به أن سمى ابنه على اسمه، كذلك أدباء من طينة عبد الوهاب البياتي وأحمد عبد المعطي حجازي ونجيب

سرور وقاسم حداد ومحمود درويش لكنه كعادة معظم أدباء تلك الفترة لم يصدرمن أعماله، إلا مجموعته الشعرية الأولى "نقوش على حجر العصر" - اتحاد الكتاب العرب. دمشق 1978م، ثم صدر له من عدن كتاب نقدي بعنوان "الكلمة والكلمة الأخرى ". وفي سنة 1988م تُرجم جزء وافر من تجربته الشعرية إلى الانجليزية ونشرت في مختارات تحت عنوان "ليالي الأدب العربي الحديث".

عند نهاية التسعينيات من القرن الماضي كانت هناك محاولات لاستعادة شغف عبدالرحمن فخري، كان الأمر أشبه ما يكون بالصحوة بالنسبة له ولمجايليه، وكان اكتشافاً مميزاً بالنسبة لأبناء الجيل التسعيني، لم نكن نحن نعرف أن عبد الرحمن فخري كان صديقاً مقرباً للزعيم عبد الفتاح اسماعيل وأنه كان يسكن قلعة المعاشيق في ذلك الزمن الذي كان الشعراء فيه نجوماً تدوي كلماتهم ويعتبرها بعض الزعماء وحياً يوحى وكنا معذورين فقد جئنا في زمن تكفير المبدعين وتهميشهم وتجويعهم ولعن سنسفيل الذين خلفوهم، وفي هذه الصحوة الممتدة بين نهاية التسعينيات ومطلع الألفية الجديدة صدرت له من عمان - الأردن - مجموعة بعنوان "من الأغاني ما أحزن الأصفهاني " 2000م ثم تبعتها مجموعة أخرى هي "من جعبة الفراشة " عن اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين – صنعاء 2007م.

الكتابات التي تتناول إبداعات فخري ومكانته الأدبية قليلة جداً قياساً إلى دوره المهم في مشهد الحداثة اليمنية والعربية أيضاً، كذلك الكتابات التي تتناول حياته وأنا أقصد هنا ما يمكن العثور عليه من كتابات تتعلق به وبتجربته على الشبكة العنكبوتية، ولعل سبب ذلك يعود إلى انصراف الراحل الكبير خلال العقدين السابقين عن الظهور وزهده في الأضواء، وهي الفترة التي ازدهرت فيها عوالم الشبكة العنكبوتية في اليمن، زد على هذا إجحاف الوسط الثقافي والأدبي في اليمن بشكل عام تجاه الرموز من أمثاله إذ أن أهم عيوب هذا المشهد أنه لا يهتم إلا بذي نفوذ أو بمن يزاحم ويعرض نفسه باستمرار، وأظن أن العودة إلى صحف السبعينيات ومطلع الثمانينيات في اليمن ستكشف عن اهتمام واسع بتجربة الرجل ومواقفه وبعض جوانب حياته بحكم حضوره الاعلامي والأدبي الواسع في تلك الفترة.

البحث عما يشفي الغليل حول عبدالرحمن فخري على جوجل أو على موقع التواصل الاجتماعي فيس بوك يبدو مخيباً للآمال ولعل الشهادة القصيرة التي نشرتها زوجته السابقة سعاد مُحَمَّد بمناسبة رحيله هي أكثر الكتابات محورية في إبراز جوانب من شخصية فخري المبدع والإنسان " أبكيك كثيراً اليوم لأَنِّي أعرف كيف كنت تعشق الحياة وتصحو في الصباح لتستحم و أبيات شعر لك ولزملائك أو للمتنبي أو المعري تطغى على صوت الماء بصوتك الإذاعي الرخيم المعروف..على يديك تفتحت عيني على ثقافات العالم وكنت في ثقافتك تجمع بين التقليدي والحديث والشرق والغرب.. كنت أول من عرفت منه أشعار ت آس اليوت وطاغور ولوركا ! والنكات والسخرية والقهقهات"

تضيف سعاد أيضاً "كل من عرفك يعرف أنك كنت رجلاً وشاعراً متميزاً ومتفرداً ولا تكل المحاججة والنقاش ولاتستسلم لإرضاء التيار أدبيا أو سياسيا، كنت من الرعيل الأول في عدن الذي صمم على نيل الثقافة والسفر للخارج مهما استعصت الظروف عملت وكيلاً في وزارة العدل ووكيلاً في وزارة الثقافة وموظفاً دولياً ولكنك كنت تأبى دوماً أن تكون مسماراً في كرسي أية وظيفة حسب تعبيرك أنت وكان الإبداع والاطلاع هما غايتك، أتذكر محمود درويش في زيارته لعدن عندما قال لك شفاهاً إنك في خارج زمانك وأتذكر أدونيس الشاعر وهو يسأل عنك بشغف في نيويورك قبل سنوات، كنت مبدعاً وعاشقاً للفن وجماله والارتقاء به، ويسعدني عندما أرى تلك البصمة على أولادنا، هل تتذكر عندما رفضت أن يدخل مولودنا أدونيس البيت قبل أن تضع السيمفونية الخامسة لبيتهوفن، ابنك من يومها يتذوق الموسيقى الكلاسيكية "

مقتطفات من شهادة قصيرة لكن فيها الكثير مما يمكن أن يقرأ بين السطور فنحن أمام كاتب ومثقف امتلأ من كل شيء وعاش الإبداع كلاً لا يتجزأ، لم يترك فرصة للتخلف المتوطن في هذه البقعة من العالم أن ينال منه، وهو بالفعل لم ينل منه، إلا إذا نظرنا للموضوع من زاوية التهميش السخيف الذي طاله فيما هو يعيش شيخوخته وحيداً قبل أن يرحل عن ثمانين عاماً.

قبل المرور سريعاً إلى عوالم فخري الابداعية لا بد من التأكيد مرة أخرى على انحيازه التام للحداثة بوصفها أفق الحياة وأفق النص، كان يرى بوضوح أن النص الناجح هو غير المطلوب سلفاً، أي ذلك النص الذي سيبدو دائماً غريباً على المتلقى سريالياً وغير منطقي بالنسبة للمؤ سسات أوالبنى الثقافية التقليدية، النص الذي لا يريد له صاحبه أن يوضع في قالب محدد هو الاشتغال الواقعي والحقيقي كما تشير مداخلة له في ندوة أقامتها في صنعاء جماعة الشجرة الأدبية حول البيان الشهير " موت الكورس " الذي نشره البحرا نيان قاسم حداد وأمين الصالح سنة 1984م ، فخري كان شديد التوجس من المؤسسات كيفما كانت توجهاتها. فهي من وجهة نظره في الغالب مؤسسات أدبية معروفة " تقليدية " تحاكم الأدب بمقاييس قديمة بحيث تفرض على المبدع أن يكون كما أراد له الآخرون، بل إن هناك مؤسسات تمد الأدباء بالمال بحجة التضامن لتفرض عليهم مواقف لا يريدونها ففي النهاية لا بد أن يكون لهذا الدعم قصد ما، .

كان يعلن صراحة أنه من البديهي أن يكون للكتابة – أية كتابة – قصد معين – وأنه يمكن أن يتغاضى عن المؤسسات الداعمة إذا كانت تتغيّا دعم التغيير، إنه من وجهة نظره مُبَرّرٌ إذا دفع بالحياة الى الأمام.. كان يعلن أنه سيكون مبتهجاً لأية كتابة لا تتمسك بالشواهد فهي في هذه الحالة بحث عن عصر جديد.. ومادامت تلقى بالأفكار القائمة بعيداً فهي عمل منطقي.

وبمعاينة سريعة لبعض إنتاجه الشعري سيبدو فخري مختلفاً كلية عن مجايليه من شعراء اليمن لقد انتمى فنياً إلى مغايرة كاملة للواقع الإبداعي اليمني..فضاؤه عالمي بامتياز.. وهو حتى في فضائه العالمي ينتمي إلى حداثة ذلك الفضاء وإلى تجاربه الأكثر صيرورة واختلافاً ورفضاً، وفي انتظار قراءة شهادات معاصريه ليس على إبداعه ولكن على مثقافاته ومعاركه في عدن إبان سبعينيات القرن العشرين. تلك المثاقفات والمعارك التي أسلفنا إشارة عنها في سطور سابقة من هذه الكتابة اعتماداً على نفثة لصديقه الكاتب فضل النقيب في آفاقه عام 2015 م فإن بوسع قارىء فخري أن يتبين مقدار واحديته في موقعه آنذاك..

فلطالما قادته معاركه مع الوعي التقليدي لمجايليه إلى الاستعانة بحشد كبير من أصوات مبدعي العالم ومفكريه وهو يكاد يكون أكثر شعراء اليمن استدعاءً لأصوات من أنحاء العالم تقف إلى جانب نصوصه لتشكل متكآت لتجربته وروافع لصوته الوحيد في محيط يعج ب " شعراء بالجملة" - كما وصفهم في أحد نصوصه - لكنهم جميعاً صوت مألوف وعادي وتقليدي.

هكذا كان يريد بوعي أن يكون مختلفاً:

بوادي الأشياء

جبلاً ونبيّاً

ستصبح إرادتي لقيطة

لا تعرف الحساب

إيه يا (كتاب الموتى)

يامن خلدتك الخرافات

ودُفنت فيك نظارة العصر

سأتقلب كالفناء

من عزاء...

إلى عزاء

إنه نص يعود إلى عام 1973م وقد نشر مع خمسة نصوص أخرى في مجلة " مواقف " العدد 49 فبراير 1984م، وهو يقول بوضوح إنه لا يريد لصوته الشعري أن يكون مُنَسّباً ولا يرضا بانتمائه إلى كتاب الموتى – كناية عن اجترار موروث لا يليق بالزمن الذي يعيشه – إن متعته هي في موت هذا الركام من الماضي وسيكون سعيداً بالتقلب في عزاءاته فيما يشتعل فرحاً بصوته اللقيط الذي لا ينتمي إلى ماض.

لغة الحواس أحد منجزات فخري المتقدمة وهي لغة يجترحها ببساطة ويعزف عليها بمهارة رائعة:

الأصابع

الأصابع

والعطر سلطان أسمر

تأملات عميقة واشتغال ساطع وحفر في اللغة، لأن عبد الرحمن فخري رغم إعلانه القطيعة مع الماضي مسكون بلغة باذخة وغير عادية، جملته الشعرية مسبوكة بحذق وعشق، ولعله كان يكتب نصوصه بصوت مسموع فثمة جمال وسلاسة في بناء الجملة كما في الانتقال من سطر شعري إلى آخر، وربما كان لمنبريته الشهيرة دور في ذلك فقد كان نجماً من نجوم الإلقاء الشعري وتلك ميزة كانت تجعل قصيدته النثرية في المهرجانات تتفوق على نصوص كبار شعراء العمود والتفعيلة من كل مكان ناهيك عن شعراء قصيدة النثر وذلك جلي حتى في نصوصه المبكرة كما في هذا النص الذي يعود إلى سنة 1967م:

لو أني متُّ
هل تموتين ؟
ستموتين.. تماماً
سيغرق البحر في عينيك
وتسقط الأشرعة، كالضحايا
في فصل الحرب ؟
هل يبكي الشجر، كالنساء
على صمت الدمى ؟
هل تنام الأغاني
على شفاه الأطفال؟
وتفقأ كل الكراريس عيونها،

ستنتحر كل المصابيح في الشارع

ولن يخرج الليل إلى الحانة،

هذه الليلة...

هل سيحرث أوديب وادي الدموع

فيروي قبرك بالندم

هل يموت اسمك،

في يوم واحد مع اسمي

وكل المواعيد معنا

وكل الصحف

هل تموتين قبلي

برابعة النهار؟

إن عبد الرحمن فخري لم يكتب قصيدة مميزة ومتقدمة فحسب، ولم يكن شاعراً ومثقفاً مختلفاً وكفى، لكنه كان حضوراً إبداعياً وثقافياً مغيّراً، وهو وإن كان قد عانى من عزلة منحاه الكتابي بين معظم أبناء جيله إلا أنه قد نجح في تغيير العديد من مجايلية، أما من جاءوا بعده فقد كان تأثيره عليهم ملموساً وواضحاً غاية الوضوح، كل ذلك ناتج عن قدرته على تحكيك وتجويد نصه، وعلى تخليق العصف الذهني حول الكتابة من حيث الشكل والمضمون. وثمة شهادة قوية للمقالح عنه نشرت في صحيفة الحياة بتاريخ16 / 4 / 2006 م تقول " الشاعر عبدالرحمن فخري واحد من هؤلاء المجددين الذين كتبوا شعرهم أو معظمه بمنأى عن الالتزام ببحور الخليل ابن أحمد الفراهيدي. وشهادة حق، فقد كان في طليعة رواد قصيدة النثر في اليمن. ولا يخفي عدد من الشعراء الشبان – أو الذين كانوا شباناً – أنهم تأثروا به وحاولوا في بداية أمرهم محاكاة طريقته في الكتابة الشعرية ليس على مستوى التمرد ضد الأوزان فحسب، انما في بناء الجملة الشعرية المكتنزة بقدر من الغموض، وفي اجتراح المغامرة المؤدية الى ابتداع نوع من المعنى المثير للجدل. ولن ينسى تيار الشعر الجديد في اليمن

دور الشاعر عبدالرحمن فخري في الدفاع عن هذا الاختيار ومقاومة أنصار المحافظة الأدبية بعامة والشعرية بخاصة".

أخيراً:

ليس هذا ما يليق بقامة كقامة عبد الرحمن فخري، أقصد رحيله الصامت، وأقصد أيضاً ما كتبته عنه هنا، لكنه واقعنا مع الأسف الشديد أو كما قال هو ذات يوم:

مجرّد بطاقة

....

أنت الحقيقة

النّهار الحزين

كعكة حب

العادة المفضّلة

غرناطة واللّسان المقطوع

ليلة... بلا جفون

ورد في المزاد

الرّحى

لقطه

مليكة العاج

ورقات ولعبة واحدة

حكاية شعري

عابرة سبيل

بابلونيرودا، أيها الرفيق

الشيخ والبحر

من رحلة الشتاء والصيّف..

زفرة

عندما يلتقط الإنسان ظلّه....

الوشم

رقصة الظل

رجولة

وتورق الأنا.... ذات يوم!

نخب على شرف القردعي

وأندلق..من عنق الزّجاجة

عبد العزيز عجلان
ملامتي لا يعترف لنفسه بشيء

كغيمة بخور تتأرج في ليلة ختم، هكذا أشعر بهذا الصوت الشعري المحمَّل بروائحه الخاصة..

إنه عبد العزيز عجلان، الشاعر الذي فرض على نفسه شروطاً، نادراً ما تعامل بها شاعر مع ذاته. شاعر لا يريد أن ينشر ديوانه الأول لأنه اعتقد أنه ما زال يبحث عن ذاته.. يريد أن يكتب شيئاً يحمل بصمته الخاصة، مع أن بصمته الخاصة موجودة، وهو لا يكتفي بذلك، بل إنه ليسلط معارفه الواسعة بالنقد، وتجربته فيه على نصوصه.. ويضعها دائماً في معرض المقارنة ويتعمد انتقاصها واستصغارها حين تطلب منه أن يسمعك بعضاً منها، لكنك ما إن تسمع نصاً أو نصين أو ثلاثة من نصوصه حتى تجد نفسك مشطوراً إلى نفْسين: نفس تنازعك كي تخاصمه وتصرخ به لأنه ضللك وأوهمك بأن موجودَهُ تافه، وبضاعته مزجاة، ونفس تقفز بك لعناقه وهي تتأوه إعجاباً بما سمعت منه..

كثيرة هي قصائد هذا الشاب التي أتلقاها وأنا أتمنى لو كانت لي، أتمنى ذلك بحرارة عجيبة.. أتمنى وروحي تتلمظ لذة وظمأ.. حيناً بسبب الوجدانية العالية التي يتميز بها.. وحيناً بسبب لغته البارعة.. ومعجمه المنتقى، وحيناً بسبب كثرة الصور الخاصة التي دأب كثيراً على الاشتغال بخلقها أو توليدها، مجدولة في نسق ذكي ممهور بعوالم مدهشة من المحمولات الصوفية والشعبية التي يحسن التقاطها من بيئته، ومن ثقافة المكان وناسه، ومن داخل بيته وهو بيت علم وتصوف وقضاء وفتوى، تتقاسمه أسرتان من أشهر أسر العلم والتصوف في تهامة هما بيت عجلان الذي ينتمي إليه أبوه وبيت القديمي الذي تنتمي إليه أمه.

تقرأ مثلاً قصيدته (طفل المقام) وهي قصيدة كتبها سنة 2008م فتجد فيها عالماً من المفردات والصور والمعجم الذي يميزه عن أبناء جيله:

هــذي الطلــولُ... وهــذه ليلــى أيُّ القلــوبِ سينشــد الوصــلا؟
ويــحُ الشــجيِّ إذا اشــتهى وطــرا إن لم يقبِّـــلْ دمعُـــه الـــرملا
يا دارهـــا مـــا دار في خلـــدي إلاّ هـــواكِ وغيمـــةٌ وجلـــى
كانــت هنــا، هــذا المــزارُ، وهــل يغفــو الشــجا؛ إن أزهــر المجلى؟!!
هـــذي الزهـــور رفيـــف دعوتهـــا ودمـــي يســـبّحُ باسمهـــا الأعلـــى
يادارهـــا بالقـــرب مـــن شـــجني أمللتـــني؟؟... ألقلـــبُ مـــا مَـــلاّ
كـــلُّ القناديـــل الـــتي اشـــتعلت بـــدمي، إليهـــا زيتُهـــا صـــلّى
هـــي حضـــرة المعـــنى أطـــوف بهـــا قيســـاً، وكـــلُّ جهاتهـــا ليلـــى
هـــذا مقـــامُ القلـــب في (لـــولا) فمـــتى تشـــدُّ رحالَهـــا (لـــولا)؟
أشـــتاقُ...هل أدنـــو لتحضـــنني حاشـــا هواهـــا يعـــرفُ المَطْـــلا
أنا ومضــــةٌ شــــبَّتْ بمقلتهــــا وترعرعـــتْ بجفونهـــا جـــذلى
أنا ســـبطُها؟... أدري، بروضـــتها فتّقـــتُ كـــلّ معـــاجمي فُـــلاّ
ومســاؤها – مــذ رمــتُ– أوقفــني في الشَــهْد ألعــق فــرحتي مُهــلا
هـــذي المعـــاني وردُ بهجتهـــا واللفـــظُ همـــسُ جفونهـــا الكَحْـــلا
للـــروحِ في شـــرفاتِها ألـــقٌ والتـــبرُ رام لنفســـه أصـــلا
مـــددٌ لـــه الصـــلواتُ ضـــارعةٌ وبـــه ازدهـــتْ (ياســـينُ والأعلـــى)
وهنـــا، تعـــالى الله، كـــم زرعـــتْ كفّـــاه، في قـــيظ المـــدى، ظـــلاّ
مندوحـــةً للقـــرب وارفـــةً وأنا دمٌ –ياعشـــق – قـــد طُـــلاّ

ناجـــى مســـاءَهمُ وشـــا جنَـــه   هـــذا البهـــاء المشـــتهى الأحلـــى
محـــــضُ الهدايـــــة في غوايتِـــــه   فـــالقربُ، كـــلُّ القـــربِ، إن تُقلـــى

كل هذه المفردات والألفاظ والصور المدهشة والمخاتلة في نفس الوقت، والتي يأتي ختلها من الدلالات المتعددة الواسعة المتخلقة من التفاوت المادّ بين المستوى العادي للفظة والإيحاءات الروحية الصوفية، لكن الدهشة تتسع وتكبر في نفسك حين تعرف أنه كتب القصيدة لجدته أم والدته التي أقام بعض أهلها عرساً ولبساطتهم لم يلتفت إليهم شاعر ببيت شعر..

هل آذيت النص بكشف سره، قد يتبادر إلى أذهان بعض القراء خاطر مثل هذا، لكنني مرغم على الكشف لأدخل بالقارئ إلى بعض خلفيات النص وأولها أن الأسر العلمية الكبيرة كأسرة الشاعر تتميز أعراسها بكونها تتحول إلى مهرجانات شعرية، لذلك فإن عدم الالتفات إلى عرس بعض بيوت تلك الأسر بسبب بساطة أهلها، سيعدّ حدثاً صادماً في بيئة تقدس التواضع وتقدم أخلاق العناية في تعاملاتها على كل اعتبار، وهذا حدث جدير بأن يكون دافعاً لقول الشعر..

أما السبب الثاني وهو بيت القصيد هنا.. فيتمثل في هذا المنحى الذي يتفرد به عبد العزيز عجلان، والذي لشدة وضوحه في شعره قد لفت أنظار كل من يعرفونه وفي مقدمتهم علماء أسرته، فالعادة في شعر المناسبات الذي تنتجه هذه الأسر ألا يعتد به كثيراً إلا لناحية قيمته التاريخية، فهو يكتب على عجل وتتكرر فيه معانٍ وألفاظ بعينها.. ويكاد النص من هذه النصوص يموت بمجرد انتهاء صاحبه من إلقائه.

ما فعله هذا الشاعر هو أنه حول كل إبداعاته في هذه المناسبات أعراساً ومآتم، وتطييب خواطر إلى نصوص باذخة الحضور، كونية الهم، تتحول فيها المناسبة إلى انفجار إبداعي تلتاع فيه العاطفة، وتتعالى الروح، وتحضر عوالم مشهدية مذهلة تنزاح بالنص ومناسبته، وتنزاح على اللحظة ومقتضياتها، ويتسع أفقها إلى فضاءات أبعد كثيراً مما يمكن أن

يلاحقه الفهم أو تتقصاه التأويلات، لذلك فلا يمكن للمتلقي وهو يقرأها أن يصدِّق أنها كتبت لمناسبة معينة، حتى وإن حكى الشاعر القصة وأكد عليها.

ولعل عبد العزيز عجلان أول من يفعل ذلك، وهي ميزة الشاعر الحقيقي.. الذي يستطيع أن يدهش العالم في ما هو يتغنى بخصوصيات ستبدو عابرة أو عادية وبسيطة حين نجردها من طريقة خلقه لها في قصيدته..

هذا المنحى عند عجلان يتوزع في كل تجربته الشعرية التي يتواشج فيها ما يستحضره من ثقافة المكان بصوفيته الفارهة، وموروثه الشعبي الغني، ومن عينه اللاقطة، وحواسه المتحفزة.. وذاكرته القرائية المؤسسة تأسيساً جيداً، وكذلك من وعيه بضرورة التميز والاختلاف:

يا وردة الجمــــر في روحـــــي، أنا شــــفة — لم ينطفــئ في مــدى مواهـا النــدُّ

هــذي الأماسـي علـى معـراج حضـرتها — يرقـى بها الألـقُ المشـدوه والـورِدُ

والحـــرف ترنيمـــة حـــيرى وأســـئلة — يا كعبـتي أيَّ قصـاد الهـوى أحـدو

مـن في المقـام – الـذي أبصرتِ– أوقفـني — في غيبــة وهــي أخفــى فيَّ إن تبــدُ

مــن لفِّــني بلحــاف الغيــب؟!..لا أحــدٌ — إلاّ أنا... وطلـــولٌ مـــا بهـــا ردُّ

وقــــفٌ تراتيلهـــا الســـمراء مئــذنتي — علـى مسـاءات مَـن نسيانـهم فـقْدُ

وكلمـــا أشـــعلوا في خـــاطري وجعـــاً — أسرى إليهم بروحي الشكر والحمدُ

أحــبهم، هــم كــرامُ الوصــل لــو جحــدوا — وهــم حضــورٌ بقلـبي أينمـا شـدَّوا

أحــــبُّهم، لســـتُ أدري عــــن ملامحهـــم — إلاّ الســـنى ومـــرايا غيِّهـــا رُشْـــدُ

إلاّ الإشـــارات إن خايلتُهـــا؛ التمعـــتْ — لآلــئُ الــروح والأورادُ والشَّــهدُ

هـــــم غيّبـــــوني... ويا لله غيبـــــتهم — كـالعين يغمرهـا مــن هـدبها المـدُ

من قصيدة بعنوان (حزن يشبه عينك) في ديوانه المخطوط (وحدي كأجمل جرح).

كذلك سنجد مثل هذا المنحى في نص طويل بديع بعنوان (منازل نجم الغياب) في نفس الديوان المخطوط:

وسألتُ عينَ الصمت؛ فانفقأتْ	**عـذراء فـضّ وجومهـا الحَـزَنُ**
عـن أيّ عـذرة جئت تسـألني؟؟	**أومـا تلفّـتَ قلبُـك الشَّـجِنُ!!**
لا نجمـــةً تهـــدي ولا أســـفاً	**أبقتْ–هنا – حسناءُ أو حَسَنُ**
أبقـوكَ، يا نجـم الغيـاب، لهـم	**وطنـاً، ولـيس لـه هنـا وطـنُ**
يا نجمـــةً يمـــت أنشُـــدُها	**يشـكو المتاهـةَ بعـدها السَـنَنُ**
نجـوى الـذي غيّبـتِ عـامرةٌ	**وطلـــولكم بحنينـــه مُـــدنُ**

وسنجد هذا المنحى في عشرات القصائد الأخرى مثل (خوفي على الفردوس) و(سدرة المنفى) و(هذا مقامي فيك) و(وحدي كأجمل جرح) التي سنقرأها وذاكرة العسل السلامي تشتغل في حواسنا أو تترنح أشواقنا على شرادخ القريشي.. أو تتحول إلى هباء في صلاة ليل.. وحضرة سماع جبرتي.. تقذف بنا الأحوال فيها من شواهق الوجود إلى ملكوت لا تعين اللغة الواصفة على مقاربته

***

تجربة عجلان التي تتمدد رحلتها الأولى من أيام الدراسة الابتدائية حين كان في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من العمر.. مروراً باختبارات الحضور في طابور الصباح.. والمنشورات الخاصة التي كانت تتوزع في مدينة الزيدية. وحتى مطلع الألفية حين دخل كلية الآداب بجامعة الحديدة وبدأ المشاركة في الفعاليات الجامعية.. والنشر في صحيفة تهامة التي كانت تصدر في الحديدة آنذاك.. وصولاً إلى فوزه سنة 2006م، بالمركز الثاني في مسابقة

الأسبوع الأول لشباب الجامعات العربية بجامعة المنصورة في مصر.. التي دشن بها مرحلة النضج الإبداعي الذي كانت تتلاعب بأرواحنا بعض نماذجه فيما سبق..

منذ بلغ مرحلة النضج تلك راح بموازاة الشعر ينغمس في تجربة جديدة مع الأمكنة ومفرداتها.. من أولياء وأضرحة وجوانب من العادات والتقاليد التي برع في كتابتها بلغة حانية، وشجن فائض ومعرفة قل من يتوافر عليها.. وكان يتوالى نشرها في صحف الثقافية والثورة وصنعاء.. والتجمع واليراع، وتهامة، وكان مَسّهُا يذهب بعقولنا وألبابنا.. أذكر شغفنا ونحن في صنعاء نحاول الاتصال به في الحديدة إثر نشر استطلاعه المذهل (الحديدة شاطئ مشتعل الفيروز.. تنام الجان ولا تغفو تراتيل الملائكة) أو استطلاعه (في مقامات شمس الشموس.. ضعني أيها العالي على كفيك) أو استطلاعه الطريف (الفل وتشكيلاته في تهامة)..

كان اختياره للأمكنة والمواضيع يتم من منطلق شعري.. وينكتب بلغة شعرية.. رغم حرصه على دقة المعلومة التاريخية.. والوصف الحقيقي للمكان أو للمفردة التي يكتب عنها.. ناهيك عن شغفه القوي بمصطلحات اللهجة الخاصة التي يستعملها أهل المكان لما يكتب عنه مثل التسميات المحلية كتسمية الفل بـ(القريشي) في الزيدية والقناوص والمنيرة وما والاها.. واستعمال تعبير (يشك الفل) بدلاً من تعبير (ينظم الفل) وهو استعمال ذكر في الشعر الحميني.. وإن لم ينتبه الناس لذلك.. وقد استعمله القاضي عبد الرحمن الآنسي في القرن التاسع عشر الميلادي حين كان يقيم في تهامة، وذلك في قصيدته الذائعة الصيت (واشاري البرق من تهامة) حين يقول:

ومن سمر بالكثيب الأعفر

وأبيض الفل في الشعر

من شك زهره ومن تمشقر

ورصّفه ساعة السحر

أو حتى عنوان استطلاعه عن مدينة (الزيدية عروس الجنوب وبلاد الله والمحرامي وفل امقريشي..)

التقيت عبد العزيز عجلان أول مرة في ديسمبر سنة 2007م، كان الشاعر أحمد سليمان قد شغلني به وقتاً طويلاً.. دائماً يحدثني عنه.. وعن حفظه لشعري ومتابعته بعشق لكل ما أكتب..

ذهبت إلى تهامة في نهاية ذلك العام لزيارة أهلي في الجيلانية.. وحضور مهرجان الشاعر الراحل عبد الله عطية في زبيد.. وحين وصلت إلى الجيلانية طلبت من أحمد سليمان أن يتصل به..

وفي مقيل اليوم التالي كان عندي.. أذهلني عبد العزيز ليلتها بحفظه لقصائدي.. خصوصاً ديواني (الوردة تفتح سرتها) و(غناء في مقام البعد) وأدهشني أنه يتابعني بلا انقطاع منذ عام 1999م، وطفق يذكِّرني بأحداث عشتها وموضوعات كتبتها وحوارات نشرت لي.. بعضها كنت قد نسيته..

ليلتها لفتني أيضاً شغف عجلان بالمعلومة.. بالحكايا والنوادر.. والطرائف التي تتخلق في يوميات الناس.. وتنتج عن ملابسات تعاملاتهم وخصوصيات طباعهم، خاصة الشعراء والأدباء والمثقفين.

كنت مشدوهاً به وبذلك الجانب من قدراته ومعارفه الطريفة وهو انشداه يعاودني حتى اليوم كلما لقيته أو جلست معه.. وأظل مستغرباً له كيف يهدر تلك المواهب عبثاً في المقايل والمسامرات والمجابر ولا يستغلها في الكتابة..

انطبع في ذهني تلك الليلة شخصه المميز بثقافته الواسعة وقراءاته العميقة في الأدب والنقد ومعرفته الجيدة بالمناهج النقدية.. كان قد قرأ جيداً لكبار النقاد، جابر عصفور، صلاح فضل، مُحَمَّد عبد المطلب، مُحَمَّد رضا مبارك، مصطفى ناصف، وسعيد النابلسي.. وكان حريصاً على أن يوصل لي مقدار تأثير الشاعر والأكاديمي الراحل العراقي علاء المعاضيدي.. الذي كان أستاذاً وصديقاً ومثاقفاً له.. وقد أضاء له كثيراً في دروب المعرفة والإبداع..

بعد يومين اتجهنا معاً إلى زبيد.. كان يفترض بي أن أكون جاهزاً للمهرجان بورقة عن الشاعر الراحل عبد الله عطية.. وكانت ظروفي قبل السفر من صنعاء إلى الجيلانية كذلك

الواجبات الاجتماعية بعد وصولي إلى الجيلانية قد شغلتني عن كتابة الورقة.. فطلبت من عبد العزيز أن يقدم ورقة عن عطية في المهرجان بدلاً مني.. استجاب لطلبي.. وحين قرأت الورقة عشية افتتاح المهرجان وجدته يضيف لدهشتي به دهشة جديدة.. فقد أعد ورقة من ثلاث عشرة صفحة تحت عنوان (الرومانسية في شعر عبد الله عطية) وكان فيها نموذجاً للباحث المتمكن من أدواته الممتلئ بالمعارف اللازمة للكتابة.. إذ كان مصدر الدهشة هذه المرة سرعة الإنجاز وأصالة البحث والقدرة على التأتي له..

عشنا أياماً استثنائية في زبيد بصحبة عجلان وأخي مهدي الجيلاني.. تلاشينا في زبيد وماحت ذواتنا في معالم المكان، الأبواب والمساجد.. الدار الناصري، ومقبرة سهام، وتعبنا بالوجد في تعاشقاته الخارقة لتتعالى ذروته صباح اليوم الثاني.. من شرخ في الروح يشقها نصفين أمام منبر جامع الأشاعر، شق يتماهى في الماضي الثري حد الفيضان.. الشفيف إلى درجة تجعلك تستبدل الكلام بأنفاس ملتهبة يعلو بها ويهبط صدرك وفي أرجائك صوت حبيب يشدو:

وفي هـذا الأشـاعر لطـف معنى ... أظـل بـه علـى الأيام سـاجد

لعلـي أن أمـس بحـر وجهـي ... مكـاناً مسـه قـدم لعابـد

وشق يحترق بالحاضر ومواجعه بعد الإهمال الذي طال زبيدًا كلها، وعلى رأسها الجامع الذي تَكُثُّ سقوفه، وتبلى معالمه.. ويعاني ما يعانيه شيخ لم يعد عزيز قومه وفوق ذلك يعقه أبناؤه..

خرجنا مزمومين وكأنما شكت أفواهنا بالبرايا.. كان يشاطرنا ذلك الشجن الدكتور عبد الكريم قاسم، وكان معنا ونحن نتجه إلى مقبرة سهام، وكان على مقربة منا حين تحولت الأحوال إلى بكاء ونشيج يوجع الأضالع أمام قبر سلطان الأولياء الشيخ إسماعيل الجبرتي.. وقبر صديقه الموسوعي الشهير الفيروز أبادي..

في زبيد تعرفت على العراقي علاء المعاضيدي الذي اكتشفت أن عبد العزيز عجلان قد قاده إلى قراءة مجموعاتي الشعرية ومقالاتي، ودراساتي المنشورة في الصحف والمجلات.. كان المعاضيدي من الناس الذين لا تمل حديثهم، ولا تشبع من مثقافاتهم، وكانت ليلة ختام المهرجان ليلته بكل معنى الكلمة.. فقد جعل الدنيا تدور بنا وهو ينشد سيمفونيته المذهلة:

بلى شب ذاك الصوت واعشوشب الثرى وسالت خطى واديك ضوءاً وأنهرا

إذا لامســـته الـــروح صـــوفية صـــفا وإن مس ثوب الصحو تلقاه أغبرا

كان المعاضيدي أحد شعراء العمود الكبار، وكان أحد عمالقة الإلقاء المميزين.. وقد حلَّق بنا في سماواته البديعة التي لم نكن ندري أيدهشنا فيها بعظمة الشعر أم بحسن استحضاره لتاريخ زبيد العظيم، وذكاء نسجه بتاريخ شاعرها الكبير عبد الله عطية..

آه.. قد يبدو للقارئ أني أستطرد، ولكن الأمر ليس كذلك ففي كل شيء مما ذكرت كان عبد العزيز عجلان معي وتتكشف لي أحجاره الكريمة ساعة بساعة.. طباعاً وسلوكاً، وإبداعاً وثقافة، بشكل يجعلني أغضب من قلة مواظبته على النشر قياساً بثراء عوالمه..

وكان هو أهم سبب يحمسني لحضور مهرجان الحسينية الشعبي بعد ربيع عام 2008م، وقد طال مكوثي في تهامة آنذاك شهرين كاملين قضيت معظمها في استراحة جامعة الحديدة.. فكانت فرصة لنكون معاً، ومعنا أخي مهدي الجيلاني.. والشاعر أحمد سليمان معظم الوقت.. وبصحبة عبد العزيز عجلان وعبد الله الكولي.. مدير مكتب السياحة بمحافظة الحديدة، المثقف الذي يلامس الإبداع من خلال كتابة القصة القصيرة.. والإنسان في تجلياته العلياء وفاء وكرماً.. وقدرة على الحب والعطاء..تعرفت على منتدى الدهني وعلى أنشطته الجادة، وعلى صاحبه الأستاذ المثقف والإنسان المميز مُحَمَّد الدهني، وكنت شاهداً على بداية تحوله المؤسسي الذي أفاد بفعالياته وأنشطته الجديدة في السنوات

التالية، وارتدت مقايل جبران وشماخ ومنتدى المكرم متحدثاً عن تراث تهامة وتاريخها وملتقطاً ما تجود به ذواكر الناس..

كانت ليالي تلك الفترة تزخر بمثاقفات بيني وبين عجلان لا تقف عند حد، كنت أثناءها أستحثه على الكتابة والنشر، وأقول له بصراحة إن عشرات من أبناء جيله لا يماثلونه ثقافة وإبداعاً.. وقد أكد لي هو صدق ما أذهب إليه.. فوقتها صدر كتابي "امناجي ثواب وكوميديا الألم" وتم إرسال نسخ منه إلى الحديدة، وكان هو أول من قرأه، وكتب عنه وحاورني حوله، وإلى هذه اللحظة يظل ما كتبه هو عن الكتاب الأكثر عمقاً وتعبيراً عن الفهم الحقيقي لاشتغالاتي فيه..

تبعت تلك الصحبة صحبات عديدة أهمها صحبة شهر كامل قضاه معي في صنعاء بين ابريل ومايو عام 2009، لكن لقاءاتنا قلت سنوات 2011، 2012، 2013، قبل أن تتجدد منذ شهر مايو 2014، كان تواصلنا يقتصر على الفيسبوك، وكان عبد العزيز عجلان قد انشغل بالمشاركة في هيجانات الشوارع، وما لحق بها من حراكات مطلبية في تهامة قادته إلى دعم معارفه وخبراته بدورات في تنمية الذات، وفي مجال النشاط الحقوقي عبر المنظمات العاملة في هذا الحقل، وكان قد صقل وجدانه بتجارب عاطفية عالية الحرارة والإيحاء..

وحين التقينا من جديد، كان عبد العزيز عجلان يفرض احترامه بسهولة في أي ملتقى يجمعنا بمثقفين ومبدعين في صنعاء، تذهلهم معارفه، وحكاياته، ويثير انتباههم وعيه الحقوقي ودرايته بالمناهج النقدية، ويجنّون بشعره، لكنهم يستغربون كيف له أن يستسيغ تقديم تجربته الشعرية بهذا المستوى من الخجل، وهي أجمل وأروع ما عنده، كما أنها من أجمل وأروع ما يقدم في الساحة الآن..

أما أنا فيزداد إعجابي به لكل تلك الأسباب، ولسبب أكتمه في نفسي غير أني مازلت أغتاظ لتأخره في نشر مجموعاته الشعرية، واستطلاعاته المميزة وكتاباته النقدية اللافتة، وأعتقد أنه سيندم في المستقبل إن لم يفعل ذلك الآن.

أحمد عباس...
سبع صنايع والبخت ضايع

قادم من بيئة حافلة بالرجال في المجالات الأدبية والسياسية والحزبية من الشاعر عبد اللطيف الربيع إلى المناضل جار الله عمر إلى المثقف الأثري مُحَمَّد صالح القاضي..ثم إن منطقته منطقة حافلة بالتراث الشعبي فلا تستطيع مثاقفة الشاعر أو أحد من أهله دون أن يحضر ناجي الهردي وقصيدته العظيمة:

ياصَمَدْ ياصَمَدْ.. يافَرْدْ ما قَبْلَكَ احّدْ.. تحْكُمَ الكَونْ وانْتَه في سَمَاكَ العليّهْ.

كما أنها منطقة تحفل بالإرث الاغترابي ومن مغتربيها الذين أسهموا مبكراً في التأسيس الاقتصادي اليمني أحمد مُحَمَّد علي الخاوي.. ناهيك عن العمق التاريخي الذي يتكىء عليه المكان وناسه.. فهي منطقة تزخر بالآثار التاريخية إذ هي تقع في قلب قرى " ذو رعين " التي تحفل بالسدود والقلاع والمناجر " جمع منجر " وهي أقنية للماء.. ثم هي منطقة خلاقة تتفجر إبداعاً وتخرج منها الأسماء تلو الأسماء.. وليس الشاعر الذي تتموضعه تناولتي أو الشاعر أحمد العزي خليفة أو الفنان نزار السنفاني بآخر تجلياتها..

من ذلك المهاد تنداح تجربة الشاعر أحمد عباس إبداعاً ومثاقفات في محيط من الأسرة والأقارب وأهل المنطقة يتوافر معظمهم على تأهيل علمي جيد ويتمتعون جميعاً بمستوى اجتماعي يسلكهم في عداد النخب الاجتماعية التي تجمع بين النجاح الوظيفي والاهتمامات الثقافية التي تقدِّس الكتاب وتتابع مصادر المعرفة المختلفة من صحف ومجلات وإذاعة وتلفزيون.. وحين يجمعك مقيل بأمثال الأستاذ عبد الله قاسم والدكتور علي مُحَمَّد علي والمهندس عبد الكريم عباس والأستاذ عبد الله عباس والأستاذ عبد الحميد شرمان.. والوالد مُحَمَّد مصلح عباس " والد الشاعر " وغيرهم..تجد نفسك أمام رجال

مدهشين علماً ومعرفة وتجارب وخبرات ناهيك عن طيب المعشر والذوق وحس التلقي العالي للإبداع والترفع عن السفاسف والترهات.. والشعور الوطني الذي لا تصنّع فيه ولا مزايدة..

أمّا هو فتدهشك ثقافته الواسعة، تعدد مقروءاته، الروافد الكثيرة لتكوينه المتنوع بين الشعر والرواية والنقد والتاريخ والسياسة والجغرافيا والمعلومات العامة، ناهيك عن الفنون وعلى رأسها السينما... يكاد يكون متفرداً بين مجموعة جيل الألفينية من المبدعين... هو ليس متفرداً بينهم في هذا المنحى فحسب؛ بل هو متفرد بينهم في ناحية تجاهل ثروته من المعرفة التي تعدُّ عدة لازمة لكل مبدع ومثقف ولكل كاتب... مخزونه الثقافي يؤهله كي يكون كاتب مقال أو ناقداً أو مقارباً لقضايا في أكثر من تخصص، لكنه لا يفعل ذلك، موهبته الإبداعية تؤهله لكي يكون في مقدمة صفوف المبدعين، لكنه لا ينشغل بها كثيراً، وكما أن ثقافته الواسعة تنهدر في مثاقفات المقايل دون طائل، كذلك فإن ما يسمح لنفسه بتسطيره من موهبته الإبداعية لا يتعب عليه كي يأخذ بعض حقه في الرواج والظهور، ناهيك عن انقطاعه الناتج عن عدم اعتياده التعامل مع شبكات التواصل الإلكتروني.

وفي مشهد ثقافي و إبداعي كالمشهد اليمني، يُحاصَر فيه بالتهميش والإقصاء أكثر الناس إصراراً على التواصل و الحضور؛ فإنك لا تتوقع نهائياً أن يَحتفي هذا المشهد ولو في الحد الأدنى من ضروب الاحتفاء بمبدع ومثقف من هذا النوع.

ولد الشاعر أحمد عباس في قرية (خاو) بمديرية يريم – محافظة إب، سنة 1979م، وشغف منذ طفولته بالقراءة، فكان يقرأ كل ما تقع يده عليه، كتب الصفوف الدراسية المتقدمة والصحف والمجلات، وأي شيءٍ، أيُّ شيء، حتى لقد بلغ شغفه بالقراءة حد أنه قرأ كتب سيجموند فرويد وهو في أول المرحلة الإعدادية... لكن الكتاب الذي شكَّل منعطفاً في حياته كان كتاب (حوار مع صديقي الملحد) لمصطفى محمود، بهرته بساطة التعبير وسهولة اللغة مع العمق الفلسفي والقدرة على تقديم المنطق بشكل لذيذ.

حين انتقل مع أسرته إلى صنعاء... كان أبوه قد بنى بيتاً في العاصمة وكان يستأجر البيت قبل انتقالهم إليه رجل مثقف، و كان على الرجل أن يُخلي لهم البيت، فراح هو وأخو يساعدانه في نقل أشيائه.. الولد الصغير الشغوف بالقراءة لا حظ أن عند الرجل مكتبة غنية بالكتب المختلفة خاصة كتب السير... راح نظره ينزلق على العناوين بجوع ونهم لا يقدرهما إلا هاو عاشق للقراءة.. لاحظ الرجل لهفته وهو يستعرض صفحات بعضها فسأله: أعجبتك الكتب ؟ تقرأ ؟ فأجاب الفتى الصغير: أيوه... قال الرجل: خذ لك منها ماتريد..

لم يصدق.. وودّ لو يأخذ المكتبة كلها لكن الحياء قيده فاكتفى بعدد منها.. كانت تلك الكتب زاد أيامه الأولى في العاصمة.. كان بينها كتاب عن سيرة صدام حسين وآخر في سيرة ميشيل عفلق وثالث في سيرة ساطع الحصري..الذي فوجىء الفتى أنه من مواليد صنعاء.. وهذا كان مثار فرح غريب تفجر في نفسه..

لكن فترة الثانوية العامة كانت فترة نهم لايريم للقراءات المتنوعة وللحفظ أيضاً.. قرأ معظم دواوين الشعر الجاهلي.. امرؤ القيس والنابغة وزهير والخنساء وطرفة وكتباً عن الشعراء الصعاليك وغيرهم.. وحفظ الكثير من أشعارهم.. حتى الذي لم يكن يفهم معناه بسبب استغلاق لغته.. وعدم وجود شروح له..كان يصر على قراءته، بل على حفظه أحياناً... بعيداً عن المعنى تماماً راح يداور لامية الشنفرى:

أقيموا بني أمي صدور مطيّكم فإني إلى قوم سواكم لأميل

يقرأها ويبكي.. يبكي إحساساً بشيء في النص لكنه لا يستطيع تعرّفه.. لاحقاً سيصدمه مدرس مصري كان يخطيء خطأً فادحاً في قراءة مطلع القصيدة، "لأَ مْيَلُ " تصبح عنده " لأَ مِيْلُ".. لم يكن يتصور أن أستاذاً يخطيء في لفظ قرأه هو صحيحاً مذ كان طفلاً..

كان مدمناً على مجلة العربي إضافة إلى مجلات أسبوعية وصحف يومية، وكان مقيل الأسرة رافداً مهماً لمقروءاته... كان عدد كبير من رواد المقيل من المنتمين لليسار من أهل منطقة يريم بالذات، وفيهم مجموعة ممن درسوا في الخارج كانوا أطباء ومهندسين، شكلوا جميعاً نخبة تمتلك ثقافة عالية فكانوا يمدونه بالكتب على شكل إهداءات أحياناً و إعارات أحياناً أخرى، مع أن الكتب لم تكن تعود لأصحابها، وعندما كانت تعز عليه الكتب كان يختلس بعضها أحياناً من مخزن إحدى المكتبات الكبيرة التي كانت تجاور بيتهم، كان ذلك المخزن يمتلئ بكتب يسيل لها اللعاب، ولم يكن صاحبها ممن يقدّر شغف المولعين بالقراءة ولا يشعر إلى أي حد يلعب بعقولهم منظر الكتب... وفي السنة الأخيرة من الثانوية العامة اكتشف عالم الرواية، بدأ بواحدة من أهم الروايات العربية المحظورة (أولاد حارتنا) لنجيب محفوظ، قادته فيما بعد إلى رواية أخرى.وبعدها سال النهر، نهر القراءت والشغف بالروايات.

أما موهبته الشعرية فقد تفجرت في معسكر 115 مشاة في منطقة الخنجر بالجوف العالي على الحدود السعودية... كان هناك يؤدي الخدمة العسكرية بعد الثانوية العامة، وكان يعاني صعوبات جراء عدم قدرته على التواؤم مع هذا الوضع... طبيعته النفسية، قلق المبدع الذي تتمخض عنه روحه لم يكن ليمكِّنه من الصبر على حياة المعسكر، من أوامر ووجود ينمّط الذات ويدفعها إلى التماثل والتشابه مع ذوات الآخرين... ذات ليلة من عام 1998م، وفيما كان العراق يتعرض لهجوم صاروخي أمريكي، وجد نفسه يكتبُ أول نص شعري من نصوصه:

الغرب يضحك والعروبة تدمعُ   والقدس تُسلب والعراق يجوَّعُ

ولم تكن خلفية النص تكمن في نعدام العدالة في الصراع بين العرب والغرب، إنما ويا للغرابة !!! كانت تكمن في انعدام العدالة الاجتماعية الناتجة عن اختلال الموازين

والفساد المؤسسي بل التفاوت الاقتصادي داخل محيطه الاجتماعي الضيق...بعد شهرين فرّ من المعسكر والتحق بكلية التجارة قسم العلوم السياسية.

القراءة التي رافقت طفولته وكانت شرط هدوئه واستكانة حواسه، إبان مراهقته التي تميزت بالحدة، تجد في الجامعة جنتها؛ كان يرتاد المكتبة أكثر من المحاضرات، فيما وجدت موهبته الأدبية مجالها الذي تستثيره عيون الفاتنات والأمل المفتوح على أفق جديد، لكن شغفه بالكتب وبالمكتبة كان سبباً رئيسياً لعدم إكماله الدراسة في قسم العلوم السياسية بكلية التجارة... فرغم استيعابه لمناهج السنوات المقررة كلها، بوصفها بالنسبة له جزءاً من شغفه بالقراءة وامتداداً لسنوات طويلة من الإدمان على السياسة خبراً وتحليلاً وتاريخاً وتحولات، تمتد جذورها إلى طفولته حيث شغفُ والده وأصدقاء والده بالسياسة ونشرات الأخبار في الـ بي بي سي ومونت كارلو وغيرها من الإذاعات، ناهيك عن كون أبيه كان عضواً في الحزب الاشتراكي منذ وقت مبكر.ولم ينسلخ عنه إلا سنة 1994م.

في لحظة ما شعر أن الدراسة في كلية التجارة لا تضيف له؛ فتحول إلى كلية الآداب، انتقلت صداقاته من نايف حسان ومُحَمَّد سيف حيدر في كلية التجارة.. إلى عبدالرقيب الوصابي و صدام الشيباني وإبراهيم الهمداني و مبخوت الوصابي و عبدالله حمود الفقيه ومجيب الرحمن هراش.

دخل قسم اللغة العربية لكنه غرق في كتب الفلسفة والتاريخ والجغرافيا، وقرأ إلى جانبها كل ما كان يحلم بقراءته من الكتب، وحين ألجأته ظروفه كمتزوج وصاحب أسرة إلى إيقاف القيد، كان عليه أن يخوض مغامرة جديدة.. ذهب إلى السعودية، وهناك قادته ظروف العمل إلى الرياض، وذات مرة وجد نفسه مع أبيه وآخرين من أهل منطقته ينتقلون إلى روضة خريم، حيث عليهم أن ينصبوا الخيام للمقناص السنوي لولي العهد والقائم بأعمال الملك يومها الأمير عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود... وعندما أكملوا نصب الخيام.. أتى الأمير وضجّ المكان بالحركة، دار الحديث بين العمال عن الطقوس المعتادة، وجاء ذكر الشعراء الذين كانوا في العادة جزءاً من برنامج الأمير في المقناص، يتقاطرون

عليه في أوقات معينة ينظمها سكرتيره الصحفي مُحَمَّد السويلم؛ لإلقاء القصائد بين يديه... على مدار السنوات الماضية كان أهل منطقته الذين اعتادوا نصب خيام المقناص قد عرفوا أصنافاً من الشعراء في هذه المناسبات، بينهم شعراء يمنيين من مناطق مختلفة أبرزهم شعراء المناطق المجاورة لمنطقة الشاعر مثل عنس والحدا... ولما كانت مجموعة العاملين من أهل منطقته يعرفون أنه شاعر فقد تحداه بعضهم أن يثبت حضوره أو أن يكون مقنعاً للسكرتير الصحفي وأن يشارك في ذلك المهرجان الشعري السنوي، بحكم معرفتهم بأن السكرتير الصحفي كان يرد مشاركات عشرات الشعراء أمام أعينهم... استجابة للتحدي و رغبة في المغامرة و إثبات الذات و حاجته إلى المال أيضاً؛ إذ بسببه اضطر لإيقاف دراسته في الجامعة، قرر قبول التحدي، وفي نفس الموقف وفي الساعة نفسها أنجز قصيدة من حوالي عشرين بيتاً، وذهب بها إلى مُحَمَّد السويلم.. السويلم فاجأ الشاعرَ:

معك ملابس جديدة تغيِّر؟

قال: نعم معي

ذهب على الفور وجهّز نفسه، كانت مأدبة الأمير تقام في الخامسة مساءً، لاحظ أنه كلما أنهى شاعر قصيدته أعلن طلبه، اليمني يطلب جنسية والسعودي يطلب فيللا أو سيارة، كان مرتبكاً ومشغولاً بحاله وبالوضع الجديد الذي وجد نفسه فيه؛ فيما كان الشاعر الذي قبله مباشرة يلقي قصيدة بلهجة أهل الجوف (المنطقة الشمالية في السعودية) مالبث أن أعقبها رافعاً صوته يخاطب الأمير: أنا طالبن منّك سيارتن جيب...

جاء دوره ليلقى قصيدته الفصيحة..كان يتقدم إلى المنصة فيما مخيلته تستعيد موقفه أمام السكرتير حين جاء إليه... قال له السكرتير: نحن لا نعرض على الأمير قصائد بالفصحى... شعر بخيبة أمل؛ لكنه تحت ضغط التحدي الذي بدأه مع أهل منطقته، قال للسكرتير: ممكن تسمح بسماعها ؟... أثرت نبرته فيه فسمح له بإسماعه، وما أن أكمل القصيدة حتى قال له السكرتير بحفاوة بالغة: هل لديك ملابس جديدة ؟.... على المنصة فوجئ بحفاوة الأمير الذي استعاد أبياتاً من القصيدة أكثر من مرة، أما هو فقد اختار

الصمت بعد إنهاء قصيدته، لم يكن معتاداً على المدح ولا على الطلب فصمت متأهباً لتسليم نفسه للقائمين على المراسيم، الذين كانوا يأخذون كل شاعر إلى مكان ينتظر فيه دوره في الأكل، لكن الأمير همس في أذن كبير السفرجية وهو رجل يدعى ابن دهمش، الذي جاء إليه وقربه إلى مائدة الأمير و أجلسه على كرسيٍّ بجانب أحد الأمراء على المائدة...كان الشاعر الوحيد الذي تناول الغداء مع الأمير، وكان ذلك تعبيراً من الأمير عن الإعجاب بقصيدته وتقديراً لعزة نفسه و إحجامه عن طلب مكافأة معينة... أسعده ذلك جداً، شعر بزهو لم يقلل منه حتى عتاب أحد الضباط له بعد أن انفضت المأدبة، فقد دنا منه ذلك الضابط وقال له: لو أنك طلبت أي شيءٍ لكان الأمير حققه لك... لماذا كنت غبياً ولم تطلب ؟؟... عاد إلى خيمته يتبختر، وانقلب تحدي بعض أهل قريته له إلى حفاوة وفخر به، حيث شهدت الخيمة سمراً ضاجاً على شرفه حتى وقت متأخر.

في اليوم الثاني تمّ استدعاؤه إلى الشئون الخاصة وقُدِم له شيكٌ من الأمير تساوى قيمته شقاء أربعة عمالٍ في خيام المقناص لمدة شهرين.

عاد إلى اليمن و اشترى سيارة وواصل دراسته في الجامعة، وكعادته كان مبذراً فلم يحل عليه الحول إلا وقد عاد إلى السعودية وكان حاضراً في موسم المقناص، وتكرر نفس السيناريو حفاوة ومكافأةً...

ومرة أخرى عاد إلى اليمن وإلى جامعته التي لم يكمل مع ذلك دراسته فيها، إذ توقف عند السنة الثالثة، وإن لم يتوقف عن اغتراف المعرفة من كل مصدر يجده... فهو واحد من القرّاء الذين تمثل لهم القراءة قوتاً ضرورياً للاستمرار في الحياة.

عند نهاية العام 2006م، حصل على وظيفة في شركة الطيران اليمنية، لم يكن يسعده فيها شيء أكثر من أنواع المجلات والصحف التي يتيسر له الحصول عليها بسهولة، استمتع على شكل منتظم بقراءة العربي، عالم المعرفة، الكتب وجهات نظر، ناهيك عن أنواع الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية... وفي نهاية سنة 2009م، ترك اليمنية بسبب غياب متعمد احتجاجاً على عدم صدق وعود الإدارة بنقله إلى مجلة اليمنية، حيث كان

يحلم بأن يستقر وكان قد سهّل تقبله لترك ذلك العمل عدم تقبله لوضعه فيه، ثم لظرف عائلي، حيث كانت أسرته قد استقبلت طفلة مريضة، الأمر الذي أصاب أبوته بوجعٍ لم يشفَ منه، فقد غيَّرت حياته تلك التجربة، و ألقت بندوبها وآلامها على مسار حياته حتى اللحظة. ومازالت ندوب ذلك الجرح تثعب في روحه وعلى صفحات مجموعته الشعرية " ضمّدت جرحك ":

لكم عجبت لوضع كنت فيه أباً	**وكنت أعجز أن أسقيك ألبانا**
وكنت تبكين في ليل وكنت أنا	**أجول بالفكر نحو الشر أحيانا**
لكن تراجعت لا جبناً ولا فزعاً	**لأن مثلك طهر جاء دنيانا**
لله درّك في عام فهمت أنا	**وكنت أحتاج قبل الآن بركانا**

وهذا النص إلى جانب نص آخر في مجموعته بعنوان " اسم على مسمى " يقدمان أسلوباً جديداً في التعامل مع مأساة الأب بصغاره مرضاً وموتاً.. وهو أسلوب يجب تأمله والتوقف عنده... فالنص رغم اتخاذه صيغة الحكاية فإنه لا يبوح.. بشكل إشاري فقط يقدم لنا طرفاً مما كان يجري.. ثمة كلام كثير لا يقال لكنه يُحسّ ويمكن تلمسه بين سطور القصيدة الحزينة... إنه نص يقدم مجالاً لقراءة سيميائية جادة..

***

في طيافة عبر مجموعة الشاعر " ضمَّدتَ جرحك " الصادرة عن مركز عبادي لعام 2012م، تطل علينا تجربة أحمد عباس بخصوصية أسلوبها وطعم عوالمها الخاصة.

يبدو الشعر عند أحمد عباس أكثر من كونه موهبة إبداعية.. أو اشتغالاً يحوّله امتلاك أدوات اللغة إلى لعبة فنية..يمكن أن تتبدل الغاية منها لتصير عند بعض الشعراء إلى مجرد استعراض لفظي لا طائل من ورائه في الغالب.. الشعر عند أحمد عباس حالة خلاص من أوجاع الحياة ومتاعبها، فرصةٌ للخروج من الجاذبية القاهرة التي يفرضها المألوف

اليومي.. وتقررها التزامات الوجود الحياتي تجاه الأسرة والمجتمع والناس، بل ما تعنيه تلك الفروض والالتزامات من قيود وحمالات وتكاليف نفسية وجسدية..بل هي مهرب من الخيبات والعثرات والهزائم التي رافقت سنين حياته في تقلباتها المختلفة..هكذا يفصح عن علاقته بالشعر من خلال نص بعنوان " وميض الشعر..لمحة من العيش في كنف قصيدة":

تُفَــتّحُ لي فضــاءات عديــدة — إذا ما عشتُ في كنف القصيدة
وأعلــم أنــي أزداد عمــراً — تمخض من ذرى نفسي الوليدة
ونفسـي تـوأمٌ للحـب تمضـي — تلملـم كـل آهـاتي الشـريدة
ويسـمو عقلـي المشـغول دومـاً — وتصـحو كـل أحلامـي السـعيدة
وبيـت الشـعر يصـنع معجـزات — يموسـق طاقـة الـروح العنيـدة
وهـذا القلـب يُسـلكُ فيـه دربٌ — يكـون الصـدق وجهتـه الوحيـدة
وأبـرأ مـن جروحـي حـين أهـوى — وتصـبح كـل آرائـي سـديدة
ومـيض الشـعر يغمـرني فـأرقى — وترقـى كـل أفكـاري التليـدة
وأسـبح في عـوالم مـن خيـال — فيصـبح كـل وحـش لي طريـدة
بحـور الشـعر تنقـذني وترسـو — علـى شـطآنها سـفني المريـدة
وأمضــي لا أخــاف ولا أبالي — لأني صـرت في الـدنيا الجديـدة
وحـين أعـود مـن كنـف القـوافي — تعـود إليّ أحـزاني الشـديدة

ومجموعته الشعرية "ضمّدتَ جرحك " على صغرها " 114 صفحة من القطع الصغير.. تضم " 43 نصاً " إضافة إلى مقدمة في " 4 صفحات " للدكتور عبد العزيز المقالح.. ذلك أن معظم النصوص قصائد قصيرة تقع بين العشرة والعشرين بيتاً أو بين العشرة والعشرين سطراً في النصوص التفعيلية..إلى جانب أن عدداً غير قليل من النصوص

أسفر عن نفسه على شكل مقطوعات قصيرة تومض بحالاتها إيماضاً.. وهي تتوزع على مواضيع كثيرة ذاتية و أسرية واجتماعية ووطنية وقومية وتأملات وجودية وإنسانية تعبر عن موقف واضح من حياة أخذت من الشاعر أضعاف أضعاف ما أعطت..

وتؤكد نصوص المجموعة على ما اعترف به الشاعر لي غير مرة من عدم اشتغاله على نصوصه أو عدم انشغاله بها بعد كتابتها..فهو كما يقول المثل " يخلق وينذق " يكتب النص مستجيباً لحالة الوارد التي تنتابه.. وحين يشعر بالحصول على خلاصه من وجع يعذبه.. أو همّ يستحوذ عليه..أو موضوع يتأمله.. ينهي علاقته بما كتب.. لا يعود إليه متدبراً ومحككاً.. ولا يعرضه مستشيراً.. ولا حتى يستعرض به في المجالس والمقايل متباهياً.. أما المنابر والفعاليات والحفلات الأدبية فهو محجم عنها إلا ما ندر..حتى عناوين النصوص لا يهتم لها الشاعر كثيراً بل يختار لنصه أول اسم يتبادر إلى ذهنه.. وهي سمة يشترك فيها مع شعراء عديدين بعضهم يملأ المشهد الشعري شهرة وإبداعاً منذ عقود..

تقرأ أحمد عباس فتشعر بنفس ما تشعر به حين تصحبه وتجمعك مجالس التثاقف والحوار معه..ثمة شاعر كبير لا يعطي موهبته حقها.. وثمة مثقف واسع المعارف متعدد الروافد جيد اللغة قادر على التعبير إلا أنه لا يستثمر ثقافته ومعارفه في تدوين آرائه وأفكاره ونشرها... وفي كلتا الحالتين تشعر بالحنق والأسى معاً عليه ومنه.. بمقدار ما تشعر بالحقد والثورة على واقعنا الثقافي ومؤسساتنا الغائبة.

لكن حالة أحمد عباس تلفتنا أيضاً إلى أهمية دور أخلاق العناية وهو الدور الذي طالما كان طوق النجاة لأصحاب المواهب وذوي الطموح في تاريخنا.. كان من حسن حظ أحمد عباس أن نشأ في محيط يساعد على التلقي والتثقف ويحتفي بالإبداع وأهله.. لكنه كما يبدو لي لم يفلح في تحويل حفاوة هذا المحيط إلى روافع ودعامات تساعد على إخراج مواهبه وثقافته من قوقعتها العائلية.. كما أن تقوقعه في مربع الذات والمحيط الأسري وإحجامه المزمن عن الخروج توجساً من عدم القبول وشكّاً في مواطأة النجاح.. كان يزيد وهدته اتساعاً.. وحين يتآزر على المبدع هذا النوع من المثبطات مع حدبه القوي على

أطفاله وشعوره بصعوبة المغامرة بعيداً عنهم إضافة إلى قلق المبدع في داخله وهو قلق يرتبط على نحو غريب مع قلة الرضا وانعدام القدرة على الثبات في عمل خاص، ثم حرمانه من الحصول على وظيفة في الدولة ناهيك عن حرمانه من التمتع بخدمات المؤسسات الثقافية التي يعرف أن أكثر من يتمتعون بخدماتها إما أنهم ليسوا من أهل الثقافة والابداع أي أنها تخدم غير أهلها..وإما أنهم من أهلها ولكنهم أقل منه استحقاقاً بحكم معرفته بتفوقه عليهم ثقافة وموهبة... كل تلك العوامل تجعله يتحول في تعاملاته وعلاقاته وحتى مثاقفاته معظم الأحيان إلى مكابر يسيّج آراءه وأفكاره وطروحاته وحتى مواقفه واحتياجاته الحياتية بنوع من الكبرياء والترفع والتعالي الذي يعبِّر عن اعتزاز يخفي شعوراً فاجعاً بالهشاشة وإحساساً مظلماً بالوحشة.. فهو غريب.. لأنه يعرف أن كل دعوى لا يصدقها واقع مادي لا قيمة لها.. وحين تكون كلمته أقل ليس بسبب تلجلجها أو افتقارها للمنطق والحجة والعلم.. بل لأ ن جيبه خال، ويده هي السفلى.. فإن اللوم لا يقع على المحيطين به.. بل عليه هو في الغالب فقد كان يستطيع بقدر من الجهد والدأب والمثابرة على تقحم منابر النشر ومنصاته وعلى مقايل المثقفين ومنتدياتهم.. أن يجعل صوته من أكثر الأصوات رنيناً واسمه من أكثر الأسماء لمعاناً خلال سنوات الألفية الجديدة... كان ذلك جديراً بأن يفتح له باباً ولو بسيطاً للعيش..لكنه أكثر من ذلك سيزيل الارتياب والغشاوة عن " أخلاق العناية " في سجايا المحيطين به.. وسيجد من دعمهم المعنوي ما يحلِّق به في سماوات السعادة التي تجعل كل شقاءات الواقع المرتبطة بالمتاعب المادية وكأنها لا شيء..

لا أظن أن ما أسلفته كان بعيداً عن تفكير الشاعر المثقف وهو يكتب:

أحيـا حيـاة مفـرط ومغـالي ... وأعـيش عيشـة فاشـل ومثـالي

وأواجـه الـدنيا بأحلامـي الـتي ... تجتـاز كـل محـرم ومحـال

أختـار أحيـاناً وأرغـم تارة ... وأسـير بـين معـارض ومـوال

وبمقدار ما يبوح المقطع السابق بإدراك الشاعر لمنطق واقعه.. الذي وجد نفسه فيه وساهم هو مع ظروف الواقع في تعميقه.. يضعنا المقطع القادم أمام صورة مشهدية ذهنية نستطيع تخيّل وقائعها وهي تترجم حالاً شبيها بها إن لم يكن على شكل انفعال في مثاقفة مقايلية.. فهي منولوج داخلي يعبِّر عن غيض امتلأت به نفسه فرفرف في داخلها:

تفـاجؤنا السـنون بكـل غـرّ … وتغمـرنا بأشـباه البنـات
وتهـتم الجمـوع بكـل غـث … وتحفـل بالأمـور التافهـات
وفينـا جاهـل قضّـى سـنيناً … يبشـرنا بأن الخـير آت
وأنا نبهـر الـدنيا بمـاض … نشـوهه بأيـد قاصـرات
يخـادع نفسـه ويـرى أمـوراً … ويفـرح بالفعـال وبالصـفات

ولعل أكثر ما يلفت النظر في هذه التجربة المختلفة - إضافة إلى ما سبق ذكره من خصائصها— هي ميل نصوصها إلى التأمل والحكمة كما في نص " حقائق الزمن ":

إن شـئت سميـت الزمـان ركـابا … لـيس الزمـان أهلـة وحسـابا
تأتيـه مسـروراً فيمضـي مسـرعاً … وتعـود للأصـل القـديم تـرابا
عش في رحاب الدهر واحظ بفرصة … فالـدهر للإنسـان جـاء كتـابا
والـدهر إن لم تعتليـه مشاكسـاً … تحيـا حيّيـاً أوتُخـال سـرابا
في هـذه الـرحلات كـل مسـافر … يـرد المنيـة حـائراً مـرتابا
لا تخـش مـن عظـم الزحـام فإنـه … كـل الخلائـق يكـتملن نصـابا
وبهـذه الـدنيا نتـوه ونلتقـي … والمـوت للإنسـان لـيس عقـابا

وهي أيضاً تميل إلى السرد الذي يهتم بمنطق النظام الكلامي دون اهتمام كبير بالصورة أو اللعب اللغوي.. وإذا كانت جذور الميل إلى التأمل والحكمة.. تعود إلى تكوينه

الثقافي الأول وتوقفه طويلاً عند شعراء دفعهم الموقف الوجودي إلى التأمل والحكمة أمثال زهير بن أبي سلمى وأبي العلاء المعري وجبران خليل جبران..كما تعود إلى طبيعته الذاتية وتكوينه النفسي وما عاناه من مرارات.. فإن ميله إلى السرد وتغليبه للجمل الخبرية المتعاطفة غالباً بالواوات وعدم اهتمامه بالصورة والألعاب الفنية مردّه في رأيي الشخصي إلى طريقته في التعامل مع الكتابة الشعرية " يخلق وينذق " صحيح أنه يعوض كثيراً من خلال المشهد العام الذي يرسمه النص.. ومن خلال الفكرة التي يعبِّر عنها واضحة ناصعة... إلا أن إهماله للصورة وعدم التفاته لحلاوة اللعب اللغوي ليس مقبولاً خاصة من شاعر مثله قرأ الشعر العربي في مختلف عصوره قراءة قلّ من يدانيه فيها.. وأنا هنا لا أتكلم عن كل النصوص فما أكثر نصوص الشاعر التي تحس بأنها ذَوْبُ روح خالص.. بل إنها أحلى من شهد الملكات كما في نص " بداية الهروب ":

لا أنـــــت كنـــــت ولا أنا	**نـنــــوي مخاطبــــة القلـــوب**
لكنــــه حــــب طغـــــى	**وقضــى علــى كـل الخطــوب**
قـــد كنـــت أنظـــر دائمـــا	**للشـــوك في كـــل الـــدروب**
وإذا سمعـــت عـــن الهـــوى	**لا بـــد لي مـــن أتـــوب**
أجـــتر أحـــزاناً مضـــت	**وتعـــج في قلـــبي الحـــروب**
وإذا مــــــررت بعاشــــــق	**أبـــدي لـــه الوجـــه الغضـــوب**
لكـــن حبـــك جـــامح	**يســـعى حثيثـــاً للوثـــوب**
مـــا كنـــت أحســـب أنـــني	**ســـأغوص في بحـــر طـــروب**
أو أن حبــــــك نهـــــره	**جـــار يجانبـــه النضـــوب**
لـــو كنـــت أعلـــم مـــا الهـــوى	**لجعلـــت لي قلبـــاً ينـــوب**
الحـــب أجمـــل منحـــة	**تحيـــا بـــه كـــل الشـــعوب**

بالحـــب أمراضـــي اختفـــت وتبـــدلت كـــل العيـــوب
وتصـــالحت نفســـي مـــع نفســي ولــن أخشــى الهــروب
والآن أعــــرف وجهـــــتي وإليـــك أبـــدأ بالهـــروب
يا بلســـمي داو الجـــراح تتبعـــي كـــل النـــدوب

ألا تشعر وأنت تقرأ النص أن بساطته وانسيابيته تتسلل خفية لتأخذ بمجامع قلبك دون أن تدري..؟ فتش إذن عن السر.. ستجده ببساطة في روعة العاطفة وحلاوة الفكرة وعذوبتها وفي إخراج الشاعر لها عبر لعبة فنية..الصورة العامة مشهدية لكن الجمل لم يغلب عليها الإخبار، بل غلب عليها الانشاء من نفي و توكيد وشرط واستثناء واستدراك وهي كلها منصات يخلق الانطلاق منها صوراً جزئية في الأبيات ينضاف جمالها لجمال الصورة المشهدية للقصيدة في عمومها..

ناحية أخرى في تجربة هذا المبدع تستلفت النظر هي القدرة على قراءة الأحداث وتبين حتميّاتها بما يشبه التنبؤ.. وهذا يحيل دائماً إلى ثقافة الشاعر الواسعة والواعية في نفس الوقت.. كما تحيل إلى خصيصة التأمل في عقليته.. سنة 2006م كتب قصيدته " أقوال غريبة.. وأفعال أغرب " فكان كمن يقرأ بعين الغيب ما نعيشه اليوم بالضبط:

مـــا هـــذه الأقـــوال والأفعـــال هـــذا ســؤال والجـــواب ســؤال
ألكـــلِّ شـــبر في الـــبلاد خليفـــة وبكـــل ركـــن دولـــة ورجـــال
تتعملـــق الأقـــزام كـــل دقيقـــة وتُبـــيّض الأوســـاخ والأوحـــال
يتلبســـــون عبـــــاءة دينيـــــة وجديـــد ملّـــتهم هـــي الأسمـــال

إلى آخر القصيدة الطويلة التي لم نورد أهم أبياتها استبصاراً لواقعنا اليوم حتى نتيح الفرصة للقارىء كي يستكشفها بنفسه في المجموعة..

ومثل هذه الاستبصارات والمواقف والرؤى سنجد كماً وافراً في عشرات النصوص التي كتبها الشاعر بعد " ضمّدت جرحك " ولا تزال تنتظر فرصتها للتبرج بين دفتي كتاب.. وأنا أوثر أن أخصها بتناولة قادمة..

أخيراً لابد أن أعبِّر عن سعادتي بهذه المقاربة لتجربة قريبة إلى نفسي كنت أشعر دائماً أنها تجربة جديرة بالاحتفاء والتقدير ورفع الحيف والإجحاف عنها، فالشاعر أحمد عباس – إلى جانب كونه شاعراً ومثقفاً مميزاً – يتمتع بصفات على الجانب الأخلاقي يندر من يتحلى بها في هذا الزمان أعني بالذات شيم الإيثار والبذل والتماهي في مواقف إنسانية تخدم المجتمع والناس وتحتفي بقيم النبل والوفاء.. مع ذلك فهو واحدٌ من ضحايا واقع ثقافي و أدبي انعدمت فيه أخلاق العناية وتحول المبدع فيه إلى مقصيٍّ عمداً، حيث يستأثر السياسي والنافذ والنصاب أيضاً بكل شيء، و لا يبقى للشاعر إلا ما يقوله لورق أخرس... أخرس؛ لأن المسطور عليه يلقى من الإهمال ما لقيه الذي سطّره، كلاهما يعيش في صمتٍ، تتآكل روحه، يموت نبضه، تقلُّ قيمته، ويضعف حضوره بين المحيطين به والملتصقين بعوالمه يوماً بعد يوم، لا لشيء، إلا لأن جدواه المادية غائبة التحقق... الشاعر عاطل عن العمل، مثقل بالديون، غير قادر على تمثيل وجوده كما يجب... والشعر بعيد عن الضوء، مبحوح الصوت، لا منبر يحتضنه، ولا مدار تتلامع فيه أضواؤه، وفي حالة ذي طبع كطبع أحمد عباس يعالج سوء الحال بالمزيد من العزلة، ويقابل إجحاف محيطه وظلم المؤسسات بكثير من تجليات الملامتي الذي لا يعترف لنفسه بشيء.. فإن الوضع يصبح أكبر كثيراً من أن يحتمل.

أيوب حشاش ..
حين يكون الشاعر غيمة على شمسه

انشغل منذ طفولته بالشعر.. كان في السابعة أو الثامنة من عمره حين تمكن من إجادة القراءة والكتابة..و لسبب غريب وجد نفسه مشغولاً بما يرميه تلاميذ المراحل الدراسية المتقدمة " الإعدادية والثانوية " من الكتب المدرسية آخر العام.. يجمعها مجذوباً إلى النصوص الشعرية فيها.. يقرأ ويكرر القراءة حتى لو لم يفهم.. بهرته جداً تلك الطريقة العجيبة في نظم الكلام أو حبكه على نحو ما يفعل إيليا أبو ماضي في " النخلة الحمقاء " أو عمرو بن معد يكرب في وصف الجمال:

لـــــيس الجمـــــال بمئــــزر   فـــاعلم وإن رديـــت بـــردا

إن الجمـــــــال مـــــــآثر   ومناقـــب أورثـــن مجـــدا

أو تضادات المقنع الكندي وهو يقول:

وإن الــذي بيــني وبــين بــني أبي   وبــين بــني عمــي لمختلــف جــدا

أراهــم إلى نصري بطاءً وإن همــوا   دعــوني إلى نصــر أتيــتهم شــدا

كما لعبت بمخيلته هجائيات جرير والفرزدق ومراثي الخنساء وزهديّات أبي العتاهية.

كان الوقت بداية التسعينيات من القرن العشرين.. وكانت في " بيت الفقيه " مدينة الشاعر مكتبتان.. كلتاهما في السوق؛الأولى عند مسجد الحلبي.. والثانية في سوق الملابس والذهب اسمها " مكتبة العياني "، كان الشغف يقوده إليهما بشكل يومي إمّا بحثاً

عن كتابٍ مّا سمع به أو حدثوه عنه.. وإمّا لمجرد القرب من الكتب والتقليب فيها، أو أخذ كتاب وإمعان القراءة فيه متآلفاً مع ردة الفعل التي ستترتب على ذلك..فإن صادف مزاجاً حسناً عند صاحب المكتبة تركه وشأنه يقرأ حتى يترك..وإن لم يصادف زجره صاحب المكتبة معلناً عن ضيقه به... ساعتها يَخْنَسُ مُتَسَاحِباً ويذهب.. لكنه كان أيضا يشتري الكثير من كتب المكتبتين، اشترى الملاحم الشعبية مثل " سيرة الزير سالم " و " سيرة سيف بن ذي يزن " و "السيرة الهلالية " و " ألف ليلة وليلة " إلى جانب كتب المغامرات التي يهواها كثيراً مثل " سندباد " وسلسلة "رجل المستحيل".. ثم ما لبث الحال أن مال على المكتبتين فتدهور حالهما.. ووجد نفسه يتحول إلى مصدر آخر.. ثمة شخص من جامعي الكتب اسمه يوسف حميدي، كان قد بدأ رحلة التخلص من مكتبته التي لم يجد لها مشترياً يأخذها بقضها وقضيضها.. فراح يتصيد هواة القراءة من تلاميذ المدارس.. وعلى رأسهم هذا الصغير " أيوب حشاش".

كان والده وقتها يمتلك "بوفية" لبيع السندويتشات أمام بوابة "مدرسة السلام في بيت الفقيه " ويمتلك إلى جانبها دكاناً جوار مسجد الحلبي، و بسبب ظروف الحياة الضاغطة تحتم عليه أن يشغله بمساعدته في الدكان والبوفية طوال اليوم لدرجة الغياب أحياناً من المدرسة.. بيد أن مساعدته لوالده كانت تمكِّنه من توفير بعض المال الذي يتخذ صرفه وجهة واحدة هي جيب " يوسف حميدي" الذي اقتنى منه الفتى دواوين أحمد شوقي ونزار قباني وأبي القاسم الشابي وغزوات الإمام علي ومرتفعات وذرينج وبعض روايات أجاثا كريستي.. وأعداداً من مجلات العربي والفيصل والدوحة القديمة.. وغيرها من الكتب التي تحول اقتناؤه لها في تلك السن الصغيرة إلى مأساة شخصية عميقة الأثر في تاريخه الذاتي.. فقد كان أبوه صارماً وحريصاً على استغلال ابنه لوقته في الدراسة والعمل.. وجراء خوفه من غضب أبيه – فيما إذا عرف انشغاله بتلك الكتب – فإنه كان لا يأتي بها إلى البيت المكون من غرفة واحدة حيث لا يستطيع أن يجد لها مكاناً يخبئها فيه بعيداً عن عينيه.

بداية كان يدفع ثمنها ويتركها عند البائع.. ثم ما لبث – بعد أن صارت تشكل مكتبة صغيرة – أن نقلها إلى بيت صديق له، اتفق معه أن تكون وديعة عنده حتى تأتي العطلة الصيفية فيأخذها ويستمتع بقراءتها دون خوف من تثريب أبيه إذ سيكون في الوقت أكثر من متسع للجمع بين مساعدة أبيه والقراءة.

بعد يوم حنّت نفسه لقراءة كتاب يختلس معه وقتاً دون علم أبيه.. ذهب إلى بيت صديقه وأخبره برغبته.. غير أن رد صديقه كان مفاجأة صاعقة.. بمنتهى البرود قال له: جاء بعض أقربائنا من الحديدة ورأوا الكتب.. أعجبتهم.. فأهديتها لهم..

دارت الدنيا بالفتى.. فهو لم يصدق.. لم يصدق لأنهم جيران، وأي زائر يأتي من خارج بيت الفقيه تعلم بمجيئه الحارة كلها.. كان على يقين أن صديقه قد نصب عليه.. وأنه باع الكتب أو استأثر بها لنفسه.. بلغ به الضيم مداه.. بإمكانه أن يهجم على صديقه ويعيث في وجهه وجنبيه لطماً وعضاً و جفراً.. ودّ لو يفعل ذلك لكنه لم يجرؤ..ليس خوفاً من صديقه أو عجزاً عنه لكن خوفاً من أبيه.. فعراكه مع صديقه سيكشف أمره أمام أبيه.. ولن يغفر له أبوه تبديد غلة الدكان في شراء الكتب والانشغال عن المذاكرة بقراءتها.. كما أنه سيعتبره ساذجاً استغفله صاحبه واستولى على حقه.

انصرف محنقاً وبعيداً عن الرقباء ذرف في دموعه ونشيجه كل غضبه على ذلك الصديق الخؤون.. ذرف أيضاً عتبه المغتاض على أبيه الذي لم تتح له صرامته هامشاً من الحرية يمارس فيه القراءة.. وحدها القراءة تفتح لروحه نوافذ على عوالم عجيبة..عوالم حرم منها كثير من الناس، أبوه نفسه واحد من أولئك المحرومين.

كان حينها في الثالثة عشرة أو الثانية عشرة من عمره.. قرر مقاطعة صديقه الخائن إلى الأبد.. وبقي يشتري الكتب لكن بحذر.. يشتريها فرادى ويخبئها هنا وهناك لا أحد يهتدي إليها غير أمه التي كانت تتغاضى عنه وعنها..

بعد زمن وجيز فُتحت مكتبة في مدرسة السلام فكان هو فارس القراءة فيها غير منازع.. قرأ كتب " جبران " و " أمين معلوف " و " أبو ريشة " و " علي حمود عفيف " و " المقالح " و " البردوني " وغيرهم.

في هذه الأثناء وبينما كان يعيش فترة المراهقة (حوالي الخامسة عشرة من عمره) وقعت – مصادفة – في يده رواية الكاتب عبد الرحمن منيف " مرزوق واغتيال الأشجار" التي أثرت فيه تأثيراً عميقاً فثمة مشترك بينه وبين " إلياس " إحدى شخصيات الرواية..الخيبات والانكسارات وهشاشة الوضع الحياتي والتنقل بين الأعمال وعدم الثبات على طريق واضح.. يومها فكر في كتابة رواية.. فكر تحديداً في سرد قصة حياته.. وفي الدكان راح يطلق لقلمه العنان حتى ملأ دفتراً كاملاً.. تلف ذلك الدفتر بعد شهور مع دفاتر أخرى تضم محاولاته الشعرية الأولى وبعض الخواطر والكتابات الموازية.. فقد كانت في كيس من تلك التي يعبأ فيها الدقيق.. وحدث أن انتقلت أسرته من بيت الإيجار الذي كانت تسكنه إلى بيت ملك.. بناه أبوه وانتقلت الأسرة إليه قبل الانتهاء من تشطيبه.. كان البيت دون صوايد لنوافذه، وكان الكيس الذي يضم دفاتر أيوب بالقرب من إحدى تلك النوافذ حين انهمر المطر غزيراً ليبللها ويذهب بخلاصة روح الفتى المسطرة فيها...وكانت تلك مأساته أو فجيعته الثانية..

قرب نهاية عقد التسعينيات من القرن العشرين.. كان الشاب الصغير قد امتلك القدرة على كتابة الشعر..وكان قد اعتاد المشاركة في عديد الفعاليات الشعرية والاحتفالات التي احتضنتها مدرسته.. ومقرات الأحزاب.. إلى جانب المناسبات الوطنية والمناسبات الدينية.. ما كان يريحه ويشجعه وقتها أن أمه كانت تجد في موهبته وحضوره الشعري وبروزه وسط حشد من المواهب الشعرية التي تعج بها المدينة رافعة للأسرة التي لم يكن لها ما يسندها اجتماعياً كونها تجمع بين الفقر والغربة.. فهي أسرة أصلها في شمير انتقل جدها الرابع إلى وادي زبيد حيث تكاثر هناك بعض أفرادها.. فيما انتقل والده وعمه إلى بيت الفقيه.. بيد أن ذلك الحضور اللافت للشاعر الشاب لم يكن وهجاً صافياً أو عسلاً

مصفى.. فقد اشتهرت مدينة بيت الفقيه بقوة الاستقطابات وحدّة الانتماءات.. وتلك علامة تَسِمُ نشاطات أهلها في كل شيء وعلى الأخص مجالات السياسة والثقافة والأدب..

كان الفقيه العلَّامة اسماعيل حبيش مخايا مفتي بيت الفقيه والمتشبث بأهداب التصوف فيها.. جاذباً قوياً له بحكم الجوار ومرور الفقيه شبه اليومي بدكان والده أثناء ذهابه لأداء صلاة الضحى في مسجد الحلبي فأنتج ذلك تعلقاً قاد الشاعر إلى حضور حلقة دروسه التي يؤمها طلبة العلم في بيته..

وكان جوار الدكان نقطة تَجَمُّعِ السلفيين التي تعبر عن نفسها من خلال منفذ لبيع الأشرطة والكتب..وكانوا يترددون على الدكان لإقناع أبيه بإبعاده عن العلَّامة مخايا حتى لا يضله بقبوريته.. ويدخله في كفر الصوفية – كما يزعمون – وكان أبوه قد بدأ يعبر عن استجابات لضغوطاتهم.. وإن لم يكف عن احترامه للفقيه.

وكان الإخوان المسلمون يمسكون بمسجد الحلبي الذي يقع على بعد خطوات من دكان والده، وكانوا يحاولون اجتذابه إليهم عن طريق صديقه الأقرب الشاعر علي بريج الذي كان منتمياً للجماعة وناشطاً فيها.

وعلى بعد أمتار من الدكان كانت الرابطة الأدبية التي يتزعمها مُحَمَّد منصور حميدي ذو التوجه القومي البعثي.. وكانت هذه هي الجهة الأكثر جاذبية له بحكم تردد ذوي المواهب الشعرية ممن يكبرونه عمراً عليها.. من أمثال اسماعيل مخاوي ومنصور الصوفي ومُحَمَّد سيبان إلى جانب عدد آخر من المثقفين والسياسيين والوجهاء.

وكان الأديب عبد الله خادم العمري قد أسس منتدى العمري للثقافة وإحياء التراث.. وأصبح من خلال نشاطه التوثيقي لتراث المنطقة وفنونها وأسلوبه الخاص في تجميع الشباب..أكثر المراكز في المدينة استقطاباً للمبدعين وهواة الإبداع في تلك المدينة الضاجّة بالحركة..

كانت كل تلك الأطراف تمارس الاستقطاب الحاد على كل ذي موهبة بمقدار ما تمارس العداء الخفي والظاهر فيما بينها.. وكانت طرائقهم في الاستقطاب توفر لشاعر موهوب مثل " أيوب الحشاش " مساحات مختلفة للقول.. في نفس الوقت الذي يجد الشاعر نفسه فيه.. رازحاً تحت ثقل وأعباء وتبعات وإحراجات العداء المستفحل بينها.

نجح التيار السلفي في استمالة والديه؛ فكان عليه أن يذهب إلى دماج مرتين، مكث في كل مرة ثلاثة أشهر.. حيث كُنّي هناك بأبي نجم الدين الأثري وحظي بعدد من الألقاب التي تقرّضُ شاعريته منها " فتى الشعراء "، " شاعر الدعوة "، " لسان السنة ".. لكن تلك الحفاوة لم تمنع الحشاش من ممارسة غوايات كانت غريبة على المكان وناسه، لم يكن يستهويه في مكتبة دماج الضخمة إلا القسم الذي يطلقون " عليه كتب الضلال".. منه قرأ كتب مالك بن نبي ومُحَمَّد أركون ورواية المجوس لإبراهيم الكوني والكشاف للزمخشري وأعمال نزار قباني الشعرية الكاملة.. كان يأخذ الكتاب من قسم الضلال خلسة ويذهب به إلى قسم كتب العقيدة، حيث يراكم على الطاولة عدداً من كتب العقيدة ويدفن نفسه مع كتابه المفضل من كتب الضلال.. تلك طريقة تسهل عليه – إذا شعر بمرور شيخ من الشيوخ أو زميل مّا من الزملاء أن يخفي الكتاب السري ويفتح كتاباً من تلك الكتب.

كان الحشاش قد حقق في ذهابه الثاني إلى دماج حضوراً لا فتاً.. غير أن ضيقه بمكان لا يشعر في قرارة نفسه بالانتماء إليه جعل الانسحاب منه فكرة ملحة.. رغم أن تنفيذها يبدو صعباً، فهذه المنظومة تلحق الأذى بكل من ينتمي إليها ثم يفكر في مفارقتها.. مرّ بأوقات صعبة.. وراودته هواجس هلع مفزعة، وفيما هو يرزح تحت عبء هذا الكابوس، توفي الشيخ مقبل الوادعي وأعقبت وفاته انقسامات حادة بين أتباعه شيوخاً وتلاميذ..فوفر ذلك له فرصة مناسبة للانسحاب دون عودة.. انسحب غير مبال باستهدافات منابرهم وأقلامهم له.. وزاد من عدم مبالاته بها أن صداها كان أقل كثيراً مما توقع.

في هذا الوقت أصبح الشاعر متنازع التفكير بين مستقبله الدراسي ومستقبله الإبداعي.. حصل على مقعد دراسي في قسم اللغة العربية جامعة دمشق عن طريق حزب البعث.. لم يصمد هناك أكثر من سنة وبضعة أشهر..عاد دون أن يكمل دراسته..غير أن تجربة دمشق أنضجته شعرياً... وسعت مداركه من خلال الاطلاع على تجارب شعرية وروائية قادته إلى ارتياد قصيدة النثر وإلى محاولات جادة لكتابة الرواية..

وعندما عاد من سوريا في عام 2005م وجد مجموعة شعرية تحمل اسمه.. قام منتدى العمري بتجميعها من قصائد مختلفة له وتمت طباعتها ضمن إصدارات صنعاء عاصمة الثقافة العربية 2004م..بحكم نضج تجربته وتطور وعيه والآفاق التي فتحتها له فترة بقائه في سوريا.. فقد شعر بعدم الرضا عن تلك المجموعة.. كان قد فارق أجواء قصائدها تماماً..اختلفت الرؤية وتبدلت العبارة، كما تبدلت الاهتمامات، ووجد نفسه بشكل مبكر ينظر لمجموعته الأولى " أول الفجر " نفس نظرة الشاعرة فدوى طوقان إلى مجموعتها الأولى " وحدي مع الأيام " التي تقول إنها عندما كانت تراها في المكتبات تشيح عنها وكأنها عارها الذي لا تريد أن تتذكره.

لم يتوقف كثيراً عند " أول الفجر ".. انغمس في محاولات جادة للمضي حثيثاً في رحلته الجديدة..وبموازاة الانهمار الإبداعي أكمل دراسته الجامعية في قسم التاريخ بكلية التربية "زبيد" – جامعة الحديدة.. مع ذلك قاده الحظ..ونصيب أهل منطقته الضئيل دائماً في الوظائف الحكومية إلى وظيفة عسكرية منذ عام 2009م حين انضم إلى مصلحة خفر السواحل..ثم تَكَنّفَتْهُ مصاعب أخرى في حياته العائلية تركت ندبتين غائرتين في روحه زاد طينهما بلة صعوبات المعيشة وخيبات الواقع الوطني ومراراته التي تمثلت في هيجانات الشوارع عام 2011م ثم اعتمالات الحراك التهامي السلمي منذ ذلك الوقت..

الأحداث منذ 2011م حتى " مارس 2015م " – على مراراتها وخيبات مخرجاتها – كان المكسب الوحيد فيها للشاعر حضوره الباذخ الذي هز ساحات الحديدة،

وباجل، وبيت الفقيه، وتوهج على المنابر حتى سمعته كل أذن.. ولا مس نبض الشارع الموجوع حتى لُقّب بـ " شاعر القضية التهامية".

لم يكن ما سبق مجرد مقدمة بيداغوجية طويلة لشاعر شاب.. فقد كانت كتابتها حتمية لتكون توطئة كافية توضح المنابع و الروافد والمؤثرات والمرجعيات والظروف الاجتماعية التي قدم منها الشاعر أيوب الحشاش.. ليكون واحداً من أهم أصوات الشعر اليمني منذ مطلع الألفينية..ثم إنها كانت حتمية – أيضاً – لدحض سحابة قاتمة من التجاهل النقدي الذي أصاب هذه التجربة..ثم لتكون مفتاحاً يفسر لماذا هو واحد من الملامتية الذين تتجاهلهم المؤسسات الرسمية ويغيبون عن الوفود الأدبية التي تمثل اليمن في الخارج ويصعب عليه التحقق الحياتي.. كما يصعب على مجموعاته الشعرية أن ترى النور.

****

تتميز تجربة أيوب حشاش الشعرية بقدر مدهش من الأصالة الإبداعية.. فهو واحد من قلائل استقامت لهم طريقة الكتابة في وقت مبكر.. كان في الخامسة عشرة من عمره عندما كتب قصيدة ألفية عنوانها " معلقة الأحزان "... كانت أول قصيدة يكتبها سليمة العروض واللغة.. انعكست فيها مشاعر الإحباط التي كان يقتات عليها ذلك الوقت:

إني امـرؤ حقـاً كرهـت حيـاتي	**ورجـوت في الصبح القريـب ممـاتي**
تلــك المعــاناة الــتي عانيتهــا	**جعلـت فـؤادي قاصـر البسـمات**
أبياتــه غنــت مواويــل الأســى	**فــازددت مأســاة علــى مأســاتي**

قرأها مع أصدقائه الذين لم يخفوا إعجابهم بتجلياتها ليس بوصفها شعراً عظيماً إنما بوصفها تجربة مميزة قياساً إلى عمره آنذاك..لكنه تجاوز أنانية الشاعر الموسومة في ذلك الوقت بالغرارة وقرر أن يعيد الاشتغال عليها لينكمش عدد أبياتها إلى حدود مئة وخمسين بيتاً.

تفجّرُ شاعريته وزهوه اللافت بامتلاك ناصية القول صادف - كما أشرنا سابقاً – محيطاً اجتماعياً ضاجّاً بالاستقطابات الحادة التي كانت تلح على ترصيع حشودها وتحويج فعالياتها بالشعر والشعراء.. هكذا كانت المنابر المتنافسة في تلك المدينة التقليدية تتسابق على قصائد الشعراء " اسماعيل مخاوي، وعلي بريج، ومُحَّد عاصية، وعبدالله خطيب " وهم يسبقون الحشاش عمراً وتجربة، بل حتى الشيخ إبراهيم حكمي، والأديب عبدالله خادم العمري الأسبقان تجربة وعمراً بزمن طويل..

انغمس الشاعر في تقديم صوته من خلال تلك الفعاليات الموزعة على مصفوفة طويلة من التوجهات المتعارضة تقع بين التعبير عن هموم وتوجهات التيار السلفي والهموم القومية والوطنية وصولاً إلى الاعتمالات الاجتماعية التي تَشْغَبُ بها المدينة ناهيك عن أغراض شعرية قديمة كانت بيئته التقليدية لا تزال تحافظ عليها مثل المديح والرثاء والهجاء.. وقد أخذ منه ذلك الانغماس ست سنوات كاملة.. أفاده لناحية تحكيك صوته الشعري والسيطرة الكاملة على أدواته.. وأفاده لناحية ترسيخ اسمه الذي تجاوز المدينة إلى خارجها.. وصولاً إلى بداية النشر في الصحف.. بيد أنه حبس انهماراته في أنساق تقليدية مألوفة لا تسمح بالمغامرة.. و لذلك فإنه حين بدأ في أواخر تلك المرحلة يحتك بآفاق أخرى للكتابة يمارسها التسعينيون اليمنيون.. وكان ذلك عقب مجيئه إلى صنعاء نهاية عام 2001م.. شعر بصدمة كبيرة.. أحس بأنه ضل الطريق سنوات طويلة..وأنه كان "غيمة على شمسه" – حسب التعبير الشهير لابن عربي– بدأ يراوده الشك والتوجس حيال ما يفعل، ثم لم يمض عام وبضع عام حتى عبر دون وعي – ربما – عن موقفه تجاه تجربته بتقليص انهماراتها إلى حدود التوقف..

قصائده من نوع:

أول الفجـر أرضـع الليـل نهـدا وتـــوارى لأن صـــبحاً تبـــدّى
فـرض الحظـر فـوق بستان زهـر وأقــام الحصــار للمــرج ســدّا

قال للنحل لو عصيتم كلامي فبهذا الحسام تفنون عدّا
قال للورد والعبير يغني من تغنىّ يكون لله ضدّا

وهي القصيدة التي قرر منتدى العمري سنة 2001م أن يقيم له بسببها أمسية صاخبة تحت عنوان " ميلاد شاعر " لم تعد تملأ بالزهو عطفيه..حتى عندما قدمها منتدى العمري سنة 2004م مع عشرين قصيدة من أخواتها لتصدر في مجموعة شعرية حملت نفس عنوانها " أول الفجر" لم يشعر بالاعتزاز بها.. كان المنتدى قدمها للنشر في غيابه ودون علمه... فيما كان هوفي سوريا قد توقف عن الكتابة منذ أكثر من عام.. مكباً على تجارب أخرى تنتجها بيئة إبداعية وثقافية مغايرة... يقرأ لأدونيس وشوقي بزيع وعباس بيضون وبول شاؤول وخليل النعيمي وهاني الراهب.ويشترك في فعاليات كلية الآداب بجامعة دمشق.. كان وقتها لا يزال يكتب العمود ولكن بنفس مختلف.. و بشكل نادر ومقطر..يوحي بأزمة مع هذا الشكل الذي طالما تبختر فيه. وبدا شبح الأزمة يلقي بظله على أول نص عمودي أنجزه هناك:

يا أول البوح يا عيد الرياحين ويا حديث رسول الماء والطين

فهو لم يدخل إلى الكتابة إلا حين استدعى تجربة مماثلة من ماضيه:

أول الفجر أرضع الليل نهدا..

أربعة أو خمسة نصوص عمودية حاول التعبير بها عن شغفه بالزخم الأنثوي الذي يترع المكان من حوله.. فيما هو حقيقة يقدم رجلاً ويؤخر أخرى توقاً لكتابة قصيدة نثرية يتمنى مداورتها لكنه يهاب.. بعد تجارب متعددة لم ترض طموحه وجد نفسه يكتب:

الموتُ هو الموت
الموتُ الفلاحُ المتبرمْ
الموتُ الغسقُ المبذول

الموتُ خلاءاتُ مبذوله

الموت الرحلةُ والثور

أغنيةُ الحبِ السوداء

أناقة شمشٍ ذاهلةٍ

الموتُ متاهُ الياقوت

الموتُ خيالُ مكنون

مكنونُ في صدفِ الدهر

وقد راح النص الذي أكمله الشاعر بعد عودته إلى اليمن يداور موضوع الموت بلغة جديدة تفارق تماماً – في معجمها وتراكيبها وفي وعيها بالشعر والكتابة – لغته التي دار بها زمناً طويلاً في سماوات العمود..

وهكذا فقد انبذرت في الشاعر بذور مرحلته الثانية قبل سفره مباشرة إلى سوريا وهناك تبلورت.. وأظنه قد أعلن هذا حين كتب:

في قاسيون

دفن ابن عربي

وشيد لهُ ضريح

وأنا هناك

أدفن خوفي

أنتزع بعناية

خيوط قلقي

أنثر ترانيمي

زهرة زهرة

زهرة زهرة

إثر عودته من سوريا منتصف عام 2005م كان قد تغير كثيراً.. حفل العامان الأولان " 2006 – 2007 م " من دراسته في كلية التربية بفترة ازدهار شعري تعددت أشكاله بين نصوص نثرية وأخرى عمودية وتفعيلية ضمتها مجموعته " طائر أحمق " العنوان وحده حكاية، أمّا المجموعة فتجلت ناضجة ومميزة وحافلة بالشعر:

قبـل المجـئ رأيـتُ نجـم هبـائي   ورأيــت دائــرتي وحــبر فنــائي

قبـل المجـئ رأيـتُ جرحـي باهتـاً   متعطشــاً كحديقـــة جـــرداء

قبـل المجـئ رأيـتُ ريـشَ غريـزتي   متســاقطاً في غابـــة ملســـاء

قبـل المجـئ هزمـت نفسـي مـرة   فوهبتهـــا للـــدودة الزرقـــاء

قبـل المجـئ رأيـتُ أشـيائي الـتي   أحببتهـا ولـذا أطلـت بقـائي

قبل المجئ سكنت داخـل دفـتري   وتركـت إسـطبل الوجـود ورائـي

ورأيتــني مــن دون أي ســواتر   ورأيـت مـائي صـاعداً وهـوائي

ورأيـت مـالي مـن مسـراتٍ ومـا   لي مـن جنـونٍ شاسـع وغبـاء

ورأيتــني ورأيــت فــأس طفــولتي   ورأيـت طمـي النهـر في أشـيائي

نص " قبل المجيء " كان استهلالاً ذكيّاً للمجموعة.. التي ستشتغل كثيراً على خلخلة الأنساق الدلالية القارّة في ذهن المتلقي للأشياء اشتغالاً ثائراً ومصادماً كما في نص " الأشجار أمهات ":

فتياتُ بلا أثداء

في طفولتي البائسة

كنت أستلقي على

أفخاذها العارية

لم أكن أعلم

أن الرياح الصفراء

أفقدتها العذرية

الرياح الصفراء

سربُ..

من الكهول الزناة

شجر المريمرة الكالح

مصابُ بالأيدز

النخلاتُ يمارسن السحاق

مع ذلك فمجموعة " طائر أحمق " لم تجد طريقها للطباعة.. بسبب مركزية النشر – على قلته – وتخلي المؤسسات عن وظائفها ناهيك عن التهميش المتعمد الذي يعاني منه الشاعر بالبداهة نتيجة انتمائه لأكثر الأمكنة تهميشاً في اليمن.. غير أن الحشاش نفسه يتحمل بعض اللوم فمجموعة شعرية بهذا المستوى كانت تستحق تحمل المشاق وطرق الأبواب من أجل إخراجها للوجود.. وقديماً أعلن الشاعر الكبير حسن الشرفي – حين كان في بداية رحلته الأدبية – أنه مستعد للتغرّب من أجل أن يوفر المال لطباعة مجموعته الشعرية الأولى.. أما الحشاش فيبدو أنه كان يثبت مرة أخرى أنه " غيمة على شمسه " وأن همته في تقديم إبداعه أقل كثيراً من مستوى ذلك الإبداع... وهنا لا بد من الإشارة إلى الحس الملامتي الذي يسم معظم أدباء وكتاب هذه البلاد.

فشل الشاعر في إخراج هذه المجموعة إلى النور.. ثم دخوله معهد خفر السواحل وانتماؤه إلى السلك العسكري ثم خوضه تجربة مؤلمة من أجل بناء عائلة خاصة.. عوامل ألقت بظلها مجتمعة على تجربته.. وأبعدته إبعاداً شبه كامل طيلة ثلاثة أعوام " 2009،

2010، 2011م "... سنوات الابتعاد عن الكتابة قطعته تماماً عن رحلة التوهج والنضج.. التي كان قد دشنها.

أما مرحلته الثالثة الممتدة من مطلع عام 2012م إلى اليوم " مارس 2015م ".. فقد تساقط مطرها وتكونت نطفتها من قصة حب عاشها بكل جوارحه، وداس بها على كل خيباته ومررات قلبه.. قصة من ذلك النوع الذي يخلق وينشيء ويملأ الروح والعقل بالضياء والجمال:

شُق صدري فبان عن حقل حرفٍ	ماد ملء الربى قطافاً شهيا
شُق قلبي فبان عن نهر حبٍ	جعل الله نبعهُ مريميا
شقُ قلبي فبان عن أغنياتٍ	منحتها السماءُ لحناً شجيا
شُق غيم المدى فأبصرتُ ذاتي	أزهرت في المدى صواباً وغيا
فعلي السلامُ في كل هجسٍ	زارني خاشعاً وصلى عليا
وعلي السلامُ في كل معنى	زارني مشرقَ الجبينِ بهيا
وعلي السلامُ في كل وادٍ	رمتُ في ناره شذىً قدسيا
وعلي السلامُ والنخل يلقي	رطب الحب في خيالي جنيا
وعلي السلامُ إن صرتُ ميتاً	وعلى السلامُ مادمتُ حيا
شقُ صدري وكان عطرُ ملاكٍ	يمنح الروح موعداً سندسيا

وإلى جانب القلب الوجداني العاطفي لهذه التجربة فقد تشكل جناحاها من شجون أهله في تهامة وكفاحهم ضد الظلم والقهر والتهميش، ومن هموم وجودية كبرى خلّقتها التجارب والخبرات والقراءات... لذلك هي أكثر مراحل تجربته الشعرية توهجاً ونضجاً وانفتاحاً على الوعي بالشعر والوعي بالذات من خلال الوعي بالمكان وناسه والوجود وقوانينه.

أنجز في هذه المرحلة مجموعته الأميز " القلعة البيضاء " وهي مجموعة تتجاور فيها الأشكال الكتابية بين نصوص نثرية وأخرى تفعيلية وعمودية.. لكن الأهم من ذلك أنها نصوص تمتلك رؤية مختلفة للعالم.. ثمة أزمة وجود على أكثر من مستوى..على المستوى الذاتي..كانت زيارة الشاعر لصديقه القديم الثائر مُحَمَّد الجبلي قبل يوم من رحيله بمثابة الشرارة التي اشتعلت بها حرائق المجموعة.. موت الجبلي أجج السؤال في داخل الحشاش: لا ثقة في هذه الحياة.. وعليَّ أن أترك أثراً حقيقياً ".. وهنا بدأت رحلة المبادلات:

في القلعة البيضاء
أكتبُ ما أشاء من القصائد
باتساع البحر
أكتبُ
باتساع الرحمة الخضراء
برعمها
استقر على سريري
وأتت براعم إثرهُ
تصغي إلي
ثم استقرّت..
فوق قنديلي المضاء
على الوسادة
في فلج أسناني
استقر
هسيسها المائي......

بادلت الغيوم

بنجمة الصحراء

بادلت السواد

بزهرة بيضاء

بادلت الغياب

بما استطعت من الحضور

بادلت القراصنة

الذين يجدفون بزورقي

بالتائهين

بادلت الزمرُّد

بالنحاس

بادلت فنجاني

بقنديل البحار

في نفس الوقت فإن رحيل الثائر مُحَّد الجبلي لم يكن رحيل صديق عادي.. ولكنه كان رحيل التهامي الاستثنائي.. التهامي الذي أشعل جذوة المظلومين.. دفعهم ودفع بهم لرفع أصواتهم.. فقد رفع صوته من أجلهم قبل أن ترتفع أصوات اليمنيين جميعاً في تهامة وغيرها بعدة سنوات.. وربما أن هذا كان كامناً في وعي الشاعر حين انضم للحراك التهامي وأصبح صوته الصوت الشعري الأبرز فيه..

عديد القصائد في مجموعة "القلعة البيضاء " وخارجها.. تبلجت على صفحات ذلك النضال..لم تكن عظمتها في امتلاك أدواتها حد الكمال فحسب بل كانت عظمتها أيضاً في قدرة الشاعر على اكتناه خصوصية المكان وناسه.. فحضر التصوف ببذخه الدلالي وحضرت الرموز التاريخية والدينية والإنسانية.. وحضرت البيئة وجيراننا فيها..

وشكّلت النصوص أكوانا موازية تعبِّر عن العذاب والألم والشجى.. وتعبق بالشجن ونوستالجيا الحنين، و تعبيء الجماهير بالغضب والسخط على كل شيء ومن أجل كل شيء.. فلم يكن ثم شيء في تهامة لم يسحق، في هذا السياق كتب " معلقة الروح العظيمة لتهامة.. فتيني جنيد " وكتب " أطفال دهنه " وكتب غيرها..

****

ليس هذا كل ما يمكن أن يقال عن تجربة الشاعر أيوب الحشاش.. فهذه المقاربة الطويلة نسبياً لرحلته في الحياة وتجربته مع الشعر – قياساً بمقاربات أخرى لتجارب بعض زملائه في هذا الكتاب- لا تشكل إلا علامات لمسيرته التي أخنى عليها الواقع اليمني فكانت تبرز بشكل يطغى على كل ما عداه في نطاقات محدودة.. وتُظلم حتى لا يكاد يعلم عنها أحد على نطاقات الوطن، وفي قلب المركز حيث يمكن لها أن تُقدر نقدياً، ولصاحبها أن يحظى بناء على تقديرها ببعض المكاسب.. ويبقى الحشاش تجليا آخر للملامتية الذين يحفل بهم هذا الكتاب.. وإن كان - أيضاً - يظل بطريقة تعامله مع موهبته الرائعة.." غيمة على شمسه ".

حسين الآنسي...
مثقف من ذلك الطراز

تفتنك نظرته الثاقبة، ويلفت نظرك قلقه الهادئ، مدمن على القراءة، تكاد تكون لذته الأولى في الحياة.. وهو يتمتع بأهم ميزات القارئين الجادين.. أعني الصمت اليقظ، وحسن الإنصات للآخر، وإجادة تخليق السؤال من وقائع المثاقفة وسياق الحديث..وهو مع ذلك ناقد لا يجامل ولا يسكت عما في نفسه حتى وهو يعرف أن ما في نفسه قد يزعجك، لكن مثل هذا التطبع الناتج عن الثقافة.. والمؤسس على فطرة سليمة، وعلى رغبة في الترقي الذاتي.. يحدث كثيراً أن يتحول إلى شعور بالغربة في واقع يحتفي بالعنجهية، ويغرق في الفوضى.. ويتخبط في غواشي يختلط فيها الحابل بالنابل، غواشي يرتفع فيها قاطع الطريق، وسارق المال العام، وناهب قوت الفقراء، ويسفل المترفع عن المظالم والمفاسد.. ويخمل المستنير.. وتنسج العزلة شباكها على المنحاز إلى جموع المظلومين والمقهورين.. العابئ بحقوق الفقراء والمساكين..

هل هذا مدخل جيد لقراءة صفحته التي لم يحاول أحد قبلي قراءتها؟

أعتقد ذلك فلقد اختار العميد حسين الآنسي هذا الطريق.. أو أن الطريق اختاره.. ولقد رضي بالهم ولكن الهم لم يرض به.. شأنه شأن كثيرين غيره سلكوا دروب الثقافة والفكر.. وحرصوا على أن تبقى ضمائرهم حية.. وخدمتهم الوطنية لوجه الوطن وحده لا لوجه أهوائهم ومصالحهم الخاصة.. وبدلاً من أن تضعهم قضاياهم في القمة.. وعلى مدارات التقدير والتكريم، والقيمة العالية.. وضعتهم على محك الأذى والمطاردة.. والتضييق الدائم.. بل أوصلتهم إلى السجون مرات كثيرة.. والسبب بسيط جداً فقد كانت استنارتهم ونقاء ضمائرهم أضواءاً كبيرة تكشف شرور المتسلطين.. وقبح الفاسدين..

وتشوهات الواقع.. لذلك نظر إليهم بوصفهم مشكلة يجب التخلص منها، وحجرعثرة يجب إبعادها.

ها هو ذا على رأس 72 عاماً فلا يرى في عيون الجيل الجديد من أبناء بلاده غير اليأس والوجع والتشظي.. ولا يرى في أفعال من يسيّرون حياتنا إلا الارتجال وانعدام الحكمة وراء كل قرار..

***

ولد العميد حسين أحمد الآنسي في صنعاء – باب النهرين/ السايلة – سنة 1942م، كان أبوه القاضي أحمد الآنسي من الأعلام المعدودين بين رجالات جيله، وهو حفيد من الجيل الخامس لشاعر الحميني الشهير القاضي عبدالرحمن الآنسي (1755-1843م).

بعد دراسة دامت عدة سنوات في دار الأيتام بصنعاء، انتقل إلى تعز سنة 1955م وصادف وصوله إليها محاولة الانقلاب الشهيرة التي نفذتها مجموعة من الضباط وسيوف الإسلام ضد الإمام أحمد حميد الدين.. فكانت أول حدث كبير يعيه ويعيش أحداثه.. وكان ذلك سبباً لانتقاله إلى عدن التي مكث فيها ستة أشهر ريثما يرسل له الاتحاد اليمني جواز سفر من القاهرة..

في القاهرة التحق بإحدى المدارس لزمن قصير قبل أن ينتقل إلى طنطا حيث واصل دراسته حتى أكمل الثانوية العامة، وفي سنة 1958م تم توقيف ملفه مع ملفات زملاء له على خلفية الإضراب والصدامات التي حدثت بين الطلبة اليمنيين وقتها.. بسبب تمزقهم بين انتماءات مختلفة أبرزها التيار الموالي للزعيم العراقي عبد الكريم قاسم، والتيار الموالي للزعيم جمال عبد الناصر.. وكان الآنسي ينشط ضمن التيار الأول..ولم يخل أمر إيقاف ملفه وملفات زملائه من سبب آخر هو ثوريتهم من وجهة نظر صنعاء ...

تمزقت مجموعة طنطا وكانت تضم عدداً كبيراً من الطلاب اليمنيين، فعاد بعضهم إلى اليمن ليتم إيفادهم إلى الإتحاد السوفيتي ودول أوروبا الشرقية.. ولأن أكثرهم طردوا

بتهمة الشيوعية.. فقد قال لهم الإمام أحمد حميد الدين ممازحاً: أشتيكم تقعوا شيوعيين سوا، كانت مزحة الإمام في سياق مكايدات تعبر عن خلافه مع جمال عبد الناصر.. ولكن أثرها كان واسعاً حد أن الناس فهموا أن الاتصاف بالشيوعية مدخل جيد للحصول على منحة دراسية.. وبلغت المفارقة ذروتها حين تقدم طفل يزعم أنه شيوعي ويطالب بمنحة دراسية.

الآنسي كان من ضمن الطلبة الذين بقوا في مصر بعد إيقاف ملفاتهم وبحصافة لم يضع وقتاً إذ التحق بالمركز الدولي للتربية الأساسية لتنمية المجتمع في العالم العربي..ومن هذا المركز تخرج سنة 1960م بلقب أخصائي اجتماعي.. ثم انضم سنة 1963م إلى الكلية الحربية في القاهرة حتى حصل على بكالوريوس علوم عسكرية.

***

كتاب "طريق المجد للشباب" لسلامة موسى كان أول كتاب يقرأه في حياته وكان ذلك بعد وصوله إلى مصر للدراسة بفترة، وكان هذا الكتاب بداية شغفه بالقراءة، كما كان حجر الزاوية في رؤيته للحياة، واختياراته الفكرية والسياسية، وتوجهاته الاجتماعية والثقافية .. وكان الكتاب واحداً من أربعة كتب خص بها سلامة موسى الشباب، الثلاثة الأخرى هي: مشاعل الطريق للشباب، أحاديث إلى الشباب، والتثقيف الذاتي، وقد كان لأسلوب سلامة موسى المبسط، وأفكاره الحارة المحتدمة، ومنطقه المقنع أثر السحر عليه، وكانت المثل العليا التي يبسطها أمام الشباب، والدروب التي يسلكها بهم إلى النجاح والتغيّر شيئاً جديداً وفاتنا بالنسبة له كما بالنسبة لكثيرين من أبناء جيله مصريين وعرباً، يقول سلامة موسى: ما هوالذي يجعلنا شرفاء في الدنيا ؟ أن نهوى الأشياء العظيمة، نحب الأشعار ونقرأها، بل نؤلفها إن استطعنا ونحب الموسيقى ونصادق الأصدقاء الأشراف ونقتني الكتب والتحف ونقرأ تاريخ الإنسان ونخدم الناس بعمل منتج وننتج أكثر مما نستهلك. ونشتغل بالسياسة والاقتصاد ونسأل لماذا يكون في الدنيا فقر واستعمار ونكافح الظلم عند المستبدين والظلام عند الرجعيين ونجعل لحياتنا دلالة وليس معنى فقط.

من يومها لا زمه الشغف بالقراءة وظل يلازمه حتى هذه اللحظة.. فأنت لا يمكن أن تجده في مقهى الشيباني بميدان التحرير صباح كل يوم دون أن تجد تحت إبطه صحيفة أو مجلة أوكتاباً..

ومن يومها أيضا لا زمه الشغف بسلامة موسى وأضرابه من أنصار الكادحين والمظلومين، ومحرري العقول من ظلام الجهل، وخطل الأوهام.. صحيح أنه مع مجموعة من البارزين من زملائه ممن تشكلت منهم البعثة المعروفة ببعثة طنطا وعلى رأسهم عمر الجاوي وإبراهيم صادق، وعبد الرحمن البصري، وجعفر عيدروس .. قد تحولوا إلى مدمني كتب يلتهمون بنهم ما تقذف به المطابع من مؤلفات العقاد وطه حسين، ومُحَمَّد حسنين هيكل ويوسف السباعي وغيرهم، لكن سلامة موسى كان حجر الأساس في ميولهم ومنه اندفع حسين الآنسي إلى امتدادات لسلامة موسى مثل المفكر اليساري الشهير محمود أمين العالم والدكتور لويس عوض الذي كان من حظه أن يتتلمذ على يديه حين التحق سنة 1958م بالمركز الدولي للتربية الأساسية لتنمية المجتمع في العالم العربي.. وهو المركز الذي درس فيه الاقتصاد الاجتماعي على يد الدكتور حامد عمار أحد عمالقة هذا التخصص في العالم العربي.. لكن أكبر رجة فكرية عصفت به كانت بسبب كتاب رأس المال لفيلسوف الماركسية الشهير كارل ماركس.. لأنها شكلت منعطفاً في الوعي تعزز بأحداث كانت تعيشها اليمن ومصر والعالم العربي وأفريقيا وآسيا..أعني موجة الحروب ضد الاستعمار والثورات الوطنية، وفوق ذلك صراعات القطبين الرأسمالي والشيوعي بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي.. وما أججته كل تلك الأحداث بين عامي 1955 و1966م -هي الفترة التي قضاها في مصر – من اعتراكات فكرية وحزبية واستقطابات لتيارات مختلفة.. وكان هو قد اختار طريق الانحياز إلى الطبقات الكادحة.. العمال والمزارعين والحرفيين وجموع الشعب المحتاجة إلى مشاريع وطنية حقيقية تخرجها من ظلام الجهل وصراعات المتسلطين تحت رايات مختلفة لا تخدم إلا زعامات تعمل لمشاريعها الخاصة وليس لمشروع الوطن العام..

بهذه الرؤية عاد حسين الآنسي إلى الوطن.. وبهذه الأفكار والأحلام دشن رحلته في الخدمة العامة.. بدءاً من خوضه لمعركة حصار صنعاء 1967 – 1968م ثم اشتغاله في تقديم برنامج حماة الوطن في إذاعة تعز ناهيك عن انهماكه في الكتابات الصحفية ومشاركاته الواسعة في التوعية والتثقيف في أوساط المجتمع..لكن الواقع المظلم ما لبث أن تكشّف له..فالصراعات والتناقضات على الساحة اليمنية أكبر بكثير من تلك الرؤى والأحلام التي عاد بها من رحلته الدراسية.. كان الإقطاع المشيخي يتمدد كمرض خبيث لا يستطيع الجسد اليمني مقاومته، وكان يؤكد هيمنته على منافذ الحياة في جميع مفاصل الدولة..وطفق يتخلص من المشتعلين بالحماسة الثورية.. والممتلئين بالفكر المستنير عبر تسفيرهم إلى خارج الوطن بذرائع مختلفة من بينها المنح الدراسية.. وتلقّت الآنسي ففوجىء بنفسه في أوكرانيا يتخصص في سلاح المهندسين.. وحين عاد بعد إكمال دراسته كان الوضع قد ازداد سوءاً وانضاف إلى المساوئ السابقة ظهور ملوثات أخرى على رأسها صراعات أحزاب قروية لا ترى الوطن وطنا واحداً..

يؤكد الآنسي دائماً أن " ثورة سبتمبر 1962م ولدت بعيوب كثيرة.. لكن حركة 5 نوفمبر1967م كانت القشة التي قصمت ظهر البعير ".. ففي ظلها عاش هو وأمثاله من التواقين إلى وطن جديد عامر بالعدالة والمساواة والتقدم غير قادرين على التوافق مع الوضع الذي خلقته..لا يستطيعون الموافقة على ما يحدث..لكنهم في حالة عجز شامل عن فعل شيء.. فهم أقلية وسط أكثرية من الفاسدين والمنتفعين.. وتحت هيمنة عاتية من القوى التقليدية التي استحوذت على الوطن وعطلت أحلام المستنيرين فيه..

وفي واقع يراوح بين اليأس ومغالبة اليأس لم تتوقف رغبة الرفض والمقاومة في التعبير عن نفسها من خلال الكتابة التي كثيراً ما كان غضب السلطة منها يقوده إلى السجن..كان الإضطهاد والمواقف المفارقة الكثيرة الناتجة عن محاولته أن يقول للخطأ " لا" قد صارت جزءً من حياته واعتياده اليومي.. وهو يدفع الثمن راضياً فهذا ما تعلمه من

رحلته الحياتية المستضيئة بمئات الكتب التي قرأها وبالفكر الذي اعتنقه وآمن به.. وحس المسؤلية التي يشعر أنها تقع على عاتقه هو وأمثاله من رجال الوطن المخلصين.

لكن الحفر كانت في طريقه أينما ذهب.. لا يستطيع أن يحيد عن مبادئه.. ويجد نفسه ملزماً بالتعبير عن رأيه في كتاباته التي يدأب على نشرها في صحف يمنية مختلفة منذ ستينيات القرن الماضي.. وتضيق السلطات ذرعاً به وبمواقفه فتقصيه حيناً وتضعه خلف القضبان أحياناً أخرى.. عالم كامل من الأسى يتراءى في عينيه حين يتذكر قصصه مع الملاحقات والسجون.. في إحدى المرات سرق السجن من عمره أربع سنوات كاملة دون مبرر واضح.. سنة 1976م ذهب إلى عدن لزيارة أخت له..بعد أن استأذن من جهة عمله و استوفى وثائق السفر كافة من الجهات المختصة في حكومة الشمال ومن مكتب شؤون الوحدة اليمنية بصنعاء.. لكنه ما إن وصل إلى عدن حتى أُخذ رأساً إلى قسم "فتح " ولم يخرج منه إلا بعد عام كامل، عام كامل قضاه في زنزانة يسائل نفسه عن سبب ما هو فيه، مع ذلك فهو لم يخرج منه إلى الحياة وإلى فضاء الحرية.. لقد رُحّل منه إلى سجن المنصورة ذات ليل بهيم.. ليبقى فيه ثلاث سنوات كاملة.. صحيح أنه في سجن المنصورة وجد نفسه في عنبر واسع مع مجموعة كبيرة من المساجين فيهم السياسي والمثقف والسلطان والشيخ وفيهم أناس من عامة الشعب.. ووجد بينهم شخصيات يعرفها مثل يحيى المتوكل، وسالم العزاني وأخوه محمد (من البيضاء)، لكن هذا لم يخفف من حدة معاناته جراء شعوره بالغبن وهو شعور تضاعفه قدرته على قراءة الواقع نتيجة كونه مثقفاً مميزاً يعي الواقع ويحلل مجريات الأحداث، ويستوعب جيداً خلفياتها محلياً وإقليمياً ودولياً، مع ذلك كان الواقع اليمني يبدو له صعباً ومأساوياً أكثر من اللازم..

انتهت تلك الدراما الموجعة بمساع بذلها أخوه الأكبر محمد الآنسي و بتدخل زميله القديم المناضل عمر الجاوي الذي كان يعرف الآنسي جيداً ويعرف وطنيته وإخلاصه ونقاء مواقفه وصدقها.. وساهمت مجموعة من زملائهما في تلك المساعي التي تكللت بإخراجه

من السجن وتعيينه مدرساً في شبوة.. وهي وظيفة قضى فيها سنتين وفرضتها شدة الحاجة إليه.. وتميزه بالتأهيل والكفاءة اللازمة لها..

***

تقودني صحبة الآنسي في صباحات صنعاء إلى حوارات طويلة ومتنوعة معه.. وكثيراً ما أركن لوعيه بالحالة اليمنية من خلال تجاربه الواسعة معها.. سألته ذات مرة: مالذي لا يتغير فينا ؟

قال: عندما كنت طالباً في مصر كان يؤلمني جداً سمة السطحية في تفكير الطلاب.وميلهم إلى تقدير الأمور وقراءتها من منظورات قروية أو مناطقية أو طائفية أو مذهبية أو عنصرية... كان يؤلمني ذلك لأنني كنت أظنهم النخبة التي ستتحمل أعباء الوطن مستقبلاً.. وها أنا ذا بعد خمسين عاماً أتلفت يميناً وشمالاً فيصدمني أن كل النخب السياسية والثقافية والاجتماعية.. تتصدى لمشكلات الوطن من خلال تلك المنظورات المرضية.. لم يتغير شيء.. وما كان يؤلمني قبل خمسين سنة هو نفسه ما يؤلمني اليوم..

منذ أكثر من ثلاثين عاماً ظل العميد حسين الآنسي بعيداً عن أية ممارسة وظيفية عسكرية كانت أو مدنية.. لا هم رضوا به، ولا هو رضي بهم.. وظل يصحب الكتاب ويعبر عن نفسه بالكتابة..فيما وعيه المترصد يراقب تغيرات المشهد، يقول لي:

في الثمانينيات كنت ألا حظ أن معظم المثقفين والكتاب يتزاحمون للحصول على وضع مّا في ظل النظام.. وكنت أفسر ذلك بما عانته النخبة المثقفة من قمع وملاحقات طيلة عقدي الستينيات والسبعينيات.. لكني كنت ألا حظ أيضا إقبالهم البالغ على كتابات البردوني.. لكأنه كان العزاء أو الضمير العام الذي يذكرهم بأغلى ما كانوا يمتلكونه حين كانت ضمائرهم تتفكك فرداً فرداً..لقد كانت معاناة الناس تفوح من كتابات البردوني..لذلك كانت كل شرائح الشعب تقبل على قراءته.. في نفس الوقت كان البردوني أكثر نفاذاً إلى وصف التحولات.. وقراءة المتغيرات التي تعصف بالواقع.. ويقدم أسبابها بشكل عميق.. فكان المثقفون يقرأون أحوالهم وتبدلاتها في كتاباته.. غير أن وميض الأمل

الذي كان مايزال يتلامع في قعر البئر البعيدة.. أجهزت عليه أحداث 13 يناير 1986م.لقد شكلت تلك الأحداث صدعاً عميقاً في النفوس، أضعفت التيارات التقدمية في جميع أنحاء الوطن.. وفتحت الباب على مصراعيه لقوى التخلف كي تتسيد المشهد... حتى عند قيام الوحدة فإن الآمال الكبيرة التي علقت عليها لم تكن في موضعها.. ظن الناس أن النخبة الجنوبية في السلطة الجديدة لدولة الوحدة ستجرّ نخب الشمال إلى ميادين التقدم والتطور والانتصار للحداثة والدولة المدنية.. وأنها ستستطيع تقليم أظافر القبيلة، وخلخلة منظومة التخلف المسيطرة على الشمال كله.. لكن القليل من المثقفين كانوا يعون جيداً أن نخبة الجنوب كانت منهكة تعاني من تبعات أحداث 13 يناير التي أفقدتها هالتها وهيبتها.. وقد سهَّل ذلك تحول الوحدة إلى حالة من الصراع فازت بها قوى الفيد والقبيلة والمتحالفون معها من تيارات دينية وعسكرتارية.. وكل ما نعيشه اليوم من تمزق نفسي وانعدام يقين وتشرذم وطني مناطقي وطائفي ومذهبي وصراعات في كل مكان إنما تأسس في تلك المجريات.

لاينتهي بنا المطاف هنا.. فثمة جوانب أخرى على رأسها النكتة الصنعانية وطرائق أدائها المميزة..والشغف بالغناء..والشعر الحميني.. والألفة التي تتجلى في لهفة السؤال عليك حين تغيب.. وكلها مفردات في شخصية العميد حسين الآنسي تغري بالكتابة عنها.. لكني آثرت البدء بهذا الجانب فيه.. أغراني به وجعه الدائم للوطن تلك السمة التي تفرض عليه الشرود والتوجس الدائم والإحساس بالغربة عن كل ما يدور.. لقد قرأ كثيراً وعرف كثيراً وتأمل وجرب ملياً وألزم نفسه بسلوكيات ومبادىء ومثل عليا لم نعد نعرفها في هذا الزمان.. ومن يتمتع بهذه الميزات فهو غريب دائماً بين من يعايشونه.

لكن يبقى الأمل... والأمل عند الآنسي المثقف والإنسان والمناضل والوطني النزيه.. حتمية تاريخية.. لأن التطور والتقدم وانبلاج الصبح مفردات زمن قادم لا محالة..وهو ينظر إلى توالي الأجيال بعيني سبعيني يتوجع لكنه لا ييأس ولا يموت رجاؤه.

سيمفونية بعكر على أطلال تهامة

لم تكن السيمفونية البديعة التي عزفها لتهامة الراحل الكبير عبد الرحمن طيب بعكر في كتابه (كيف غنت تهامة) إلا جزءاً من مشروع كبير أفنى عقوداً من سني عمره في إنجازه..

ذلك المشروع الواعي المرتكز على معرفة جيدة بالمكان وناسه وتاريخه، وأدبه وعاداته وتقاليده يتميز بتعدد الاشتغالات قدر تميزه بالشغف اللا محدود بمواضيع اشتغالاته التي راوحت بين الإبداع الشعري والتاريخ والتحقيق والنقد والدراسات الثقافية والسير والتراجم.

والمتأمل لمشروع بعكر التهامي سيجده يقدم دفاعاً مستميتاً ضد الصورة النمطية السلبية التي ابتيلت تهامة بها في العقود الأخيرة..

وكتابات بعكر عن تهامة تقدم تلميحاً وتصريحاً المكان والسكان بوصفهما تجربة فريدة من أية زاوية نظرت إليهما.

فإذا كان السلوك الإنساني لأبناء تهامة يعد نموذجاً للسلوك الحضاري المدني المسالم.. الجاذب للآخر والقادر على التعايش معه حد ذوبان الآخر فيه طواعية.. ونسيان ملامحه الأولى تماماً.. فإن هذا المنحى يتجلى أكثر فأكثر من خلال التعرف على الأعداد المهولة من العلماء والأولياء والوجهاء والأسر المؤثرة الذين جذبتهم بيئة تهامة من شرق العالم الإسلامي وغربه.. ليجدوا فيها المناخ الأكثر تسهيلاً للعيش والتعبد والتعلم والتعليم.. ولتبقى أسماؤهم وأسرهم ومؤلفاتهم وآثارهم الكثيرة شاهدة حتى اليوم على الترحيب والمحبة التي قابلتهم بها تهامة.. وعلى الدور العظيم الذي لعبوه في حياتها العلمية والروحية، والثقافية، والاجتماعية، والسياسية أيضاً.

من المؤكد أن ضخامة الإرث الثقافي لتهامة وناسها كانت تفرض على بعكر – كما تفرض على غيره– ممن حاولوا مقاربة ذلك الإرث– الاكتفاء بنماذج بمقدار ما تكون دالة فإنها تشبه نقرة طائر من بحر محيط.. ففي حين كانت رباعية)المحراث والشراع والمحراب واليراع) التي قام عليها كتابه البديع (كيف غنت تهامة) تختزل أهم مفاتيح شخصية المكان وناسه.. كانت عشرات المفاتيح الرديفة تتناثر بين سطور الكتاب.. كما تناثرت عشرات المفاتيح وغيرها في مؤلفاته.. واشتغالاته الأخرى.. وهي مفاتيح تُبنى عليها مشاريع كاملة يمكن من خلالها تقديم مقاربات غير مسبوقة ليس لدحض الصورة النمطية السلبية الشائعة عن تهامة وناسها اليوم، بل لجلاء ما خفي من عناصر تضمنتها الصورة الإيجابية التي ارتبطت بتهامة وأهلها حتى العقد الثالث من القرن العشرين.

على سبيل المثال إذا كان (الشراع) مفتاحاً يقصد به الصيد والتجارة.. وعلاقة التهاميين بالبحر وما أفاءه عليهم من خيرات ساهمت في الاستقرار الاقتصادي الذي كان رافعة مهمة للازدهار العلمي والثقافي.. وضامناً قوياً للسلم الاجتماعي، فإنه كان أيضاً باباً كبيراً للوافدين من الصلحاء والعلماء والمتعلمين والتجار ممن أثروا الحياة وأثَّروا في المجتمع.

وهذا جانب لم يدرس بعد.. ففي مقابر زبيد والمخا وحيس وبيت الفقيه والحديدة والمراوعة والضحي والمنيرة والزيدية والمهجم وأبيات حسين.. والكدرا والقحمة والمحالب واللحية وابن عباس وحرض وميدي.. ومدن أخرى كثيرة مئات العلماء والصلحاء والوجهاء والفضلاء ممن أفاءهم البحر على تهامة.. وتزيّن بسيرهم وأعمالهم وأثرهم وآثارهم المجتمع التهامي كالفيروز أبادي.. صاحب القاموس المحيط.. والمرتضى الزبيدي صاحب تاج العروس،، والحصري البغدادي صاحب المعشَّرة.. والجبرتي رأس مدرسة التصوف في زبيد.. وعبد الكريم الجيلي صاحب الإنسان الكامل.. والمقدسي ناشر الخرقة الرفاعية في اليمن.. والشريف العيسي الدمشقي وآل الأزرق المشاهير في الطب.. ومئات غير هؤلاء ممن امتزجوا بعلماء وشعراء وأدباء وأولياء تهامة.. من أمثال: الشيخ أبو الغيث بن جميل.. والفقيه أحمد ابن موسى عجيل.. والفقيه إسماعيل الحضرمي.. والفقيه علي بن أحمد بن حشيبر..

والعلّامة البدر حسين بن عبد الرحمن الأهدل.. والفقيه أحمد بن أبي بكر الرداد.. والعلّامة الأديب إسماعيل بن أبي بكر المقري.. كما امتزجوا بأسر مثل: بيت جعمان.. والمزجد.. والأهدل.. والعجيل.. والناشري.. والموزعي.. والهرمل.. والقديمي.. والهتار.. والحكمي.. والمزجاجي.. إلخ.

إن فتح أعيننا على ما كان للبحر في حياتنا من دور ثري لا بد أن يلفتنا إلى أن ذلك كان يتحقق حين كان البحر لأهله.. وحين لم تكن هناك قوى شيطانية تقسم هذا البحر إلى قطاعات.. وتنهب ثرواته.. وتدمر بيئته.. ولا تترك لأبناء البحر الذين طالما عايشوه وعايشهم إلا العوز والحسرة وقلة الحيلة.. بل تتعدى تلك القوى الشيطانية هور النهب والتغول في مستواه هذا إلى تحويل أجزاء من المياه الإقليمية إلى مقابر لنفايات سامة لا تدمر البحر مخلوقات وبيئة فحسب بل تدمر صحة التهاميين في الجزر وعلى البر.. حتى لقد بلغت نسبة الإصابة بالسرطان والأمراض الشبيهة مستوى الخطر في العقدين الأخيرين.

****

أما المحراث فقد قدمه بعكر بوصفه الحاضن الأول للاستقرار التهامي النسبي قياساً بمناطق اليمن الأخرى.. وقد كانت البيئة الزراعية التهامية حاضناً حقيقياً للإبداع والثقافة والتأليف العلمي والروحي الذي لا يتخلق إلا في مناخ تسوده أخلاق العناية.. -وأقصد بها عناية الطبيعة بإنسانها وتهيئتها كل السبل له- لينتج ويبدع.. ففي بيئة تهامة الزراعية التي تخترقها الوديان الخصبة تكاثرت المدن وأشباه المدن والمقصود هنا بأشباه المدن المعاقل العلمية التي نمت من أربطة وزوايا صوفية مثل بيت الفقيه والمراوعة، والضحي، والزيدية، والمنيرة، واللحية، وحرض، أو تلك التي نمت من محطات على طرق القوافل وطرق الحج والتجارة مثل الكدراء وأبيات حسين، والمحالب.

تلك المعاقل التي احتفظت بارتباطها الوثيق بالمحراث -لكون كل منها تقع في محيط زراعي تقوم أغلب أنشطتها الحياتية عليه- قامت بدور كبير جداً في إثراء حياتنا العلمية والروحية والأدبية.. وهو دور يتساند بقوة مع الدور الذي قدمته المدن الكبرى مثل زبيد

والمهجم والحديدة.. وغيرها من المدن الأقدم تاريخاً كحيس والضحي.. أو الموانئ الهامة كالمخا وغلافقة.

الدوران المشار إليهما يكملهما دور قرى شهيرة عرفت بأربطتها وزواياها مثل: دير عطا، ومنصورة المهجم، وواسط مور، ودير الفقهاء بني بدر، والجبيرية، وقرية بني حشيبر، وابن عباس، والقناوص، ورباط بني صفيح، وبيت أبي الخل (برخل) والجثة، والغانمية، والمنصورية، والدريهمي، والقطيع، والحديّة، وغلافقة، والتحيتا، والجراحي ورباط النهاري.

هذه الجغرافيا المكتظة بعواصم العلم ومدنه ومعاقله وقراه ومساجده، ومدارسه وأربطته وزواياه.. كانت ترعى ازدهارها الإبداعي والثقافي من خلال أخلاق العناية التي تَطَبَّعَ بها العلماء والمتعلمون والشيوخ والمريدون، وكبار المزارعين والملاك والتجار.. حتى صارت روح تلك العصور وميسمها الأهم إلى درجة أن ثقافتها وممارساتها كانت كثيراً ما تنتقل إلى الحكام والمتنفذين وأمراء الجند المتغلبين على عاصمة البلاد زبيد... فكثرت أدلة وشواهد تطبعهم بطباع رعيتهم.

على هذا النحو حافظ أبناء تهامة على حقهم في البر والبحر.. واحترمت الدول المتعاقبة العلماء والأولياء والمبدعين.. ورعت الفنون والآداب، والإنتاج العلمي.

وإذا كان احتفال سلاطين الدولة الرسولية بالعلم والعلماء –على سبيل المثال– يعبر عن نفسه من خلال ما أوقفوه على المساجد والمدارس والخانقاوات والأربطة.. وشراء الكتب، وبناء المكتبات.. والاحتفالات الأكثر إثارة للإعجاب عبر التاريخ بالمؤلفين ومؤلفاتهم التي بلغت أروع درجات وضوحها في الاحتفال بالعلَّامة مُحَمَّد جمال الدين الريمي.. وكتابه التفقيه في شرح التنبيه سنة (788هـ).. حيث حمل الكتاب على رؤوس الفقهاء وطلاب العلم في استعراض مهيب حتى قصر السلطان، الذي احتفى به على ذلك النحو الاستثنائي الذي تصفه لنا كتب التاريخ.. ثم الاحتفال بالعلَّامة الفيروز أبادي وكتابه (الإصعاد) الذي زُفَّ إلى السلطان محفوفاً بالعلماء والفقهاء وطلبة العلم وبالطبول والأغاني سنة (800هـ).. فإنه لا أدل على قوة سلطة الأولياء على السلاطين مما يذكره لنا المؤرخون

من قوة تأثير العواجيين الحكمي (618هـ) والبجلي (621هـ) على مؤسس الدولة الرسولية نور الدين الرسولي، وقوة تأثير الشيخ أبي الغيث بن جميل (651هـ) على السلطان المظفر.. وقوة تأثير المؤذن (توفي في ستينيات القرن الثامن الهجري) على السلطان المجاهد.. وقوة تأثير الولي إسماعيل الجبرتي (803هـ) على كل سلاطين عصره، من كون هؤلاء السلاطين كانوا يعتبرون أنفسهم أتباعاً لأولئك الأولياء والعلماء.. الذين وجهوا كل المخرجات الإيجابية لاحترام السلاطين لهم من أجل خدمة المواطنين ورفع المظالم عنهم.. وكل ذلك كان ناتجاً عن شدة الارتباط بين أبناء تهامة وعلمائهم وأوليائهم ومبدعيهم.

****

في هذه البيئة الزراعية الحاضنة المستقرة إلى حد كبير تخلقت مدن العلم ومعاقله.. وتأسست تقاليد وأخلاق عناية فرضت على الدول المتعاقبة رعاية تلك التقاليد والأخلاق.. ودعمها وتطويرها.. في نفس الوقت الذي وجدت فيه تلك الدول هذه البيئة أكثر تخلقاً وتطبعاً بقيم السلم والمحبة والتعايش.. والميل إلى التعبد الزاهد.. والثقافة والعلم والإبداع.. وهي مقومات المجتمع المدني الصالح الذي ينشده أي نظام حكم سليم النهج.. معتدل الطريقة جيد الشعور بالمسئولية.. راغب في التقدم بالمجتمع والناس.

وقد أدت مجموعة السمات التفاعلية تلك إلى تخلق مجموعة من الخصوصيات في أسلوب التدين والتمذهب.. والممارسات الصوفية.. والجهد العلمي.. والبصمات الإبداعية..

اتسم التدين بالوسطية ممثلة بالعقيدة الأشعرية.. والمذهب الشافعي.. والطريقة الصوفية المعتدلة التي عبرت عن تلك الوسطية بجمعها بين العبادة والزهد وخدمة الناس.. والحفاظ على الحقوق.. والوقوف في وجوه المتسلطين تارة.. واستيعابهم وتسخيرهم لخدمة الناس وإشاعة العدل بينهم تارة أخرى..

واتسم الجهد العلمي بالوفرة.. ومراكمة التضمينات المحلية داخل التأليف الفقهي والتاريخي والطبي، والهندسي والرياضي..

أما خصوصية الجهد الإبداعي فقد تبرجت على ثلاثة محاور: محور الشعر، والنثر الفصيح.. الذي قدمت فيه تهامة إبان تلك القرون أبرع الشعراء أمثال: ابن القم، وعمارة الحكمي، وابن هتيمل، وابن حمير، ومنصور بن سحبان، والعفيف بن جعفر، والبرعي، وابن دعسين، وابن زنقل، والعلوي، إلى جانب المؤرخين والكتاب الكبار كالخزرجي، والأهدل، والناشري، وابن الديبع، والشرجي، والخلي، والموزعي، ووطيوط، .. حيث تبلغ تلك الخصوصية ذروة البذخ والرفاه في مؤلف ابن المقري (عنوان الشرف الوافي).

لكن الجانب الأكثر خصوصية يتمثل في الشعر الحميني الذي كان الأبلغ عمقاً في التعبير عما وصلت إليه الحياة الثقافية والإبداعية.. والتأثيرات الحضارية، والطريق الصوفي من تمازج خلاق في هذه المنطقة من اليمن.. وفي هذا المنحى قدمت تهامة مجموعة أسماء لامعة جمعت بين الفقه والعلم والأدب والتصوف...من أمثال ابن حنكاش، والحكاك، وابن فليتة، والمزاح، والعلوي، وعبد الهادي السودي، والفقيه مهير، وغيرهم.

في نفس الوقت الذي كانت فيه الفنون الشعبية وهي المحور الإبداعي الثالث تزدهر وتتنوع معبرة عن التمازج بين كل ما يشكل خصوصية تهامة.. سماعاً وغناء.. ورقصاً وشعراً ملهوجاً.. ومظاهر اجتماعية ترتبط بكل ذلك.. فبمقدار ما امتزج في السماع الصوفي اللحن التهامي والألحان المجاورة كاللحن الصنعاني.. فقد امتزجت فيه مؤثرات عربية وإسلامية.. جاءت معها بالألوان الشاذلية والميرغنية.. والخمرية، والجزيرية.. وبمقدار كل ذلك امتزج في الرقص والشعر الشفاهي المغنى.. الموروث المحلي والعربي والأفريقي والهندي.

وقد كان جابر رزق آخر العناقيد المعبِّرة عن مجموع السمات والامتزاجات التي قاربتها وقفتنا هذه بوحي من الراحل العظيم بعكر.. فقد قدم جابر رزق خلاصة الألحان الشائعة في المجتمع بكل فئاته في ألحان مبتكرة وشعر حميني.. وجرب أيضاً تقديم إبداعات الشعر الشفاهي المرتجل المغنى.. كما كان يقدمه بكير شاعر تهامة الأسطوري، والرامي، والبكار، وعلي باري.

****

لقد كانت حياة التهاميين تزخر بكل تلك العوالم حتى مطلع ثلاثينيات القرن العشرين حين فارق جابر رزق الحياة.. وقد فارقها في الوقت الذي فارقت فيه تهامة مركزيتها.. وبدأت صورتها الإيجابية بالتراجع.. فيما هي تتدحرج عقداً بعد عقد إلى أسفل السافلين حتى وصلت إلى ما هي عليه اليوم وسط تخاذل من أبنائها.. وتغول من المتسلطين عليها.. وسوء فهم من النخب الثقافية.

بلبل تهامة
شهاب أضاء سماءنا واختفى

لم أشعر بالعجز عن الكتابة عن عزيز من الناس كما حدث لي عند سماعي خبر وفاة المسمع(المنشد) والفنان المبدع الحبيب بلغيث حمود..

رحل المبدع العبقري في حادث سيارة " بيجو" أثناء عودته من مدينة الحديدة وقد وقع الحادث في منتصف الطريق بين الحديدة والزيدية بعد مغرب يوم الأربعاء 2004/12/29م..

وها قد مر ما يزيد على أسبوعين.منذ رحيله المؤلم..... وأنا مازلت غير قادر على التصديق.

هل حقاً ذهب بلغيث حمود..؟

هل حقا توارى بلبل تهامة الجميل عن أنظارنا إلى الأبد..؟

ألن نشاهد مرة أخرى طلعته البهية..وابتسامته العذبة وهي تبعث الدفء في النفوس، وتملأ القلوب بالبهجة والحب..؟

ألن نسمع ـــبعد اليومـــ صوته البديع يغرد في أجوائنا.. ويعطر بفرحه الأعراس.. ويفجر لواعج العاشقين..؟

لم يكن بلغيث حمود مقصداًعادياً.. ولا كان مبدعاً تقليدياً ولم يكن السماع والتقصيد عنده مجرد وسيلة لكسب لقمة العيش..

كان بكل معنى الكلمة مقصدا (مسمعاً) استثنائيا..يحمل مشروعا فنيا تجديديا ويمتلك رؤية خاصة به للتقصيد (السماع) وهي رؤية كنا -مع الأسف- نبالغ في الاختلاف معها.. ولم نعرف قيمتها إلا قبل وفاته بزمن قليل.

ولد بلغيث مُحَمَّد حمود دغيش حوالي 1971م في حارة الولي أبو شعفة بمدينة الزيدية وكان أبوه عسكريّاً من مدينة المحويت جاء للخدمة في محكمة الزيدية قرب منتصف خمسينيات القرن العشرين، أمّا والدته فهي فاطمة بنت علي شنان كان أبوها عسكريّاً من المحويت أيضاً وقد وفد إلى الزيدية حوالي عام 1930م، وقد انطلق بلغيث في عالم السماع (التقصيد-الإنشاد) في سن مبكرة من حياته عرفته المرة الأولى في مقيل أدبي مطلع سنة 1988م وكنت آنذاك في أولى ثانوي أدرس بمدرسة ذوؤال في الزيدية.. كان وقتها مازال ينغمس في تقليد كبار المسمعين.. وقد لاحظت كثرة طلبه للتوجيه والنصح وكثرة اعتذاره عن أخطائه النحوية حين يؤدي القصائد الفصحى.. وفي صيف ذلك العام كنت أقضي الإجازة الصيفية في مدينة جدة بالمملكة العربية السعودية.. وذات ليلة وأنا في عزبة بحي الهنداوية يسكنها إثنان من إخوتي وبعض أقاربي..فوجئت ببلغيث حمود ومعه مُحَمَّد مسحقة.. أخبرني أنه علم بوجودي مصادفة عن طريق رجل من أهل الزيدية يزامل إخوتي في العمل.. فوجد أنها فرصة لا تعوض كي يلقاني وكانت ليلة إبداع لا تنسى تناوبتها معه أنا أقدم وصلة من الشعر وهو يقدم وصلة سماع وبين الشعر والسماع الكثير من النكات واللطائف والنوادر..

بدا لي تلك الليلة أنه قد تطور كثيراً عما كان عليه قبل أشهر.. ذكرت له ذلك مراراً.. وقد تيقنت فيما بعد أن سرعة التعلم والقدرة على الالتقاط كانت ميزة من أهم ميزاته.. فقد توقف تعليمه عند المرحلة الابتدائية بسبب ظروفه الأسرية غير المشجعة وربما أنه إلى جانب ذلك لم يكن ميالاً للدراسة شأن كثير من المبدعين الاستثنائيين.. ومع ذلك لم يكد يطل على عتبات العشرين من عمره القصير..حتى كان قد امتلك أدواته..وبدأت معالم أسلوبه الخاص به تنضج وتتميز..ولعل السر في تشبعه بالإبداع منذ طفولته يعود إلى ميزات أسرته إذ كانت أمه شاعرة تنشد وتفدي في الأعراس.

صوت بلغيث الممتلىء بالفرح.. وفطرته الصالحة وذوقه العالي إضافة إلى طبيعته المرحة ودبلوماسيته..التي مكنته من بناء علاقات واسعة مع الناس،كلها ميزات جعلته

يتجاوز في فترة وجيزة حدود منطقته.. والمجال الطبيعي لتغريده..أقصد مدينة الزيدية وما حولها من مديريات مثل الضحي والمنيرة والمغلاف والقناوص والزهرة واللحية.وهي المديريات التي لم يمض عام أو عامين على سطوع حنجرته في عالم السماع والتقصيد حتى صارت كلها مملكته الخاصة به.

كان ذلك عند مطلع التسعينيات من القرن العشرين، وكانت في تهامة –كما هو معروف– مدن مثل الحديدة قد اشتهرت بكونها معاقل للسماع الفردي الرصين الذي تربع على قمته منذ عقود خلفاء جابر رزق من أمثال عبيد جابر، والشيخ مُحَمَّد تقليد، والفقيه حسن صدّيق و الشيخ صالح والي وصولاً إلى كوكبة العباقرة الكبار الذين تهز أسماؤهم الدنيا أمثال المشايخ عمر بركات، عبد الرحمن بكيرة، وعبدالله علي سليمان، وحسن عمر، إضافة إلى الأستاذ عبداللاه بابيس الذي كان في أول التسعينيات من القرن العشرين ما يزال شابا وعلى مقربة منهم في الدريهمي الاستاذ الكبير علي البجلي وفي المراوعة الفنان الكبير مُحَمَّد الحلبي الذي غاب عن الساحة إبانذاك ليدرس في القاهرة.....

كانت مدرسة الحديدة السماعية قد رسخت بوصفها معقلاً تاريخياً لهذا الفن ترعاه وجاهاتها وتحافظ علي استمراره واستمرار وجود مسمعين كباراً يتتابعون ويمتد كل جيل من تقليد سابقيه في هذا الفن.

وكانت زبيد وبيت الفقيه وما جاورهما من مديريات معاقل باذخة للسماع على الدوام إلا أنها لم تك تحتفي كثيراً بالسماع الفردي..كان ذوق نخبها وجمهورها يتعلق كثيراً بالشلات الجماعية التي اشتهرت بها أسر تخصصت فيها وورثتها لمن بعدها.... كما هو الحال مع أسرة المبدعين الكبار (بني حبيب) في زبيد و (بني الصافي) في بيت الفقيه الذين كانت شمسهم في أبهى أوان سطوعها عندما لمع صوت بلغيث حمود.

أما الزيدية مسقط رأس البلبل الذاهب وجارتيها في العراقة والعلم والسماع والتقصيد (أقصد المنيرة والضحي) فقد كانت قبل ظهور بلغيث تعاني منذ عقود ضموراً بيّنا في المواهب والأصوات، كان في الزيدية قبل عقود من ظهور بلغيث حمود مقصد على حظ

من الشهرة اسمه عبد الله حسين الأهدل مشهوراً يلقب بالشلال، وكان فيها حادٍ يحدو في زفة خروج العروس لصلاة الجمعة اسمه مُحَمَّد أحمد الزواك وقد تبعهما في الوجود مسمع اسمه عمر الزواك لكنهم جميعاً كانوا كما يبدو من غمار أهل الحرفة وليس من ذوي البصمات فيها لم يكن فيهم أحد بمستوى المسمع الشهير عبدالله بن ابكر دوم الكبير الذي طبقت شهرته في القرن التاسع عشر الآفاق وتغنت بعبقرية صوته كتب التراجم وتقريضات العلماء، وكأنما كان منوطاً ببلغيث حمود التعويض عن عقود الضمور تلك..فانطلق يبدع ويلحن.. يحيي ما اندثر..ويستوحي أشياء جديدة من التراث الشعبي والتراث الفني بشكل عام.

ولم يكد عقد التسعينيات من القرن العشرين ينتصف حتى كان صوت بلغيث حمود قد استولى على قلوب مئات الآلاف من الناس في طول تهامة وعرضها.

وفي تلك الفترة كانت قيمة بلغيث الإبداعية والإنسانية قد تميزت تماما وعرف مكانته وإمكاناته مثقفون كبار في زبيد من أمثال الأستاذين أحمد رسام ومُحَمَّد مطة.... اللذين كتبا له عديد القصائد....وساهما بقدر وافر في تطويره وتشجيعه على اكتشاف دفائن نفسه وذخائرها فجمع صوته على نحو غير عادي بين مدرستي السماع الفردي الرصين الذي تحتفي به الحديدة وما حولها وشمالها أيضا..والشلة الجماعية الأقرب إلى المزاج الشعبي التي تفضلها زبيد وما حولها...إضافة إلى ذلك استوعب صوته نصوص مجموعة كبيرة من الشعراء الشباب

وخلال سنوات النصف الثاني من تسعينيات القرن العشرين كان لقب (بلبل تهامة) قد التصق به...وكانت طريقته في المزج بين تقاليد السماع التقليدي والغناء الشعبي أو الجمع بين المقصد والمغني قد تحولت إلى مدرسة واضحة المعالم يقلدها عشرات المسمعين والفنانين الجدد. فقد خلق نشاطه المحموم، ونجاحه الواسع، وشهرته المدوية حالة من الهيجان لعديد الأصوات الطامحة التي ملأت الساحة بعضها عن مواهب حقيقية وقدرة على المنافسة مثل أحمد يحيى الأهدل في المنيرة، ومُحَمَّد مجلي في بيت الفقيه، وعبد القادر

قشره من المراوعة، وبعض آخر جاء بداية كا ستجابة للحالة البلغيثية لكنه ما لبث أن سلك طريق الدراسة الفنية الأكاديمية مثل الفنان حسن زغبي.. فيما ظلت عشرات الأسماء تقف عند تقليد الحالة البلغيثية فحسب دون أن تتميز بشيء.. وعلى رأس هؤلاء أخوه عبد الله حمود.

أبدع بلغيث حمود كماً هائلا من الألحان التي قصدها أو غناها لعدد كبير من أبناء جيله أمثال الشاعر مُحَمَّد طاهر الأهدل من المنيرة.....والشعراء سليمان معوضة وأحمد الشلال ومُحَمَّد بلغيث إبراهيم ويحيى إبراهيم جابرمن الزيدية..... وسالم سليمان من المراوعة.... وأحمد سليمان من الداودية والبركان الثائر من القناوص...... ومُحَمَّد واصل من زبيد... وعلي مغربي الأهدل من السخنة.... وغيرهم كثير كثير من ضمنهم كاتب هذه السطور.

والى جانب مئات الأشرطة التي سجلت له في الحفلات الحية من أعراس ومناسبات مختلفة..والتي تسمعها أذان الآلاف من محبيه كل يوم...فقد أصدر بلغيث مجموعة من الأشرطة سماعاً فردياً وشلات وغناء على الآلات الموسيقية وهي أشرطة أحبها الناس واستمعوا إليها بشغف كبير..

وقبل موته بفترة كانت شهرته قد تمددت بشكل واسع خارج تهامة فتسلقت الجبال إلى صنعاء وحجة والمحويت وخرجت إلى السعودية وأتيح لصوته البديع أن يشدو في سماوات القاهرة وباريس، وكان إلهامه للناس قد خرج عن دائرة الفن إلى السلوكيات فقد شغف الناس بتناول مشروب الفانتا الأحمر مع القات لأنه هو من ابتدع ذلك، وقد انتشر الأمر وذاع كموضة منذ عام 1997م، وصار معروفًا في جميع أنحاء اليمن.

ولم يكن نجاح بلغيث حمود بسبب صوته ومواهبه الفنية العبقرية وحدها.. بل كان ثمة سبب آخر يتمثل في ذوقه الرفيع ودماثة خلقه، وابتسامته الدائمة، واستعداده بمحبة مدهشة لتلبية رغبات جماهيره، وقدرته العجيبة على إرضاء أذواق محبيه على اختلاف أمزجتهم وتباين أعمارهم، وأكثر من ذلك تفننه في حفظ مقامات الناس، والعزف على

أهوائهم واستشفاف مايريدون.. حتى ليكاد يعرف بالتحديد ما يناسب للشدو في عرس تقيمه القرية الفلانية أو الأسرة الفلانية.. بل إن من بدائع تجليه وهو على المسرح قدرته على مراقبة الوافدين إلى المخدرة فما أن يلمح ذا مقام مميز.. حتى يبادر إلى الترحيب به.. فإن كان ذلك القادم من الشغوفين بالسماع.. المعروفين بالذوق الحسن فيه.. فهو يعرف ما تشتهي نفسه.. وتستحضر به مواجيده فيسارع إلى إكرامه بقصيدته المحببة إليه مقدمة بإهداء خاص يذيعه عبر الميكرفون..

وليس هذا وحده ما كان يأسرالناس فيه، فقد كان بلغيث حمود رغم رواجه وتسابق الناس عليه حد تقديم أعراس أوتأخيرها عن مواعيدها من أجل الفوز به إلا أنه لم يحاول قط استثمار رواجه من أجل رفع المقابل المادي لإبداعه.. كان الموسرون والكرماء يعطونه أحياناً فوق ما يتوقع بسبب قدرته على سلب ألبابهم وحرصه على منحهم سعادة عرسهم أو مناسبتهم كاملة.. أما الفقراء فكان يأخذ منهم ما قسم.. وأحياناً كثيرة يتبرع بإحياء العرس مجاناً بل ويقدم الجبا للعريس وأهله فوق ذلك.

وإذا كان رحيل بلغيث حمود شديد الإيلام للنفوس بسبب كل صفاته التي أسلفناها وعطاءاته التي لامسنا بعضها، ولأنه –أيضا– رحل عن عالمنا وهو في قمة إبداعه وقمة شبابه وشهرته وتربعه على عرش الفن في تهامة...فإن الشعور بالأسف سيكون أكثر إيلاما إذا تذكرنا الشريط الذي أصدره بلغيث قبل عام أو يزيد قليلا من رحيله... فقد كان هذا الشريط الغنائي أكثر دلالة على نضجه...وعلى وعيه بإحياء ألحان التراث الشعبي..وعلى ما كان يمكن أن تستفيده هذه الألحان من جمال صوته وقدرته على الالتقاط وإعادة الإحياء والتقديم.

أذكر أني فور استماعي لهذا الشريط نهاية سنة 2003م ذهبت إلى الزيدية لرؤيته..من أجل إخباره عن فرحي بمنحاه هذا الذي يأتي في الوقت المناسب إذ نحن في أشد الحاجة لتوثيق تراثنا الذي تلعب فيه أياد كثيرة إهمالا وتهميشا وتجاهلاً وتخريبا...وكنت قد أخبرت كثيرين بشعوري أن تراثنا يمكن أن يستفيد كثيراً من موهبة بلغيث حمود وشعبيته

الواسعة، ومن أسف أنني لم ألتق به فقد كان غائباً.. ويبدو أنه لم يعد إلى الزيدية إلا بعد رجعتي إلى صنعاء.

وها قد رحل بلغيث حمود... بعد أن أقام الدنيا وأقعدها وأسعد قلوب الناس بصوته الرائع وتجديداته المذهلة، وحقق شهرة واسعة في سنوات قليلة..فكأنه شهاب أضاء سماءنا فجأة.. ثم اختفى.

ما يبعث على الأسى أن عبقرياً مثله لم يتلق في رحلته الإبداعية أي عون رسمي.. لا من الحكومة ولا من المؤسسات الثقافية الأهلية.. ومات دون وظيفة تعيل أسرته من بعده وكان الاستثناء الوحيد هو المبادرة المشكورة التي قدمها الأستاذ خالد الرويشان وزير الثقافة والسياحة فور سماعه بالحادث المروري الذي أودى بحياته.

محمد مطة
رحيل لا يستوعبه الكلام

فجأة..... انطفأت الابتسامة الأجمل في تاريخ الإبداع اليمني، ... -هكذا فجأةً- مات الشاعر مُحَمَّد مطة...

ولكن لماذا أقول إنه مات فجأة!؟

ألم يتعرض لأكثر من مرض وأكثر من أزمة قلبية.... كان آخرها الأزمة القلبية التي أصابته قبل سنة من رحيله.. ونام إثرها شهراً في المستشفى الجمهوري بصنعاء... وشهراً آخر في أحد مستشفيات دمشق؟..

أو لعلي كتبت (فجأة) لأقنع نفسي بأنني لم أكن مذنباً حين لم أسارع إلى لقائه بعد أن اتصل بي أكثر من مرة في الشهرين اللذين سبقا رحيله.. طالباً أن أمر به حيث يعكف على إتمام كتابه (إعراب القرآن الكريم إلكترونياً) في فندق الفيصل بصنعاء.

أو لعلي كتبت (فجأة) لأن مطة بإقباله الفريد على الحياة... وتفاؤله بالمستقبل.. وفرحه بكل يوم جديد.. كان يقنعنا... أنه من الذين يعيشون طويلاً.. لأن الحياة تستمتع وتفرح بهم.. وتحافظ عليهم.. كما يستمتعون هم بالحياة ويفرحون بها...ويحافظون عليها.

إلى هذه اللحظة لا أستطيع تصديق أن الموت قد أخذه من بيننا... لا أستطيع تصديق أن مثل تلك الابتسامة التي أضاء بها مطة وجداناتنا..ومشاعرنا حتى صار ذكره.. وحضوره في حياتنا يرتبط ارتباطاً شرطياً بها... يمكن أن تنطفئ فجأة.. هكذا..

****

الشاعر والأديب والفنان مُحَمَّد مطة.. لم يكن مجرد ابتسامة نأسى لانطفائها زمناً ثم ننساها... ولكنه كان حضوراً إنسانياً استثنائياً.. إلى جانب كونه حضوراً إبداعياً وفنياً..

مؤثراً.. يتجاوز مجده النفع الفردي ليشمل المجتمع.. فهو يبدع ويحرك المبدعين من حوله... لأنه كان يجمع بين صفات المبدع، والإنسان، والمعلم، والمناضل، إلى جانب صفات الإداري الجيد ورجل المجتمع البارع... الذي يتقن عمله.. وتتحول خدمة الآخرين عنده إلى لذة.. يستعذب التعب من أجلها... ويستطعم الوجع فيها.

****

كان مطة أحد ممثلي الجيل الأخير من عمالقة زبيد.. ولد في ربع الجزء (الجانب الجنوبي الغربي من المدينة) سنة 1958م.. ودرس في إحدى المعلامات. وإبان إكماله دراسته الإعدادية والثانوية كان ينهل المعارف العميقة على أيدي علماء المدينة العريقة.. إضافة إلى انخراطه الواسع في التيارات الثقافية (اليسارية بالذات) التي كانت سائدة عند نهاية الستينيات ومطلع السبعينيات من القرن العشرين.

كل ذلك مع وجوده في بيئة قارئة تعشق الكتاب والثقافة والفكر والإبداع شكَّل شخصية مطة الذي قدم إلى صنعاء عند نهاية عقد السبعينيات من القرن الماضي ليدخل جامعتها (قسم الفلسفة وعلم الاجتماع) مكتملاً.. ومؤهلاً تأهيلاً عالياً...

****

سنة 1984م.. عاد مطة إلى زبيد فدرّس في مدرسة (أبو موسى الأشعري) ثم في (معهد المعلمين) بعدها صار موجهاً تربوياً... قبل أن يحصل على درجة مستشار.

وبالتوازي مع عمله الرسمي.. رأس –لفترة- نادي السلام الرياضي الثقافي بزبيد.. ثم أسس مكتب الثقافة الذي تحول خلال السنوات الأخيرة إلى واحد من أهم مفعِّلات الحركة الثقافية هناك بسبب نشاط مؤسسه (مطة) الذي لا يهدأ... وكان أيضاً أحد مستشاري المنتدى الأدبي الثقافي في زبيد الذي يرأسه... تلميذه وصديقه الوفي الشاعر الأديب عبد الله الكوكباني...

ومطة هو صاحب فكرة المهرجان الشعري الذي ينعقد في مارس من كل عام... بمشاركة أكثر من مئة شاعر وشاعرة... والذي صار من أهم المهرجانات الثقافية اليمنية.

قبل ذلك كله... كان مطة عضواً مؤسساً في اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين فرع الحديدة... ثم فيما بعد أحد مؤسسي فرع زبيد.

****

ما سبق ليس كل شيء.. فما أكثر وأوسع جوانب ذلك الرجل الوسيم البالغ النحافة..فقد اشتهر مطة بإجادة الخط العربي.. فكان فيه فناناً بامتياز، وكان أشهر أساتذته في زبيد حتى إن بيته.. تحول لسنوات طويلة إلى قبلة لهواة فن الخط العربي.... وعندما كان يؤلف موسوعته الضخمة (قلم الكتاب) في فن الخط وقواعده.. رزق بآخر أبنائه فسماه (قلم الدين) ولكن الناس استطرفوا مناداته بـ(قلم مُحَمَّد مطة). وكان ذلك يسعده جداً، بل كان يحب التأكيد عليه من أجل حكاية قصته.

****

بكل المقاييس كان مطة واحداً من أهم وأنشط رواد الحركة الثقافية في زبيد بل في تهامة بشكل عام... وكان أقل زملائه ادعاء أو حرصاً على ادعاء الأبوة والأستاذية.. كان يدأب ويثابر.. بمنتهى البساطة والتواضع في أكثر من مجال... وقد انعكس نشاطه على عدد كبير من زملائه وأصدقائه وتلاميذه من الشعراء والمسمعين والفنانين... أذكر جيداً أن بلبل تهامة الراحل المسمع الكبير أبو الغيث حمود رحمه الله.. كان لا يمل من الحديث عن فضل مطة عليه... وأنا إذ أذكر هذا لا أنسى حتى اليوم لقائي بمطة في شارع الرقاص بصنعاء.. في أحد أيام مايو 2005م... تلك اللحظة التي أجهش فيها بالبكاء لمجرد أن قلت له: (عظم الله أجرك) في أبو الغيث حمود...فقد كانت فاجعته برحيله المبكر بعد أن صنع ذلك الدوي المثير في عالم السماع والإنشاد، لا تقارن بها فاجعة.

****

من أشهر ما كان يميز مطة أسلوبه في الخطابة.. كان صوته الفرح ولغته الراقية.. وابتسامته المغسولة بالصدق والنقاء... وإيمانه الواثق بما يقول..تجعل شحنة صوته التعبيرية والانفعالية تصل إلى المتلقي بعنفوان قل نظيره.

وكانت أكثر مواضيع خطبه وطنية...فهو يؤمن باليمن تاريخاً وإنساناً.. ووطناً موحداً.. لا تفك لحمته النوازل.. ولا تزلزلها الأهوال مهما اشتدت أو تكاثرت..... ولعل أبلغ دليل على إيمانه بوطنه.... ما فعله في الاحتفال بعيد الرابع عشر من اكتوبر سنة (2008) فقد وصل إلى صنعاء قادماً من دمشق قبل الاحتفال بليلة واحدة (على ما أذكر).. وكان ما يزال في فترة نقاهة.. إثر النوبة القلبية التي تعرض لها في اغسطس 2008م، وسافر بسببها إلى دمشق للعلاج.

أصر مطة على المشاركة في الاحتفال... ورغم ممانعتنا صعد المنصة حيث تبرجت بلاغته إبداعاً جميلاً كالعادة –شعراً ونثراً، وابتسامة تمسح الوجى عن وجوه الحاضرين– حد أن الجهات.. التي كان يمكن أن تقدم له مساعدات علاجية.. خامرها الشك أن مرضه فيه قدر من الادعاء...

وحين كنا نضحك ونحمِّله مسئولية هذه المفارقة الطريفة.. كان يقول: واجبي نحو وطني أهم مني ومن كل شيء.

****

كان مطة رغم إقلاله شاعراً متميزاً... وكان ابناً لزبيد المدينة العريقة بامتياز (الامتياز له ولها) معظم قصائد ديوانه المخطوط حتى الآن (ترتيلات عاشق) تتغنى بزبيد... والذين عرفوه لا يستطيعون نسيان حضوره العاشق وهو يشدو لمدينته مدافعاً عن أبنائها وتاريخها العلمي والثقافي:

كلمـــا أيقـــظ الغـــرام الغرامـــا **أشعل الوجد في فؤادي الهياما**
وإذا مـــا أهـــل نجـــم ســـهيلٍ **قـــال للعلـــم في زبيـــد تســـامى**
ههنـــا يبتـــدي شمـــوخ المعـــالي **ههنـــا يحمـــد الســـراة المقامـــا**
واهـــم مـــن يظـــن أن زبيـــداً **ألقت اليوم من يديها الزماما**
واهـــم مـــن يظـــن أنّا أضـــعنا **مشعل العلم أو خفرنا الذماما**

شمســـنا لم تـــزل بـــراًد ضـــحاها وبـــرغم الغيـــوم تهـــدي الأنامـــا
كـم شـيوخ هنـا وكـم مـن أديـب كـم إمـام بالفضـل يتلـو إمامـا
وشــباب أصــالة العلــم فــيهم هـــذبتهم فهـــذبوا الأقلامـــا
أرضـــعتهم مـــن العلـــوم إباء ووفـــــاء وعفـــــة وســـــلاما
وكســتهم مهابــة الجــد معــنى للتســـامي فســـابقوا الأيامـــا
لم يحنـــوا إلى الســـقوط ليرقـــوا فـــوق وحـــل يـــزوق الأوهامـــا
حلمهـم والـذرى وجـل الأمـاني أن يظـــل الإباء فـــيهم مقامـــا

كل هذه الشفافية وكل هذا الصدق والإبداع.. لم يكف مطة ليعبر عن حبه لمدينة زبيد.. فألف كتابه (زبيد في عيون الشعراء) وفيه تتبع عيون القصائد التي تغنت بمجد المدينة تالداً وطريفاً.

وقد وزع من الكتاب مئات النسخ المصورة رغبة منه في أن يوصل لنا كيف انعكس حضور المدينة في عيون الشعراء عبر العصور، ممهداً للدخول إلى النصوص بمقدمة ضافية عن تاريخ المدينة وموقعها العلمي والثقافي والأثري والسياحي وجمال طبيعة محيطها ثم قسم قصائد الشعراء من عصور مختلفة حسب أغراضها التي تموضعت من خلالها المدينة وهو جهد ينم عن سعة دراية بمقدار ما ينم عن حب غامر وذوق رفيع.

****

لقد كان وجود مطة في حياتنا من ذلك النوع الذي يثري العلاقات الإنسانية ويدفع بنا إلى التسامي عن صغائر الحياة وأوجاعها اليومية ويرسم مثالاً صادقاً ونقياً لما نحب أن نكون.

انطفأت ابتسامة مطة بعد ساعتين من وصوله إلى مطار دمشق ظهر الخميس 2009/6/18م، بعد إصابته بنوبتين متتاليتين سبقتا وفاته بساعات..

وكان الجانب الصوفي قد تغلب خلال الفترة الأخيرة من حياته على كل شيء فيه... خاصة بعد أن رأى النبي ﷺ في المنام... فعكف على إنجاز مشروعه الباهر (إعراب القرآن الكريم إلكترونياً) وهو المشروع الذي قدمه قبل شهرين من وفاته إلى الرئاسة حيث تلقى وعداً بتبنيه وطباعته....فمات وهو يشتغل عليه.

وقد صار حقاً على الجميع إكمال هذا العمل...... وإخراجه إلى النور، فهو عمل يذكر بإبداعات أبناء زبيد وعبقرياتهم في العصور الخوالي.

****

أخيراً......

أيها الحبيب الكبير مُحَمَّد مطة.... لا أستطيع أن أعتذر إليك مع معرفتي أنك قد غفرت قبل أن ترحل....إنه درس تعلمته على يديك.

فالسلام عليك نقياً وبهياً في حياتك ومماتك

الشاعر أحمد سليمان
حضور خارج المألوف

في بطولة خليجي 18 التي أقيمت في يناير 2007م. والتي أحرج فيها المنتخب اليمني زميله الكويتي إحراجاً كبيراً.. وعانى منتخب الكويت حتى الدقائق الأخيرة من المباراة قبل أن يتعادل فوجئ جميع مشاهدي المباراة ـ خاصة من يعرفون الشاعر أحمد سليمان ـ بالمعلق الخليجي يصيح: حال المنتخب الكويتي كما يقول الشاعر اليمني أحمد سليمان:

ولا قدرت اتقدم ولا قدرت اتأخر

كثيرون من محبي هذا الشاعر يعرفون أنه واسع الانتشار... واسع الشهرة.. يحفظ الناس قصائده في اليمن والدول المجاورة.. بشكل مذهل... ولكن معظم هؤلاء لا يعرفون أن شهرة أحمد سليمان.. في جزء كبير منها تدين لتطور أجهزة الهاتف المحمول..

أحمد سليمان شاعر البلوتوث بلا منازع.. عشرات القصائد المصورة من حفلات رسمية.. وأعراس وأمسيات خاصة.. يتناقلها الناس عبر جهاز المحمول ويتم انتساخها بالآلاف.. الأمر الذي يجعل الشاعر أحياناً يغلق هاتفه لكثرة ما يتلقى من اتصالات من المملكة العربية السعودية ودول الخليج.. ناهيك عن اليمن.

إنها حالة غير مسبوقة.. ولا مدروسة حتى الآن ونحن غالباً ما يغيب اهتمامنا بظواهر من هذا النوع إلا بعد انتهاء زمنها.. أو بعد التفات غيرنا لها.. وحتى الآن.. لم يقم أحد بتفسير لماذا يصل اهتمام البلوتوث بالشاعر أحمد سليمان.. حد أن تصادر مديرية التعليم في إحدى محافظات المملكة العربية السعودية أكثر من ستين هاتفاً محمولاً من ثانوية للبنات في يوم واحد.. بسبب تناقل الطالبات قصيدته الشهيرة:

عَيْنَكْ في عَيْنِي وتَنْكِسْ

كَمْ لِي أدَارِي حُبّكْ
سِنِيْنْ وانَا صَابِرْ
ذُقْتَ الْمَرَارهْ فْ حُبّكْ
تمُرْ جَنْبِي وتَغْفُلْ
والْحُبْ سَكْتهْ..يَقْتُلْ
واقُوْلْ: يمْكِنْ تَعْقُلْ
جَرّعْتَنَا كَاسَ الذّلْ
مَالَكْ ومَا لَ امْحَاسِدْ
واتْرُكْ كَلاَمَ الْوَاشِي
واعْطِفْ عَلَى منْ حَبّكْ
الْنّوْمْ جَافَى عُيونِي
مِنّهْ تْعذْبَلْ وَاتْفُلْ
كَذّابْ فِيْمَا يَنْقُلْ
وَارْحَمْ دُمُوْعَهْ تَهْمُلْ
لا اشْرَبْ وَلا عَاد اكُلْ
يَاليتْ وانَا طَيْرُ
ولَمّا تجِيْنْ الْفُرْصَهْ
وَاحُطْ صَدْرِي فْ صدْرَكْ
واللّي يقُولُوا: يقُولُوا:
شَاعَشْعِشْ فِ دَارَكْ..وَاحُلْ
شَاهْجُمْ برُوْحِي، وَادْخُلْ

وَاشُمْ عَرْفَكْ وَامْفُلْ

واللّي – شَيَحْصُلْ.. يَحْصُل

مِشْ مِنْ أتَى قَالْ: شِعْرُ

مَا الشّعْرْ لا اللي يهُزّكْ

مَا الشّعْرْ لا اللّي يدْكُلْ

تَخَفْ سَاعَهْ.. وتَثْقُلْ

حلاَكْ حَلاّ حَالِي

كُثْرَ المحَلاَ شَرّغْنَا

وَاسِيدَ ابِي.. وسِيْدَ الْكُلْ

حِدْنَا.. تْنَحْنَحْ.. وَاسْعُلْ

****

كل الكتاب الذين شاهدوا ما فعله الشاعر أحمد سليمان بالجمهورين العماني والعربي في مسقط عاصمة الثقافة العربية 2006م لم يكتبوا لنا.. عن سر أحمد سليمان.. وسر قدرته على الوصول إلى المتلقي بهذا الشكل..

كيف يتمكن بسهولة من كسر حاجز اللهجة.. وإشراك الجمهور معه في خلق اللحظة الإبداعية.. في إطار حضور شعري وإنساني.. تتبلج فيه أروع حالات السهل الممتنع في الإبداع والمبدع...

أحمد سليمان بمظهره البسيط.. الفوطة والشميز والغترة وزنبيل أوراقه وعرجته الجميلة وضحكته المجلجلة وصوته الجهوري الدافئ القارح وجرأته وقدراته العفوية على التمثيل.. والتلون.. واصطناع الخجل فيما هو يعزف على الخيط الرفيع جداً... بين الوعظ... وإسقاط جدران كل التابوهات التي يمكن أن تقف أمام مبدع من المبدعين.

ليس عجيباً إذن أن يختار البلوتوث أحمد سليمان بين أهم نجومه... لديه إذا ما يطلبه الناس.. لديه ما يروج ويحتفى به بين الأفراد والجماعات في العلن كما في المخادع.. والمخادر.. الصالات وعلى المنابر وتحت وسائد المراهقات..

وجه أحمد سليمان وجه مختلف.. مثل صوته ومثل ضحكته وعرجته.. ومثل شعره بكل تأكيد ولمن لا يعرفه.. مثل حميميته في صداقته وإنسانيته وفي اهتمامه بكل من يلقاه..

أحمد سليمان أيضاً مبدع أعطى نفسه للإبداع.. ليس لديه شغل سواه.. تالياً وضع نفسه تحت أمر جمهوره ينصاع لرغباته ولا يتململ من كثرة اقتراحاته في بوفية من البوفيات... بوفية جولة سبأ في العاصمة صنعاء مثلاً.. قد يتجمع عليه خمسون فرداً من العاملين في البوفيات والمحلات المجاورة ومن البائعين المتجولين في الجولة يسمعون منه.. يتحول كأس الشاي إلى فعالية شعرية.. وبنفس المحبة والرغبة والإقبال الذي يبديه في مخدرة قوام جمهورها بالمئات أو حفل وطني جمهوره بالآلاف.. يلقى أحمد سليمان جمهور البوفية محتفياً باشاً فرحاً فرحاً لا تحده حدود.. كذلك يفعل مع جمهوره في الباصات أو سيارات الأجرة الذين يحرصون غالباً على تصويره.. الصورة أو الصور التي يتم تناسخها فيما بعد..

لن يدرك أحد أن هذا الكلام لا مبالغة فيه إلا إذا جرب أن يصحب أحمد سليمان يوماً كاملاً.. يسير معه في الشارع ويدخل معه المطعم والمقوات.. ويذهب بصحبته إلى مقيل من المقايل..

عندما يجرب أحد ما ذلك.. ويرى كيف يتناسل جمهور الشاعر في كل الأماكن المذكورة.. وكيف يقف هو لهذا الجمهور فيسمعه الشعر ويبادله النكات.. ويرد على الأسئلة الكثيرة.. وكيف يأخذ مشوار الساعة أربع ساعات لكثرة ما يستوقفه الناس هنا وهناك..

أحمد سليمان يكاد يكون الأول بين كل الشعراء في أي مكان في العالم إخلاصاً لشعره.. وعيشاً في تجربته.. ومعايشة لها.. استقبالاً للقصيدة وشغفاً بكتابتها.. وتوصيلاً

متواصلاً لها إلى المتلقي فهو ينتقل بها بين القرى والمديريات والمدن والمحافظات في الوطن وخارجه ويوصلها إلى جمهورها حية تتلون بحالاته المختلفة.. ويتزايد بهاؤها في بهاء حضوره هو... وبهاء حضور المتلقي...

من هنا... فإن التوقف عند هذه التجربة بل الأحرى مسايرتها ومجاراة تطورها وتبدلاتها وتخلق حالاتها.. ورصد تمظهراتها.. وتأثيرات صوتها وقنوات توصيلها.. وهي في عنفوانها.... وعند ذروة شبابها.. وصفاء توهجها.. يبدو فرصة حقيقية لرصد تجربة مختلفة قليلة الشبه ونادراً ما يتكرر مثلها... إبداعاً ومبدعاً..

عمر الضرير
الكتاب الذي لم نقرأه كما يجب

أكتب غصباً عني..فقد حاولت أن أقنع نفسي بعدم الكتابة عن الضرير.لكني عجزت، لا أريد لكتابتي عن هذا الرجل، بل عن هذا الكون المتعدد من الشعر والعلم والأدب والرواية الشعبية والنضال الوطني والتاريخ التربوي..أن تكون كتابة مناسباتية..حتى لو كانت المناسبة رحيله عن هذه الفانية.. وها قد مر ما يقرب من أسبوع على رحيله وأنا أدافع نفسي التواقة للكتابة عنه...حتى شعرت قبل لحظات بالعجز عن إيقاف فيض مواجعي عند حده..

هاجمني الراحل الكبير عمر الضير من كل الجهات.. تسلل إليّ دفء ذكرياته حاراً عميقاً وبهيجاً إلى درجة أغرقت خدي بالدموع.. حوّطتْ بي ابتسامته المرحة العذبة واستيقظ في شجني المعذَّب صوته الحلو وهو ينشد رائعة سي شعيب الأهدل:

شوصي معاك وانسيم حسك تنسى

بالله لا وزيت علاه...

سلم لي على ساجي امنعاسى

تقله ما جرى عسى

خلك جاوز الهلاك

لاعاد تصابح بك ولاتماسى

ولو بنظرة منك في المنام يتواسيء

واشلا حضرت به شانتكى

وشاقل لمخسيس هناك كرسء

كم يا غرف جريتها وبراصيء

ومرادي استكه أذاه

لقيت أفعاله كلها بعاسيء

أسره بز ذا الفاس ومن جنوني قصئ

ولا قت أنا وزاك

بتكنا من امساق لمكراسيء

نفسي بلقمتين من سبايا موسيء

والله ينقم المّحسود

قاموني عن زادي وعادنا شيء

ثم وهو ينشد رائعة سي شعيب الأخرى:

وماله على اماي يبرحه ويكافيه

وأبى ما يعمنا

ناس الله عسى اماي ما معه فيه

وجرعه للذي مريضو تشفيه

واللي غابو سنين...

جرعه واحده تكفيه

ومافيش كملحاف لجسمك يدفيه

يلمه ويلتمه

وصبرك بالذي ناقصو توفيه

وقلبي لا هو حر ما طري به يكفيه

ذاك امبخت وامنصيب

لا تصاحب امباطن ولا تماشيه

وخلي مريضو والله يشفيه

ولما صح وابترى

رمى بي بين امشوك وامحنش فيه

وامعترض بيننا سفيه بن سفيه

ذاك كاسي وكاس خلي مطروحو

واللي شاجعو يكافيه

لكأن هذا اللون من الشعر لم يُكتب إلا ليرويه الضرير وإلا ليتفنن في إلقائه ويزرعه في وجداننا مرتبطاً ارتباطا شرطياً به.. فأنا على كثرة معاشرتي للشعر الشفاهي توثيقاً ودرساً ومقاربات مختلفة..وعلى كثرة من عرفتهم من رواته والمتفننين فيه سأظل مندهشاً حتى أموت باثنين لا ثالث لهما..الأستاذ علي الأهدل حين يروي لشاعر تهامة الأسطوري مبارك بكير، و الأستاذ عمر الضرير حين يروي لسي شعيب الأهدل....الرجلان كلاهما يمتلك ميزة قل أن تتوافر للرواة..مهما اجتهدوا..أعني ميزة تحبيب النص المروي إليك فهو إذ يرويه لك يشعرك بأنه لا يتحدث إنما يمضغ قرصاً من عسل..ثم إن الأداء التمثيلي للنص القاء ونبراً وتعابير وجه وحركة جسد توفر عليك مشقة البحث عن الألفاظ القديمة أو الغريبة والمهجورة.. لأن طريقة الراوي في أداء النص تشرحه وتستحضر الدلالات الغائبة تحت غبار الزمن وتطور الحياة وما جد عليها من متغيرات.. لقد خصصت الأهدل رحمه الله بفصل في كتابي " قمر في الظل" وبقي الضرير الذي لم أكن أتمنى – يشهد الله –- أن أكتب عنه بدافع الحزن لرحيله...فقد كان حقه علي – وأنا أزعم أنني ممن يعرفون مقامه في الشعر والعلم والأدب والرواية وفي حسن المعشر والصحبة ولطف المعاملة وطيب الشمائل – أن أكتب عنه..وأقف ملياً عند تجربته الواسعة والمتشعبة وهو حي يرزق.. لا أن أقدم علي الكتابة عنه مكلوماً برحيله ونادماً على التقصير في حقه..

عرفت الضرير صيف عام 1987م في اليوم الذي تعرفت فيه على فرع اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين بالحديدة.. وهو اليوم نفسه الذي صرت فيه أصغر كاتب ينتسب إلى الاتحاد وتقبل عضويته فيه..وتعرفت في ذلك اليوم أيضاً على الأدباء عبد اللطيف الربيع وعبد الرحمن الأهدل وعبد الصمد القليصي.. والعزي مصوعي وجابرعلي أحمد وعبد الله مجمل وعبد الجبار باجل وغيرهم من الأدباء.. الذين كنت قد قرأت لبعضهم إبداعات ومقالات في مجلتي (اليمن الجديد) و(مجلة الكلمة).

كنت وقتها صغير السن نسبياً..لكني كنت قد قطعت أشواطاً لا تصدق في عوالم الكتب والمجلات وسماع الإذاعات ومتابعة البرامج الثقافية لتلفزيوني اليمن والسعودية.. ولأن متابعاتي وقراءاتي كانت تتم كلها وأنا في الجيلانية بعيداً عن المدن ولا تربطني صلات من أي نوع بأي كاتب من الكتاب إلا القراءة لهم من بعيد، فقد كان ذلك اليوم استثنائياً لا يمكن أن يمّحي من ذاكرتي ولا يمكن أن أتوقف عن شكر الكاتب فؤاد عبد القادر عليه، فقد كان هو من قادني إلى الاتحاد وإلى التعرف بتلك الكوكبة من الأدباء وتلك قصة أخرى رويت تفاصيلها في كتابة تخصه.

لفت نظري الضرير ذلك اليوم..وأعجبني احتفاء الأدباء به حين دخل القاعة.. بشوشاً تتكسر القهقهات و النكات على شفتيه. .

قال لي فؤاد عبد القادر: هذا مثل من أمثلة الإرادة التي تحلى بها عباقرة مثل البردوني وطه حسين وعبد الرزاق البصير وغيرهم من العظماء..هذا الرجل البسيط الضرير يرى أفضل من مليون مبصر وهو من المناضلين والعلماء ومن أوائل خريجي جامعة صنعاء... قبل أن ينهي التعريف على طريقته في تأكيد مكانة الرجل بعد أن تعذر عليه تقديم الأوصاف المناسبة في تلك العجالة: إنه تاريخ..تاريخ..تاريخ يا علوان..هذا وأمثاله لازم يكونوا قدوتك..

ألقى الأستاذ عمر الضرير بعض شعره في لحظة كنت فيها فرحاً بنجاحي والحفاوة التي حظيت بها قصيدتي " احتراق الركام" حد أن عبد اللطيف الربيع رحمه الله قال مخاطباً قيادة فرع الاتحاد بالحديدة: لا ينزل من على المنصة إلا وبطاقة عضويته جاهزة.

لذلك لم أركز على فقرة الضرير..ثم لم أسلم بعدها من قهر أخي مُحَمَّد لي وهو يستظهر بعض ما علق بذاكرته منها سائر ذلك اليوم...

أبصارنا شاخصة إلى السماء تنظر

أشجارنا يابسة وأين منها الثمر

سهولنا هامدة غبارها منتشر

وكل شيء متعبٌ يا شعب ما تنتظر؟

حتى إني حفظتها وبقيت أحفظها حتى اليوم ولا أدري إن كان أخي مُحَمَّد لا يزال يحفظها أم لا؟

بعد ذلك جمعتني بالضرير مناسبات كثيرة خاصة في فترة نهاية التسعينيات ومطلع الألفية.. حين كان يأتي إلى صنعاء لبعض المهام الأدبية مثل طباعة كتاب أو المشاركة في فعالية ثقافية..حينها لم أكن أفوت فرصة تتاح لي للاغتراف من علمه الواسع وذاكرته الثرية الثرة.. والاستمتاع بمثاقفته التي تضعك أمام واحد من أكثر من تعرفهم من الأدباء تهذيباً ومؤانسة وتواضعاً وروحاً في منتهى الأناقة والرقي..

غير أن أكثر ما حظيت به من صحبة الضرير ومثاقفته والاستمتاع بفيض ذاكرته الغامر كان أيام مهرجان " آفاق الروح" في مايو عام 2004م..فقد ابتكر الأستاذ خالد الرويشان وزير الثقافة آنذاك ضمن فعاليات صنعاء عاصمة للثقافة العربية..مهرجاناً للمبدعين من ذوي الاحتياجات الخاصة.. واختارني لرئاسة المهرجان والتحضير لفعالياته..وقد وجدنا أنفسنا أنا وفريق العمل المساعد لي أمام طوفان إبداعي مذهل في جميع الفنون من الشعر إلى الموسيقى والغناء والإنشاد والرقص والرسم والنحت والحرف اليدوية التقليدية والتمثيل..

فيض من المواهب النوعية وكمٌّ من المشاركين لم يتسع لهم إلا رحاب حديقة السبعين.. حيث انغمسنا في التحضيرات والبروفات التي كان بعضها يستنزف دموعنا تأثراً وإجلالاً لتجاوزه حدود الإعاقة الجسدية و تأشيره القوي على مقدار مابذل من جهد في سبيل التجاوز والعبور أو لكونه يتجاوز حدود الإعاقة بعبقرية الموهبة وحدها في أحيان كثيرة...

وبدافع من ذلك الزخم الإبداعي تفتقت في ذهني فكرة استضافة مجموعة من كبار المبدعين الذين يصدق عليهم الوصف ولديهم فوق ذلك ميزة التجاوز بأجنحة الذات وحدها لأن كل واحد منهم حفر مجرى نهره الخاص بجهد ذاتي بعيدا عن رعاية الجمعيات أو حتى قبل مجيء زمنها.

اقترحت مجموعة من الأسماء على رأسها الأستاذ عمر الضرير وامزخم أحمد سليمان والشاعر يحيى شرف المؤيد والشاعر جمال الشعبي..ومن ثم اتسع المقترح حتى إنني رشحت مبدعين كباراً عرضت لهم الإعاقة وقد قطعوا شوطاً كبيرا في الحياة مثل الراحلين الكبيرين مُحَمَّد قاسم الأخفش وعبد الرحمن طيب بعكر..

ومع أن الظروف قد حالت دون حضور البعض منهم... فإن المجموعة التي حضرت وعلى رأسها الأستاذ عمر الضرير كانت إضافة نوعية للمهرجان.. أكثر من ذلك كانت ملحه وسكّره..لا بل عسله السلامي المصفّى..

لكنها من جهة أخرى كانت فرصة عُمرٍ لي مع الضرير..فما مر صباح من صباحات ذلك المهرجان دون أن أجول معه في مضماره، ولا انقضى نهار دون أن أشبع شغفي به - ابنه الدكتور مُحَمَّد الذي كان يرافقه شاهد على ما أقول — أما هو فكان كريماً معطاء في استجاباته لي وتماهيه مع توقي لمروياته وعوالمه التي يذهلك تعددها ويبهرك ما فيها من مخازن ولقى كريمه... وما زالت حلاوة إنشاده لما يرويه من روائع سي شعيب الأهدل طازجة الحضور في ذاكرتي العابقة -أيضاً - بروائع الضرير الخاصة به (أقصد إبداعه وشعره) وبما كانت تفيضه عليَّ مثاقفاته وما امتلأ به جرابه الواسع من علوم اللغة وفقهها

ودور أدباء تهامة في النضال الوطني، ناهيك عن تجارب الدنيا ومواقف الحياة..و لطائف النكات وبدائع الظرف..ونكهة المكان وطبائعه، التي كان الضرير خير ممثل وسفير لها وقد قدم منها جانباً قوي الدلالة عليها في كتابه (مواويل تهامية) كما قدم جانباً ثانياً منها في كتابه (الكرم والنخيل) وجانباً آخر في مجموعته الشعرية (لحن الشاطىء).

مع ذلك أشعر بأن ما أسرده من حظي الفاره بالضرير وصحبته إنما يزيدني حرقة عليه وإحساساً بالتقصير في حقه..المسألة هنا أكبر بكثير من أن أحصرها فيما ذكرته سابقاً من واجب الكتابة الذي كان عليَّ أن أخصه به وهو حي يرزق..المسألة هنا تتعلق بغفلة المؤسسات رسمية وأهلية عن كنز استثنائي مثله.. وعدم إحساس الجميع بمدى فداحة الخسران الذي أصاب حياتنا الأدبية والثقافية بغياب ذاكرة موسوعية بحجمه ومكانته.

لقد ظل الضرير كتاباً مفتوحاً ومتاحاً على مدار عقود أمام أعيننا لكننا لم نفكر في قراءته.. حتى الذين عرفوه –كما في حالتي – لم يقرأوه كما يجب..

أعرف أن عيبي على المؤسسات لن يؤثر فيها ولا في القائمين عليها كما جرت العادة..

وأعرف أنني مهما حاولت أن أخفف من شجني لغيابه فلن أستطيع.. ولكم تغريني نسائم السحر الآن أن أخاطب الضرير من خلالها بما كان يرويه لي من شعر سي شعيب الأهدل:

شوصي معاك وانسيم حسك تنسى

بالله لا وزيت علاه

سلم لي على ساجي امنعاسى

تقله ما جرى عسى

خلك جاوز الهلاك

لاعاد تصابح بك ولاتماسى

نعم كم هو قاس يا ضرير ألا نتصابح بك ولا نتماسى بعد اليوم..

فسلام الله عليك في الخالدين..

عبد الرحمن الحضرمي
جهادٌ منكورٌ.. وجهدٌ مغمور

في مطلع الخمسينيات من القرن العشرين..كانت مدينة زبيد قد بدأت تشعر بأن زمانها الثقافي والعلمي يتلاشى وينحدر يوماً بعد يوم ..وأن ظلاً زمنياً ثقيلاً يستلقي عليها ويكاد يكتم أنفاسها..بعد ثلاثة عقود من متغيرات سياسية واقتصادية طالتها بعنف وبقدر من القصدية جردتها من مركزيتها ومكانتها التي ملأت الكون أنواراً وروحانية لردح من الوقت زاد على العشرة قرون.

وفي مطلع الخمسينيات من القرن العشرين أيضاً بدأ وعي أحد أبناء زبيد النابهين رحلة تفتح على أضواء العلم والمعرفة وتبعات الحياة ومعها تبعات وضع مدينته العظيمة زبيد التي ستستغرق الخمسينيات رحلة تعرفه الأولي على كنوز تراثها المعماري والتاريخي والعلمي والثقافي ومجدها الاستثنائي في ساحة الروح.

ولم يكن ذلك النابه إلا المؤرخ عبد الرحمن الحضرمي الذي أرسلته العناية الإلهية ليكتب لنا عن حياة مدينة تعيش موتها المؤلم يوماً بعد يوم. ويذكِّرنا بماضيها المجيد حقبة حقبة..

ولد عبد الرحمن الحضرمي في مدينة زبيد سنة 1933م، وتلقى دروسه بالمدرسة الأحمدية " مدرسة الفوز" كما درس في المدرسة العلمية بجامع الأشاعر.. وتتلمذ على أيدي عديد العلماءِ في أربطة زبيد.. وحضر مع والده حلقات البخاري وختوماتها.. قبل أن يتأهل لبعثة كان مقرراً سنة 1950م أن ينتقل بها إلى صنعاء مع عدد من الطلاب المنتخبين من سائر أرجاء تهامة.. لكن الوجهة تغيرت بعد شهرين من الانتظار في الحديدة..فالتحق بعض الطلاب بدار المعلمين التي تم افتتاحها في ذلك الوقت وكان

الحضرمي من بينهم.. حيث قضى عامين ونصف العام فيها..ثم عيّن مدرساً في جهات بيت الفقيه مدة عام واحد..وعاماً في زبيد.. وثلاثة أعوام أخرى في الحديدة..

وفي ترجمته التي سطَّرها لنفسه في كتابيه " تهامة في التاريخ " و " الحركة الأدبية في تهامة 1948 – 1990م الكثير من التفاصيل عن أساتذته وزملائه من رواد التعليم والثقافة الحديثة أمثال المربي ورجل التنوير الراحل أحمد جابر عفيف، واسماعيل النعمي، والشعراء صالح عباس، والعزي مصوعي، ومُحَّد العديني وعشرات غيرهم.. ممن كانوا يمثلون الوعي الجديد والإستنارة ويشتغلون على تأهيل العقول بحماسة منقطعة النظير..

ويُبرز لنا دور المبارز والمنازل والمكتبات الخاصة التي احتضنتها شخصيات رائدة مثل مُحَّد عبدالله عامو وصالح عباس وحسين المقدمي في تأجيج المثاقفات وتشجيع الإبداع وتبادل الكتب ونشر المعرفة، وقد ساهم الحضرمي في خلق نشاط باتجاه الإطلاع على الجديد في زبيد عن طريق استعارة الكتب من مكتبات مثقفي الحديدة وإرسالها إلى الأدباء هناك، وهو يعتبر ذلك التبادل الثقافي الذي كان يتساند مع ما يرسله آخرون مثل محمود زحيري أحد مثقفي زبيد المقيمين في عدن آنذاك من كتب وصحف ومنشورات فترة تأسيسة خصبة انتشر فيها الوعي والإدراك بضرورة التقدم بالمجتمع والوطن صوب وضع أفضل..

ذلك القدر من الوعي كان سر انغماس عبد الرحمن الحضرمي في تدريس مادة التاريخ، بل مشاركته في مجريات ثقافية وأدبية وسياسية ضمن السياق الثوري والنضالي الذي سبق قيام الثورة وأعقبها على مستوى زبيد وسائر تهامة، كذلك على مستوى الوطن اليمني كله.

بيد أن تلك السنوات المتأججة من ستينيات القرن العشرين خصوصاً الفترة الواقعة بين عامي 1962، 1967 كانت مفصلية في إنضاج وعي الحضرمي وتفتيح عينيه على جملة من القضايا تفرض نوعيتها على مثله أن يكون على مستوى تحدياتها. فرغم انهماكه المتحمس في عمله التربوي مديراً للمدرسة الإعدادية الثانوية بالحديدة ثم مديراً لمدارس زبيد

63 – 1965م فموجهاً إلى عام 1967م فإن اختلالات الوضع المستجد لم تكن غائبة عنه وعن كثير من زملائه..

لقد كان مرور بضع سنوات فقط على قيام الثورة كفيلاً بأن يبين للنخبة السياسية الثقافية في تهامة، وفي مقدمتها عبد الرحمن الحضرمي أن وضع تهامة وعاصمتها زبيد يتجه إلى مستقبل يكرِّس مفاعيل التهميش والإقصاء والإهمال التي بدأ التهاميون يتجرعون هوانها منذ ثلاثينيات القرن العشرين.

حينئذٍ كان عليه وهوالممتلىء بالمكان وتاريخه ودوره الاستثنائي أن يقاوم الظلام الزاحف بوحشية على مدينته وإقليمها بأكثر من جهد يبذله ويعزز به جهود الواعين من أمثاله.

اشتغل على الجانب التعليمي والخدمي بما يعنيه ذلك من تنوير للمواطنين بضرورة الإقبال على التعليم بوصفه أهم أسباب الوصول إلى نيل الحقوق كما هو أهم أسباب التقدم البشري، كذلك اشتغل على هذا الجانب بما هو كد ونصب وتعب في المطالبات والمعاملات لدى الجهات الحكومية، وتهيئة الظروف لتسهيل إنشاء المدارس والمعاهد وتزويدها بالمعلمين والأدوات.

وقائمة إنجازاته في هذا الجانب مذهلة فقد كان وراء إنشاء المعهد العلمي الذي أداره لفترة قبل أن يستقيل منه سنة 1974م إثر تحويل وجهته بضمه إلى الهيئة العلمية.. وهي إحدى المنظومات التعليمية التي كانت ممارساتها ومخرجاتها حرباً على زبيد وتراثها العلمي والصوفي.. وهو ماكان الحضرمي يدركه جيداً لذلك رفض أن يكون جزءاً منه.

واشتغل على إنشاء مركز ثقافي في زبيد وعين مديراً له قبل أن تسفر إحدى حلقات إقصاء زبيد عن نفسها من خلال قرار بإلغاء إنشاء المركز.

وساهم في لجان التصحيح أيام الرئيس إبراهيم الحمدي واشتغل على ربط زبيد بالكهرباء العمومية سنة 1980م، وعمل في نفس الفترة على بناء مكتبة جامع الأشاعر وإصلاح منبر الجامع الكبير، وترميم أبواب المدينة، وبذل جهداً لم يقيض له النجاح في

المطالبة بإنشاء كلية لعلوم أصول الدين في زبيد، وساهم في عضوية لجان توحيد المناهج 1984م، هذا غير مشاركاته منذ عام 1980م وحتى رحيله سنة 1993م في عديد المؤتمرات والندوات الخاصة بالتأريخ والآثار والتراث والأدب والثقافة.

هذا إلى جانب انشغاله بالجانب المطلبي العام المتعلق بالخدمات والمرافق بمثل تعلقه بالحقوق السياسية والثقافية والحريات وضرورة المشاركة العادلة في الثروة والوظيفة العامة والمناصب ومراكز صنع القرار، وقد كان الوعي الشديد بهذا الجانب من أسباب تأييده القوي لحركة القوقر التي قمعت بوحشية من قبل النظام سنة 1967م، ولعل نتائجها وحالة الخمول واليأس – التي أصابت أبناء تهامة عقبها – كانت من أكثر محفِّزات الحضرمي على توثيق الجذور الأولى للقضية التهامية، خصوصاً وقائع ونتائج حروب الزرانيق ضد الدولة المتوكلية في عشرينيات القرن العشرين ضمن مشروعه التاريخي الكبير" تهامة في التاريخ " الذي لم ير النور.. مع الأسف الشديد.. إلا بعد رحليه.

لقد كان المشروع التاريخي لـ عبد الرحمن الحضرمي مشروعاً يمنياً عاماً يشهد به عديد كتب له ماتزال مخطوطة كما تشهد به الدراسات التي نشرها في مجلات الحكمة والإكليل واليمن الجديد وغيرها، غير أني أكاد أجزم بأن مجموعة من العوامل كانت وراء انصباب معظم جهده على زبيد ومجالها التهامي، أولها:العامل المعرفي الذي أسكر وجدانه بكنوز المكان وناسه وخصوصيتهما الفريدة، وثانيها: التهميش والإقصاء من قبل السلطة ونافذيها لتهامة وأهلها، وثالثها: إحساسه الموجع بواقع أن مدينته لم تعد الشمس التي كانت توزع الأنوار للشرق والغرب، فقد انكسر جناحها تحت كلكل ليلٍ زاحفٍ من جهتين يهمهما أن ينسى الناس مكانة زبيد وإمكاناتها، إحداهما تفعل ذلك لتجهيل المكان وكسر عنفوانه وإفقاده الشعور بعزته ليسهل عليها الإجهاز عليه نهباً وسلباً وإلغاء حضور، والأخرى تفعل ذلك لتدمير المنظومة الثقافية والعلمية الباذخة التي تقاوم الإزاحة وتفضح سطحية وتهافت البديل المقرر من خارج الجغرافيا والتاريخ المحيطين بزبيد المرتكزين فيها.

وقبل ذلك وبعده تواطؤ بعض أبناء المكان عليه.. وتعاملهم معه من زاوية ما تمليه عليهم مصالحهم الخاصة.. وعدم استعدادهم للتضحية حتى بقلامة ظفر من أجله.. وهذا البعض مايزال مصراً على أنانيته حتى اليوم رغم كل ما أصاب زبيدًا ونطاقها من كوارث..

من هذا المنطلق كان اشتغاله على مصفوفة من المؤلفات تفصح عناوينها عن عمق شعور الرجل بقضيته ومن تلك العناوين: جامعة الأشاعر، زبيد مساجدها ومدارسها العلمية في التاريخ، المدرسة العلمية بزبيد1357هـ، لمحات تاريخية لمدينة زبيد، مدينة زبيد في التاريخ، تهامة في التاريخ (ثلاثة أجزاء)، مزاجية التاريخ وقلب الحقائق (حوار عن الدولة الزيادية)، وثائق تاريخية من عام 1223هـ إلى 1347هـ، شخصية لها تاريخ (عن الصحابي أبي موسى الأشعري)، اسماعيل المقري رائد الحركة الفكرية وشاعر الدولة الرسولية، عمارة اليمني، الحركة الأدبية والثقافية في تهامة 1948- 1990م (صدر مؤخراً عن الحراك التهامي)، أشهر أدباء تهامة، الزواج قديما وحديثا في زبيد وتهامة، خارطة خاصة بمساجد ومعالم زبيد الأثرية، هذا غير ماجاء عن زبيد وتهامة في مؤلفاته وأبحاثه الأخرى التي تتموضع اليمن عامة..ناهيك عن اشتغاله على تحقيق مجموعة من الكتب المهمة ضمن التراث الضخم الذي انجزه علماء زبيد في الماضي..

هذا الجهد الضخم الذي لا يزال أكثره مخطوطاً مع الأسف الشديد يمثل نموذجاً لما يمكن أن يفعله المرء حين يكون عالماً، مثقفاً، موهوباً، واعياً، وشاعرا بالمسئولية في نفس الوقت.

مايحسب للحضرمي أن هذا الإنجاز الضخم كان يتم بقدر عال من الحماسة والحب والدأب والمثابرة التي يعز نظيرها والقارئ لكتبه الأربعة المنشورة (تهامة في التاريخ) و (جامعة الأشاعر) و (زبيد.. مساجدها ومدارسها العلمية في التاريخ) و(الحركة الأدبية في تهامة 1948 – 1990م) يجد فيها مادة تشهد بجهدٍ امتد لسنوات طويلة من التنقيب في الكتب التي كان أكثرها مخطوطاً، والآثار التي اندثر جزءٌ كبير منها، بمعنى آخر فقد جمع

في تأليفها بين التوثيق والتاريخ والتحقيق لتظهر كتبه مطبوعة بهذا الطابع الموسوعي والمعرفي المميز.

كان عبد الرحمن الحضرمي يعاني كثيراً وهو يشتغل على مشروعه هذا..وكانت معاناته مزيجاً من لوعة المحب لموضوعاته ..وحرقة العارف بما يترصد التاريخ والمكان والتراث الذي يكافح من أجله..ومتاعب السالك في طرق وعرة بحثاً عن المراجع والمصادر والوثائق التي لا تزال مخطوطة يحتاج البحث فيها إلى جلد استثنائي..كما أن الوصول إلى بعضها تُصعّبه تعقيدات اجتماعية وثقافية ومشاكل سببها الركود الذي أصاب الأسر العلمية والأوهام و التوجسات المبالغ فيها والحسد وما إلى ذلك.. إضافة إلى أن بعضها الآخر لم يعد موجوداً في مكتبات زبيد بل توزعته مكتبات العالم والوصول إليه يحتاج لإمكانات لم تكن متوافرة معظم الوقت لذلك العاشق الكبير الذي تعبّر إحدى نفثاته عن جزء من شجونه ومعاناته في سبيل إنجاز مشروعه حيث يقول:

(أشعر بأن قلبي يتسم كالزهرة المتفتحة تشدني إليها رائحتها الزكية بكل حرارة وحب وإعجاب. و أحس بنياط قلبي تتقطع ألماً وحسرة لما نعايشه من آلام مريرة لذبول هذه الزهرة المتفتحة نتيجة الإهمال والضياع والأطماع والذاتية والجهل المركَّب. ولهذا فالحديث عن الجامعات الإسلامية صعب وشاق إذ أن البحث لم يجد ما يروي غليله ليكد ويتعب ليخرج للأجيال ثمار جهوده. إلا أني وبكل نصب تحصلت بعد جهد شاق على بعض المعلومات المقتضبة التي أراني لم أف بحقها كما ينبغي وعلى كل فالعلم قطرة من بحر))

لذلك كان الفرق كبيراً بين جهد الحضرمي في التاريخ لزبيد وتهامة في الثلث الأخير من القرن العشرين وجهد أسلافه من أمثال عمارة الحكمي والخزرجي وابن الديبع..فقد أرخ أولئك لزبيد وهم يحظون برعاية مادية ومعنوية من الحاكمين في أزمنتهم يوم كان يُزَفّ المؤلفون مع كتبهم إلى قصر السلطان في استعراضات مهيبة وتُحشى أفواههم بالدر والجوهر وتفصّلُ لهم النعال من العسجد.

أيضاً كان الفرق كبيراً بينه وبين كتَّاب التاريخ والباحثين فيه من معاصريه كا لقاضي مُحَّد بن علي الأكوع والقاضي اسماعيل الأكوع .فقد كان الاكوعان وأمثالهما جزءاً من الحكم المتمركز في صنعاء يحظيان برعايته وتتوافر لهما كل إمكانات الوصول إلى المخطوطات والمراجع والوثائق في اليمن وخارجها كما تتوافر لهما إمكانات النشر والطباعة وقد سعدا بكل تأكيد برؤية جهودهما مطبوعة على أرفف المكتبات.

أما الحضرمي فقد أرّخ لزبيد وبذل عمره لها في ظل تجاهل من الدولة ومؤسساتها ومسئوليها وجهل بأهمية جهده من أبناء مدينته وإقليمها وجهاء وذو يسار ومثقفون أيضاً حتى إن الواعي منهم لروعة مشروعه كان يحجبه عن إبداء التقدير له إما عدم الحول وقلة الحيلة..وإما حسد المعاصر وعلل ذلك الحسد التي أولها قلة المناصرة والبخس وخاتمتها العرقلة والعداوة والمقت.

لقد كان مؤسفاً أن يموت الحضرمي عن جهد علمي تتوزع ثماره على عشرات الكتب والأبحاث التي لم تر النور ولم يسعد برؤيتها مطبوعة.. وأن تعجز تلك القائمة الطويلة من المؤسسات الرسمية والنقابية التي انتمى إليها مؤسساً وعضواً فاعلاً و أهمها وزارة التربية والتعليم واتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين ووزارتا الإعلام والثقافة والهيئة العامة للآثار عن تبني تراثه التأليفي الضخم أو جزء منه على الأقل.

حتى حصوله على وسام المؤرخ العربي – الذي جاء تقديراً مستحقاً من اتحاد المؤرخين العرب لجهوده التي تغطي مساحات من تاريخنا لم يلج إليها غيره – لم تفكر جهة مّا في الدولة أن تجعل منه مناسبة للاحتفاء بالمؤرخ العظيم يتم التعبير فيها عن تقدير بلاده له وفخرها بإنجازه من خلال طبع مجموعة أعماله..

لربما كان الحضرمي يعاقب على ما يكشفه من خبايا قدَّر لها المتسلطون بقصدية أن تبقى طيّ النسيان لأن نشرها سيفتح عيون المواطنين على مآثر لهم تبذل دول كبرى الغالي والرخيص ليكون لها شيء قليل منها..كما يفتح نشرها عيون المهمَّشين والمقصيين

المنهوبين على فداحة مايحل بهم.في وقت كانت قوى التسلط والنهب قد كشَّرت عن أنيابها لتأكل الأخضر واليابس..وتطمس كل مايشير إلى عظمة المكان وناسه..

ولعل الدليل الأقوى على التجاهل المقصود الذي طال الحضرمي وجهوده من جهة الدولة ومؤسساتها يتجلى أكثر ما يتجلى في انعدام أية مبادرة لطباعة كتبه حتى بعد مرور عشرين عاماً على رحيله (توفي في 17/ 8/ 1993م) فقد ظل أكثرها حبيس الأدراج حتى اليوم وما تمت طباعته خلال السنوات الماضية با ستثناء (الحركة الأدبية في تهامة) كان الفضل فيه للفرنسيين.

مختار الضبيري..
المتواري في مملكة الظل

من أوائل الشعراء الذين عرفتهم عند دخولي كلية الآداب بجامعة صنعاء سنة 1991م، المصادفة المحضة جمعتني بأقرب أصدقائه إليه فقادني بدوره إلى مختار..

كنت في الأسبوع الأول أو الثاني من بدء الدراسة، وكنت شَرِهاً لصحبة الأدباء ومستعجلاً للتعرف على أكبر عدد منهم، ذات يوم خرجت من الباب الغربي للكلية المفتوح على شارع الدائري وقصدت المكتبة المواجهة للباب.. كانت المجلات الشهرية التي اعتدت شراءها مذ كنت في الجيلانية قد نزلت أخذت مجلتي " الشاهد " و" العربي" ووقفت بلهفة – كعادتي دائماً – أستعرض محتواهما.. كان ثمة شاب أسمر نحيفاً أميل للطول قد وقف يرقبني با بتسامة ريّا تُد خله إلى القلب مباشرة.. مالبث ذلك الشاب أن دخل في حوار معي حول المجلتين وتوجهاتهما والتفضيل بينهما.

كنت قد اعتدت سنوات طويلة في قريتي أن أكون الوحيد الذي يعرف هذه الأشياء. كان الشاب الأسمر مثقفاً يتحدث بلغة شعرية مليئة بالمجازات والصور وتجري المصطلحات النقدية على لسانه بسهولة غير عادية.. عرفته بنفسي فأجابني:

-وأنا أحمد الزراعي..

عرفت الزراعي وبعد دقائق كنت عن طريقه قد تعرفت على صديقه الأقرب إليه مختار الضبيري، قبل أن يُعرّفني في الأيام التالية على عديد الشعراء في كلية الآداب وفي مقيل المقالح..

منذ البداية بدا لي مختار الضبيري مختلفاً، لم يكن يجمعه بالزراعي أن بينهما شبهاً كبيراً، كانا يتشابهان في كتابة الشعر ويتزاملان في قسم علم الاجتماع بكلية الآداب..غير

ذلك كان الزراعي شاعراً متأملاً عميق التفكير بمقدار ما كان مختار شاعراً يتدفق عاطفة وحزناً وشجنا.. كانت عاطفته حادة ومشاعره رقيقة صادقة، يعيش اللحظة – كما وصفه الزراعي فيما بعد – بإحساس مفعم بالحياة وقدرة على تسقّط مباهجها.. ينعكس ذلك في شعره كما ينعكس في تجاربه العاطفية المؤلمة وفي نظرته بشكل عام للصداقة والتأمل والحب.

مختار الضبيري الذي ولد عام 1969م في مدينة هجدة – محافظة تعز – بدأ رحلة الحرف بتعلم القرآن على يد فقيه المعلامة ثم تلقى تعليمه الابتدائي والإعدادي والثانوي في مدرسة النور بمدينة هجدة حيث كان يزاوج بين الدراسة وتحمل أعباء الأسرة من خلال البيع والشراء في دكان كان يملكه في ظل غياب والده في بلاد الغربة، وبين الدراسة والعمل كان يغرف من معين الكتب الذي لا ينضب، كان يقرأ كل كتاب يصادفه، تفاسير القرآن، كتب الحديث، صحيح البخاري، الكتب الدينية، كتب السير والملاحم الشعبية، سيرة عنترة بن الشداد والسيرة الهلالية وكتب القصص وسلاسل المغامرات قبل أن يتحول إلى مجلة العربي وسلسلة المسرح العالمي و شعراء وكتاب مثل البردوني والمقالح والزبيري وقاده الشغف بالأدب العالمي إلى قراءة الكتاب الروس وفلاسفة اليونان و قراءة فلسفة ماركس ولينين وتتبع كتب الفلسفة الاشتراكية بشكل عام وكتب الثورات العالمية التي ترصد ملاحم كفاح المظلومين والمقهورين في كل مكان في العالم.

في هذه الأثناء ارتبط بصداقة متينة مع الكاتب علي المقري وهو من قرية مجاورة لقريته وأسسا معاً مكتبة الفجر بهجدة.

كان مختار قد بدأ يكتب القصة ونشرت له نصوص قصصية في صحيفة الجمهورية لكن قراءاته الواسعة في الأدب العالمي وجهته لكتابة الشعر، القصيدة الحديثة بالذات، كانت الفترة فترة زخم حياتي وآمال عريضة فكان الشاب الذكي الخلوق المتفجر حلماً وإبداعاً مدهشاً يتنقل كثيراً بين هجدة وتعز حيث مجتمع الكتَّاب الذين يلقاهم في صحيفة الجمهورية أو فرع اتحاد الادباء، وتنعكس كل تلك التواصلات تأثيراً في نفسه ودفعاً لها باتجاه التميز الذي عرف به فيما بعد.

بعد أن أنهى الثانوية العامة سنة 1988م أدى خدمة التدريس الإلزامي في قرية القلمة بمديرية حيس ويبدو أن تلك الفترة كانت من أسعد فترات حياته فقد ظلت ذكرياته فيها تتعطر بكثير من القصائد والتجارب

ثم دشن حضوره في جامعة صنعاء سنة 1990م بدراسة علم الاجتماع وفي المشهد الأدبي بنشر كثيف لقصائده ونصوصه المختلفة التي تتضمن القصة وتتضمن نصوصاً مفتوحة أيضا .. فكان ينشر في ملحق الثورة وصفحتها الثقافية كما كان ينشر في صحف أخرى مثل الثوري والجمهورية والوحدة واليمن الجديد وينشر أيضاً في بعض المجلات العربية وتماهى في الفعاليات الشعرية والقصصية والندوات الأدبية مشاركاً ومتابعاً.

عرفته ممرات وحديقة كلية الآداب في النصف الأول من تسعينيات القرن العشرين مع مجموعة من الشعراء من بينهم نبيل السروري وتوفيق الزكري ومُحَّد السقَّاف حيث كانو يتحلقون حول نافورة الحزن كما كانوا يسمونها. كان مختار شاعراً متفجر الأحاسيس، وعاشقاً يذوب في معشوقته حد الخروج على المنطق، وكانت رهافة مشاعره وعفويته الريفية التي لا تعرف التلون أو المداورة تجعل حالة الحب التي يعيشها جرحا داميا ومفتوحا على الأسى طوال الوقت، وهو جرح لم يكن مختار يجد له من دواء أو سلوى سوى الشعر الذي كان مرآة وجوده وسيرة وجدانه المعذب، به وعبره كان يهتف كلما تكالبت عليه المرارات:

قلت هذا المساء..،.
سأخلع نعل القصيده
سوف أخاصم قلبي
وأهجر صنعاء..
سوف أصعد هذا الفضاء
وأصنع لي شرفة في الغيومِ..

لأشرف منها عليّ،

وأضحك مني،

أقيس المسافة بيني،

وبين الطفوله

وأسأل ظلي:

علي أي بعد

أُرى

من ديار الحبيبه ؟

كانت مشكلة مختار مع الفتاة التي يحبها مشكلة مركبة، فظروفه غيرظروفها ووضعه غير وضعها، وشرط التقائهما شبه مستحيل، حتى على مستوى المشاعر كان الأمر مختلفاً هي تعجب به فحسب بينما هو يحبها حد الجنون، كانت تعرف حبه العميق لها وربما كانت تسعد بشاعر مثله يسطِّر من أجلها كل هذا الجمال، أما هو فكان ككل أساطير الحب في كل العصور لا يسمع ولا يرى إلا من يحب.. هي لم تكن تريد حل مشكلته، أما هو فلم يفكر مطلقاً في أي حل. فالأمر بالنسبة له وجود في الحب يوازيه وجود في الشعر، وحين يعبِّر عن مأزقه يتوجه بالتعبيرإلى شرط الحياة الذي وجد نفسه فيه:

هذا الفتى

ربيع يمشي

شاعر مبلول

بخمرة السرحان

وهشيم التمتمات

عينان

لايمل

بكارتهما

الريف

قبلة ناي

– دخلت – من غير قصد

بيت الله

بسمات شاحبة

تتقاسمها

قرقرات المدائع

و"عيدان القات "

حناء زفاف

ينام

على راحتي صبرية

عربة طفل

تهرول

كالضحك

ظل

يبكي

في الظل

كان مختار في جوانب كثيرة من مأساته في الحياة والحب يشبه كثيراً الشاعر العراقي الراحل بدر شاكر السيَّاب، فقد كان الحب بالنسبة له كما كان الحب بالنسبة للسيَّاب مسألة وجودية، التحقق في الحب هو التحقق في الحياة.

لقد كانت عبقرية السيَّاب الشعرية فارقة ومذهلة بكل المقاييس، لكن السياب - الذي كان كبار أبناء جيله من الشعراء يتمنون بعض موهبته — لم يكن يرى لنفسه في تلك الموهبة تحققاً يسعده مالم تكن قادرة على إدخاله إلى قلب أنثى — كما أخبرني - زميله في دار المعلمين العالية ببغداد الشاعر سليمان العيسى (صباح الثلاثاء 7 / 2 / 2000م في مؤسسة العفيف بحضور الراحل أحمد جابرعفيف والأديب العراقي عبد الإله الصايغ). بيد أن الضبيري كان يختلف عن السيَّاب في نوعية التوق إلى الأنثى، لقد كان السيَّاب يعاني من عدم القبول عند النساء كما صرح بذلك في قصيدة أحبيني:

وما من عادتي نكران ماضيّ الذي كانا

ولكن... كل من أحببت قبلك ما أحبّوني

ولا عطفوا عليّ

لقد تنقّل السيَّاب بين سبع إناث لم ينل من أي منهن وطراً، كان يحاول التدواي من حب فاشل بحب يتلوه أكثر فشلاً، أما الضبيري فكان يجمع بينه وبين السيَّاب ضعف الوضع الشخصي من حيث الحساسية وهشاشة الوضع الاجتماعي من حيث المادة.. كون من أحبها تنتمي إلى أسرة ثرية، عدا ذلك فهو يشبه عديد العشاق المتيمين الذين اقتصروا على الوله بامرأة واحدة وقصروا نبض قلوبهم عليها وتماهوا في التعبد بها إلى درجة أخرجتهم من الجاهزية للحياة ومهمّاتها.

لم تكن الفتاة التي أحبها مختار في الجامعة مجرد فتاة أحبها فحسب. كانت مثالاً عالياً جداً، بل لقد كانت بالنسبة له الأنثى التي تختصر كل إناث الدنيا، وبوسعنا أن نتصور عصفها الشديد بقلبه الذي كان غضاً ساذجاً حين رنى إليها أول مرة. كما أن بوسعنا تصور مواجع الصد ومرارات التعالي واللامبالاة التي ظل يلقاها منها.

لم تكن علاقته بها تقوم على أي أساس سوى الحب من طرف واحد، أما هي فكانت تحرق قلبه وتسرّع نضجه رغم أنه لم يستفد من ذلك النضج شيئاً، بل كان يزداد به إيغالاً في الوله وما يجره من عذابات، كما يصور ذلك نص بعنوان " بيان عاشق " كتبه في

صنعاء بتاريخ اغسطس 1992م وهو يتيح لنا أن نقرأ فيه جانباً واسعاً من مواجيده وتقلباته في مقامات الحب بلا طائل:

أيا امرأة يسمونها الحب

صدقيني

كنت طفلاً

يؤرجحه الخوف

في سماء العيون الملاح

وحين ضاقت أرجوحة الخوف بي

تدحرجت

حاولت أن أعتليها

تدحرجت أكثر

أظلمت في سماء عيوني العيون

في سماء عيونك أضاءت عيوني

صدقيني

كنت طفلاً

وأنت بقلبي

براعم طفلة

وحين تفتحت زهرة مسك وضوء

أو على شكل امرأة فاتنة

كبرت أنا

اكتشفت: خداع المساحيق

كيد الفساتين الجميلة

وسراب العيون الحزينة

رأيت بعينيك حلمي

حديقة عشق

وينبوع خمر

بقلبي رأيتك

وكما كان يفعل السيَّاب أحياناً حين يدَّعي تكالب الفتيات عليه، يعكس الضبيري الوضع بينه وبين حبيبته في المقطع التالي من نفس القصيدة ليظهرها مبالية به مهتمة بأمره ويصور صديقاتها وهن يسألنها عنه، ويستغربن عدم نظره إليها، ويطلب منها أن تخبرهن أنه يراها أعمق مما يتصورن لأنه يراها بقلبه:

أيا امرأة يسمونها الحب

كما يفترش سرب نحل

سماء العسل

يحط على ظلك الملكي

كلما جئت

سرب نساء

حين يهمسن لك:

إنه لا يراك

فكيف يحبك

وعادته أن يرى من يحب

مضى باعتزار

وقولي:

إنه لا يراني بعينيه

ولكن ثمة قلباً يراني

-إنه لا يراني بعينيه

لكنه في سماء القصيدة والروح

بدراً يراني

ثم على طريقة المحبين الكبار يهدر الاعتراف وتتساقط روح الشاعر على عتبات الحبيبة تجهر بوحدانيتها في قلبه، وسيطرتها الكاملة على روحه وعقلة:

أيا امرأة يسمونها الحب

أعلن الآن أمام الجميع

-ظلي هواك

غنائي - على البعد -

غناء لك

وأن لا امرأة بقلبي سواك

وأنك أنت الحبيبة

أنت القصيدة

أنت البلاد

لكنه يختم قصيدته بنبوءة قوية تنبع قوتها من تحققها بعد أربعة عشرعاماً من كتابتها، لقد تنبأ الضبيري بأن يظل مطعوناً بحب تلك الفتاة وأن يموت مكلوماً مقهوراً، بعيداً عنها ودون الوصول إليها، إنه يطلب منها حين يحدث ذلك أن تترحم عليه فحسب:

أيا امرأة يسمونها الحب

هذا كتابي إليك

إذا دفنوني يوماً بعيداً

إقرأيني بدمعك

استغفري لي

وقولي:

–يا نار كوني برداً وسلاماً

على روحه والجسد

وقد تحقق موته بها ولا ندري إن كانت قد ترحمت عليه أم لا ؟

***

بمرور الأيام كانت مأساة الشاعر تتعمق، وتحت تأثير الفشل في الحب بدأ يتخبط دراسياً وحياتياً كان وجوده يهتز بفعل الفوضى التي خلَّفتها حرائق الهيام في نفسه.. الشيء الإيجابي الوحيد في القصة كان ارتفاع وتيرة تدفقه الشعري، وكثافة النشر التي رسَّخت اسمه في الأذهان كشاعر مرموق له جمهور وقراء يتابعون كتاباته في الصحف.. وكان الفارق بين مختار المبدع المشهور وبين واقعه الهش وحياته المعذبة ومظهره وتصرفاته كبيراً جداً وهذا ما يصوره تعليق أحد قرائه آنذاك على موضوع نشره الكاتب علي المقري بتاريخ 2014/2/1 م تفاعلا مع شذرات من هذه الكتابة نشرتها على صفحتى في نفس التاريخ يقول المعلق واسمه " مصطفى الخليدي " لازلت أتذكرأول مرة التقيته وجها لوجه وكنت أقرأ له فقط ونحن نشرب الشاي مع مجموعة من الأصدقاء.. كانت ملامح التعب تبدو واضحة عليه وهو يدخن السيجارة بشراهة همس لي حينها أحد الأصدقاء: هذا مختار الضبيري الشاعر المعروف تساءلت حينها قائلا بأسى ماجدوى أن تكون مبدعاً في هذا البلد الذي لايقدر "

إن شهادة الخليدي المعبِّرة عن صدمته لحال الشاعر مازالت إلى اليوم تتكرر كثيراً مع شعراء آخرين نتيجة الفارق الكبير بين إبداعاتهم المميزة التي تثير إعجاب متابعيهم وتجعلهم يكوّنون عنهم تصورات مثالية من حيث الوضع المعيشي والوظيفي ومن حيث المظهرالعام وبين واقعهم الذي يجدونهم عليه حين يتعرفون عليهم عن قرب. وهذا ناتج عن طبيعة تفكير الناس – دائما – في المشاهير. وناتج أيضاً عن الوضع الوظيفي والمعيشي الذي عرفه القراء للكتاب والمبدعين في السابق والذين كانوا في الغالب أبناء أسر علمية أو أد بية أوأبناء وجاهات تجارية أو قبلية نتيجة اقتصار التعليم في السابق على تلك الفئات فتمارس الأدب مضمونة الحال بيسرها الأسري وبقدرتها على الترقي الوظيفي والحياتي باستمرار على عكس أهل الأدب والإبداع من جيل التسعينيات الذين ينتمون إلى أسرفقيرة ريفية في الغالب والذين قذف بهم إلى الحياة الأدبية اتساع مخرجات التعليم منذ منتصف ثمانينيات القرن العشرين، وتدفقت أمواجهم على أزمات وحروب التسعينيات من تداعيات حرب الخليج وعودة المغتربين اليمنيين إلى أزمات الوحدة اليمنية التي توجت بحرب 1994م ومخلَّفاتها من تغول الحاكمين واحتكار نخب قليلة للمال والسلطة والوظيفة العامة، وهجمة التيارات الدينية التي لم يقتصر ظلامها على الحريات العامة ومعادات الإبداع والفن وتخريب الرموز الثقافية بل تعداه إلى مساندة السلطة في احتكار الوظيفة والمال وتجويع المبدعين والمثقفين والمستنيرين بشكل عام..

لقد كان شاعرنا ينتمي إلى جيل الآلام الذي أصابت مكائده وأزماته أدباء سبقوه بقليل أو زاملوه أو لحقوا به مباشرة والقائمة طويلة تتدامع سطورها بأسماء توجع القلب بعضها اقتصرت معاناته على الوضع المعيشي الناتج عن الأزمات أو عن الحرمان الوظيفي وبعضها يشبه الضبيري من حيث جمع مأساته بين مصيبة الفشل في الحب والظرف الحياتي الصعب.. إنها " خصوصية جيلنا الذي أعطى كل شيء ولم يأخذ سوى الحزن فهو-جيل المآزق الكبيرة والأحلام والجنون والاحتجاج وطليعة الألم " على حد تعبير الشاعر أحمد الزراعي من تعليق له على الشذرات الأولى من هذه الكتابة حين نشرتها على صفحتي في

تاريخ سبق ذكره.. وهذا حال تناولته في مواضع كثيرة من هذا الكتاب كما سبق لي تناوله بشكل مستفيض في كتابي " أصوات متجاورة" الصادر سنة 2010م خصوصاً في فصل من الكتاب بعنوان " مشهد اللا حياة في مدينة التسعينين اليمنيين – صنعاء من الأسطوري الباذخ إلى الوحشي المتآكل "

ببساطة تحول الضبيري بعد منتصف التسعينيات من القرن العشرين إلى مجنون من مجانين الحب مثله مثل مجنون ليلى وأمثاله من مجانين الحب على مر العصور، الفارق الوحيد أن أسر مجانين الحب قديماً وكذلك المجتمعات الأدبية القديمة كانت تنظر لمثل هذه الحالات بوصفها وضعاً بشرياً مؤلماً يتعاطف معه الجميع بدءًا من أسرة الشاعر ويحاولون مساعدته فيما هم يتناقلون أشعاره بشغف دون أن تنظر أسرته إلى حاله كمصدر للخزي أو العار، ودون أن يتجاهله المجتمع الأدبي وينساه ويتركه لعذاباته كما يحدث عندنا اليوم..

لقد دفع الحب المجنون الشاعر إلى التقدم لمحبوته طالباً يدها ولكنها رفضت، أظلمت الدنيا في عينيه، بكى وتلوى ألماً، تقاذفت أقدامه شوراع صنعاء وسهر الليالي يدخن دون انقطاع، ثم شعرأن صنعاء لم تعد صنعاء فهي ليست سوى جحيم يصطليه قلبه المعذب ليل نهار، فقرر أن يذهب إلى قريته وما أن وصل إليها مثقلاً بأوجاعه حتى تراءت له إحدى بنات عمه، كانت تشبه كثيراً محبوبته في الجامعة، وكان والده قد عاد من السعودية لرؤية أولاده فطلب من والده أن يزوجه بابنة عمه تلك، لكن والده لم يستطع تفهم وضعه ورغم وفرة المال في يده آنذاك فقد رفض طلبه بشكل قاطع. بل أصر بعناد على ألاّ يزوجه إلا بعد أن ينهي دراسته، كانت تلك صدمة أخرى للشاعر المرهف تساوي صدمته في فتاة صنعاء، هدد بالانتحار ولما لم يجد صدى لتهديده، نَفّذَهُ بابتلاع كمية من الحبوب وبرغم نجاته منه فقد بقيت آثار التعب عليه،

عاد إلى رحاب الجامعة في صنعاء مهزوزاً يتلقفه أينما ذهب وجه قاتلته التي لا ترحم، حاول استيعاب الوضع فعز عليه، كل يوم يتعذب ويتعب، بمرور الوقت لم يعد يحتمل، عاد إلى قريته لينفذ محاولته الثانية للانتحار، حيث ألقى نفسه من سطح عال،

أصيب بعدة كسور.. وتحملت أسرته بصمت كبير متاعب مرضه وعلاجه، خضع والده هذه المرة للأمر الواقع فزوجه بابنة عمته وهي غير تلك التي تشبه حبيبته في الجامعة، تلك كانت قد تزوجت، تزوج مختار ابنة عمته وأحبها وعاش معها زمناً وإن لم ينجب منها لكن حالته ظلت تتطور للأسوأ أدخل أولاً مصحة خاصة في تعز ثم نقل إلى مدينة جدة وأدخل إلى أحد المستشفيات هناك لمعالجته جسدياً ونفسياً وقد استمربقاؤه في جدة ثلاث سنوات خلالها انفصلت زوجته عنه بحكم قضائي وتزوجت في قرية بعيدة، حين عاد لم يخبروه أنها طلبت الطلاق منه وتزوجت. بل قيل له إنها ماتت ولقد حزن وبكى كثيراً عليها وساءت حالته أكثر فأكثر متجهة به نحو النهاية الحتمية.

***

لقيته عدة مرات بعد عودته وهو يعاني من متاعب الكسور التي كانت تؤثر كثيراً في قدرته على المشي، وحين صدرت مجموعته الشعرية " حوارية أخيرة مع امرأة الظل " عن الهيئة العامة اليمنية للكتاب سنة 1999م، التي تضم جزءًا بسيطاً من منجزه الإبداعي لم تلق الاحتفاء اللائق بها واشتركنا كلنا في التقصير تجاهه وتجاه مجموعته. ولعل ذلك قد أحدث في نفسه ألماً كبيراً وأصابه بإحباط غير قليل.. مع أنه كان مايزال يوالي نشر قصائده في الجمهورية الثقافية وفي غيرها من المنابر

منذ سنة 2000م بدأت أحوال مختار تتدهور وعاش السنوات الأخيرة من عمره متاعب وآلاما حياتية مختلفة مادية وجسدية ونفسية تشبه تماماً معاناة الشاعربدر شاكر السيَّاب من حيث المرض الذي يُعجز عن الحركة ومن حيث المعاناة النفسية ومن حيث تخلي المجتمع الأدبي ومؤسسات الدولة عنه. كذلك من حيث الشعور بوطأة الحرمان من المرأ ة التي أحب.. لقد كان قريب الشبه به حتى في سن الرحيل فقد رحل السيَّاب عن 48 سنة ورحل مختار عن 47 سنة.

وكانت أسرته تعاني معه مرارة كل ذلك و في تعليقين على تفاعل الكاتب على المقري مع الشذرات الأولى من هذه الكتابة والمنشورة على صفحته بتاريخ 1 / 2 /

2014م كتب جميل الضبيري شقيق الشاعر الراحل شهادة مؤلمة عن الظروف التي رافقت السنوات الأخيرة من حياة الشاعر وعن أيام رحيله -أوردها هنا مع تعديل بسيط يتعلق بتركيب الجمل – " الصحافة يومها أو بعضها كتبت عن انتحاره وبعض الأدباء يعني 3 أو 4 كتبوا، لكنهم لم يكتبوا عن سبب رحيله وعن المعاناة التي عاشها، لم نر منهم سوى خمسين ألفاً أرسلت من اتحاد الأدباء كقيمة كفن كما يسميها أصدقاؤه الأدباء الذين لم يكلفو أنفسهم بتأبين له أو حتى نشر مختصر لسيرته – رحمه الله – كم ناشدنا الجهات تلك الأيام لكن بدون فائدة حتى رئيس تحرير الجمهورية سمير اليوسفي لم يلتفت وكأنه ارتاح لموته كون مختار كان يزعجه، وأنا ذات يوم حضرت صده لأخي مختار ومنعه من دخول مقر الصحيفة، من يومها كرهت شيئاً اسمه صحف، حتى يومها من فرط معاناتنا كرهنا شيئاً اسمه اتحاد الأدباء وكرهنا الاعلاميين الذي تركونا وحدنا مع معاناه مختار"، "كل الصحف لم يكلفوا أنفسهم حتى النزول الى هجدة مسقط رأسه وعمل شيء عن سيرته وغرفته المكتظة بالقصاصات والكتب، مختار الضبيري لم يبحث عن المجد بل جعل المجد يخبر عنه لقد كان يتلقى الفتات من صحيفة لاتحمل سوى الاسم اسمها الجمهوريه ورئيسها في برجه العاجي إلى اليوم لم ينزل فلا فرق بينه وبين الزعماء أشكرك أخي وحبيبي علي — يقصد الكاتب علي المقري- لقد أبكيتني لقد عاصرتكما بصمت، مكتبة الفجر وديوان نافذة للجسد وقصص مختار في الجمهورية وكيف كنت خادماً مطيعا له ولك في أيام نضال حقيقي وليس كما هو الحال من خواء الثورات آآآآآآآآآآه كم أحبك يامقري وأحب مختار، أكتب إليك ودموعي تبلل الآن كل الذكريات لماذا كل ذلك الكفاح لم يُعترف به إلى الآن أقسم أن الماضي كان عظيما كوننا كنا نعرف من نواجه، الآن علينا الكفاح بكل الاتجاهات..، تعز مهمشة من صنعاء ونحن في هجدة بل في مقبنة مهمَّشون من شيء اسمه عاصمة الثقافة – يقصد تعز – أو لجنة الثقافة للزمار أنت الآن تفتح القلب لكل شيء أحبك "

شهادة جميل الضبيري في تعليقيه السابقين تكشف حجم معاناة الشاعر الراحل وحجم معاناة أسرته، لكن الحالة التي كتبها الأديب علي المقري متفاعلاً مع نشري

للشذرات الأولى من هذه الكتابة تظهر أيضاً مقدار تحكم المعايير المجتمعية في نظرتنا لمأساة الشاعر مختار الضبيري وشبيهاتها.. لقد يئس المبدع المرهف من الحياة وتبعاتها من الفشل في الحب ومن سوء الأحوال المادية ومن تجاهل مكانته الأدبية وتجربته المميزة وقرر في الأسبوع الأول من ديسمبر 2006م أن يقوم بمحاولته الثالثة من أجل التخلص من عذاباته، يذكر أخوه جميل: "يوم التنفيذ كان مبتسماً على غير عادته زار بيوت القرية وسلَّم على الجميع أتيت مساءً، ذهبت الى غرفته فوجدته نائماً، وفي منتصف الليل سمعت صوت ارتطام نزلت إلى غرفته لم أجده صعدت إلى السطح لم أجده كان الظلام حالكاً، خرجت إلى حوش المنزل، رأيته مضرجاً في الدماء، احتضنته، لفظ أنفاسه الأخيرة في حضني وابتسم ".

لقد نجح الشاعرهذه المرة في العبور إلى العالم الآخر حيث لا ظلم ولا ظلام سوى أنوار رب كريم وسعت رحمته كل شيء.

هكذا انتهت حياة واحد من أبهى وأجمل شعراء اليمن.

لكن الأسرة كانت ترى في ذلك إحراجاً يضاعف الألم ويشبه التشهيرويسيء إلى السمعة الأمر الذي أجبر كاتباً مستنيراً ومتمرداً مثل على المقري على الصمت إزاء الطريقة التي رحل بها صديقه.. حتى كانت تلك الليلة من مطلع فبراير 2014م، كتب الشاعر أحمد الزراعي على صفحته..

"أحد أصدقائي من الشعراء وزملاء الجامعة الشاعر مختار عبدالجليل الضبيري من منطقة هجدة بتعز، انتقل إلى رحمة الله بعد تجربة عميقة مع الحياة أتأمله بعمق وأتذكر أنني في لحظات كثيرة حاولت أن أخفف عليه بعض الألم، حين أتأمله بعاطفته الحادة وصدقه ورقة مشاعره أتأمل أجمل لحظات مفعمة بصدق الإحساس بالحياة وتأمل مباهجها..مختار عاش بصدق العاطفة وتألم وكرَّس مصداقية للصداقة والتأمل والحب مختار عبد الجليل الضبيري أحد الشعراء من أشعاره يتردد هذا المقطع:

ريفية هذي البنت

لاتعرف تعداد زوايا القلب.

صدمتني كتابة الزراعي بدا لي كمن يُعرّف بمجهول لا يعرفه أحد، قبل أن أعرف فيما بعد أنه تعمد أن يكتب بتلك الصيغة كي ينخز خاصرة النسيان عندنا جميعاً، واستجابة لكتابته كتبت ما كتبت فنكّأت كتابتي جروحاً كثيرة أولها جرح علي المقري وتحت عنوان " شاعر الجنون المهذب الذي انتحر" كتب يخاطب الشاعر الراحل:

كان فعلاً هائلاً يا صديقي. لقد انتحرت في حال ضيق لم تستطع احتماله. وها هم أولاء، الأقربون منك، ما زالوا يسلبون منك هذه السمعة الجريئة. فبدلاً من أن يقولوا إنّك انتحرت احتجاجاً، احتجاجاً حتى على اللاشيء؛ يقولون: إنّك توفيت وكفى!

أتذكّرك، كأنّني افتقدتك للتو. يصاحبني البكاء وأنا أكتب مقالتي الآن التي أعلن فيها أنّك انتحرت ولم تمت سهلاً.

نعم صديقي الحبيب، شاعر الجنون المهذب، مختار عبدالجليل الضبيري. لقد انتحرت بإرادتك احتجاجاً على كل شيء احتجاجاً على الخواء الذي نعيش فيه ولم نستطع مفارقته؛ احتجاجاً على الموت السهل الذي يتقمّصنا كلّ يوم، ولا نجد معه لمسة حانية تربت على أكتافنا التي تخشّبت من حمل الحياة.

نعم صديقي الحبيب. لست هنا لأتذكّر لقاءاتنا الأولى، بما أننا من قريتين متجاورتين، ولا نصوصك التي دفعت بها للنشر في الصحافة لأوّل مرّة ولا رفقتنا الحميمة التي لم يفرقها حتى الموت. لكنّني في محل تحيّة لك أيها الصديق على ما قمت به احتجاجاً على الخواء. لقد احترمتُ يومها مشاعر الأهل ولم أفصح للصحافة أنّك انتحرت. ونسيت، نعم نسيت أنني كنت أهلك والأقرب إليك وأنت أهلي والأقرب إلي، وأنني الوحيد الذي يفترض ألا أخونك. وها أنا ذا أفعل يا صديقي. أنت لم تقم بعمل مخز، بل قمت باحتجاج هائل على كلّ الخزي الذي نعيشه، فالمجد لأسمك أيها الطيّب الجميل، أيها الجنون النقي والمهذّب كحلم.

***

كتبت عن الضبيري واحدة من أولى الدراسات التي أنجزتها عن الشعراء التسعينيين..كان ذلك عند مطلع سنة 1994م وقد نشرت على ثلاث حلقات في صحيفة الوحدة بين منتصف إبريل ومنتصف مايو من ذلك العام.. كنا وقتها نرسل كتاباتنا إلى الصحف أو نسلِّمها مكتوبة بخط اليد..فلم تكن الوسائل الالكترونية قد حضرت في حياتنا.. لكني برغم حرصي على تصوير موضوعاتي قبل تسليمها..فقد كنت بعض المرات لا أفعل ذلك.. لهذا السبب فقدت حلقتين من تلك الدراسة التي كتبتها عن قصيدته اللافتة آنذاك..(قلت هذا المساء) التي أوردت مقطعاً منها في مستهل هذه الكتابة..

..وحين كنت أجهز كتابي (أصوات متجارورة) وهو الكتاب الذي تموضع تجارب جيل الشعراء التسعينيين في اليمن.. رحت أبحث عبثا في أعداد صحيفة الوحد ة لكني لم أظفر إلا بالجزء الأول من الدراسة الذي نشر قبل تفجر حرب 1994م وقد اكتشفت أن العددين التاليين المنشور فيهما بقية الدراسة لم يتم توثيقهما في المكتبات لسبب لا أفهمه حتى الآن..وهذا ما جعلني أشعر بالحزن لغياب تلك الدراسة عن الكتاب.. كونها ترصد أطواري الأولى في الكتابة النقدية.. ثم لكونها مقاربة لنص إبداعي متميز يمثل جانبا من تجربة مختار التي كانت تتصف بخصوصيتها كما اتصف هو بوجوده الحياتي وحضوره المفارق..

ثم عثرت علي مسودة لبقية تلك الدراسة وقمت من خلالها بمحاولات ناجحة لترميم المادة رغم صعوبة أن تعيد إنجاز كتابة سبق لك أن أنجزتها.. لكن ظهور صديقي الشاعرعبد الباري معتوق في حياتي مرة أخرى واهتمامه بها بعثها في نفسي من جديد.

وازدادت سعادتي حين وجدت أخاه وبعض أصدقائه قد أنشأوا صفحة على موقع التواصل الاجتماعي نشروا عليها صورا ونصوصاً ومسودات لبعض قصائده.

أخوه جميل هو -أيضاً – من أمدني مشكوراً بكثير من المعلومات التي كنت أجهلها عن مفاصل مختلفة من حياته. وأنا وإن كنت أنهي هذه الدراسة بشجن كبيرتجاه المآسي والأحزان التي تكنفت رحلة مبدع عظيم ومختلف مثله إلا أنني أشعر بأهمية إنجاز

هذه الكتابة التي حاولت التوثيق له وإلقاء الضوء على بعض جوانب تجربته في الحياة والشعر والوجود الأدبي بشكل عام.

لكن هذا ليس كل شيء عن الضبيري فثمة الكثير مما يمكن أن يقال بعدُ عن شاعركانت رهافته عاملا حاسما في وصوله إلى حالة من التعب أنهت حياته قبل أن يوغل في الشوط، شوط العمر وشوط الإبداع.

الشاعر محمد السقَّاف
عندما تسقط شجرة الشاعر

كان الزمان كأنه فجر الوجود، وكان السقَّاف يكبرنا سناً، كان حينها قد تجاوز الثلاثين بعام أو عامين.. كان شاباً أنيقاً وسيماً كثير التجارب.. لم يكن طالباً في الجامعة لكنه كان معشوق الطالبات يكتب لهذه:

أوصيت لك بالأمس يومي يا غدي
والوقت يتحسس بحبك مولدي
وانتي بدايات الوعود
وانتي حكايات العهود
خطوات عمري الأوله
واغلى طفوله في الوجود
أوصيت لك بالروح من غير افتراض
إن كنت انا مجروح مالي اعتراض
وان كان حرماني يهون
أو حان موتي، أو يكون
أسقيك من دمعي رحيق
وافديك يا أجمل عيون
ويكتب لتلك:
حبك دفا كل الجروح

وانتي وانا أطول سفر

واحلى روايه للبشر

لما دروا عن حبنا

شافوا أثر أشواقنا بعيوننا

عرفوا تفاصيل الخبر

مكتوب في خطواتنا

مكتوب انتي دنيتي

والعمر علشانك أنا

وكانت شجرة السقَّاف علامة من أهم علامات الجامعة، تحتها نتحلق حوله أنا وعبد الباري معتوق، ومختار الضبيري وأحمد الزراعي وصادق الهبوب ومُحَّد القعود وعبد المهيمن الافلح ومدين السقَّاف والشاعر الفلسطيني مُحَّد العابد وأنور القحم وجمال الفروي ونبيل السروري ومأمون الربيعي وآخرين آخرين...

حين عرفته لم يكن يكاد يفترق عن عبد الباري معتوق طرفة عين.. وقتها كان السقَّاف يتنقل بين قلوب الجميلات كنحلة بارعة فيما ينتج أجمل الرحيق ممثلاً بقصائده التي كان شكلها الجديد جديراً بخلق مشهد غنائي مختلف تماماً، ما كان أحوجنا حينها ليكون له توأم فني يتجاوب مع روعة إبداعه ويلتقط لحظته الفارقة...

كان حساد السقَّاف كثيرين جداً. فالمذيعة الحسناء فارعة الطول ذات العينين الزرقاوين والابتسامة التي تشف عن أسنان كالثلج تغرق في غرامه غرقاً، تنافسها أخرى من ذوات النفوذ والعظمة، وكان السقَّاف يدير علاقته بهما إلى جانب علاقاته مع كثيرات أخريات بحرفية رائعة.. ما كان يسبب له عداوات كثيرة.. تعكس نفسها حرباً على تجربته الشعرية الفريدة التي تتفجر كل يوم بجديد..كانت شجرة السقَّاف شجرة كافورسامقة تقع في ملتقى ثلاثة ممرات بساحة كلية الآداب التي كانت آنذاك جزءً من الجنة تحيط بها مباني

الكلية من الغرب والشمال والشرق ويفصلها جنوباً ممر واسع يقع دون مكتبتها العتيدة وإلى الجنوب الشرقي القسم الفرنسي المؤسس حديثاً تقع بينه وبين شؤون الطلاب بوفية الكلية، لذلك فمن حيث أتيت تجد السقّاف في انتظارك وقد أشعل سيجارته المورالبنية الرفيعة التي عُرف بها ولم يكن أحد يشاركه في من نعرفهم تدخينها وكان يذهب لجلبها من المطار إذ هي لا تباع إلا هناك..

كان يقف في خيلاء المبدع تحت شجرته المنحوت اسمه على جذعها بيدي عبد الباري معتوق، يقف وسط محبية وتحت سهام كيوبيد التي يتلقفها قلبه من كل اتجاه فيما عيناه على الدور الثاني حيث تقف المذيعة الحسناء فارعة الطول بابتسامتها الناصعة البياض كالثلج ويبدأ يملي على صديق عمره عبد الباري معتوق:

بين الوجوه الساحره
ياما سرى في خاطري وجهك بنور
بين الملامح والصور
اللي تعلق بعضها في الذاكره
واللي نستها الذاكره
أو سافرت من خاطري..عبر الأثير
وجهك يجي.. فوق الملامح والصور
وجهك يجي... يطغي على كل الحضور
في كل ذكرى طيف مرت..عن حبيبه
من حبيباتي الذي لاقيت قبلك
أو حبيباتي الذي صادفت بعدك
وإلا على ومضه صغيره
مست احياناً خيالي

من صدى نزوه صغيره

عشتها فاصل من اللحظات

ما قبلك وبعدك

كانت النزوه الوحيده في حياتي... والأخيره

كنا مأخوذين بالسقَّاف الذي نشأت بينه وبين صديقي وزميلي في السكن عبد المهيمن الأفلح كيمياء عجيبة ربما لقدرة الأفلح على كسر الحواجز بسهولة وعن طريق السقَّاف تعرفنا على الشاعر والناقد كمال سالم البطاطي وفي مقيل البطاطي بدأت رحلة تعرفي الحقيقية على المشهد التسعيني المتبازغ آنذاك.. حينها كان البطاطي رائد المشهد النقدي الشبابي فقد كان حجر الزاوية في تأسيس جماعة الغد وفي ليلة إشهارها عام 1991م وأمام حضور رائع قرأ البطاطي في قاعة جمال عبد الناصر بعض قصائد السقَّاف بتكليف من السقَّاف نفسه وبحضور الشعراء عبد الناصر مجلي ومُحَمَّد الشيباني وسلطان عزعزي وعبد الوكيل السروري وأحمد شاجع.. وكان البطاطي قد كتب سنة 1989م يبشر بالسقَّاف كظاهرة لافتة تذكِّرنا بالمحضار وأمثاله من عباقرة الأغنية اليمنية، ورأى في كتابة أخرى سنة 1991م أن نوع الكتابة التي يجترحها السقَّاف " تعيدنا للارتشاف من المنابع الصافية وتدفعنا للوقوف بجدية لأنها اعتمدت الصدق والجمال "..

في أيام لاحقة أخذنا السقَّاف مراراً إلى بيته الأنيق القريب من كلية الآداب حيث كان يملأ مقيلنا بالشعر الذي لا يقطعه إلا شغفه بابنته الوحيدة " سكون " ذات السنوات الأربع تقريباً. كان يسخر من حياته الصاخبة وهو يداعب ابنته ويقول أسميتها " سكون " فهو الشيء الوحيد الذي أفتقده في حياتي.. وبين هذا وذاك كان يحكي لنا تنقلاته الكثيرة بين القلوب العاشقة في الغربة من جدة إلى الكويت إلى صنعاء.

كان حينها منغمساً في التواصل مع كبار الملحنين والفنانين مثل أحمد فتحي وأحمد بن أحمد قاسم، كذلك مع فنانين شباباً بدأت تجربته تلفتهم، ثمة فنان شاب اسمه علي الحمزي كان قد صدح بمجموعة من روائع السقَّاف منها " على فكرة " و " رحال " و "

وصية " و " السلام لله مش لي " و " ضاقت بي الدنيا " وكانت تلك الأغاني تقدم على مسرح قاعة جمال عبد الناصر..

أثناء ذلك كنت قد أصبحت أحد حواريي البردوني وفي جلسات كثيرة معه كنت أسمعه بعض إبداعات جيلي من الشباب ومن بينهم السقَّاف وذات يوم قال البردوني كلاماً جميلا عن السقَّاف بحضور علي الشاطر وعثمان أبو ماهر، سجلت الكلام في دفتري وكان السقَّاف يستعيد مني ما قاله البردوني باستمرار حتى قرر يوماً أن يذهب معي لزيارته.. ذهبنا ومعنا عبد المهيمن الأفلح وعبد الباري معتوق وكان استقبال البردوني له حفياً.. وكانت القصائد التي ألقاها بين يديه أكثر قدرة على توضيح صورته وإبراز فنياته فقد لفتت حداثة الشاعر الشاب واختلاف لغته الغنائية ومغايرتها لموروث الأغنية اليمنية نظر البردوني الذي راح يشيد بالشاعر وشاعريته واختلافه في كلام كثير نشرت بعضه مع ماسجلته قبلاً من إشادته بالسقَّاف في مقال كتبته آنذاك بعنوان " شاعر الأغنية الأول " وكان العنوان مستوحى من كلام البردوني وفحواه أنه لو أتيح للسقَّاف توأم فني عبقري التلحين والصوت فسيكون شاعر الأغنية الأول.. لأن طبيعة الكتابة التي يجترحها هي من نوع الكتابة البيضاء التي تتخطى حواجز اللهجة وربما تستطيع الخروج بالأغنية اليمنية إلى فضاء أوسع.

حتى عبد الباري معتوق الشاعر الأنيق الذي أعطى صديقه السقَّاف كل وجدانه آثر – حين سأله البردوني عن نفسه وشعره — أبى إلا أن يسمع البردوني من شعر السقَّاف وراح بنبرة صوته الجميل يترنم ب (لعوبة) أحد نصوص السقَّاف الأخاذة:

مافيش داعي تحرجيني

وتحرجي نفسك بترديد الحكايه

محاوله كانت وذابت

قبل ما نوصل الى نقطة بدايه

اكتشفت انك لعوبه

وألف كذابه

وأعذارك رهيبه

في حكاياتك تكلف

ادعاءاتك كثيره

بالطهاره والتعفف

بينما بتصرفاتك

ربنا يستر ويلطف

خرجنا من بيت البردوني في ذلك الصباح النوفمبري والسقَّاف يكاد يطير جذلاً.. لكن نشر موضوعي عن لقاء السقَّاف بالبردوني وما ذكرته من إعجاب البردوني به وما قاله عنه أثار عليه أحقاد شعراء وكتاب كان يغيظهم وهجه.. ويعشي أبصارهم تألقه.. فشنوا حملة شعواء ضده ودفعوا بأحد مريدي البردوني القدامى فافترى لهم نكتة على لسان البردوني تقلل من شأن السقَّاف زعم أنه قالها حين سأله السقَّاف عن رأيه في شعره، ولم يحدث من ذلك شيء فلا الرجل كان معنا ولاالسقَّاف سأل ولا البردوني أجاب، لكن ذلك الرجل كان مشهوراً بسلاطة اللسان والقدرة على السخرية مع الجرأة على نسبة الكلام دائما إلى البردوني.. وكان أكثر الناس فرحاً بتلك النكتة المفتراة منافسوا السقَّاف على قلوب الفاتنات، وتأذى السقَّاف كثيراً وخرج عن طوره مراراً ولم يكن ذلك يزيدهم إلا غيّاً.

كانت كلية الآداب آنذاك تضج بالنشاط الثقافي والفعاليات التي يتسابق عليها الشباب ممن كانو يشكلون طلائع الجيل التسعيني فلم يكن قد مضى إلا عام واحد على صدور ديوان مشترك عنوانه " وهج الفجر " يحتفي بتجليات تلك الطليعة ومن بينها السقَّاف، ولأن تطور تجربته كان يبدو متسارعاً توازيا مع حالة التوهج العاطفي والحضور اللافت الذي كان يحققه فقد بدأت تظهر حساسيات من بعض الشعراء تجاه تميزه وبدأت

فعالياتهم في قاعة جمال أشهر قاعات جامعة صنعاء وفي غيرها من قاعات الجامعة أو الأندية الرياضية تتحاشاه، وتنرفز السقَّاف زمناً ثم اتجه إلى تنظيم فعالية خاصة به أراد لها أن تكون في قاعة جمال عبد الناصر على أن يرعى الفعالية الدكتور عبد العزيز المقالح.. لكن الشباب - حسب ما أخبرني السقَّاف يومها - استماتوا من أجل تغيير مكان الفعالية وألقوا بثقلهم على المقالح كي يتخلى عن رعايتها وفي زحمة المنافسة والإحراجات تم نقل الفعالية إلى قاعة الزبيري وكلف المقالح الشاعر والأديب والمثقف البارز الدكتور نزار غانم بإدارة الفعالية نيابة عنه.. وتحولت الفعالية إلى يوم مشهود فقد اكتظت القاعة بجمهور كبير أكثره من الجنس الناعم وتفنن الدكتور نزار غانم في تقديمة وأغرق السقَّاف القاعة بعسل وورد كثير..

نشرت وقتها موضوعاً آخر عنه كان عنوانه " بين نكران الوطن وجحود الحبيبة " وتوطدت علاقتي أكثر فأكثر به حتى إنه اهتبل فرصة إجازة نصف العام سنة 1993م. ليفاجأني بزيارة إلى الجيلانية حيث قضى معنا ثلاثة أيام متنقلا بيني وبين شاعر امزخم أحمد سليمان..

ثم دار الوقت دورته واستعدت رحاه -مع الأسف الشديد -لسحق الشاعر الجميل..

أبدع السقَّاف أوبريتاً وطنياً مذهلاً بعنوان "طفلة من سبأ " كان شديد الاعتزاز به ينتظر على أحر من الجمر أن يتصدى له ملحن في مستواه وأن يتم تسجيله بشكل لائق، ولما تأخر حدوث ذلك ذهب بأوبريته إلى التلفزيون واستلمته الإدارة المختصة منه، وبعد فترة اعتذر التلفزيون عن تقديمه. وشعر الشاعر بصدمة قاتلة لكن الصدمة الأكبر أصابته عندما أطل عيد سبتمبر فقد جاءه صبح ذلك العيد اتصال من صديقه عبد الباري معتوق يطلب منه أن يفتح التلفزيون، وحين فتح التلفزيون وجد أوبريته يذاع ملحناً مغنّى دون إذنه ودون نسبته إليه.. وجن جنون السقَّاف فلم يكن ما فعله التلفزيون لائقاً بالشاعر الشاب الذي ترك وظيفته المرموقة مديراً للمبيعات بشركة عبد اللطيف جميل في

جدة بمجرد أن علم بقرب قيام الوحدة اليمنية.. وتحت وطأة تلك الصدمة وغيرها من الصدمات الوطنية كتب:

تعودت قسراً
على أن أهلل فرحاً لزيف الشعارات
تعلمت قهراً
سماع الأكاذيب تتلى عن المنجزات
وصفقت زوراً
ككل الرعايا
لمرأى الشوارع تغرق بالملصقات
لديّ شهادة خبره طويلة
وأعمل منذ سنين بدون وظيفه
أقوم بدفع الضريبه
لخبزي المثلث
وقيمة مائي الملوث
ورسم الإناره
بدمغه نستها الإمامه
ورسم لتلفاز شيزوفريني معقد
أراه ضحى كل يوم أحد
بكل (نيويير) من كل عام

ولم يمض وقت طويل على فضيحة التلفزيون تلك حتى دخل السقَّاف في خلاف صعب مع مجموعة تجارية شهيرة كان يعمل لديها وتطور الخلاف ليصبح مسألة حياة أوموت..

وكان صيف عام 1994م لحظة فاصلة فقد ألقت قوى التخلف والظلام كلاكلها العابسة على الجامعة تخنق الجمال وتحجب الابتسامات الناعمة وتنزع الحلاوة من كل شيء. لم يترك خفافيشها شيئاً حدّ أنهم حكّوا اسم السقَّاف المنحوت على الشجرة بالجنابي ليبعدوه، وبمقدار ماكان ذلك الوضع يعكس كآبته علينا والسقَّاف معنا كانت أضرار اصطدامه بأرباب عمله تعكس أضرارها عليه شاعراً وعاشقاً وإنساناً ورب أسرة..

تدهورت أحواله وانفض سامره الجميل وغاض نبع الفاتنات من حوله.. ولم ينته زمن الجامعة إلا وقد تباعدت بنا الطرق أو كادت..وبقي السقَّاف يطل علينا كل ثلاث سنوات أو أربع حاملا ملفات قضيته المزمنة.. وفي طريق المعاناة والظلم والظلام وانعدام العدل والانصاف ماتت الزوجة وذهب البيت وشاب الرأس وطالت اللحية ببياضها المؤلم.. ولم يبق من الشاعر الا شبح يقتات بالحسرات والمرارة..

استيقظ السقَّاف في نفسي قبل سنوات فذهبت للبحث عنه وحضر معنا مقيل العابد أكثر من مرة حرصت خلال تلك الاستيقاظة المفاجأة نحوه أن آخذ قدر ما أستطيع من قصائده كي أكتب عنها وكي أجهزها للصدور إن لاحت الفرصة لذلك، لكن هيجانات الشوارع عام 2011م صرفتني عن الاهتمام به فلم أجهّز ديوانه للنشر ولا حتى كتبت عنه..

آخر مرة شاهدت فيها السقَّاف كانت عام2013 م قرب وزارة الثقافة في ميدان التحرير، يومها لم يسألني عن مصير قصائده ولا ماذا فعلت بشأنها، كان قد شاخ إلى درجة محزنة، وكان لا يزال يحمل عبء قضيته التي أكلت أجمل سنوات عمره وقضت على طموحه الإبداعي وغمرت بعذاباتها وأوجاعها توهجات شاعر كان ينتظره مستقبل فني غير عادي..

وها أنذا اليوم أستعيد السقَّاف بعد أن شجاني لزمنه منام رأيته فيه.. ها أنذا أكتب عنه وقد ذكَّرني صديقنا المشترك عبدالباري معتوق بنص يقرر فيه السقَّاف حاله مع الحبيبة ومع الدنيا كلها:

على فكره

أنا وانتي تغيرنا

تباعدنا بلامشوار

حاولنا كذا مره

نخفف من لهيب النار

تعللنا بسوء الحظ

تعذرنا بكل اعذار

على فكره

تمادينا

وقلنا للزمن غدار

شاعر الأغنية الأول

منذ وطئت قدماي آداب صنعاء، وبدأت رحلة التعرف على أدباء الكلية من الطلبة الشباب.

أدهشني أنني حيثما وليت وجهي سائلاً، أو مددت كفّي مصافحاً، سمعت من محدثي إسم السقَّاف، شجرة السقَّاف...

السقَّاف المتفق عليه حباً، والذي يجب أن يتفق عليه شعراً...

ولأنني كنت قد عهدت نفسي دائماً متابعاً مثابراً لكل نتاج ثقافي.. فقد صدمني كوني لم أعرف السقَّاف من قبل.. قارئاً.. أما سبب ذلك فيعود إلى عدم اهتمام وسائل الإعلام عندنا بالمواهب الفذة النابغة أمثال السقَّاف.. وعدم إصداره مجموعة شعرية حتى الآن.. هذا من جهة.. أما السبب الثاني.. فهو في اعتقادي يكمن في كون السقَّاف كسائر أولئك الذين ترتفع عندهم درجة الإبداع.. فتهبط عندهم موهبة الترويج لإبداعهم فلا ينالون.. نصيبهم من الفرح بنتائج عطائهم إلا بعد ذهاب شهوة الفرح عندهم..

أعترف غير مخف أنني حين سمعت السقَّاف للمرة الأولى تحت شجرته في الآداب.. شعرت بأنني قد عثرت على ضائعٍ من الفن طالما بحثت عنه.. دون أن يتحدد في داخلي كنهه.. هذا إذن لون جديد من الإبداع.. وعرفت السقَّاف.

السقَّاف.. الشعر المغاير.. اللغة المختلفة.. السقَّاف بعباراته المعطرة.. ومفرداته المنتقاة التي تجمع بين بكارات وفطرية الزهور البرية.. وجمال وتناسب ورود الحدائق المنسقة..

السقَّاف كما أسلفت ينتسب إلى أولئك المبدعين الذين لا يعرفون كيف يروجون لإبداعهم. ولذلك فهو مدرسة لا تعرف قيمة نفسها كما يجب..

إنه فنان ((صامت)).. ولعل شعوره القوي بثراء فنه وتفوق موهبته يقف حائلاً بينه وبين الطرق التي يسلكها الآخرون والتي يجيدها أنصاف المواهب على وجه الخصوص.. لبلوغ ما يريدونه سأعود الآن إلى ورقة من دفتر مذكراتي كتبتها قبل سته أشهر.. بعد ضحوة يوم جمعة في بيت أستاذنا العظيم.. الأستاذ عبد الله البردوني.. أعود إلى تلك الورقة الآن لأن فيها جواب كيف تفهم المواهب الكبيرة.. عند كبار المبدعين؟.. وكيف يقدر مبدعنا الأول موهبة السقَّاف.. ؟وهذا ما كتبته بالنص (قال البردوني هذا اليوم كلاماً أدهشني أشد ما تكون الدهشة) على رأي طه حسين حين قال: ((السقَّاف هذا قريباً سيكون سيد الساحة وفارس الشعر الغنائي في الجزيرة العربية وهذا الأسلوب من الكتابة لم نعتده من كتاب الأغنية في اليمن.. الذين يؤثرون تقليد السهل من الموروث ولم يشتهر ويعرف إلا في الأغاني المصرية واللبنانية وأخيراً في بعض الأغاني الخليجية.. وذلك لحاجة هذا النوع إلى ملحنين كبار كعبد الوهاب والأخوين رحباني.. بيد أن أشعار السقَّاف تمتاز بعمق الفكرة وحساسية الكلمة.. وإيقاعية العبارة.. وصفاء المعجم.. السقَّاف في حاجة إلى ملحنين يفهمونه.. إنه شاعر مغاير.. إنه يختلف عن الآخرين)).

هكذا تكلم البردوني عن السقَّاف وأذكر تماماً كيف كان الدكتور علي حسن الشاطر مدير إدارة التوجيه المعنوي في القوات المسلحة ذلك الشاب المثقف الذي عرفته ذلك اليوم.. يهز رأسه ناظراً إليّ مستغرباً فيما كان البردوني يعبر عن عشقه لمفردات السقَّاف الجديدة.. وقد حدث هذا أيضاً بحضور الشاعر الغنائي الكبير عثمان أبو ماهر..

وكنت منذ البداية مهتماً بفن السقَّاف.. ولقد وجدت فيما بعد أن السقَّاف يحتفظ في أرشيفه الخاص ببعض ما كتب في بعض الجرائد عنه.. ثم ببعض ما ترجم له أو كتب عنه في الفرنسية والانجليزية .. وقد قال عنه أحد المهتمين الفرنسيين ((إن أسلوبه الشعري معروف بإيقاعاته المتميزة والقوة الإبداعية فيستخدم اللغة للعناية بإنتاجه القصائدي وقوة إرسال الصورة المثيرة..)) وقال ((هو يختار إيقاعاته بشكل مناسب.. وجيد لإنتاجه.. كما يختار كلماته من الزهور والعاطفة والحب..)).

ولكن السقَّاف ما يزال مثالاً للموهبه المظلومة إعلامياً.. فهل يمنعنا صمته وعدم جريه وراء الإنتشار من أخذ زمام المبادرة.. ووضع شهد السقَّاف بين يدي القراء.

إن فن السقَّاف ليس ملكاً له وحده.. بل هو حق لنا جميعاً..

وفي صفحة مذكراتي تلك.. تمنيت لو أن الأستاذ البردوني أذاع رأيه في السقَّاف.. مسموعاً أو مقروءاً.. فهو أحرى أن يلفت الأنظار إلى السقَّاف.. ليأخذ نصيبه وحقه سيداً في ميدان الأغنية.. مجدداً لها قلباً وقالباً.. ومن ثم ليأخذ مكاناً متفقاً عليه في قلوب الجماهير الواسعة.. كما استطاع بفنيته ورقة حاشيته ودماثة خلقه ولين جانبه أن يمتلك قلوب كل شباب الجامعة.. ليتك يا أستاذ.. تذيع رأيك.. ليتك يا استاذ تفعل..

بين نكران الوطن وجحود الحبيبة

بين عواصف الحياة.. وغبار الأيام وعلى متن قطار العمر العابس المتجه نحو الفناء وفي وقت لا يعدو عن كونه محطات انتظار ليس غير -يواصل- الشاعر الغنائي المبدع مُحَمَّد السقَّاف غناءه مشنِّفاً الأسماع ساحراً القلوب وهو يتلو مزامير ألمه.. مترجماً لكل نفس تعشق ويزجر عشقها الحرمان سالكاً طريقه الجديد الذي شقه لنفسه بأسلوبه الخاص وذوقه الفريد يختار بأناة وسهولة مفرداته البهية الراقية من (لغة حديث الناس اليومي) تماماً كما تفعل النحلة ويغدو ما نسمعه أو نقرأه فيما بعد شهداً لذيذاً يروي غاية النفوس ويشفي كلوم القلوب.

وفي هذه السطور القليلة سوف أحاول الرحيل عبر تخوم بعض القصائد لمحمد السقَّاف التي تكشف عن جوانب المعاناة الإبداعية واليومية في حياته، تلك المعاناة المسترسلة بين عطائه العذب ومرارة ما يلقى حتى كأنه نبتة ورد على عرض الطريق يقطفها السابلة ولا يمنحونها إلا الغبار.

في مقابلة مع أعداد جريدة الأيام يقول الشاعر الغنائي (أحمد الجابري).

إن زحمة المدينة وضجيج الشوارع الخلفية وطوابير شراء أرغفة الخبز في الحوانيت أمكنة طقس ملوث يفقد الشاعر الغنائي قدرته في العزف على عود منفرد.

وكل من يعرف السقَّاف جيداً.. ثم يقرأ هذا الكلام للجابري يفهم لماذا كان السقَّاف ظاهرة غريبة في هذا الزمن العابس الذي صارت فيه أشعار السقَّاف رشة عطر تسافر عبر الرياح وغيمة غيث تستلطف القفر الجديب، فكل ما ذكره الجابري من أمكنة الطقس الملوث التي يفقد الشاعر الغنائي قدرته في العزف فيها على عود منفرد ليست سوى جزء بسيط من المعاناة التي يكابدها صاحبنا.

ولعل معاناته اليومية في ظل التوقف عن العمل تعد هما بسيطاً بجانب معاناة التعتيم والتجاهل المتعمد في كثير من الأحيان فيغيب السقَّاف غالباً عن سائر الأنشطة الأدبية.. كما أن الإعلام واتحاد الأدباء والكتاب لا يوليان الشاعر أي اهتمام.

إن السقَّاف يكتب شعراً جديداً مختلفاً شعراً ينضح بروح العصر ويتكلم لغته ويصرح برغباته ويعبر عن مكنوناته. ومن الحري جداً باتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين أن يبادر بندوة تتموضع هذا الإبداع ومبدعه وأن يدعوا إلى أمسية يقف خلالها الآخرون على فن هذا الشاعر الذي يحترق في الظلام بين يدي الحبيبة والوطن دون أن يأبه به أحد وهو يشرح معاناته قائلاً:

من أول الدنيا لآخرها

أمر أطوي بأنفاسي مسافتها

أطوف أسأل عن الأطلال والذكرى

أقول يمكن تصادفني أصادفها

تعبت أجري.

وكل مبدعينا مكتوب عليهم أن يتعبوا ولما يزالوا في ذروة شبابهم عمراً وإبداعاً لأن لسان حالهم هو لسان حال السقَّاف.

تعبت أجري

ولا بسمة من الحيرة تدفيني

ولا نظرة عيون حلوة

بصدفة تحتضن عيني

وهكذا تتعاقب الأيام وتزداد اكفهراراً لا يندى كفها إلا بالحرمان ولا يمتلئ كأسها بغير القسوة والقهر، وبين نكران الوطن وجحود الحبيبة وفي ظل هذا التماهي المرير يخرج الشاعر - الذي وسمناه في كتابة سابقة بالصمت — يخرج عن صمته مستعرضاً صوتاً أراده

أن يكون غاضباً جموحاً ينطلق بالقوة ويزمجر بالإباء فأبى الأسى إلا أن يكون شاكياً حزيناً يشوبه بعض التبرم.

لا تسأليني من أنا؟

لا تسألي ظمآن عن خمر اللمى

قدري أنا.. في سوء حظي اتضح

صدري أنا.. محروم من شهقة فرح

وحدي أنا منفي بأجزاء السنين

منثور في وجه الأنين.. مغروز في شك اليقين

الشوك من صمتي بصمتي انجرح

وانا لكل الناس أزرع ورد وانثر ياسمين

- في هذه القصيدة التي تشكل المقطع الثاني من قصيدة (من أنا) إحدى قصائده الأخيرة يحشد السقَّاف الكثير من الألفاظ مفردات المعاناة فنجد (الظمأ - الحرمان - سوء الحظ- الوحدة - المنفي- الوجع - الأنين - الشك - الشوك) كأدوات فعالة.. هي ما يلقاه من الآخرين -الحبيبة بشكل خاص ثم الوطن (الناس) الذين يزرع الورد لهم وينثر الياسمين، وثمة ملاحظة أخرى ذات دلالة في شعر السقَّاف تلكم هي كثرة ورود اسم المفعول في أشعاره.. وفي المقطوعة السابقة يرد اسم المفعول أربع مرات كدليل آخر على ارتفاع صوت الإحساس بتماهي الآخر الذي يعني الدنيا -سوء الحظ- في تجاهله -مما أوقعه في ضبابية صار معها يجهل نفسه وهو ما يعبر عنه بالطريق التي رصد مكافأة بديعة وعلى طريقته الخاصة لمن تدله عليه وتوضحه له كما يقول في المقطع الثالث والأخير من قصيدته (من أنا) مخبراً أنه لا يعرف نكران الجميل ولا يهضم للآخرين يداً وهنا غناء جميل وترتيل شجي بديع يخلب الإحساس ويصل فيه السقَّاف إلى قمة السلطنة وهو يقول:

*** يا من توضح لي طريقي.. أو تقل لي من أنا؟**

من أجلها أغزل بدمي فوق معصمها سوار
أنسج لياليها صباح، أوصي لها روحي نهار
يا من تقل لي من أنا
اقرأ لها شعري بترتيل الخشوع
اكتب بذراتي، خلودي، حبها
وحدي أطرز في ظفايرها شموع
يا من تعلمني لها..
أحني شموخي.. في خضوع
من اسمها أحضر بأنفاسي
وأنقش رسمها بين الجوانح والضلوع.

هذه بعض جوانب السقَّاف التي أسلفتها في هذه السطور من جهد المقل شاعراً في قرارة نفسي أنه لا بد من كلمة تقال وإني لأخشى أن تعترف حياتنا الأدبية والفنية بالسقَّاف بعد أن تأكل عليه رحلة العمر وتشرب وساعتها لن يثير ذلك الاعتراف غير المزيد من الأسى والحزن والحسرة فنجد السقَّاف يواجهها كما واجه الحبيبة ذات يوم:.

اعترافك كان قاسي حتى لو فعلاً تأخر
كان أقسى من أعاصير المآسي
إلا أني كنت ناسي
أن عمري في مدى النسيان أبحر
بقايا الروح في الأوهام ضاعت
والآمال بين اليأس ذابت
وماتت كل ذرة في حواسي

الشاعر حسين البحاري
إحدى عطايا العم جوجل

كلما كتبت عن واحد من أدبائنا أو مثقفينا الكبار أحسست "أن عقلي يدق في قلبي" وهذه العبارة ليست لي فهي مما قرأته يوماً مّا ..لكنها تصدق على حالي فأنا لم أعد أفكر في هؤلاء الكتاب بعقلي إنني أفكر فيهم بقلبي.. ومعنى ذلك الكثير من الألم والحزن والتعاسة..حتى حين أكتب كلاماً جميلاً وأشعر أني من شدة إعجابي بنفسي أريد أن أفعل كما كان يفعل البحتري بعد انتهائه من إبداع لوحة شعرية عالية المقام.. أقف أمام المرآة وأقول لنفسي: ياسلاااااام عليك ياعلوان..ولو فعلت ذلك فلن أفعله فَرِحاً جذلاناً كما كان يفعل البحتري الذي يعرف مسبقاً كم ألف دينار ذهبي سيصبها الخليفة العباسي المتوكل في حجره.. سأنشد قراءتي الجميلة حزيناً باكياً كما أنشد شعراء الجاهلية على الأطلال البوالي..بل كما تغنى قيس بن الملوح وأمثاله بعذاباتهم وحرمانهم وانعدام الرحمة في قلوب أهل زمانهم..

لقد اخترت الكتابة عن أكثر أبناء هذا المجتمع جمالاً وتعبيراً عن هوية الشعب وملامحه، وأكثرهم امتلاءً بثقافته وتنوع تراثه و ثراء تاريخه.. لكن هؤلاء الذين ملأوا عقولهم وقلوبهم بنا، يجدون أنفسهم معظم الأوقات مرغمين على التعايش مع إجحافنا بهم.. فمؤسسات الدولة –إن جاز أن تسمى كذلك – تحجبهم بأقفالها المتينة وتصر بغباء وجهل وأحياناً كثيرة بقصدية وخبث أن تضعهم في قماقم مغلقة تلقي بها في ظلام محيطات من التهميش والإقصاء والتجاهل، والمواطنون في معظم الأوقات يفعلون الشيء نفسه.. فالذاكرة ضعيفة والناس على دين ملوكهم.. أما الأخطر من ذلك فهو إجحاف الأدباء والكتاب بأنفسهم.. صحيح أنها علة قديمة وموجودة في كل البلدان وفي كل الأزمان..وقد

قال القدامى: المعاصرة حجاب..لكن العلة عند اليمنيين دائماً أكبر وربما أنهم بسبب هذا قد صكوا المقولة الرديفة: المعاصر لا يناصر. فبعد بحث طويل وجدت أن أول من استعمل هذه المقولة المؤرخ عبد القادر العيدروس في كتابه "النور السافر في أخبار القرن العاشر".

والمشتغلون بالكتابة في اليمن من شعراء وساردين ونقاد ومؤرخين ومفكرين وصحفيين وأكاديميين يخلطون معظم الأوقات بين التباين في المواقف والرؤى والإختيارات والمناهج وحتى الأساليب والأشكال وسائر الإشتغالات التي يجد الواحد نفسه متحيزاً لها وبين ضرورات التقدير وواجب التقييم المخلص والتحية المنصفة للآخرين..والبخس عندنا لا يتوقف على آفة الخلط.. فهناك الحسد والفرز المناطقي، والاستبعاد الاجتماعي، والسياسي، والشللي، ناهيك عن التنميط الذي يعد أشد تلك الأمراض فتكاً وأكثرها حقارة لكونه يقوم على جهل بالمستهدف وإنتاجه.. ويروج له صوراً نمطيةً ظالمة تتكاثر في الشائعات والمشافهات المستهترة..ولا عجب إذن أن تنضج ثمار كثيرة على شجرة الأدب والفن والفكروالثقافة في اليمن دون أن يتذوقها أحد.. قليلون جداً من يشعرون بها.. وهم يشعرون بها في إحدى حالتين حين تقع فريسة مرض لا نجاة منه، وحين تسقط ميتة.. ثم لا يذهب شعورهم الآني تجاهها أبعد من قصيدة رثاء أو عمود تأبين.. أو منشور من سطرين على الفيس بوك..

وفي هذه الحالة لا تتوقف المأساة على ماضاع من أعمارهم الإبداعية في غياهب التجاهل والفقر والمعاناة التي تعيقهم عن الوصول إلى التحقق الكامل سواء من خلال مراكمة الإنتاج أو من خلال القدرة على إيصاله إلى المتلقي بالنشر أوبغيره من وسائل التوصيل.. بل إن المأساة لتتواصل بعد رحيلهم بتشتت ما تبقى من نتاجاتهم وظهور فجوات في سيرهم ومحطات حياتهم يصعب على من يأتي بعد ليدرسهم أو يؤرخ لهم أن يتغلب عليها..فغياب التوثيق سمة أخرى من السمات السلبية الغالبة على المشهد الثقافي اليمني..أما إذا تساند غياب التوثيق مع إهمال الأسرة وغباء الورثة وشقاقاتهم أو محاولاتهم التعدي على ماخلفه مورّثهم بإخفاء جانب منه لأسباب سياسية أو اجتماعية أو

أيديولوجية فإن المصيبة تكون مضاعفة..وما أكثر ما حدث هذا..دون أن يصرخ أحد للتنبيه على خطره والسبب بسيط جداً فالأمة التي تهمل مبدعيها في حياتهم لا يمكن أن تقدرهم بعد مماتهم.والإبداع الذي لا يتهيأ لصاحبه أن ينشره كما يريد في حياته..لايمكن أن ينشر كما كان يريد بعد مماته.. وهذا يصدق حتى على أكثر أعلام اليمن شهرة..فقد حدث مع البردوني والشامي والحضراني والنعمان والفضول والإرياني والشحاري والرديني وهؤلاء مجرد أمثلة لا غير..

***

لكن العم جوجل كان أكثر كرماً وعدالة من مؤسساتنا الرسمية والأهلية، من إعلامنا المهمل.. ومن نقادنا المقتولين بالكسل.. والمتعالين بالوهم..وليس من مثال على كرم وعدالة جوجل من حالة الشاعر التهامي حسين علي سليمان الشهير ب(البحاري)..

ولد البحاري في قرية الداودية، عزلة بني مهدي - مديرية القناوص — سنة 1959م .. وتلقى تعليمه الأولي في معلامتها، وفي سنة 1972م افتتحت أول مدرسة نظامية في الداودية وتم إلحاق البحاري بالصف الثالث لأنه كان يجيد القراءة والكتابة بتمكن تام، وبعد تفوقه في الصفين الثالث والرابع حصل بين عامي 1974 و1975م على دورتين تأهيليتين ضمن دورات إعداد المعلمين في الحديدة، ووقَّع عقداً مع إدارة التربية سنة 1976م صار بمقتضاه مدرساً..

ومنذ تمكن البحاري من فك الحرف في المعلامة.. بدأت رحلته مع الكتب.. وأدمن مطالعة المتنبي وأحمد شوقي والمعلَّقات السبع فيما يلح عليه هاجس دائم بالرغبة في مجاراتها والنسج على منوالها... وبموازاة ذلك راح ينهل من الكتب التي يرسلها له والده من مغتربه في السعودية.. وتعرف على عوالم مدهشة قدمتها له السير الشعبية والف ليلة وليلة وكتب التراث من نوع المستطرف في كل فن مستظرف ناهيك عن المجلات والروايات المعاصرة.

مارس البحاري مهنة التعليم في قريته مدة سنتين كاملتين على أمل أن يتحول عقده مع إدارة التربية في الحديدة إلى وظيفة رسمية وحين لم يتم ذلك أجبرته دواعي العيش على قطع زمن من شبابه مغتربا في السعودية.

وفي مواجع الفقد وآلام البعاد انصهر وجدان الفتى.. وسال على أوراقه قوس قزح من رحيق الشعر وألوانه.. وفي حدود سنة 1982 م تهدجت أحاسيسه على وقع بشارة من أهله بولادة ابنته البكر وكان ذلك أول نص حقيقي يكتبه..

حتى ليلة السادس والعشرين من سبتمبر سنة 1986م لم أكن قدعرفت البحاري رغم القرابة التي تجمعنا، كنت وقتها ألج إلى الصف الثالث إعدادي، لكني كنت أكبر سناً من طلاب هذه المرحلة.. فحين فتحت المدرسة الحكومية في " الجيلانية " سنة 1981م كنت قد ختمت القرآن وصفيته وتعلمت مبادىء الحساب ودرست متن السفينة والزبد.. لذلك أخذت المرحلة الإبتدائية قفزاً في ثلاث سنوات..

وحين شاهدت البحاري أول مرة كنت قد قرأت مئات الكتب.. وملأت دفاتر كثيرة، محاولات شعرية وقصصية، خواطر ومذكرات ورسائل ويوميات.. وكنت ممتلئاً بنفسي إلى درجة كبيرة..

وقتها كان الشهيد أحمد الشامي جديد التعيين مديراً لمديرية القناوص، شابٌّ ممتلىء بالحماسة والحيوية ويمتلك كاريزما غير عادية حدّ أنه لا يستطيع الهدوء يوماً واحداً.. وقد قرر أن يقيم حفلاً كبيراً بمناسبة عيد الثورة تحضره كل قراها ودفع بمدارس المديرية إلى التنافس على أفضل برنامج يقدم في الحفل.. وتفوقت مدرسة الداودية التي قدمت مسرحية فكاهية مميزة بطلها صاحب " امسألة كبريتو" شاعر امزخم أحمد سليمان.. وهو ابن عم البحاري وابن خالته أيضاً.. لكن أجمل ما فعلته مدرسة الداودية تلك الليلة هو استعانتها ب " البحاري" الذي صادف الحفل عودته من الغربة لزيارة أهله..

كان البحاري ليلتها يتزفزف متباهياً، واثقاً، قوي الحضور، بديع الإلقاء، يلهب الحماسة إيقاع بحره الطويل.. ويفجر لحظات الحفل بقافية على حرف القاف مازال في أذني منها:

قلب يذوب من الفراق ويفرق	**وجسم بنار الوجد قد كاد يحرق**
ونفس تروم الوصل من حرّ مابها	**وعين من الأشواق في السهد تغرق**
وما ذاك من عشق الحسان ودلهم	**ولا من شذى ورد على الخد يعبق**
ولا من جفا خلّ ولا نأي غادة	**وما كل ذلك للجفون يؤرق**
ولكن إلى أرض شغفت بحبها	**بأنسامها قلبي يهيم ويعشق**

وعرفت تلك الليلة أن هناك على بعد بضعة كيلو مترات من قريتيً ا يكتبون الشعر ويشغفون مثلي بالكتب ويقرأون الروايات.. واشتعلت روحي أسفاً على سنوات تفتحت فيها عوالمي وعوالمهم فيما نحن على قطيعة بسبب صراع مرير نشب سنة 1982م بين قريتي الجيلانية والداودية وهما أسرة واحدة يجمعهما أب واحد..

عقب تلك الليلة ارتبطت بهم، شاعر امزخم أحمد سليمان الذي كان وقتها يكتب معظم محاولاته الشعرية باللهجة المصرية، والشاعر حسين سليمان الذي سيعرف فيما بعد ب" البحاري " وعبد الله سليمان – شقيق البحاري – الذي كان مشروع كاتب حقيقي لكنه اتخذ طريقاً آخر فيما بعد، والأديب مُحَّد عبدالله حسن الذي يعود تفوق الداودية لجهود والده واستنارته رغم أنه - رحمه الله – لم يكن يعرف القراءة والكتابة..ثم مجموعة من الطلاب، منهم حسن بواح " صارطبيباً فيما بعد " وأحمد عبد القادر " وكيل مدرسة الداودية اليوم، والأستاذ مُحَّد علي جيلان والشاعر الجميل مُحَّد مهدي الذهب.

خلال شهور فقط من تواصلنا المستمر وتبادلنا الزيارات أنهينا قطيعة أهلنا.. واجترحنا ليالي أنس كان سمرها يتحول إلى ندوات إبداعية ومثاقفات غير عادية.. بطبيعة

الحال كان البحاري أكبر عمراً وأنضج تجربة.. أو يجدر بنا أن نقول أفضل منبرية.. فقد كانت معظم قصائده تتقصد المناسبات وكان يجيد الدخول إليها بطرائق تجيد بدورها تَمَثُّل ما يبثه التلفزيون من قصائد مناسباتية تجمع بين الحماسة والترويج الدعائي لمنجزات الثورة مقرونين بصدق التعبير والجرس الموسيقي المجلجل الذي يأخذ بألباب الجماهير.. حتى وهو يلقي قصيدته بمناسبة زيارة مدير المديرية لقريته يجعلك تخاله المتنبي يمدح سيف الدولة.. وكان ذلك غريباً ومثيراً بالنسبة لي فأنا لا أحسن مثل هذه الكتابة.. فقد كنت أكثر انغماساً في قراءات نوعية تؤثر على وعيي وطريقة مقاربتي للأشياء إبداعياً، وعندما كان يطلب مني أن أقول شيئاً في مناسبة ماّ كانت تتنازعني أصوات السياب ودرويش وصلاح عبد الصبور والبردوني ناهيك عن المهيمن الأكبر على وعيي وقتها أعني " العقاد ".. وذلك كان يقلل من شعور الناس أنهم يستقبلونني استقبالاً مريحاً..على عكس البحاري..

ولم يكن البحاري معنا طوال الوقت..فالغربة تسرقه باستمرار وبين سنة 1987 و1990م لم نلتق إلا بضع مرات.. وكانت إحدى تجليات البحاري مطلع سنة 1991م في الموسم الثقافي بالحديدة الذي كان البردوني ضيف شرف عليه..حين القى قصيدته المدوية:

وهـــــذا أمـــــة المجـــــد　　　أوان الشـــــد فاشـــــتدي

وهي قصيدة ذاعت وشاعت بين الناس حينها بسبب قدرتها المميزة على مخاطبة شجون الجماهير.. وصادف أن أقام في الحديدة إبان ذاك عاملاً في حراج المغتربين.. فشارك في عديد الأمسيات الشعرية والفعاليات المختلفة التي كان يقيمها فرع اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين هناك.. وقد حصل على عضوية الإتحاد سنة 1992م..

ثم جمعت بيننا أنا وهو وامزخم أحمد سليمان أمسية شعرية لا تنسى سنة 1994م في قرية النجاري..

بعدها باعدت بيننا السنين بسبب ظروفه هو وبعدي أنا في صنعاء... فلم نكن نلتقي إلا لماماً.. وبعد منتصف التسعينيات من القرن الماضي كانت أحلام البحاري تتراجع..بسبب ضغوط المعيشة..واتساع حجم الأسرة.. وتوقف نمو تجربته الشعرية التي وجدت نفسها حبيسة وعي تقليدي تشكله تيارات هيمنت على الحياة في قريته.. وعلى شديد محبته للبحاري فقد كان أخي إبراهيم – رحمه الله – يأسى في بداية مطلع الألفية كلما سألته عن البحاري ثم يجيبني " وكذا الرسيفر" وهي جملة من قصيدة وعظية سمع البحاري يلقيها في عرس محذراً الناس فيها من القنوات الفضائية..وكانت مثل هذه المناسبات تقتل الحياة وجمالها وتقتل الإبداع نفسه..

رغم ذلك بقيت معلق القلب بالبحاري..وحاولت سنة 2004م طباعة مجموعة شعرية له ضمن مطبوعات صنعاء عاصمة الثقافة العربية ولكن الطموح لم يتحقق.. تلت ذلك سنوات كنت أتذكره في أحاديثي مع امزخم أحمد سليمان الذي صارظاهرة تضج شهرته في المنطقة كلها.. وكلما ذكرناه أشعر بمقدار الظلم الذي تلحقه الظروف بكثير من المبدعين.. لكني ظللت على يقين من أن هذا الشاعر يمكن أن يحدث فارقاً فيما لو ناكشته مثاقفات حقيقية وتجارب متحدية وألقي عليه الضوء كما يجب.. وهذا ما حدث بالفعل، بل بما يفوق توقعاتي بشكل كبير.. وكان الفضل فيه للعم "جوجل".

***

بدأ البحاري رحلته الإبداعية مع الشعر الفصيح.. الذي كان يقارفه جنباً إلى جنب مع اشتغاله في الغربة عاملاً في مجال البناء واشتغاله في المقاهي عاملاً ثم مستأجراً.. وكان قد اعتاد طيلة الثمانينيات وجزءً من التسعينيات على الفصيح وعلى تسيده.. لكنه في التسعينيات أيضاً بدأ يلاحظ تغير المزاج العام وميله للشعر الشعبي ولم يكن ذلك إلا بسبب ظاهرة أحمد سليمان التي أقامت الدنيا وشغلت الناس.. ولم يجد البحاري بداً من تجريب نفسه في هذا الباب..ولبدايته معه قصة..

بعد خروجه من السعودية سنة 1990م على خلفية أزمة الخليج التي حرمت مئات آلاف اليمنين من الإقامة في السعودية.. جرب البحاري كسب رزقه من أعمال مختلفة في اليمن..وكالعادة فإن المردود لم يكن يكفي أسرته الكبيرة .. فكان يغامر بالسفر إلى السعودية دون إقامة كما يفعل معظم المغتربين اليمنيين منذ عقدين ونصف العقد.. وفي إحدى مغامراته تلك كان يقيم في مدينة صبيا مع أناس من الزهرة (وادي مور) وكانت مسامراته معهم تقود إلى الشعر فيسمعهم مما أبدعه في الفصيح وفي كل مرة كانوا يمتعضون منه بحجة أنهم لا يفهمون هذا الفصيح إنما الشعر عندهم ما ينتشر بين الناس من شعر أحمد سليمان..كان ذلك محرجاً للبحاري واعتزازه بفنه لكنه ذات مرة قال لهم: هات اسمعوني من شعر أحمد سليمان كي أكتب لكم على طريقته.. فأسمعوه مطلع قصيدة من أشهر قصائد امزخم وهي قصيدة " خاين ":

يا للأســــف يا خســــارة	**في امقلــب مليــون حســره**
كنـت احسـبك لي خصوصـي	**طلعـــت للكـــل أجـــره**

وتحت طائلة الاستفزاز كتب البحاري على الفور قصيدته الشعبية الأولى "غشاش":

قــد كنــت حبــه وعــزه	**وغشــــنا اليــــوم بطـــره**
خــلاص يــرح لــه ف حالــه	**ماشــاه ولا طيـــق ذكـــره**
مــن غــش حــبي وخانــه	**مبغـــاه ولا نا ف شـــكره**
قلــبي عشـــق خـــل ثاني	**يســـبي بحســـنه وســـحره**
زخمـــو وحـــالي وعـــاده	**مثـــل امناصـــيف بـــدره**
وجهـــه إذا فـــك جعـــده	**شــفت القمــر بــين شــعره**
وعنقـــه إذا قـــام يشـــرب	**أمّـــاي تشـــوفه بنحـــره**

ونهـــود بـــزّن أبـــو امشـــوب مثـــل امســـفرجل بصـــدره

مثـــل امحريـــــر امنقـــــى في املـــين بطنـــه وظهـــره

قامتـــــه غصـــــن مـــــن بان وشـــبرين لا غـــير خصـــره

وتحولت القصيدة إلى حدث حدّ أن الشاعر أحمد سليمان وهو في ذروة تألقه أسرّ إليَّ ذات ليلة في صنعاء بقلقه من دخول البحاري ميدان الشعر الشعبي.. ولعل ما أقلق راعي امكبريت يومها هو دخول البحاري على خط المشفر الذي يُعرف هو بإجادته وبذيوع صيته فيه..

لكن البحاري ظل يراوح مكانه حتى سنة 2009م حين دخل عوالم العم "جوجل" حيث دشن دخوله بالاشتراك في مجالس عروس السواحل باسم " البحاري " وهو الاسم الذي سيعرف به لاحقاً وسيرتبط بولادته الشعرية الثانية وبشهرته المدوية التي ملأت آفاق المنتديات ومواقع الدردشة في 2009 –2010- 2011م..قبل أن تنتقل إلى أفق أوسع في موقع التواصل الاجتماعي فيس بوك..

****

منذ سنة 2009 م بدأ البحاري من خلال جهاز تلفون بائس يخوض غمار المنتديات والمواقع الالكترونية، معتمداً على موهبته الشعرية الدفاقة يدلي بدلوه في شتى المواضيع، لكن شيئاً مّا كان ينقص شعره، كان نتاجاً غزيراً يفتقد إلى العاطفة الحقيقية، وقتها كان موقع مجالس عروس السواحل أهم موقع تتبرج على صفحاته إبداعات شعراء تهامة، كان صديقي أحمد الأهدل يقوم منذ سنة 2006م بين الحين والآخر بإعادة نشر بعض الموضوعات لي فيه، خاصة تلك التي تتموضع التراث الشعبي وتاريخ تهامة الثقافي والروحي وهذا كان يجرني مرات عديدة لتصفح ذلك الموقع لأنظر كيف يتم تلقي تلك المواضيع، عبر كمية الزيارات ونوعية التعليقات ثم لابد من المرور بمساهمات أعضاء تلك

المجالس خاصة الشعراء مثل البحاري وأضرابه، في ذلك الموقع الذي تحول إلى مدرسة أدبية مميزة.

كان البحاري ضمن فرسان مجالس عروس السواحل يدلي بدلوه في كل شاردة وواردة، ورغم شاعريته الفذة إلاّ أن شيئاً مّا فيها كانت تُغص به نفسي، و كثيراً ماكنت أقول لأخي مهدي ولصديقي أحمد الأهدل إن ما يكتبه البحاري من شعر يحتاج إلى شوية توابل، كأسه يجب أن يمازجها بعض الخمر كي تجن وتتجلى، كان أسفي لانهدار موهبته في إنتاج لا يتطور شغلاً شاغلاً لي كلما مررت بنص من نصوصه على ذلك الموقع.

لم أكن أدري ما الذي ينتظر البحاري ولا هو أيضاً كان يدري أنه على موعد مع أخصب مواسمه الشعرية كلها، وكما تتشكل سحابة من لا شيء في صيف تهامي حارق، أطلت على غير موعد جنّة، ومَن جنّة هذه ؟ لا أحد يعلم، إنها فقط شاعرة، شاعرة مجنونة المأتى غامضة الحضور، كأنما وجدت لتخلق شاعرية البحاري من جديد، هكذا وعلى الفور بدأت تناكشه، وتعاكسه، بسهولة استدرجته إلى ساحتها وغمرت مكامن الابداع فيه برواء لاعهد له به، وكردحة في مصب واد خصب استجابت طينته العطشى لسيلها المستفز فراح يضبط إيقاعه على موجاتها العابثة.

ووجد الشاعر الموهوب نفسه في خضم تجربة تتلاحق فيها الأنفاس كأنها فيلم إثارة نُسج على نحو بارع، كان مجنوناً بشعرها ومشغولاً بسرها، هي تزعم أنها إحدى بنات عمه وأنها قريبة له:

أنتا قريبي وجاري وكلنا أولاد عم　　　أنتا قريبي وجاري ودمّنا واحد دم

فيما هو ومعه المدير مُحَمَّد عبدالله حسن وعشرات الشعراء والمعلقين يبحثون عن هذه المزعومة، كيف بزغت فجأة، وكيف عصفت ريحها بمجالس عروس السواحل عصفاً، وتطايرت الظنون أهي حقيقة أم خيال ؟ شاعرة أم شاعر يتخفى وراء هذا الاسم ؟. اتسعت الهواجس وتنامت الاحتمالات، ولأن الدوادية تحفل بالشعراء فلم يبق اسم إلا

طاله الشك بالتخفي خلف اسمها الغريب، وأسلوبها الشعري الذي يعتمد على الإثارة والمناكشة مستهدفة الشعراء عامة والبحاري بشكل خاص.

كتب المدير مُحَّمد عبد الله حسن منشوراً في عروس السواحل يقول فيه إنه يعرف جنّة حق المعرفة فهي ليست سوى شاعر امزخم أحمد سليمان، وفندت جنة تخرصات ابن عبد الله حسن قائلة:

يمــدير طلــع تقــديرك غلــط ومــش في محلّــه
تظـــن إني أحمـــد أحلـــف يمـــين لا والله
لا أمســـأله كبريتـــو حقـــي ولاني مثلـــه
ولا هـــو داري عـــني بشـــي ولا حـــد قلّـــه
يمــدير إنتــه مثقــف تجيــد فحــص العملــه
أحمـــد كمـــا امبحـــاري كبـــار في تا الجملـــه
أني خنانـــه صـــغيره تحـــط وشـــله وشـــله
وهـــن كعـــبرة ســـردود محـــد يوقـــف قبلـــه
لكنـــني بتشـــجيعك يمكـــن أنـــور أبلـــه
وبعــد بكــره تقــولن تا لجهــده مــش لا قلّــه

وردّ البحاري على الفور:

مــن قــال إنــش قلــه ذا مــور إنــتي بكلــه
امنصــراني صــيّح منــه وقــال هــذا أبلــه

ثم ألحق رده بمنشور يطلب من جنة الإسفار عن نفسها وكشف مخبوء سرها ويعلن تحديه لها ولغيرها في مضمار الشعر وتجليات معانيه وتغيب جنة عن المجالس لبعض الوقت ويزادد إصرار البحاري على حضورها معتبراً عدم ردها تجاهلاً له، لكنها سرعان ماتتحول إلى لاعب عجيب، لاعب لا يحلو له اللعب إلا على أوتار البحاري وبهذه الطريقة:

بحاري لا زم تعذر من ذا الذي يقدر فيك

أنتا كباحة جابر ياشاعرة شتهاويك

بحاري ني لا تعلم صعبوا عليا جاريك

بحاري ماحد مثلك ولا أحد شيساويك

ماهوش تجاهل للرد ذا عجز الله يعافيك

ني غبت يومين عنكن شغلوا وبينه تكتيك

ولما رجعت لقيتك محركو الدنيا حريك

وجنّيك في جيبك لا يخذلك لا يجافيك

واحنا شعاره صغاروا من مننا شيدانيك

عجزتني ما قلك الله بخيره يجزيك

والله يزيدك شعروا وبالسعادة يمسيك

ويقبل صلاتك وامصوم ويعمرك ويعليك

ومش أخوك ني أختك لو اتحقق يا ديك

جمع ردها بين التقدير العالي لشاعرية البحاري وبين السخرية من إصراره على كونها رجلاً لا امرأة شاعراً وليس شاعرة، كان عليه أن يرد ولم يكن ليعجزه الرد:

ومن قال انتي دجاجه انتا لديكو وبن ديك

وجنــــه ذابـــس رمـــزو	**ومنــــك شـــطاره وتكتيـــك**
عشـــان بـــس تجـــذب بـــه	**المعجبـــين مـــن حوليـــك**
ولا بـــد مـــا يأتي يـــوم	**وأكشـــــفك وأرويـــــك**

وقد دعا رده جنة إلى رد أكثر استفزازاً وإثارة حيث راحت تدعي المظلمة وتصيح بلؤم واضح فيه قدر كبير من التمثيل:

غـــيرو عليـــا غـــيرو	**امبحـــــاري يتهـــــددني**
ناس الله حيـــدوا ميقـــول،	**يقـــــول شايكشـــــفني**
يا ناس منـــــه منجـــــد	**ولا كـــــذا يبـــــاهزني**
بحـــاري كـــب امفشـــله	**واهـــدن قليـــل واسمعـــني**
عجـــز مـــديرك فيـــه	**والشـــــاخ ميفجعـــــني**
وحمـــد ســـليمان وقـــع	**وشـــــوهان لـــــوتفهمني**
اني هنيـــــو جنبـــــك	**هيـــا تلفـــت حـــدني**

كان البحاري واقعاً في حيص بيص يتخبط لا يدري من غريمه ولا أين يرمي شبكته، توجه هذه المرة صوب مسئول الحزب الناصري في الداودية -وهو شاب على قدر من الأدب والثقافة – فرماه بالتخفي وراء اسم جنة:

قربـــت انا أوصـــل لـــك	**ياللـــي اتســـمنّ جنـــه**
ســـاكن بجنـــب وّادي	**وامســـول قريبـــو منـــه**
والناصـــري هـــو حزبـــك	**ومتكيفـــوا مـــن دنـــه**
أمـــا البنـــات مـــن حـــولي	**وذا شـــيء واثـــق منـــه**

مـــا بـــوش فـــيهن جهـــده	**تكتـــــب بهـــــذه الرنـــــه**
فأنـــــت يتكـــــون أحمـــــد	**يتكـــــون ســـــايق دنـــــه**

لم يكن يعلم أنه سيعطي جنة فرصة أكبر للتسلط عليه والإمعان في معاكسته، وبسلاطة منتصر ظافر بددت جنة تخميناته الذاهبة بعيدا:

مـــــانيش لا ناصـــــريه	**ولا ني المجمـــــاعي أحمـــــد**
ولا أني مخضـــــــــــــرية	**أســـــكن بعيـــــده في المحـــــد**
ني واحـــــدة مـــــن امقريـــــة	**دور إلى أن تخمـــــــــــــد**

وخمد البحاري ومعه الشعراء بشار بن برد وابن مور ومُحَمَّد حبال وسالم دعمان ومجدي الذهب والمهدلي وغيرهم وغيرهم، ودارت حميّا سجالاتهم بكؤوس معتقة الشعر يصعب تتبعها كلها هنا، ومن أجل جنة دخل الشاعر الكبير مُحَمَّد طاهر الأهدل إلى حومة عروس السواحل وكان دخوله سبباً في معركة طاحنة لأنه كتب على طريقة مساجلات المقصدين التي تعرفها مخادر الزيدية والمنيرة وزبيد وبيت الفقيه وهي مساجلات تذهب كل مذهب في تجريح الآخر والنيل منه على شاكلة النقائض التي عرفها الشعر العربي في العصر الأموي على أيدي الشعراء جرير والفرزدق والأخطل وأمثالهم، وهي مساجلات لاعهد للبحاري وأمثاله من شعراء البَرّ (الريف) بها

بدأ الأهدلي بالتمهيد:

جنـــــه أنا لي قـــــدره	**وحاســـــة لا تـــــرحم**
وفي امـــــزخم لي نظـــــره	**لوكـــــان يصـــــلح للضـــــم**
أشـــــم عـــــرف المخمـــــره	**مـــــن حـــــيس حـــــتى أســـــلم**
وتفـــــتهم لي المخطـــــره	**جنـــــه، أجـــــي لـــــش بكـــــره،**

ناوي لنحـــــوش شــــعزم　　　　مــــا عـــاد عنـــدي صـــبره
حســـك تقـــولي تخـــتم　　　　ناوي أحـــــل الشـــــفرة
وفــــك هــــذا الطلســــم　　　　ثم دخـــــــل في الغلــــــط

بشكل واضح وهو يقول:

ون شـــا تجـــي جـــي غـــدره　　　　لا تاهـــــبي لـــــش محـــــرم
امليــــل عــــاده ســــتره　　　　تلقـــــي العـــــواذل نــــوّم
وفي ختـــــام الســـــهرة　　　　قــــــررت أن أتكلـــــــم
شـــا قـــوم واقـــرا النشـــره　　　　مترجمـــــــه للاعجـــــــم
جنـــــه بـــــلا تا المهـــــره　　　　حيـــــد المجـــــدي يتلـــــثم
وامتـــيس رجـــــع ســـــخله　　　　جنـــــه خـــــريفش خـــــتم
مهمـــــا تزيـــــدي امكحلـــــه　　　　الأهـــــــدلي لا يهـــــــتم

تغاضت جنة عن تصريحات الاهدل وتلميحاته وعن جرأته التي تجاوزت حدود المسموح به وآثرت أن تحتفي به وتحييه كشاعر كبير فكتبت:

يا مرحبـــــاً با لأهــــــدل　　　　شـــــرفت يا ســـــيد النـــــاس
فـــارس ومثلـــه لا حـــل مـــن　　　　فـــــوق عيـــــني والـــــراس
شـــــعره كمثـــــل امنهـــــل　　　　منـــــه تطيـــــب الأنفـــــاس
ومثـــــل المجلجـــــل في المحـــــل　　　　ومثـــــل طاقـــــات الـــــلاّس
ومثـــــل رعـــــدو جلجـــــل　　　　ورج فيّ الإحســـــــــــــاس
مـــــن أمـــــس واني تقلقـــــل　　　　واهـــــب عَـــــبَسْ في دبّاس

اكتب قليل واخجل   واقوم واجلس واحتاس
وفكر اسكت اسهل   ولا انفضح بين الناس
الأهدلي من الكمل   والرد لازم ينقاس
وميان شقدر أوصل   واقرب لذاك النبراس
واني صغيره تخنجل   وشعري كله طلفاس
ما قول ني وما أفعل   من شايقل لي لا باس
كد قل مجهودي قل   أمام فارس دعاس
قلصو كبيرو ودول   ومت لي من امطحواس
يارب جنه تكهل   ففتح علاها بنسناس
واجعل حروفي تقبل   واحجب علاها امبخاس
وخل ابن الأهدل   يحيدها مثل الماس

وغضب البحاري غضباً كبيراً من سوء تصرف الأهدل في قصيدته، وكان غضبه أكبر بسبب نوعية رد جنة القابل لتجاوزات الأهدل أو الممالىء له، لكنه مراعاة لتاريخ الصداقة بينه وبين الأهدل اكتفى بالعتاب والتقريع:

مالك كذا يالأهدل   يبن الرجال الكمل
صدر امقصيده حالي   والخاتمه مثل امخل
جنه محله مظله   وانته بها تتغزل
لوكان جنه عزبه   كنا لقولك نقبل
وافرض إذا واحد   راح لزوجها يتقلقل
كيف شايكون الموقف   ياصاحبي يالأهدل

إن كـــان يرضـــيك جـــوب وقـــل لنـــا مـــا هـــو الحـــل

ثم عطف يطالب الأهدل بقبول جنة ولغزها دون كثرة تدقيق ولا تفتيش مقابل ماخلقت في الساحة الشعرية من حراك غير مسبوق:

بخصـــوص شـــفرة جنـــه كـــم مـــن مهنـــدس حـــاول
يفـــك رمـــز الشـــفرة عجـــز ورجـــع بطـــل
جنـــه كلغـــز محـــير مـــدري مـــتى شـــايحتل
لكـــن أحســـن مـــا فيـــه وأرق وأفضـــل واجمـــل
إنـــه جمعنـــا حولـــه والمنتـــدى بـــه شـــعلل
وخلـــى رمـــوز الابـــداع في ســـاحته تتفاعـــل
وخلـــى جميـــع الأعضـــاء ردودهـــا مـــا تبخـــل
والمعـــذره يا الطـــاهر لـــو بعـــض شـــعري قـــد زل
نا حســـب فهمـــي لشـــعرك قـــد قلـــت قـــولي الأول
وإن كـــان فهمـــي خـــاطئ لمقصـــدك لا تزعـــل

أما جنة التي يدافع عنها البحاري فقد تصرفت على طريقتها إذ صعقته بشعر جديد تدافع فيه عن الأهدل وتبرر له:

ســـلمت يا بحـــاري تقولهـــا نتـــه وتفعـــل
ولي رجـــا يـــبن العـــم ارجـــوك ني لا تعجـــل
أني كـــذا مـــن الأول فهمـــت قصـــد الأهـــدل
مـــا جـــاء في خاتمتـــه منـــه أني لا أخجـــل

لأن قصـــــــــــــده إني	**أني وياه نتناضـــــــــــل**
شــعرو علـــى ضــوء النــت	**بـــه نلتقـــي ونتـــداخل**
والنــــت فيـــه غفلاتـــو	**فيهـــا الغـــبي يتبهـــذل**
وفيـــه ظـــاهر غـــامض	**وفيـــه ظـــاهر يقبـــل**
وبنـــت عمـــك تفصـــل	**بـــين الســـليم والمعتـــل**
وني شــــريفه وعـــــرف	**منهـــو الشـــريف الأمثـــل**
والأهـــدلي مـــن الأطهـــار	**حاشـــا لمثلـــه يجهـــل**
واللـــي في بالـــك منـــه	**كنايـــة دومـــاً تحصـــل**
كـــدن شـــرحها الأســـتاذ	**علـــوان وفيهـــا فصـــل**
حيـــد العقيـــق وتفـــرج	**وشـــوف مللـــي يحصـــل**

وجن جنون البحاري فقد كان تبرير جنة لتهور الأهدل وخروجه على المعقول فوق قدرته على الاحتمال، لقد شعر أنها تستهين بثورته من أجلها وتقلل من قيمة غضبه لها فقال:

خـــوفي علـــيش يا أخـــتي	**هـــو اللـــي جعلنـــا تـــدخل**
ماحـــب بيـــتش يخـــرب	**وأســـــرتش تتبهـــــذل**
ومـــا دام هــــذا رأيـــش	**وانا اللـــي فهمـــي أحـــول**
فالشـــكر لـــش يا جنـــه	**والمعـــــذرة للأهـــــدل**
وأقـــول يا بـــو وائـــل	**أرجـــوك لعـــذري تقبـــل**
وآســـف وآســـف آســـف	**ترفـــع إليـــك مـــدبل**

هنا وكعادتها كان لابد لجنة أن تسترضيه فقد كان ملاحظاً كما في النص السابق أن البحاري لم يعد مهموماً باعتبار جنة شاعراً يتخفى خلف الاسم فقد استسلم وسلم، صار يخاطبها بصيغة " أختي " وليس كما كان يقول " وأنته أخي مش أختي "، كان عليها أن تسترضية وتضعه حيث يستحق أن يكون كشاعر كبير وكقريب أيضاً، ولعل النص الذي استرضته به يظل دائماً أقرب نصوصها إلى نفسه وأكثرها تأثيراً فيه:

بالعكـــــس يا بحـــــاري ... تـــدخلك ني افخــــر بــــه
فأنـــــت ســـيفي ورمحـــي ... وامـــــدرع لي والمحربـــــة
واللـــي كتبتـــه يثبـــت إنْ ... لـــــك حميـــــه وعربـــــه
رأيـــك ســـديد ومكمـــل ... والنـــاس جميـــع تحكـــم بـــه
وردي عـــــلاك يا ســـيدي ... كـــان الهـــدف نلطـــف بـــه
وننخـــدع لـــــه حـــتى ... يكـــــون معـــــانا صـــبه
ويكــــونا خـــونا ومنـــا ... جنوبنــــــا في جنبــــــه
والشـــــعر يا بحـــــاري ... بحـــــروا غزيــــرو غبــــه
حمــــال أوجــــه قــــالوا ... والمعـــــنى يمكــــن قلبــــه
وأنـــــت أكثـــــر مـــــني في ... التجربـــــه وعلمـــــك بـــــه
وأكثــــر درايــــه بصــــدقه ... وأكثــــر درايــــه بكذبـــــه
متشــــرعو فيــــه كــــم ... لـــــك ومفلتـــــو في دربــــه
والعفـــــو منـــــك تكـــــرار ... ني جــــاربوك تقبـــــل بـــــه
انتـــه الوحيـــد مـــن تا النـــاس ... زعلـــــك يهبلـــــي امكربـــــة

مئات النصوص وعشرات المعارك الشعرية على ساحة عروس السواحل خاضها البحاري وجنة جنباً إلى جنب خلال تلك الأشهر من عام 2010م، لم نورد منها هنا إلا مجرد طعمة للقارىء إذ يحتاج تتبع طرائفها وروعتها وإعطاء كل المشاركين فيها من شعراء ومعلقين وإدارة حقهم المستحق لهم من الذكر والاشادة والاقتباسات إلى كتاب كامل.

وبدأت شجرة البحاري بالاخضرار تغير نبض شعره، تبدلت مفرداته فيما جنة تقوده كل يوم إلى لون شعري مختلف، خرج من فن الوزبة إلى فنون الشامية والشنب والزير والفداية والمطوح والشنجع وبتنوع الألوان تنوعت القوافي واحتشد المعجم ن وبفعل الاثارة التي خلقت مضماراً يتبارى فيه مجموعة من الشعراء المميزين وعشرات المعلقين المتابعين وجد البحاري نفسه بجناحي جبار أميراً على كل شعراء السواحل.

بشغف اكتنزت قصائده بالصور وراح يستحضر معارفه الثقافية المرتكزة أصلا على خبراته بالحياة والبيئة وجيراننا فيها وبالموروث الشعري والحكائي الزاخر بالأمثال والقصص والنوادر ليضمنها جميعاً في شعره على نحو استحضاره للكلمة الشهيرة التي عبر بها مهندس كوري عند نهاية سبعينيات القرن الماضي حين شاهد وادي مور في لمحة عين يقتلع الجسر الذي استنفذ منه جهد سنين فقال " مور هذي مجنونه".

وبمرور الأيام كان ينضم إلى اللعبة شعراء ومعلقون وتزداد المتابعات ويتسع جمهور الزائرين للموقع كل ليلة، كان الوضع يشبه في نواح كثيرة منه سيناريوهات حلبة المصارعة الحرة مزيج من الفن والتمثيل والسيناريوهات المقصودة التي ترسمها الإدارة وينساق لها المصارعون بشكل يبدو فيه كل شيء حقيقياً، مبهراً ومثيراً يجبر المشاهد على متابعته بجميع جوارحه حتى النهاية.

وبين انشغال البحاري وزملائه الشعراء ومتابعيهم بالسؤال الدائم عن جنة، وعن سرها العجيب، تتابعت قصائد البحاري بزخم فاقع وتوهج مذهل لتتشكل على مدار عام تقريباً التجربة الأكثر مفصلية في حياته الشعرية..

قبل نهاية عام 2010 م اختفت جنة كما ظهرت، جن جنون البحاري وفقد صوابه وراح هو وأصدقاؤه يبثون النداء تلو النداء والمناشدة تلو المناشدة دون جدوى، لكن البحاري الذي بقي محروقاً بسر جنة العجيب خرج من التجربة بزاد شعري مهول وشهرة تخطت كل ما كان يخطر بباله وتوطدت مكانته شاعراً كبيراً وأستاذاً لعشرات الشعراء ممن تتلمذوا على قصائده وصارت المنتديات ومن بعدها موقع التواصل الاجتماعي فيس بوك تعج بنتاجاتهم الشعرية.

***

في سنة 2013م استغللت وجود البحاري في صنعاء لمهمة خاصة واستبقيته عندي قرابة شهر أو يزيد كانت تلك فرصة لمعايشته، وفرصة أيضا لمحاولة صف أكبر قدر من منجزه الشعري لأجل طباعته وبالفعل تم صف مجلد ضخم من تلك التجربة تم عمل نسخة يدوية منها وتقديمها لوزير الثقافة كي يعتمد طباعتها، في نفس الوقت الذي كنا فيه نحاول ضمه لقائمة الأدباء الذين يقدم لهم صندوق التراث دعماً شهرياً زهيداً بعد أن كنا قد نجحنا سنة 2010م في ضمه إلى قائمة الشعراء الذين يدعمهم اتحاد الادباء بمبلغ شهري زهيد، لكن الفترة سنة 2013م كانت أسوأ فترات الثقافة، فوزير الثقافة كان مشغولاً بنزواته وترتيب أوضاعه وأوضاع أشباهه، وفريقه كان مرتبكا فاقدا للتركيز والاخلاص، وفي مكتب الوزير ضاعت نسخة ديوان البحاري الوحيدة ليضيع بعدها بعام كمبيوتر الأهدل الذي نحتفظ فيه بالديوان، أمّا محاولة الحصول على دعم شهري للشاعر من صندوق التراث فقد باءت بالفشل، الشيىء الوحيد الذي حققناه كان توطيد شهرته ومكانته التي خلقها له إبداعه في مواقع التواصل الاجتماعي عبر لقاء تلفزيوني رائع بثته قناة اليمن اليوم وأحدث أصداءً واسعة، وكان فرحي به أكثر من فرح البحاري نفسه فقد نجحنا على الأقل في الاحتفاظ بالبحاري موثقاً على نحو جيد وبحرفية عالية، مع أن البحاري عاد من صنعاء دون عائد مادي ودون أن يتحقق مأموله ومأمولنا بطباعة ديوانه.

***

لعل شهرة لبحاري اليوم من خلال صفحته على موقع التواصل الاجتماعي فيس بوك وعلاقاته الواسعة بطيف هائل من الأدباء والمعجبين في اليمن وخارجها يفوق كثيراً عشرات الشعراء المكرسين في العاصمة والمتنعمين برعاية المؤسسة الرسمية، إن عدداً مذهلا من الشعراء والمتلقين والمتابعين على استعداد للتماهي مع البحاري بمنتهى المحبة والدأب على المتابعة حين ينشر صورة له مع شويهاته في المرعى – على سبيل المثال –ويكتب مع الصورة:

برهـــت نا اليـــوم أرعـــى	**وباريـت هوشـي علـى جنـب**
ثـــلاث ضـــانو وســـخلتين	**وسـخلين بيضـو كمـا امشـب**
تـــذكرت عهدالطفولـــــه	**وذاك الزمـــــان المحبــــــب**
وأيام ماكنــــــت راعـــــي	**وبرؤيـــة امهـــوش أطـــرب**
أيام ماكنـــــت أصـــحى	**مـــن امطـــل وامهـــوش يقهـــب**
ومســــــرعه في أقاهـــــا	**شـــتعيش جمعـــه اتشـــاغب**
أنهـــض أصـــلي بســـرعه	**وســـنا مـــدورامهوش أذهـــب**
وكـــل واحـــد ســـنا امّـــه	**كســـرعة امـــبرق يـــذهب**
وبعـــد ميعـــاوش الكـــل	**ولمـــــبطن ملاوشـــــبب**
أجهزامـــــاي لمهـــــوش	**مـــن شـــان يـــروى ويشـــرب**
وكـــــل هـــــذا وبطـــــني	**يغـــروط مـــن المجـــوع يلهـــب**
لمخـــدم امبيـــت أدخـــل	**أبحـــث بجنـــب امركـــب**
لبـــه مـــن امـــدخن مـــن أمـــس	**معلقـــــه في امهـــــوب**
بســـقاطي أوبســـجدو	**أولا بـــــده في ذناجـــــب**

أمـــد وافصـــع بليـــدي وهـــي اتلامـــع كمـــا امـــذهب
واحطهـــا وســـط زغـــني واســـوق هوشـــي وأذهـــب
ولوصـــلت بـــين امراعـــي مـــن أي منتـــوج أقـــرب
ومـــن فصـــعة امـــدخن أكشـــم ومـــن ضـــرع عنـــزي تحلـــب
والـــوك وامجفـــل يقطـــر وريحتـــه قـــرط أوثـــب
ومـــن قـــربتي أوجمنـــتي مـــن ســـامط امـــاي أطحـــب
وارعـــى لقـــرب الظهـــيره لبجـــوع أشـــعرولاغب
واجـــدع ألاقـــي قراعـــي عيشـــوخبيزامركب
مـــازال تحـــت امغـــامي مفطـــى وبعضـــه ملبلـــب
حـــالي وحـــامض مشـــكل مـــن حـــب ذخنـــوومن شـــب
طحـــين ســـت الحبايـــب يارب تحفظهـــا يارب
ومكشـــنوحوت مـــالح ولا امشـــوئ امجلـــب
اومكشـــنومن صـــقيلو وعـــلاه ريبواتشـــارب
تجلـــس تقـــرع برغبـــه وتنســـى ابوامجـــوع وامتعـــب
وكـــم كـــان نرعـــى ســـويه احنـــا وكـــم مـــن مربـــرب
نـــبره ونســـرح وننشـــر ونلهوونضـــحك ونلعـــب
قلـــوب بيضـــا نقيـــه ابلـــيس منهـــا تهيـــب
تنظـــرإلى بنـــت جـــارك كأخـــت مـــن أم مـــن أب
هـــذا نمـــوذج إلـــيكم صـــغته مبســـط مقـــرب
واللـــي تبقـــى علـــيكم ياكـــل شـــاعرمهذب

ويا كـــــل قـــارئ تهــامي | **ماشـــكش تيـــتي اتعجـــب**

وبعـــد متحيــــد مــــابو | **تضـــغط علـــى رمزمعجـــب**

اشـــتيك حــــتى بنشـــرو | **مـــن لهجتحنـــا اتقـــرب**

في الخـــــتم صـــــلوجميعا | **علـــى المحبـــب إلى الـــرب**

طــــه شـــفيع القيامــــه | **يـــوم الشـــفاعات تحجـــب**

ولاشك أن تلاميذ البحاري والمتأثرين بتجربته المعترفين بأستاذيته والغارقين في محبته هم أضعاف أضعاف ما لؤلائك المكرسين في العاصمة من محبين وتلاميذ وقراء، لكن المختلف الوحيد هو أن شهرة البحاري وأمثاله لا تنعكس على أوضاعهم الاجتماعية ويسرهم الأسري وهذا يظل منغصاً دائماً لا فكاك منه، وهو منغص يطال الروح والجسد كما يقول هذا النص الذي يصور فيه البحاري متاعبه البدنية بسبب عمله بنّاءً " أسطى " لساعات طويلة يومياً:

أمـــــر امْخَـــيّشْ ســـــنا الله | **حلحـــل جميـــع امصـــواميل**

مشـــرتفو بكـــل لطـــراف | **منـــه دمـــي يوميـــه يســـيل**

لاعـــاد مـــوهش ولا ظهــــر | **لاجهـــد باقـــي ولا حيـــل**

مـــن امطـــل للســـاعة ثنتـــين | **ويحصـــل ذناحـــين تطويـــل**

تجـــي العصـــر شـــاتخزن | **لمـــديم كلــه بـــه الويـــل**

كمســـنف تقلـــب بمتكـــاك | **ليـــان متكيـــت تعضـــيل**

لا عــــاد تَهْنَـــا بتخـــزين | **بكانـــك مســـاوِدْ إلى امليـــل**

وفي امليـــل لا بـــو بـــرودو | **هتنـــام أوبـــو ذنا وشـــيل**

أمـــا إذا الجـــو كتمـــه | **لمنـــامس يبيـــت تمويـــل**

في جنـــب ذانـــك يولـــول **يغنيـــك ياعـــين ياليـــل**

ميـــان شـــيجيك نومـــو **كتمـــه وقبصـــوومواويل**

حجـــروطين في تاليـــام **ياصـــاح قطعـــه مـــن الويـــل**

صحيح أن الشهرة تدخل السعادة إلى قلوب البحاري وأمثاله وينتج عنها قدر كبير من التوازن النفسي الذي يخفف وطأة الكد في الحياة والأوجاع الناتجة عن الضنك المعيشي وقلة ذات اليد، لكن ليس هذا وحده ما يجب أن يترتب على الشهرة، ففي كل بلاد الدنيا تجلب الشهرة للمبدع حفاوة المؤسسات الرسمية ورعايتها له خاصة في الجوانب المادية التي تجعل سعادة المبدع بالشهرة مقنعة لزوجته وأطفاله والمحيطين به، وهذا لا يحدث أبداً فالمؤسسات عندنا حكر على قلة قليلة تنعم بكل شيء ولا تترك للآخرين حتى الفتات.

ويغفل كثير من الناس أن تبعات الشهرة مكلفة فليس كل الناس قادرين على تفهم وضع المبدع وعلى تفهم الفارق الهائل في وضع كوضع البحاري بين شهرته وحالته المعيشية وهم غالباً ما يَصدمهم فقر المبدع الكبير وفراغ جيبه ويتصور لهم ذلك وكأنه عيب شخصي فيه. ناهيك عما يمكن أن يلحق بمبدع كبير كالبحاري حين يزوره على حين غرة ضيف مبهور بشهرته فيجد المبدع الكبير نفسه مشطوراً بين يدين؛ يد ترفعه إلى السماء وهو يرى نفسه مقصوداً من أمكنة بعيدة بسبب إبداعه، ويد تهوي به إلى جبّ مظلم لأنه لايملك ما يضيّف به ذلك المحب القادم من مكان بعيد.

نار الكاتب التي تحرق أصابعه

لعله الأكثر ذكاءً بين كل زملائه... سرعة الالتقاط عنده مبهرة، لأنها سرعة فائرة متجددة ومتوهجة مع أنه لا يستثمرها كما يجب، لأنه يسلقها... يقطفها باستعجال، وبلا أناة أو محاولة للتمهل.

يذهلك نفاذ رأيه وتصدمك تسرّعاته وحدّته، تعجبك شجاعته، وتفجعك تحاملاته.

أحياناً تنظر إليه فتأخذك النشوة لشعورك بأنك تنظر إلى عبقري، سيتحدث الناس في القريب العاجل عن وجوده الاستثنائي، وأحيانا أخرى تأسى لمقدار ما ينهدر من مواهبه التي يحترق بعضها بنيران تصرفاته الشيطانية، ويتعرض بعضها الآخر لتجريف جائر جراء متاعب الحياة، وشظف العيش، وتكالب الظروف، وسخافة الواقع، وبعض ثالث.. تأكله سوائم النميمة والحسد والاستكثار، أعني الأصدقاء مع الأسف الشديد، وبعض رابع.. يتلاعب به إهمال المؤسسة الرسمية، وانعدام الرعاة وضعف أخلاق العناية.

مع ذلك فإن ما يتبقى منه يكفي لثلاثة كتاب متفوقين بارزين، يعمى العيون بريق شهرتهم، وتخشع صفحات الكتب لسطوعات أسمائهم، رغم أن مايتبقى منه يخرج ممهورا ببصمات كل تلك العوامل والظروف والطباع التي أسلفناها..

إنه عبد الرقيب الوصابي الذي تمر اليوم عشر سنوات على دخوله معترك المشهد الثقافي اليمني ناشراً في صحفه ومجلاته ومشاركا في مهرجاناته وفعالياته، ومتحدثا على منابره.

فقد كان أول تجلّ له في مارس سنة 2004م عبر دراسة نشرها في ملحق الثورة الثقافي عن قصيدة النثر..

وكان منذ بدايته تلك حاسماً في لفت الأنظار إليه...إن هذا الفتى الأقرب إلى الضآلة طولاً وعرضاً يأتي إلى الساحة جاهزاً من كل شيء..ومزوداً بما يكفي من الشجاعة والوعي وحتى اللؤم ليكون اسماً بارزاً في المشهد الثقافي اليمني المترع بالحيتان والأسماك الصغيرة، بالوحوش المتجبّرة جهراً، والوحوش المتقنعة بوجوه الملائكة..بالجادين والمستهترين، الأنقياء والمدنسين، المثابرين والكسلى، الواضحين والمخاتلين..الرجال وأنصافهم..مع أن كل ذلك ليس له علاقة بقوة الموهبة وروعة الإبداع وأصالة الكتابة أو جدّتها..بل بالظهور والتكريس والشهرة..

دخل الوصابي المشهد الثقافي اليمني على ذلك النحو وسرعان ما عرفت الساحة قوة القادم وشدة احتدام القضايا الصادمة في كتاباته، ففتحت له الصحف والمجلات صدور صفحاتها، وتلقفته المنتديات والمواقع الالكترونية، واشتجرت المقايل بصراخه وطروحاته ومداخلاته، وما يجترحه من كتابات...

كان أساسيا في جماعة إرباك التي بدت كالعاصفة.. وإن كانت العاصفة تزلزل الأركان وهي لا تدري... فإن إرباك كانت تزلزل الأركان وهي تدري أنها تزلزلها، وبمعيّة رفاقه من أعضاء تلك الجماعة أمثال:صدام الشيباني، رياض السامعي، إبراهيم طلحة، أحمد العرامي، جميل الجبزي، سيف رسام الشرعبي، علي أبو لارا، وزعامة الأديب الكبير أحمد ناجي أحمد.

انخرط الوصابي في تفجير مجموعة من القضايا الصدامية اشتغلت على المختلف والمتواري، مثل المنجز الشعري والنقدي لعبد الودود سيف، وتجربة الريادة في كتابة قصيدة النثر عند مُحَمَّد أنعم غالب، وشعرية الزعيم اليساري الراحل عبدالفتاح إسماعيل، وعبقرية مُحَمَّد عبد الولي، وجماليات هدى أبلان وغيرها..

وكانت تلك الاشتغالات على ضرورتها وقيمتها لناحية التذكير والإنصاف كما لناحية التوثيق وإبراز الوجوه الخافية، تقوم في جانب منها على الإثارة والمداكمة، ولا تخلو من كيدية وتقصّد للماحكة، وذلك كان يترجم تسمية الجماعة (إرباك) ويعبر عن الجانب

الأهم من مشروعها وطموح أفرادها الباحثين عن مكان في المشهد الثقافي كما في عين المؤسسة الرسمية القائمة على شئونه.

ولعل الأعوام 2006، 2007، 2008م، التي انتظم فيها عبد الرقيب الوصابي مع جماعة إرباك وهي الأعوام التي أنجزت الجماعة فيها العديد من الملفات والكتب والندوات والفعاليات، كانت بمثابة ورشة تدريب وصقل لقلمه الذكي وحسه السريع اللاقط، وتحفزه الدائم للمشاكسة، واندفاعه المستميت للصراع، كتابة وحوارا ومثاقفات..

ذلك المصهر الطويل الأمد نسبياً في جماعة إرباك..أفاد الوصابي لجهة القدرة على تطوير أدواته الكتابية والتمكن أكثر من المناهج التي تأسس فيها وبها أكاديمياً بشكل جيد..بمقدار ما أفاده لجهة اقتحام النصوص والموضوعات ومواجهة القضايا..والقدرة أيضاً على الإنجاز والإبهار..لكنه ترك فيه عيوبه أيضاً..فهو كثيراً ما يبدو جبّاها لمحاوريه مفتقراً للدبلوماسية والروية..وكثيراً ما يهجم بالرأي أو الكتابة على موضوعات وقضايا، قد تكون ضرورية لغيره ولكنها غير ضرورية له، أقصد في وضعه واحتياجاته وظروفه كما في علاقاته وما يفيده في مستقبله الأدبي، وحتى في مستقبله المعيشي، بل قد تضره وتجلب له الويلات والرزايا..

وقد حدث هذا، فقد أدت به تقحّماته الواسعة، وسكره الباذخ بحضور قلمه وأسلوبه وبراعته الكتابية، إلى أن يقع مكلوما بجروح غائرة، ومعاقباً بما كان يستطيع تجنبه...

يومها وجد نفسه مطعونا بألف سكين، ولم يكن قادراً على لوم أحد، كان هو الضحية والسكين، كان آدم نفسه، ناره هي التي أحرقت أصابعه، ولم يكن له من مخرج من ذلك المأزق المؤسف.. فكان الانسحاب من المشهد أفضل خيار يمكن له أن يلجأ إليه.

بين منتصف عام 2010 م ومنتصف عام 2012 م عاش عبد الرقيب الوصابي عزلة اختيارية، أبعدته عن كل من كان يعرفهم..ولعل تلك العزلة كانت وسيلة مثلى لعلاجه

من جروحه، وفرصة للابتعاد عن معترك عاشه بصخب وكثافة واندماج حرائقي أكثر من ستة أعوام.

في عزلته تلك قرأ بدون انفعالات، وتأمل وراجع تاريخه الخاص، أعاد تقييم نفسه..وتفكر جيداً في ممكنات القادم واستحالاته.. ومن ثم خرج من جديد.. خرج كما يخرج طائر الرّخّ من رماده، وبقايا ماضيه،

ورغم أنه لم يبق بعد عودته كما كان، فقد أصبح كاتبا كبيرا بكل المقاييس، ومحاضرا مذهلا بكل المقاييس أيضا، وقد قدم سيلاً وافراً من الكتابات والنصوص لعل ذروتها اشتغالاته في الشهور الأخيرة من عام 2013 والشهور الأولى من عام2014م على مقاربات مجموعة من التجارب الشعرية والسردية" يمنية وعربية" بقصد رصد التجاور ومراقبة النمو التقني بموازاة ما يقدمه التراكم الإبداعي من إمكانات، وما تقدمه عوالم الشبكة الالكترونية ومواقع التواصل الاجتماعي من تسهيلات وجسور للتواصل، إلا أن عيوباً من ماضيه لا تزال تلازمه، فهو سريع الإنجاز من ناحية الكتابة، وغير منظم بما يكفي لتخرج تلك الكتابات الكثيرة على شكل كتب مطبوعة تضيف لاسمه، وتحفظ له إنجازه، وهو ما يزال على آثار من معايب التسرع والهجوم بالكتابة فيما لا يفيد أحيانا.

لكننا في المحصلة أمام كاتب استثنائي، يدهش حين يكتب، ويشنّف الأسماع كلما تحدث، كما أننا أمام وجود إنساني، تلازمه الإشكاليات ويرتبط حضوره بالإثارة الدائمة، والتفكير المختلف، لأنه لا يستطيع السير إلا في الاتجاه المعاكس.

فاترينة غيلان

لا تستطيع في زمنٍ كهذا أن تجدَ إنساناً يشبه عبدالرحمن غيلان.

نقيٌّ إلى درجةٍ تدفعكَ للصراخ منه.

اشتغالاته خاصةٌ حتى وهو يكتب عن الآخرين.

يعيش حياة واسعةً في علاقاته وإبداعه وقراءاته... لكنه يمارس عزلةً اختيارية تجعله غامضاً في عيون من يعرفونه، بعيداً عن الضوء في تفكير القراء المهمومين بالنقد، متقطّع الخيوط بين المتثاقفين.

بعد ثمانية عشر عاماً من صداقةٍ لم تشبها شائبة...أجدني على حافّة عبدالرحمن إنساناً ومبدعاً ومثقفاً. .

هل هو تقصير منّي تجاه صديقٍ مبدع أركنُ إلى سماحة نفسه ومحبّته فلا أبالي إن أهملتهُ أو تجاهلتُ جهده ؟ أم أنّ ثمّة سوء فهمٍ لم يسبق لي التنبّه له أو التوقّف عنده...؟

قليلاً ما فكّرتُ في هذا، وكلّما فعلتُ ذلك كان يراودني شعور غريب... فلطالما أحسستُ أنّ علاقتي بغيلان تشبه العلاقة بتحفةٍ ثمينةٍ معروضةٍ في صندوقٍ من زجاج نقتربُ منها ونتأملها لكننا لا نستطيع لمسها... لا نستطيع تحسسها... شيءٌ ما يمنعنا دائماً من محاولة فتح الصندوق الزجاجيّ لنفعل ذلك... مع أننا نقف أمامه كلّ يومٍ ونعرف أنّ في داخله تحفة ثمينة.

هكذا سمحتُ أو سمحنا معاً أو ربّما أراد هو وحده أن يفصلني عنه بهذا السياج الشفيف الذي يسمح برؤية كلّ شيء لكنه يحول دون ملامسته.

أصدر عبدالرحمن غيلان مجموعته الشعريّة الأولى "مرافئ الحنين " سنة 2004م عن دار عبادي بصنعاء..وأصدر مجموعته الثانية " سيرة امرأة لن تكتمل " سنة 2006م عن دار البنفسج بصنعاء.. قبل أن يصدر سنة 2006م أيضاً ديواناً صوتياً مع زميلته

الشاعرة /خالدة النسيري.. وكتب بعد ذلك مئات النصوص الشعرية التي كانت تُنشر في الصحف والمجلات ونُشر أكثرها منذ سنة 2009م على صفحته المميزة في موقع التواصل الاجتماعي فيس بوك.. إلى جانب أكثر من سبعمائة مقال نُشرت في عموده اليوميّ بصحيفة الجمهورية وصحفٍ أخرى.. وكثيراً ما أبديتُ إعجابي بنصوصه ومقالاته.. بل كثيراً ما لمستُ أثر مقالاته المتحسسة لهموم المواطن وأوجاعه الفائضة شأنها شأن مقالاته الأخرى التي تتحسسُ شجون المشهد الأدبيّ واعتمالات الحياة المختلفة في الساحة الثقافية.

مع ذلك ظلّ يفصل قلمي عن إبداعاته وكتاباته المختلفة ذلك الزجاج العازل الذي يسمح بالرؤية ولا يُمكّنُ من الملامسة.

لم أكتب عنه طيلة ثمانية عشر عاماً (1996- 2014م على كثرة ما كتبتُ عن تجارب الآخرين.. ولم أحتفِ به حتى في فعالية واحدة رغم مئات الفعاليات التي احتفيتُ فيها بكُتّابٍ من كلّ الأجيال.. ولا هو طلب مني أن أقرأ تجربته أو أقارب إبداعه أو أحتفي به بأيّ شكلٍ من الأشكال كما فعل ويفعل آخرون كثيرون.. ولا عيب في ذلك،ولا معرّة.

منذُ الليلةِ قررتُ أن أقتحم على الصوفيّ المتواضع خلوته لأستكشف تجلياتهِ وكشوفاته.

سأقتربُ من الراهب البوذيّ الذي لا يرى في الضوء المنبعثِ من روحهِ ضوءاً لأنه يرى ضوء الحقيقة في عيون غيره فيعمى عن ضوئه. .

سأكسرُ الصندوق الزجاجيّ الذي حرمني ثمانية عشر عاماً من ملامسة أحبّ أصدقائي إليّ، وأجملهم سيرةً ونقاءً في تأريخي.

وبعين الناقدِ وقلم الكاتب سألمسُ وأتحسّسُ إبداع وفكر صديقي عبدالرحمن غيلان.

تباريح وأمكنة" لحاتم علي
إغلاق الأبواب في وجه الوجوم

((فلاح أنت تعيد غربلة التراب في حقل المهج.. تغازل الشمس وتنتظر الفجر القادم... روحك العطرة تحضرني حتى الآن.. أنت إذن توصد الأبواب أمام الوجوم لتبعث محياك ليوم قادم)).

جاء هذا في أولى عتبات الكتاب.. الإهداء الذي قدم به حاتم علي كتابه (تباريح وأمكنة) إلى أبيه.. لكننا حين نغوص في عوالم الكتاب نشعر بأن المؤلف إنما كان يصف نفسه ويتحدث عنها في ذلك الإهداء الموجه إلى أبيه..

ينقسم الكتاب إلى ثلاثة محاور... لكل منها استراتيجية وإن كان القاسم المشترك بينها جميعاً حلاوة اللغة، ورهافة روحها وعاطفتها..

يحتوي المحور الأول من الكتاب عشرات من النصوص الشذرية التي تتجاور مع نصوص أخرى وامضة، إضافة إلى قليل من النصوص التي يمكن توصيفها بـ (لوحات النجوى) التي تأخذ شكل الرسائل، موجهة إلى (الأم والجد والأب) على سبيل المثال..

يأخذ هذا المحور (56) صفحة من مساحة الكتاب.. وتتوالى فيه الشذرات التي تنداح على هيئة تأملات وأفكار وآراء ونفثات روحية ونفسية وعاطفية على هذا النحو:

قمر:

تشظت المرايا في غرفته لتتوزع معها أفكاره، نظر عالياً إليه، حسبه ملهمه.. ليدرك القيمة الكونية من وجوده مفسِّراً ذلك أن الأقمار عندما تضيء في السماء.. تضاء معها الأفئدة في الأرض.. (ص 12).

استفهام:

كانت شرطية أن يفهم دلالتها من يقطنون ذلك المكان.. بيد أنها أضحت في عجاف سنيننا ثكلى.. نبتت في ضلوع القادمين.. ليتبدى لهم سوء فهم مكانها في الأسطر، ومعانيها في الحياة (ص18).

وتحضر في تلك الشذرات والومضات أشواق الثوار وآمالهم، وهتافاتهم، وخيباتهم.. صيحات انتصاراتهم، وأنات وجعهم.. كما يحضر العديد من المفردات التي تحولت خلال هيجانات الشوارع سنة 2011م والعام الذي تلاها إلى أيقونات محورية في حياتنا.. وهي مفردات تصير في النصوص بؤراً متعددة الدلالات كالمنصة التي تتناولها النصوص الشذرية.. مرة بوصفها رمزاً لاستعلاء الثائرين على الاهتراء والتردي والقهر.. ومرة بوصفها من وجهة النظر المقابلة رمزاً للوهم كما في النص (من على المنصة) ص25.. و(بعيداً عن المنصة) ص 21.. كذلك الخيام ص28 مثلاً.. التي صارت رديفاً للسكن الذي يلد الحرية.. ويلون الغد بأشواقه:

(قريباً سيسأل عن عمره؟ وعن اسمه؟ وأين السكن. نعم فقد تشكل لون الغد وولدت الحرية من مخاضها العسير).

((بداخلها الفضيلة تتوسد الحب، تهادى اليقين وتفوق في أحايين الخيال، كيف لا والخيمة نفضت عن كاهلها رواسب المحن وتبوأت في قسماتها مستقبلاً، وكونت حقيقة الإصرار الأكثر بروزاً)).

كذلك صور الزعماء تأخذ نصيبها مانحة دلالات تتراوح بين المقت والسخرية، وتأمل المصائر ومفارقات مآلاتها كما في نص (صورة ص 34).

في خضم تلك النصوص الشذرية احتفى الكاتب بعديد الأسماء لأدباء وصوفية وحكام من التاريخ العربي أمثال: المقنع الكندي، عبد الله بن المقفع، أمية بن أبي الصلت، قيس بن الملوح، معاوية بن أي سفيان، عمر بن الخطاب، طرفة بن العبد، عبد الله بن أبي، سيف بن ذي يزن، رابعة العدوية.. ويلفتنا رغم عمومية المنحى العاطفي الرومانسي المؤمن

–أقصد هنا الإيمان بمعناه الديني– للكتاب عامة أنه لا يخلو من حس.. بل من وعي ينطوي على تمرد مثير.. تمرد يمجد الرفض أياً كان موقع الرافض وكيفما كانت منطلقاته.. فهاهي شذرة عاطفية رومانسية اللغة تقترب من الشاعر أمية بن أبي الصلت لتقول له:

((وحدك من استهل حياته بالتلاعب بالألفاظ، ووحدك أيضاً من جسد الرأي الآخر.. ورغم اختلاف مفرداتنا معك، لا تزال الأجدر في بداية الصف.. من روض المستحيل، وتفسر عملياً مرادفات قولنا: كلا لن أذهب معك)) ص 19..

إلى جانب تلك الملامح في محور الكتاب الأول فثمة فضاء واسع للمفارقة خاصة في النصوص الوامضة وهي النصوص الأكثر كثافة وقصراً.. كنص مطر مثلاً:

((حطت قطرة رحالها في سعة الكون.. سالت الأودية وجفت القلوب)) ص 33..

وكما في الومضات (باب) و (فزاعة) ص 12.. و(ناس) ص 54..

في المحور الثاني من الكتاب (أفياء ورسائل) يقدم حاتم علي ستة عشر وجهاً لمبدعين سياسيين وإعلاميين وأصدقاء تربطهم به.. علاقات وصلات خاصة.. بعض تلك النصوص حاول من خلاله رسم ما يمكن وصفه بـ(بورتريهات الفضائل النفسية) إذ تتحدث تلك النصوص بتجريد بالغ عن مزايا نفسية كتبتها عيون الرضا والإعجاب.. وهي نصوص لا تحاول قراءة الشخصيات التي تتموضعها أو تتغيا مقاربة أو تفكيك مكوناتها وعوالمها، ولكنها بدلاً من ذلك تقدم شعور الكاتب بها انطلاقاً من حب وتقدير صادقين.. –وأنا هنا لا أعيب منحاه– ولكنني أحاول مقاربته وإن بشكل متعجل عابر..

غير أن هذا لا ينطبق على كل نصوص هذا القسم، فهناك نصوص كتلك التي وجهها للإعلامية مها البريهي أو زميليه هلال عبد الله، ومطيع ناصر، والشاعر حسن عبد الوارث، تستفيد في محاولة رسم فضائل وصفات شخوصها النبيلة من نصوص تلك الشخصيات.. حيث تتحول نصوصهم إلى روافع للغته الرومانسية المجنحة.. وهي تتلمس التحليق في سماواتهم..

لكن أطرف نصوص هذا المحور جميعاً ذلك النص الموجه للإذاعية سامية العنسي... فقد استعان الكاتب لتقريب إحساسه برهافة أدائها وخصوصيته بنص لامرأة أخرى هي هدى أبلان:

((أنت ترفلين هناك حيثما الكبرياء تجلت، وسخاء الروح نمت في غصن ابتهاجك.. هذه الإطلالة التي ذابت في عصارتها هدى أبلان حيث حلقت بقولها:

اتكأت على قلبه

كان جداراً ماءً وياسمين

واقفاً على حافة الحلم

ومشارف أغنية

لذلك فقد كانت تلك الأغنية الرائعة في تقاسيم حياتنا تمّحي بعبورك الأثيري أدران علقت في حياتنا لتزيلها إطلالتك وتطفئ لظى الروح وبؤس حاضر أيامنا)) ص75..

أما المحور الأخير الموسوم بـ(ألوان وأطياف) فهو أوسع محاور الكتاب مساحة، ويضم هذا المحور (33) نصاً تتمدد على مساحة (70) صفحة.. وتتسم هذه النصوص بكونها أكثر ميلاً إلى السرد.. كما أنها تتضوع بحس نوستالجي واضح.. ثمة حنين دافق لوجوه وأمكنة وذكريات وعادات وقيم تتلاشى بفعل تبدلات الحياة والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية.. وضغوط الواقع وعسر الظروف، وسوء الفهم في أحايين كثيرة.. والكاتب يلامس في ميوله السردية.. تلك تقاليد القص بشكل طفيف... بسبب هيام لغته بالإشارة وميلها الغالب للتجريد.. إلا أنه بالرغم من ذلك يحرص بوضوح على إدانة سوء فهم الناس غالباً لمسألة التطور.. خاصة في مرحلة ما عرفتها الأرياف بالذات.. أقصد مرحلة الطفرة النفطية الأولى.. حين كان سوء فهم الكثير من المغتربين لتبدل أوضاعهم الاقتصادية..

يقودهم بسهولة تبعث على السخرية.. ليس إلى محاولة تعويض المكابدين للفراق من زوجات وأبناء وأمهات وآباء عن أيام الفقد.. بل إلى ازدراء أوضاعهم والتعالي على

أحوالهم.. واتخاذ عدم الرضا عن تلك الأوضاع مبرراً للتخلي عن زوجات محبات طالما أوجع الانتظار أوقاتهن.. وإهمال أبناء تفتحت عيونهم وهي تقتات الشوق لآباء لم يشعروا بهم ولن يشعروا كما صورت ذلك لوحته الجميلة (وفاء.. وأساور من ضوء الشمس) ص 105 وما بعدها..

أخيراً نحن أمام جهد كان للشعر نصيب وافر في لغته ومضامينه حتى ليصدق عليه من حيث ماهية نصوصه ما جاء في شذرة بعنوان (قصيدة ص 22):

((اعتبرها الأقدمون لغة حانية تختصر الزمن، وعدَّها القادمون من زمن الويلات بوتقة حياة، وشكَّلها المبدعون لوناً لإبداعاتهم، لكنها –ترفل بعيدة في الذات– محلقة في آفاق العمر، تغازل زوايا الأمكنة))..

ورد النهدي
وجود خاص

الحياة لعبة كبيرة، نسير فيها عبر شوارع الألم، ننسى أنها في أية لحظة يمكن أن تغدر بنا، وتتركنا غصصاً تحرق قلوب أناس ربما لم نفكر أننا سنكون ذات يوم غصة في أرواحهم .

من سيقنع ورد النهدي أنني سأحترق بنيران رحيلها إلى هذا الحد مع أنني كنت أراها كل يوم دون أن أدخل معها في صداقة تتجاوز تجاذب أطراف الحديث على الماشي غالب سنوات معرفتي بها.

حتى الآن لم أستطع استيعاب رحيلها وكأنه شيء خارج المألوف مثلما ظل وجودها بيننا شيئاً خارج المألوف.

كانت ورد من أكثر الشعراء الذين عرفناهم خلال الفترة من " 2004 – 2014م"لفتاً للإنتباه.

كانت بمظهرها المميز، وثقافتها وإبداعها وسلوكها الحر الشجاع.. وأخلاقها المترفعه عن السفاسف والتفاهات تمثل حالة خاصة ونادرة بكل المقاييس. .

وعلى دأبها الإبداعي في مجال الشعر وكتابة الأغنية.. وتعدد مشاركاتها ومساهماتها في فنون مختلفة لم نلحظ عليها لمحة ادعاء ولاغطرسة، ولاحاولت أن تتوسل الى الحضور طرقاً لاتمت للابداع بصلة..

هكذا واعتماداً على إمكاناتها الإبداعية وثقافتها وقوة شخصيتها المتأبية على الخوف والمتعالية عما يشين راحت تشق نهرها الخاص وتقدم اشتغالاتها بوعي فائض عن مبدعة في مثل سنها وفي مجتمع كمجتمعنا..

كان عام 2004م عام حضورها الأول بيننا ..

رأيتها المرة الأولى في إحدى أمسيات الملتقى الأول للشعراء الشباب العرب كانت تحاور الشاعر البحريني الكبير قاسم حداد أوهمني مظهرها المختلف أنها إحدى /أحد الضيوف العرب، حين سألتها.. أخبرتني أنها يمنية، لم أعلق وقتها إذ سرعان ما أقنعتنا ورد بنفسها..

خلال السنوات التالية كانت ورد موجودة دائماً.. في فعالية شعرية أو قصصية.. في حفل توقيع كتاب أو حفل موسيقى، في معرض تشكيلي، أو عرض مسرحي.. ترتدي ملابسها الذكورية وتساير الكتاب والمشتغلين بالثقافة والابداع ذكوراً وإناثاً على نفس المستوى من المعاملة، تدخل المقاهي والمطاعم وتجلس مع الشباب في البوفيهات، وقد تسكن عند أحد الأصدقاء في بيته مع زوجته وأطفاله دون أن يثير وجودها في البيت غضب الزوجة أو غيرتها، والسبب أن ورد كانت قادرة على الإقناع بأنها لا تشكل خطراً على زوجة الصديق أو على سلام بيته.

كانت سلوكيات وتصرفات ورد تقدم مثالاً مذهلاً للقدرة على كسر الحواجز الاجتماعية البائسة التي يعاني منها مجتمع يحكمه ركام من الأحكام الخاصة بالحيز الذي تعيش فيه المرأة داخل المجتمع، وبعيداً عن المزايدات وادعاء الفتوحات في مجال التحرر الاجتماعي كانت ورد تعيش ما هو أبعد بكثير مما نطرحه كتاباً وكاتبات حول النوع وحول الحضور النسوي وتشارك الحياة بتساو بين الرجل والمرأة.

لم تكتب ورد وجهة نظرها حول هذا ولا تحدثت عنها على منبرمّا، ولم تفكرجهة من الجهات التي تتبنى قضايا المرأة في استكتابها أو طلب شهادتها على تجربتها ناهيك عن الاحتفاء بهذه التجربة المميزة، كما لم تفكر واحدة من الكاتبات اللواتي يجلن ويصلن داخل الوطن أو في ملتقيات ومؤتمرات جهات العالم الأربع في الحديث عن حالة ورد.

ربما كانت هذه الأسباب جزءًا من غموض حالتها، ومع نجاحها المنقطع النظير في التعبير عن نفسها بهذا الشكل الفارق غاب حس البحث تماماً عن سروجودها المميز أو استكناه الجذور لموقفها من الوجود وحالتها داخل المشهد.

بمرور السنين كان حضورها المختلف قد صار جزءًا من حياتنا الإبداعية يصعب تخيل المشهد من دونه..وكان تأثيرها واضحاً فنياً وابداعياً على كثير من القريبين منها..

وبين الحين و الآخر كانت تقدم لنا دليلاً جديداً على تميزها..

لايمكن لي أن أنسى الانطباع الذي تركته ورد في ذاكرتي ذات ليلة من ليالي مارس 2013م كان منتدانا الصغير في مكتبي قد اكتظ بعدد من الأصدقاء المبدعين.. وكنا قد تحلقنا حول الموسيقار العبقري ناجي القدسي الذي كان قد شدهنا حد الوله بكلمات الفيتوري وأنغام لحنه البديع (معزوفة لدرويش متجول)، حين دخلت ورد النهدي.. كنا في ذروة جَذْبَتِنا كلنا عيون وأذان مشغولة بالموسيقار العجيب..

أفسحنا لها فدخلت في الجو على الفور..

لم نكد نهبط من أعالي الدرويش المتجول حتى كان الموسيقار العظيم يدخل بنا في واحد من أخف الحانه وأرشقها أعني لحنة الملهم (زي عيونك أصلو مافي) من كلمات الكاتب السوداني الشهير محمود مُحَّد مدني..

استخفنا اللحن بعذوبتة لكن واحداً منا لم ينتبه الى التحويجة الخاصة التي وضعها القدسي في جمله الموسيقية..

ورد وحدها هي التي انتبهت وراحت تناقش الموسيقار الذي أصابه الذهول لحسها العالي وحسن فهمها وجمال طرحها أيضاً..

كبرت جداً ورد في عيوننا.. وحين عبرت لها عن إعجابي بثقافتها الموسيقية استغربت فهي ترى أن معرفتها بهذا المجال بسيطة وسطحية ولاتستحق الاشادة..

لكن سؤال الموسيقار ناجي القدسي الدائم عنها فيما بعد.. وإعجابه الشديد بسلامة ذوقها كان يؤكد لي أن استغرابها لإعجابي بثقافتها الموسيقية هو استغراب الممتلئ بأشياء كثيرة جوهرية وحقيقية..

***

ولدت ورد النهدي في مدينة جدة سنة 1979م، وقبل أن تبلغ العشرين من عمرها عادت إلى موطنها الأول " حضرموت " ثم انتقلت عام 2004م إلى صنعاء حيث شعرت بكيمياء المدينة على نحو مذهل، كانت تذهب إلى صنعاء القديمة حيث تشعر بأن روح المدينة العريقة تتسرب إلى داخلها وأن في المكان سراً كسرّها يمكن التعايش معه لكن لا يمكن اكتشافه أو التعبير عن كنهه.. لهذا السبب وربما لأسباب أخرى لم تفلح دعوات أهلها وأصدقائها في جدة وحضرموت وماليزيا ودبي في إقناعها بمغادرة صنعاء على ما تعنيه دعواتهم لها من توفير فرص عمل وجو معيشة أفضل وحياة أفره، وبقيت في مدينتها الأثيرة تعاني من صعوبة السكن وقلة الدخل مع عدم الحصول على وظيفة تقتات منها. ولم تنل من الدولة سوى مبلغ 21 الف ريال كانت تصرف لها بشق الأنفس من صندوق التراث في السنوات الأخيرة من حياتها.

***

ترتكز تجربة ورد النهدي على كتابة القصيدة الغنائية الأميل من حيث اللون والشكل على مزيج من الأغنية الحضرمية واللون النبطي السائد في نجد ودول الخليج.وقد أنجزت ثلاث مجموعات شعرية " صدى الونات " و " ثغر العيون " و " آيات من البوح الكريم " أصدرت المجموعتين الأوليين بمجهود فردي، أما المجموعة الثالثة فقد رحلت قبل أن تصدرها..

ولم تكن تجربتها في كتابة الأغاني بعيدة عن متناول الفنانين فقد اهتم ببعض نصوصها فنانون من حضرموت والخليج على رأسهم الفنان علي بن مُحمَّد، وكانت هناك مشاريع قائمة منذ سنوات سبقت وفاتها، أما قصيدتها الطيب فقد نفذت بالفعل.

لكن تقصير المؤسسات الثقافية وتقصير رفاق الحرف تجاه تجربتها كان يشبه إلى حد كبير تقصير المشتغلين بالنسوية تجاه تجربتها الوجودية الفريدة.. ظلت ورد تحضر في كل شيء حضورالغائب، فلا تقدير ولا احتفاء ولا التفاتة تكسر جهامة الواقع وتخفف من متاعبه، مع أنها في وسط المعمعة، ومع أن أسلوبها في الحياة كان أكثر من لافت.

كانت تشتغل على تجربتها بصمت كأنها تردد قصيدتها الأقرب إلى قلبها " كأني أدندن بداخلي ".. قليلون جداً من كانوا يعرفون تفاصيل تروي بعض الظمأ عنها وعلى رأس هؤلاء الشاعر عبد الرحمن غيلان " أدين له بكثير مما سطرته هنا " والمخرجة المسرحية إنصاف علوي التي ساكنتها في الفترة التي سبقت رحيلها.

ومن الأشياء التي لم نكن نعرفها عن ورد ارتباطها القوي والحميمي بأسرتها في جدة وحضرموت، وشدة شغفها بأهلها، وتواصلها الدائم معهم ومحاولتها المساندة في كل خطب يلم، فقد كانت رغم ظروفها الصعبة ممن يؤثرون على أنفسهم، تفعل ذلك بمحبة بمثل ما كانت تساند أصدقاءها وتبث التفاؤل فيهم حتى ولو كان واقعها أسوأ من واقعهم.

قبل يومين من رحيلها توجهت إلى حضرموت لحضور عزاء عمتها، ويوم الأحد 19 / 1 / 2014م أخذت سيارت عمتها المتوفاة وذهبت إلى السوق لجلب بعض احتياجات البيت وفي الطريق وقع الحادث، كانت هي التي تسوق، وبرفقتها صغيرة كسرت يدها..

أودى الحادث بورد لكن عبيرها يملؤ أرجاءنا، لحظة رأيت شلال الدموع المنهمر من عيني المخرجة إنصاف علوي صباح اليوم التالي وهي تخبرني عن رحيل ورد.. ورأيت الوجوم يخيم على وجوه عشرات الزملاء.. أحسست بوطأه الفقد، بمقدار ماشعرت بأن أثرها في وجداناتنا كان أكثر بكثير مما نتصور..

أنكمشت على روحي مفجوعاً وأنا أغمغم لنفسي:

وداعاً ياورد

وسلام الله على روحك..

مصلح العقاب
أخلاقيات العظيم المحجوب

شظايا تبعثرت روحي وأنا أتلقى خبر رحيل الشاعر والكاتب المبدع والإنسان الكبير مصلح العقاب مساء السبت 24 مايو 2013 م، أحسست أنني أريد البكاء عليه بحرقة تليق بتقصيري تجاهه.. بل كان شعوري مزيجاً من الأسى لرحيل قامة شفافة بهية بحجم العقاب.. والألم لكونه من مبدعين ومثقفين قلائل اشتغلوا بصمت ومحبة، وأنضج اشتغالهم ثمرات كثيرة لم يشعر بها أحد، ولم تلقَ ما تستحقه من الاهتمام والتقدير.. والحقد على الجهات المسئولة التي لم تعطه حقه مبدعا طيلة حياته، ولم تلتفت إليه مريضاً له واجب الرعاية والعناية.. ولكن شعوري بالخزي والعار جراء عدم انتباهي لمساندته، كان الشعور الأقوى والأشد استشراء.

لم أجد لي ما يبرر نكوصي عن مساندته... ودون فائدة حاولت أن أجد المبرر المريح في سلسلة إخفاقاتي وإخفاقات زملائي المتوالية تجاه حالات مشابهة حاولنا مساندتها خلال الفترة الماضية، وكان نصيبنا الفشل وعداوات المسئولين وتمزق ما كان يربطنا ببعضهم من خيوط ود واهنة.

لا مبرر يمكن أن يريح ضميري.. وأنا أستعيد عشرات اللقاءات بالراحل الكبير، خلال ما يزيد على 15 عاما عرفته فيها.

لم أعرف كاتباً أو مثقفاً يمنيا يشبه العقاب في بساطته وتواضعه وفتنة إحساسه بك.. تلك الفتنة التي يسربها إليك دون أن تُحمّل نفسك عبء تفسيرها أو عنت الوعي بها.. على خلفية ابتسامة نقية، ومن خلال جمل قصيرة مقتصدة، يذهلك بمتابعته الدقيقة لك، وقراءته لكل ما نشرته أو نشر عنك، وكل ما ظهرت فيه من برامج على التلفزيون في

فترة انقطاعك عنه... يبدي لك إعجابه، ويسرد لك انتقاداته وملاحظاته الحصيفة، ويجرك بلا كلفة ولا اصطناع إلى نقاشات بارعة تحرك سواكن نفسك، وتشعرك بجدوى ما تفعل.

كل ذلك دون أن تنتبه لضرورة شكره، أو الامتنان له.. وكأن مثله كثير.. وكأن هذا من واجبات أمثاله من المثقفين والمبدعين والمواطنين الحقيقيين الذين يعيشون الإبداع والثقافة وحسن المواطنة والحس الإنساني الجميل بصمت وتواضع ومحبة تتعالى على الاستعراض الرخيص والتبجح الكاذب. عاماً بعد عام كان يترسخ في يقيني أن مصلح العقاب يشبه إلى حد بعيد أقطاب الصوفية الكبار المشهورين بالقدرة على التعليم بالحال والفعال، لا بالأقوال، وأنه إلى جانب ذلك أحد عظمائنا المحجوبين الذين سلموا من تشوهات الحضور الباذخ والشهرة الفارغة، فهو يكتفي بكونه روحاً من تلك الأرواح التي تظللنا دائماً بنقائها، وقدرة فضائها على طرد الشوائب والأوحال.

ثمة جيل كامل من المبدعين والكتاب والمثقفين والشعراء يدينون لمصلح العقاب بالكثير والكثير تشجيعاً وخدمات وتوجيهاً غير مباشر للقراءات والوعي والتذوق.. مع ذلك فتأثيره ظل خافياً على الدوام، بسبب تواضعه أولاً، وخلو طبعه من أخلاقيات المن والمباهاة ثانياً.

حتى حين اعتورته الأمراض وثقلت وطأتها عليه، لم يصرح بأوجاعه، وحالت كبرياؤه وعراقة منبته بينه وبين جهامة القائمين على المؤسسات المعنية، إذ هم بكل تأكيد سيحولون حقه الطبيعي والقانوني في العلاج إلى مهانة الموت أهون منها.

لقيت العقاب قبل أيام من رحيله، لم يحل شحوبه دون أن يبتسم لي كعادته..

قلت له: يجب أن نواجه المرض معك يا أستاذ مصلح.

قال وقد اتسعت ابتسامته: بارك الله فيك..

قلت له: اليوم سأكتب عنك.

وعلى غير العادة ودعته.. ومرت 3 أو 4 أيام عقبها دون أن أكتب عنه.. كيف فعلت ذلك؟ لا أدري!

حين سمعت خبر رحيل العقاب من الشاعر الكبير الحارث بن الفضل لم أجد غير الدمع أتكئ عليه، ولكنه فاض من عيني محملاً بالخجل والعار.. لقد كان حق العقاب عليّ أكبر بكثير من مجرد البكاء.

محمد الجبلي
الثائر الذي رحل عارياً

بطبيعته كان متحدياً تمتلئ روحه بالثورة ويتوتر عقله بتمرد غير عادي حتى ليبدو أن النزق والميل للهجوم أهم صفاته رغم أن صفات الطيبة فيه لا حصر لها وقد كانت أجمل تجلياتها ابتسامته الوضاءة التي تقطر نقاء حين يروق ونادراً ما كان يروق... إنه الكاتب الثائر مُحَمَّد الجبلي.. الذي طالما أحرق بنيران قلمه الشاب المندفع معاقل الطغيان والتسلط وفضح بوعيه المتقدم من فترة مبكرة الجرائم التي يرتكبها عتاولة النهب في تهامة... وكانت قضية تهامة هاجساً مبكراً لقلمه لا يمل الاشتغال عليها... دؤوباً على البحث عن كل ما يدعم طرحه من وثائق ومعلومات وأسرار طالما أدهشنا وصوله إليها... وكثيراً ما تعرض للاضطهاد ونالته الخسارات بسببها.. لكنه لم يكن يبالي بشيء في سبيل ما يؤمن به...

كانت شدة صراحته وصرامته الممزوجتين بحرقة وألم الواعي.. تجعل نقاشاته وكتاباته عن قضايا تهامة.. أشبه ما تكون بطلقات الرصاص قوية الاندفاع مدوية وعاصفة لا تقبل الهدوء أو ترضى بالمراجعة حتى لو خالفت المنطق والسداد..

ولعل نضج وعيه بفداحة الجرم الذي ارتكب في حق تهامة وأهلها.. خلال العقود الماضية كان يبعده دائماً عن دبلوماسية الطرح.. ناهيك عن تغيي المنطق حيث كان طرحه بلاسقف ومطالبه أو انتقاداته لا تقيم وزناً لما يمكن أن يترتب عليها من عواقب..

كانت كل المظالم التي ألحقها المتجبرون بتهامه تتحول في وعي الشاب الأسمر النحيل إلى كف عملاقة وغدة تهوي على روحه ومواجيده وتلحق الأذى بإنسانيته وشرفه وكرامته باستمرار ولذلك كانت ثورته لا تكل عن التجدد والتفجر يوماً بعد يوم...

وحين قامت ثورة الشباب السلمية. كان مُحمَّد الجبلي الشاب الأسمر النحيل في طليعة وقودها وكان من ضمن الذين أقاموا في ساحة التغيير بلا انقطاع وواجهوا الرصاص بصدور عارية كما واجهوا محاولات الاستيلاء على الثورة بعزيمة وقوة حجة...

أثناء ذلك كانت كتابات ابن مدينة الخوبة الساحلية تتوالى أغنيتها الأكثر خلوداً وروعة بحقوق المظلومين والمقهورين والمنهوبين في تهامة..

وفي ذروة انهماكه النضالي المتعدد داخل ساحة التغيير... في ذروة انشغاله بأمراض المتسلطين التي انهكت الوطن وقتلت أحلام شبابه.. كان المرض الخبيث يتسلل الى جسده النحيل بلا شفقة ولا رحمة... وحين صدم باكتشافه لم يجد أحداً يسانده في وجعه ورجفات روحه وجسده سوى محبين لا حول لهم ولا قوة.. ووجد الثائر الشجاع نفسه لأول مرة في حياته مضطراً للانشغال بنفسه.. وهو الذي طالما تجاهل احتياجاتها مؤثرا عليها احتياجات المساكين الذين وهب كل عمره لقضيتهم.. ولكن انشغاله بنفسه كان انشغال العاجز الفقير الذي تحول ظروفه دون مواجهة أعباء مرض كهذا. ويحول كبرياؤه دون طرح ضرورته على الجهات المختصة التي تتعامل مع مثل هذه الحالات بوصفها استجداء مزرياً إن لم تكن احتيالاً رخيصاً..

وأمام سمع العالم وبصره بقي الجبلي وحيداً في صراعه مع الموت كما كان وحيداً في صراعه مع الحياة.. رحل عارياً حتى من قليل يغطي جنازته ووقف أبوه الفقير المعدم باكياً يعض أصابعه ويجول بعينيه في وجوهنا.

الشيخ يحيى القحم
أقدم أصدقاء البيئة في اليمن

برحيل الشيخ يحى بلغيث القحم تكون تهامة. بل اليمن كلها قد خسرت واحداً من أهم شخصياتها المشيخية...وأبرز وجوهها الاجتماعية..وأكثر رجالها حضوراً وتأثيراً ووضوح مكانة.

فالشيخ يحيى قحم الذي ينتمي إلى واحد من أكبر فروع الأسرة الأهدلية ذات التاريخ الباذخ في مجالات الولاية الصوفية والعلم والتجارة والحياة بجوانبها كلها، كان يتميز بشجاعة عالية ورباطة جأش نادرة في ساعات الخطر والحسم..كما تميز دائما بالجرأة وقوة البديهة في المواقف العامة والملتقيات والمؤتمرات..وقد وظَّف تلك السمة فيه للدفاع عن مواطنيه وتقديم آرائه الخاصة بشكل كان دائما يلفت الأنظار إليه ويثير الإعجاب به...

إلى جانب ذلك فقد كان الراحل الكبير يتميز بمعرفته الجيدة بالتاريخ..خاصة تاريخ المكان وناسه وتقاليده وأعرافه وأحداثه وهي معرفة طالما نفعته في إقناع الآخرين -- المسئولين بالذات -بمايراه.

بيد أن أجمل تجليات شخصيته كانت تتبدى في وعيه العميق بالبيئة وجيراننا فيها..ذلك الوعي الذي رافقه منذ وقت مبكر..وكان يدأب على طرحه في المناسبات سواء كانت محلية تجمعه بقيادة المحافظة أو وطنية يحضرها رئيس الجمهورية..على أنه كان يربط نجاعة المحافظة على البيئة بالتأكيد على أهمية ربطها باقتصاد الناس وإحياء الموروث الثقافي والإبداعي المرتبط بها في وجداناتهم.

أتذكر هنا بقوة دفاعه المستميت عن شجر الدوم (ليس السدر كما يعرفه بعض المناطق) ومطالباته المبكرة بضرورة المحافظة عليه وحماية المنتج الذي يأتي منه والذي يتجلى

في مصفوفة طويلة من الصناعات مثل(الآجاب، الظلل الحبال السجاد الخزق الظروف المهاجن الصُّدن المراوح وغيرها) وهي مصنوعات تعيل أسراً وتختزن تراثاً عرفه أبناء تهامة قرونا طويلة، مؤكداً على ملاءمة منتج شجر الدوم الذي يزيد على 360 منتجا مختلفا ومناسبته للبيئة مقارنة بمنتجات البلاستيك والنايلون التي تدمر البيئة وتضر بالحيوان وتصيب الناس بأمراض لم تكن مألوفة من قبل...ناهيك عن كون منتج الدوم منتجاً اقتصادياً يتميز بالقدرة على البقاء لوقت طويل وهو بذلك يناسب الوضع المعيشي للناس.

ولم يكن دفاع الراحل الكبير عن الدوم إلا جانبا من جوانب اهتماماته ومميزات شخصيته التي لا تعوض..فقد كان من خلال تجاربه الحياتية الواسعة شيخا لربع القحم الذي يشمل المنيرة كلها مضافا إليها مناطق أخرى وعضويته في مجلس الشعب التأسيسي ورئاسته للمجلس المحلي في منطقته وأنشطته الحزبية وعشرات بل مئات المهام الاجتماعية المتعلقة بقضايا تهامية مختلفة يمثل رمزاً حقيقياً من رموز البلاد الكبيرة..

كل ذلك يجعل رحيله في هذه اللحظة المفصلية خسارة فادحة تمس الوطن كله وليس تهامة وحدها.. ذلك أن ما مرت به البلاد منذ هيجانات الشوارع سنة 2011م وحتى لحظة رحيله " 30 /10 / 2013م " وما ستمر به لسنوات قادمة من أحداث وتقلبات نتيجة الزلازل السياسية والأحداث الحربية يجعل المجتمع محتاجاً لأمثاله من العقلاء، ويجعل البيئة محبوبته الأثيرة أكثر احتياجاً لدفاعه عنها وصراخه المستميت من أجلها.. ففي أزمنة الاختلالات التي تمر بها بلدان تتحكم بها نخب سياسية وعسكرية واقتصادية سيئة وعديمة الشعور بالمسئولية تجاه كل شيء تصبح البيئة أكثر عرضة للتدمير والتخريب والتدخلات القاتلة لبنيتها ونظامها المتوازن.

عبدالرحمن سيف اسماعيل
رحيل ابتسامة نادرة

حين كتب لي صديقي المبدع منصور السروري ليخبرني بموته مساء الأربعاء 29 /يناير 2014م وينبهني إلى ضرورة كتابة نعي له باسم اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين.. طلبت معلومات عنه لم أفكر أنه أحد أصدقائي المحببين إلى القلب. وحتى بعد أن أرسل لي الأستاذ السروري بيان نعي الحزب الاشتراكي له.. لم أنتبه أيضاً.. فأنا لأول مره أعرف اسمه كاملاً (عبدالرحمن سيف اسماعيل) عضو اللجنة المركزية للحزب الاشتراكي..هو قليل الحديث عن نفسه، وأنا لم أكن أعرف منه إلا الكاتب المبدع (عبد الرحمن)وكثيراً مانسيت بقية الاسم "سيف اسماعيل" رغم حبي لقراءة مقالاته الممهورة دائماً باسمه ورغم وجود بعض كتبه عندي. لقد وجدت نفسي منهاراً حين شاهدت صورتة على صفحة السروري.. أهو صديقي الوديع الطيب، المناضل الناكر للذات..المبدع والكاتب المثابر، الذي يشاركني هموم توثيق التراث الشعبي.. ويشارك صديقي الكاتب **مُحَمّد عبدالوكيل جازم** أجمل وأنقى ابتسامة رأيتها في المشهد الثقافي والإبداعي اليمني.؟ كيف لي أن أصدِّق هذا؟.عرفت عبد الرحمن سيف اسماعيل عن قرب منذ عام 2008م جمعنا أكثر من مقيل في اتحاد الأدباء وفي بيتي الكاتبين مُحَمّد عبدالوكيل جازم وسلطان العزعزي..وفي مناسبات مختلفة و حتى في الشارع بالقرب من جولة سبأ كثيراً ما التقينا ووقفنا لننثر بعض الشجون. كان انهماكه العاشق في الاشتغال على التراث الشفاهي ومايتصل به يشعرني بأنه قريب جداً من نفسي..ولطالما أسرتني أحاديثه عن رحلاته في تعز وتهامة بحثاً عن النصوص في بيئاتها وحواضنها، ولطالما أعجبت بمقترباته التي تؤكد على بصيرة ثاقبة، ووعي مستنير، وحس مرهف قادر على الالتقاط والتمييز..وهو ما تجلى في كتابه المهم (الأغنية الشعبية اليمنية أبعادها الثقافية والجمالية) حيث كانت مقارباته للنصوص تتحول إلى إبداع مواز بمقدار ماتقدم النصوص

من خلال أبعادها ومرجعياتها المختلفة. قلّت لقاءاتنا خلال عام 2011م بسبب احتدام الأحداث.. وعند منتصف عام 2012م تقريباً لقيته في وزارة الثقافة.. كان منهكاً بدرجة واضحه.. ظننت ذلك بسبب الأحداث التي فعلت بنا الأفاعيل، قلقاً، وقلة استقرار، وزلازل مادية.. لكني فؤجئت أنه يعاني مرضاً عضالاً في القلب.. وعرفت أنه يتحمل آلامه وغصصه منذ زمن طويل.. يومها عرفت أن عبدالرحمن القامة الإبداعية والثقافية والحضور الإنساني المضيء.. لم يتلق أي دعم مادي رغم كل مايعاني منه جراء مرضه.. ولأني أعرف أن فيه خصله نادرة هذه الأيام.. يتقاسمها أيضاً مع قريبه الكاتب مُحَمَّد عبدالوكيل جازم أعني خصلة الحياء الزائد على الحد..فقد أصررت عليه أن يدخل معي إلى وزير الثقافة أو نائبته الشاعرة هدى أبلان.. في مكتب هـدى أبلان أجبرته ابتسامتها الودوده المتعاطفة على الحديث عن متاعبه.. وكان أغرب ماعرفناه عنه أن الأطباء أجروا له ذات مرة مجموعة فحوصات وعند ظهور النتيجة أخبروه مستغربين أنه كان يجب أن يكون ميتاً منذ زمن... وبصوته المؤدب الخافت عقَّب قائلاً: مضى وقت منذ عرفت أن بقائي حياً هو شيء استثنائي.. وفي هذا الوقت ألّفْتُ مجموعة من الكتب هي أفضل ماعملت في حياتي...بعد سفر الكاتب مُحَمَّد عبدالوكيل جازم إلى المغرب.. كنت كثيراً مأقول له حين ألقاه: ما أخبار مُحَمَّد..؟؟ إن ابتسامتك تذكرني به..فتملأ السعادة عينيه.. وهو يجيبني قبل أن نفترق مطاوعين مشاغل الحياة التي لاتعبأ بنا.. لقيته آخر مرة قبل أيام في موقف باصات التحرير المتجهة الى الحصبة، أبديت له أسفي لعدم تمكننا من الاحتفاء بجازم أثناء عودته القصيرة من المغرب..أخذنا بأطراف الحديث لدقائق استرقناها استراقاً وعجلة الحال تدور بنا ليذهب كل في طريق.. الآن أشعر بأن هالة من أطياف ابتسامتة الصافية تحف بي تتراقص أضواؤها منعكسة على قطرات الدمع الحانقة. ألهذا السبب لم يدلني اسمه عليه حين علمت بموته.. ولم أعرفه الإحين رأيت صورته والابتسامة الطاهرة تضيئها.؟

الشهيد محمد كاتب...
وتهامة التي تتغير

لن يمر وقت طويل فبل أن يعتبر الدارسون والمؤرخون استشهاد حدثاً مفصلياً في تاريخ تهامة وحياة سكانها. .مُحَّد عزي كاتب الذي يتجاوز بالكاد الثلاثين من عمره والعامل في ميناء الصيد بالحديدة حيث يشتري ويبيع ويكسب قوته وقوت صغاره..وأبويه الطاعنين في السن...سقط شهيداً صباح يوم الأحد 23/ 2 / 2014م..بعد أن اعتلى شيولاً وتوجه مع مجموعة من الناشطين التهاميين لهدم سور شيَّده الناهبون المتسلطون على أراض تهامية بسطوا عليها.. استشهاد الشاب مُحَّد عزي كاتب ليس إلا تتويجاً لرحلة نضال محتدمة خاضها برفقة أهله وأصدقائه وجيرانه وسائر أهل مدينته وغيرهم من أبناء تهامة الأحرار..من أجل التصدي لهيمنة الظالمين، وتعرية عورات المتواطئين..وزلزلة أركان الفاسدين..بمقدار ما كانت رحلة نضال من أجل إيقاظ وعي التهاميين الذين طالما استسلموا لمصائر مذلة دأب غيرهم على صنعها لهم. ..لقد كان الشهيد الشجاع مُحَّد عزي كاتب على مدار ثلاثة أعوام مضت نموذجاً للمناضل الجريء القوي المصادم الذي تكسر آراؤه الواضحة، واندفاعاته الناقمة وصدعه بالحق رؤوس المترددين..واللاعبين المحترفين الذي لهم رجل ويد في كل مكان..وتَجْبَهُ أصحاب المصالح..ومراكز القوى المختلفة..سواء تلك القادمة من غطرسة العاصمة وماحولها وحضن السلطة السكْرى بالفساد والطغيان..أو تلك التي ترحب بها وتسمسر لها..وتمسح الجوخ.

إيمانه بقضيته العادلة وانحيازه إلى عالم الفقراء المظلومين والمحرومين والمنهوبين الذين ينتمي إليهم..جعله صخرة صماء تكسرت عليها استهدافات العسكر التي طالته أكثر من مرة..وانثنت عليها ضغوطات المتمترسين وراء حساباتهم السياسية..وكلَت أمام حدتها

عجنهية الغاصبين ومن ورائهم كل القوى المتغلبة على المكان وناسه بإمكانات الحكم والسلاح والمال. .لقد كان كاتب جبلاً أشمّ راسخاً، بل كان من نفسه الباسلة في عنفوان وقوة وعزم تنهزم أمامها كل مثبطات الواقع ومحبطاته التي تجرعتها تهامة عقوداً متوالية. .لم يقتصر نشاطه على الفعل الثوري ومسيرات الحراك التهامي ونشاطاته وفعالياته السياسية فحسب.. فقد شارك في حملات الحد من مشكلات طفح المجاري في مدينة الحديدة.. وحملات نظافة المدينة أيضاً..ومسيرات الحفاظات الرمزية خلال رمضان الماضي..إضافة إلى عمله متعاقداً مع المجلس المحلي لمديرية الحوك الذي حاول من خلال ذلك التعاقد تقدير نشاطه الإيجابي في خدمة المجتمع.

لا، ليست حالة استشهاد الشاب مُحَّد عزي كاتب مجرد حالة استشهاد عادي..إنها أكثر من ذلك بكثير...إنها رمز لحالة الوعي التي يمتلكها بسطاء تهامة اليوم...أولئك الفقراء من غمار الناس العاديين..الذين يعملون في مهن بسيطة وتقليدية..عارين تماماً من ظهر قوي وروافع اجتماعية وسياسية أو اقتصادية. .هنا المفصل..وهنا المتغير الحقيقي في حياة التهاميين كما يؤشر عليه استشهاد كاتب.. لقد كانت صورة التهامي المستسلم لقدره..المسلّم لغاصبيه..الموصوف بالجبن والخوف وعدم القدرة على المواجهة والتضحية واحدة من أهم الصور النمطية السلبية التي يوصم بها التهاميون منذ نهاية الستينيات من القرن الماضي..وقد تم بناءً عليها امتهانهم والاجتراء عليهم..واستلاب حقوقهم. .وقد تغيرت الصورة النمطية السلبية الظالمة..أو هي تتغير...تتغير..وها نحن أولاء لحظة استشهاد مُحَّد كاتب صباح الأحد 23 / 2 / 2014م نشهد تخلُق صورة جديدة للتهاميين...إنها صورة التهامي المدافع عن حقه.. المستعد للموت بكل أشكاله في سبيل كرامته. .

حوافّ ناجي القدسي وتضحياته

وأخيراً يا أستاذ ناجي..أخيراً أيها العبقري...تنتهي قصة وجودك الحافل بالنقائض والمفارقات..النجاحات التي تدير الرؤوس وتصيب بالدوخة والخيلاء أيضا، والإخفاقات التي تقتل المرء حيا وتلقي به في جبّ من ظلام لا قرار ولا نهاية له..

أخيراً توقفت عجلة الساقية عن الدوران.. طار حمام الوادي.. وصارت روح الدرويش المتجول شفقاً من ضوء يشف بعيداً في السماوات..

ها أنت ذا يا ناجي القدسي.. بجسمك الذي انتحل تتجاوز زحل وغير زحل من كواكب الملكوت مبتعداً.. ومتعاليا على زمن لم يعرف قدرك..لم يستوعب اختلافك..ولا تفهّم تغريدك خارج السرب....ولا عرف كيف يقرأ جملتك العصية على التفكيك.. الهاربة دوما من أسن المألوف، والعادي، والمتوقع..

أخيراً فارقتك حيرة السؤال وأنت تنفلت كبرق خاطف شق جدران الجسد العمياء..وشق معها جدران وجود لا تفتح فمك إلا كي تلعنه..ولا تغمض عينيك إلا لتبكي منه..

تتذكر السؤال طبعاً فلطالما رددته على مسمعي وأهدابك تنطف الدمع...

مالذي فعلته حتى يحدث لي كل هذا ؟

أليس هذا هو السؤال ؟

وبعدد المرات التي سألتني..حاولت أن أفسر لك.. حاولت وأنا على يقين أنني لم أكن مقنعاً لك ولا لنفسي حتى..

ثم بأي تفسير أقنعك وأنا أرى وأدري.. أرى جراحات الزمن التي شقّقت روحك..أرى نزيف الوجع في عينيك..اسمع الألم يتنزى في صوتك الأجش، وأتحسسه شوكة شوكة في كل كلمة يبوح بها تاريخ عذاباتك الطويل..

أكاد أيها الموسيقار أسترجع رحلتي معك..بكل تفاصيلها يوماً يوماً..بل ساعة ساعة وكلمة كلمة....أسترجعها..وقد صار غيابك حضوراً أتنفسه في كل شهيق وزفير..

كلما حاولت شغل حواسي عنك.. أجدك واقفاً أمامي تناديني مبتهجا بي كما تعودتك..بتلك النغمة الخاصة بك؛ علواني..

أسمعك..وأبحر فيك.. حيث دارت بك الحياة حزينة قاسية وعرة..وحيث دوّرتها ساقية إبداع تتفتّح شبابيكها في كل قلب..

لم تكن الحياة عادلة معك.. ولا الناس كانوا عادلين.. حتى المؤسسات البائسة ألتمسُ لها العذر..فلم يكن بوسع أحد أن يرتقي مرتقاك ليفهمك... كنت عالياً أكثر من اللازم..مبهراً أكثر من اللازم...عبقريا أكثر من أن يتمكن أحد من تقديرك...لكنك في نفس الوقت كنت عارياً كغصن أخضر في صحراء شاسعة..وكنت بسيطاً حد الإغراء بتجاهلك..غريباً يسهل تبرير نسيانك..يمكن الاحتيال عليك، بل حتى مصادرة حقك في الوجود..

كنت عبقرياً بلا روافع ولا مساند لعبقريته.. عرق ذهب في مستنقع بائت..في قبيلة بدائية تأكل البشر..لكنها لا تعرف حتى معنى الذهب ناهيك عن معرفة قيمته..

أنت أستاذ ناجي من اجترح رحلة عذابه بيده منذ البداية.. من يوم أنساك شغفك بالعزف على عود صنعته بخيال طفولتك الباذخ أن تحرص على التوازن...وفي بهجتك بما يتخلق على أناملك من سحر لم تتذكر أنك تجلس على حافة نافذة عالية في البيت..

كان الثمن يومها يدك ورجلك...وقد ظلتا غير سليمتين بقية حياتك.

هكذا بدأت رحلتك مع الفن بتضحية لا مبرر لها.

مالم تنتبه له أن تضحياتك ستتواصل على مدار العمر.. وأنك ستظل تقدم التضحية تلو الأخرى دون مبرر..

أكثر من ذلك أنك لم تنتبه أن حافة النافذة العالية التي سقطت منها لن تكون حافتك الأولى والأخيرة..فقد كانت حياتك كلها وجوداً على الحافة نفسها..وكنت دائماً لا تنتبه لضرورة التوازن فتقع لينكسر شيء ما في روحك..

كنت سودانياً وكنت يمنياً..وكانت عبقريتك الفنية وموسيقاك الخالدة ترفعك إلى أعلى مقام في السودان وفي اليمن..لكنه كان المقام على الحافة..حافة النافذة العالية نفسها يا أستاذ ناجي.. إنك لا تذكر كم عدد الجروح والكسور التي أصابت روحك وأنت تصحو من سكرة شاسعة النشوة بنجاحاتك المدوية منذ أبدعت " جسمي انتحل، وضاع مع الأيام، وخلاص مفارق كسلا، والحقيقة، وأحلى منك، وعشت الشقا، وسلم بي عيونك، وحمام الوادي، وروح بابا، والنضارة، إلى أن دنى مجدك فتدلى بمعجزة الساقية.

تكسرت روحك حين هويت من سكرتك الخرافية حتى لم يبق فيها ما تتكىء عليه مرة أخرى..لأنك لم تنتبه أنك كنت رغم كل ذلك النجاح تجلس على حافة نافذة عالية..الفارق أن سقوطك أيام الطفولة كان من حافة نافذة عالية في البيت..أما هذه المرة فقد كنت تجلس دون توازن على حافة نافذة عالية في جدار وطن.. والفارق هذه المرة أن الأذى كان يطال الروح وليس الجسد..

مع ذلك فما حدث لك حيث دفنت سرتك لم يكن ليساوي جزءًا بسيطاً مماحدث لك حيث دفنت كلك..لذلك فلا معنى لوصف ما عشته في اليمن

لقد كنت في السودان حاضراً ومنكوراً..يحبك الناس وتشغف بك ذاكرة الكتاب والمثقفون.. وتتغافل عنك الجهات القادرة على التعبير عن تقدير الناس لك.. ويتناساك رفاق الرحلة أويتنكرون لك.. وهذا كان مصدر سؤالك الحائر دائماً.. كنت تحتار لأنهم يعرفون قيمتك ويستطيعون فهمك وتقديرك لو أرادوا..أما في اليمن فقد كان الوضع مختلفاً.. لأنك غريب وغير مفهوم.. وهم لا يرونك ليس لأنهم لا يريدون أن يألفوك أو يفهموك أويروك، بل لأنهم لا يستطيعون ذلك.. كنت عالياً أبعد من مدى رؤيتهم.. عبقري اللحن إلى حد تعجز عن إدراكه ذائقتهم الملوثة بالارتجال والإستعجال و الانغلاق على الذات وما ألِفت.

بمنتهى البساطة إنك أيها الموسيقار لم تجد في اليمن النافذة العالية ولاحافتها كي تجلس وتحلق..فلم يكن ثمة جدار.. ولا ثمة نافذة عالية أو منخفضة..ماوجدته كان مجرد جبّ مظلم كل خطوة فيه تقود إلى هاوية أكثر ظلاما ومأساوية...

صحيح يا قدسي أنك كنت تملك وطنين وأنك أعطيتهما خلاصة روحك ووجدانك وعبقريتك كلها..لكن الحقيقة يا قدسي أنه ليس بوسع مبدع في العالم كله أن يدعي أنه ذاق مرارة الغربة داخل وطنيه وبين ناسهما كما ذقتها أنت..

ها أنذا أراك تقف ملوحا بسبحتك وتقولها منغومة بديعة: علواني..

وهانذا أجن كالعادة بابتسامتك النقية التي تنفتح عن فم خال من الأسنان كفم طفل بريء..

فهل أعجبك تفسيري الليلة لسبب مأساتك ؟

لم أكتب هذا في كتابي عنك..وأنا الذي كنت أتشدق أنني لم أغادر فيه صغيرة ولا كبيرة من دقائق حياتك... وما مربك إلا ذكرته وحللته..

ولم يكن ليخطر على بالي أني سأصل يوماً إلى هذا التفسير..لكنه الموت حقيقة الحقائق وكاشف الغامضات..

كم من الحقائق تكشفت لي يا ناجي..منذ رأيتك ونحن نخرجك من ثلاجة المستشفى كشمس يتبلج صباحها..أحسست أن رائحتك الزكية..ووجهك النير..وجمالك البديع..تفتح لي مليون نافذةعلى ماحدث لك..رأيت الحواف كلها وشاهدت أيضاً ما تكنّه الجدران..

ثم وجدت تفسيرات أخرى في شجن خاتمة أيامك الدكتور أحمد شادول...في حرقة ودموع الشيخ على الهادي و الأستاذ عثمان تراث...في أحزان ولوعة فاطمة وإخلاص جبران.. في توجعات هشام مُحَمَّد وعبد الرقيب الوصابي في أسف الفنان فؤاد الشرجبي..قبل أن أراها تجتمع في انكسارات فتحية وأحمد وعبدالله وسعاد.. وفي عيني عبد الرحيم وهما تحملقان في اللاشيء..

– علواني ؟

– لنكتف بهذا يا أستاذ ناجي

– علواني ؟

–.........................

– علواني علواني علواني

– أرجوك أستاذ ناجي..فأنا لم أنم منذ يومين..اعتقني من ندائك الحبيب الذي يعيدني إلى وجع فراقك كلما غفوت...لو بقيت يا ناجي مصر اً على (علواني) هذه فستحرمني وتحرم نفسك من ضرورة إكمال مشروعنا المشترك.. لأني سأغادر هذه الدنيا والحق بك.. وكا لعادة سيطال الإهمال مؤلفاتي وعلى رأسها كتابي عنك.. كما طال موسيقاك الخالدة..بعد ها لن تكون وحدك قمراً في الظل..سنكون معاً في ظلام لا نهاية له.

اضحك يا عبدالله علوان اضحك

تعرف جيداً يا أستاذ عبد الله علوان أنني لم أكتب نعي الاتحاد لك حتى هذه اللحظة...كما أني لم أكلف نفسي حتى كتابة خبر من ثلاثة أسطر عن رحيلك المفجع.. فكيف تظهر لي فجأة باتسامتك الشهيرة لتلعنني وتلعن فيّ جميع الكتاب والمثقفين والمؤسسات التي تقوم بهم وعليهم..كما كنت تفعل دائماً، لأنني لم أكتب مقالة تتبجح بوجعي لرحيلك..وتستقطر عطف الناس علي لا عليك أنت..

بحكم علاقتي الطويلة بك..وحبي الشديد لك..وطول ما بيني وبينك من عشرة فلن تصدق أيضا أنني حلفت ألا أكتب عنك..

ها أنت ذا تضحك ساخراً مني...وبصوتك العالي المجلجل ستنال من الشللية والكتاب المشبوهين..وسماسرة البيع والشراء في الإبداع والمبدعين..والأدعياء وأنصاف الكتاب..والمنتسبين إلى الأدب مع شهرتهم بقلة الأدب.

ستفعل كل ذلك في نفس واحد كعادتك وستذكرهم واحداً واحداً وقرين كل واحد منهم توصفيك الخاص الذي جعلته علامة عليه منذ أربعين سنة..

أتدري يا ابن علوان إنني أندم على كل لحظة حاولت فيها خلال السنوات الماضية التخفيف من محاولاتك الجادة لتعريتهم وإظهارهم على حقيقتهم...

بدأ ندمي في تلك اللحظة التي أمسكت فيها برأسك النبيل حين أخرجوك من ثلاجة المستشفى مجللاً ببياض الكفن.. وقتها رحت أتلفّت علّي أجد من الأدباء من يوقظني من هذا الحلم السخيف ليقول لي: إنه مجرد حلم..حلم لا غير..عبد الله علوان لم يمت..

لكنني وأنا أتلفت مذبوحا برحيلك لم أكن أجد حولي سوى صراخ القعود الغاضب من تأخرهم عن حضور ساعتك.. ودموع الشاب أحمد عمر التي راح يسكبها بحزن تخر له

الجبال...واسترجاعات عادل سمنان غير المصدق لواقع اللحظة المحرج..وصدمة ابنك عقيل وابنتك لينا للخذلان الذي يتعرض له أبوهم

لحظتها وأنا أمسك بوجهك الحبيب وأطلب منك المسامحة...قررت ألا أكتب عنك..حتى النعي الذي يفترض أن أقوم به كواجب نقابي قررت ألا أكتبه..

حين انهمرت دموعي وأنا أقبِّل جبينك خالجني شعور أعرفه لأول مرة في حياتي..: ما معنى أن أكتب ؟ ما فائدة أن أكتب ؟ ولماذا أكتب ؟؟ وهل سينقص الكون شيء إن أنا لم أكتب؟..

هل ستغير كتابتي خبراً عن عبدالله علوان أو مقالاً في رحيله أو نعياً له من فظاعة وفجاجة وجور اللحظة..

ها هو ذا عبد الله علوان الذي كتب أكثر من عشرين كتابا وتحدث عن عشرات الأدباء من كل الأجيال..وأخذ بأيدي عشرات المبدعين تقديماً وتوجيهاً ونقداً ودعماً مادياً ومعنوياً و مواقف وخدمات لا حصر لها..يرحل منكوراً من كل شيء بدليل أن جنازته لم يأت لوداعها سوى أربعة أفراد

أيستحق هذا الواقع الجحود أن نكتب له ؟؟

أيجوز أن نكتب عنك لمن بخلوا عليك حتى بإلقاء نظرة الوداع عليك؟؟

منذ سنوات طويلة وأنا أكتب وأكتب يا أستاذ عبدالله..وعلى كثرة إحباطات الرحلة وما جنته عليَّ من عذابات حياتية ومشاكل مادية ومعنوية، إلا أنني لم أفكر يوماً في تفاهة هذه المهنة..لم يخالجني شك في جدواها..بل العكس تماماً فربما لم يؤمن بها أحد كما آمنت؟

حتى إن زوجتي وأطفالي وأهلي وزملائي الأدباء الذين يعرفون معاناتي بسببها وقلة جدواها عليَّ.. ليضربون بي المثل..في الإخلاص لما لا نفع فيه – كما يقولون – أنت تعرف هذا فقد سمعته منهم مراراً..وكنت الوحيد الذي ينصحني بعدم الإصغاء إليهم..

لكني اليوم شعرت باللا جدوى.. اليوم يا أستاذ وفي اللحظة التي كنت أمسك فيها بوجهك الحبيب نازفا ألمي وقهري كله..شعرت لأول مرة باللا جدوى من الكتابة..

الكتابة يا أستاذ كذبة كبيرة...لا وجود لشيء..مادام لا نفع فيه...والكتّاب كذبة أكبر من الكتابة..ماداموا بلا نفع لأنفسهم قبل غيرهم..

كيف نكتب شيئاً لا نفع فيه لأناس لا نفع فيهم عن أناس لا نفع فيهم..

لا تضحك لي ضحكتك الساخرة ولا تسمّع بي.. أرجو ك فأنا حزين عليك..مكلوم بك..متعب بفقدك...وأنت لا تصدق..لا تصدق لأنك لأ تعرف مكانة وقدر عبد الله علوان عندي...

وإلا أقول لك..ثمة نكتة ستضحكك وستفتح لك مجالا للسخرية وكيل اللعنات.. زملائي في الأمانة العامة وسائر الأدباء يبحثون عني بغضب شديد...بسبب تأخر بيان النعي...

ليس مهماً أن تكون قد تعذبت وقطّع الأطباء أوصالك دون تخدير..

وليس مهماً أن تكون دولتك قد تأخرت عن نجدتك وتوانت عن إرسالك للخارج كما يليق بقامة كبيرة كقامتك الابداعية..

وليس مهماً أن تخرج جنازتك يتيمة بلا وداع ولا مشييعين ولا أي نوع من الحفاوة بعد أن تجاهلك كل من قدمت لهم ضروب الاحتفاءات طيلة حياتك..

المهم الآن..البيان..

البيان مهم لناحية التوثيق..لالتزام أمانتنا للاتحاد بواجباتها... أكثر من ذلك هو مهم لي أنا بالذات..بوصفي أمين الحريات والحقوق...

ها أنذا أقصِّر حتى في حق أقرب الناس إلي..الرجل الذي طالما زعمت أنني محروق القلب عليه.. وكتبت عديد الحالات والمقالات مطالباً بتوفير ظروف علاج أفضل له..

سيعتبرون كل ما كتبته عنك مجرد مزايدات..وحملة انتخابية مبكرة...إذ كيف أفعل كل ذلك وأتواني الآن عما هو أكثر أهمية....كتابة بيان نعيك.؟؟

هل مرت بك يا أستاذ عبد الله علوان مفارقة أوسخ وأتفه من هذه المفارقة...

هيا رد عليَّ... أسمعني صوتك الصاخب المجلجل.. أسمعني ضجيجك وعرعراتك يا ابن علوان...

ابن علوان... ؟ استاذ عبد الله....استاذ عبد الله..

أين اختفيت يا أستاذ..أين....أي...أ

الفنان محمد كيّال
حصار في الحياة وفي الممات

عرفته منذ سنة 2000م تقريباً، تأكل المعاناة أيامه ويخيم الإحباط على عينيه، مع ذلك فان إشراقات الإبداع والموهبة الحقيقية كانت تتألق في حضوره متغلبة على عتمات التهميش وانعدام الموهبة وقلة الإنصاف.

تكررت لقاءاتنا بعدها خاصة عامي 2004و2009م وكان الفنان مُحَمَّد كيّال يعاني بشدة جراء إهمال الجهات الرسمية وانعدام المورد المعيشي الثابت والتزامه تجاه أسرته الكبيرة إلى جانب كفاحه المرير من أجل مشروعه الفني الذي يخلص له ويعرف أنّ لديه ما يقدمه للناس من خلاله.

انطلق مُحَمَّد كيّال فنياً في بلاد الغربة حاملاً معه ذكريات طفولته في مدينة اللحية التي ولد فيها سنة 1963م وغادرها برفقة أبيه مذ كان في الخامسة من عمره وقد حُفّت انطلاقته الفنية بعناية من قبل فنانين كبار على رأسهم طلال مداح ومُحَمَّد عبده ومُحَمَّد عمر وغيرهم.

وكانت استفادته منهم كبيرة بمقدار ما كان تعاطيهم معه دليلاً على موهبة فنية مميزة قادرة على فرض صاحبها واكسابه التقدير والاحترام كما أن صوره صحبة هؤلاء الفنانين وعلى مواقع تحمل أسماءهم التي ينشرها له محبوه من أصدقائه وجمهوره الذين ظلت إبداعاته محفورة في وجداناتهم رغم مرور مايزيد على عشرين عاما من ابتعاده عنهم. ثم ما يكتبونه من تساؤلات عن مكانه وأحواله وحسراتهم التي يعبِّرون عنها إزاء عدم حصوله على ما يستحقه من اهتمام وتقدير تدل كلها على الرواج والتلقي والمكانة التي حظي بها لفترة تربو على عقد زمني من اشتهار موهبته في بلاد الغربة وأنه كان مهيئاً لشهرة واسعة يحقق من خلالها ذاته ويُوصِلُ بها صوته إلى بلاد العرب كلها.

كيف تغير مصير الكيّال وكيف أرسل قصراً إلى زوايا النسيان وما يترتب على ذلك من إقصاء عن الأضواء وتهميش في الفرص والوقوع تحت طائلة الفاقة التي لا ترحم.

لقد اضطر الفنان مُحَمّد كيّال إلى مغادرة السعودية مع مئات آلاف اليمنيين سنة 1990م ضمن التداعيات المعروفة التي نتجت عن اجتياح العراق للكويت ..

لا أستبعد حزنه وأسفه لذلك خاصة فيما يتعلق بالامتيازات الفنية والإمكانات التي كانت تتوافر له هناك بسبب ارتباطه بعمالقة الفن المشار إليهم غير أنني أكاد أجزم أن كيالاً كان يأمل أن يكون حضن الوطن أكثر دفئاً وفرصه أوفر أريحية وأضواءه أفضل ألقاً وجمالاً.

أجزم أن شيئاً من الإهمال والتهميش والعوز والحاجة والقهر والغصص التي لاقاها عبر 22 عاماً عاشها في بلاده – قبل أن يغادر الحياة– لم يخطر له على بال.

مع ذلك ظل يقاوم، يغني(حب السعيدة) التي لم يذق طعم السعادة فيها، يدندن (يا يمنا) واليمن تعطيه أذنا من طين وأخرى من عجين إن لم تكن قد ردت عليه متهكمة (وَرّرّها).. يصيح (أنا فداك وادير) والدير مثله يموت ببطئ محاصراً بعد أن نهب كل ما فيه وما حوله.

في السنوات القليلة التي سبقت وفاته استسلم الفنان مُحَّمد كيّال لقدره، يحارب من أجل لقمة عياله (سبعة من البنات والأبناء) ويحارب من أجل أن يَدْرَأ عن أمهم مرض السرطان الذي عبث بوجودها حتى فتك بها قبل عام لحاقه بها..

وبين هذا وذاك تحول فنه وإبداعه إلى أنين وتوجعات عزّ من يسمعها كما سيعزّ بالتأكيد من يوثقها ويحافظ عليها.

عند ظهر يوم الثلاثاء 1012/7/10م قطعت روحه الموجوعة صلتها بهذه الفانية وذهب الكيّال إلى رحاب ربه الكريم.

لم أتألم لرحيل هذا الفنان الجميل..بمقدار ما آلمني الصمت الذي تواطأت عليه كل وسائل الإعلام إزاء رحيله وكأنما أرادت ألا تجعل من أخبارها عنه استثناءً يكسر طوق الحصار الذي فرصته المؤسسات الرسمية عليه فعندما وصلني نبأ رحيله كنت على يقين بأن

محافظة الحديدة أو مكتب الثقافة فيها ناهيك عن وزارتي الثقافة والإعلام لم تنشر نعياً له فكتبت بقلمي خبراً مطولاً حرصت على إرساله إلى عشرات الصحف والمواقع الالكترونية وقد صدمني أن الخبر لم ينشر في أي منها.

لم أجد تفسيراً لذلك.ووجدتني أحور شطر البيت الشعري الشهير:

علوّ في الحياة وفي الممات

إلى:

حصار في الحياة وفي الممات

بأي ذنب حدث لك كل هذا يا كيّال؟

أعلى النموذج

الفهرس

إهـــــــــداء	5
الهم الذي على القلب	7
عبد الباري طاهر أحوال الرحلة وأهوالها	13
خيري شلبي..المحمّل ببيئات لا حصر لها:	33
يحيى عوض.. الشاعر الذي دخل بقصيدة وخرج بقيدين	49
الشاعر يحيى عوض معلم الأجيال والوطن والحب	61
عن أحمد ناجي أحمد عتبات كثيرة لإنسان ممتاز	73
أحوال الفتيح.. من الأنين والشهقات.. إلى اللطم والبكاء	79
محمد العابد...أكثر من كل هذا:	93
الحداد.. البدوي الذي باع بندقيته ليطبع كتاباً:	101
عبد الله علوان نصير العصافير	111
عبدالله علوان ومشرطه الذي يجرحه دائماً	117
عبد الله علوان: عظمة الكاتب ونقاء الانسان	125
صالح البيضاني من سوء فهمه إلى التوكل عليه	133
محمد الحاضري ثمن الخيارات الصعبة	147
طه الجند في حيز لا يكفي نملة	161
بين البكيرة ويعقوب أوجاع رحيل المبدع.. ولذة عذاب الموثق	173
عبد الرحمن مراد غربة الفارس بين الحمّارة	177
العديني..كمنجة يعزفها النسيان	183
طاهر رجب.. أخر الرجال المستنيرين	201
عبد الرحمن فخري.. الشاعر في غير زمانه	209
عبد العزيز عجلان ملامتي لا يعترف لنفسه بشيىء	119
أحمد عباس... سبع صنايع والبخت ضايع	229
أيوب حشاش .. حين يكون الشاعر غيمة على شمسه	245
حسين الآنسي... مثقف من ذلك الطراز	263
سيمفونية بعكر على أطلال تهامة	271

بلبل تهامة شهاب أضاء سماءنا واختفى	279
محمد مطة رحيل لا يستوعبه الكلام	287
الشاعر أحمد سليمان حضور خارج المألوف	293
عمر الضرير الكتاب الذي لم نقرأه كما يجب	299
عبد الرحمن الحضرمي جهادٌ منكورٌ.. وجهدٌ مغمور	307
مختار الضبيري..المتواري في مملكة الظل	315
الشاعر محمد السقَّاف عندما تسقط شجرة الشاعر	333
شاعر الأغنية الأول	343
بين نكران الوطن وجحود الحبيبة	347
الشاعر حسين البحاري إحدى عطايا العم جوجل	351
نار الكاتب التي تحرق أصابعه	377
فاترينة غيلان	381
"تباريح وأمكنة " لحاتم علي إغلاق الأبواب في وجه الوجوم	383
ورد النهدي وجود خاص	389
مصلح العقاب أخلاقيات العظيم المحجوب	395
محمد الجبلي الثائر الذي رحل عارياَ	398
الشيخ يحيى القحم أقدم أصدقاء البيئة في اليمن	401
عبدالرحن سيف اسماعيل رحيل ابتسامة نادرة	403
الشهيد محمد كاتب...وتهامة التي تتغير	405
حوافّ ناجي القدسي وتضحياته	407
اضحك يا عبدالله علوان اضحك	313
الفنان محمد كيّال حصار في الحياة وفي الممات	417

صدر للمؤلف

1- الوردة تفتح سرها-دار أزمنة عمان – الأردن 1998م.

2- راتب الألفة – مركز الحضارة العربية –القاهرة 1999م.

3- إشراقات الولد الناسي – الهيئة العامة اليمنية للكتاب – صنعاء 1999م.

4- غناء في مقام البعد – طبعة أولى – مؤسسة العفيف الثقافية صنعاء 2000م ... طبعة ثانية: مركز عبادي للدراسات والنشر-صنعاء2007م.

5- كتاب الجنة – ديوان شعر- اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين 2004م.

6- صدرت أربعة من دواوينه هي: (الوردة تنفتح سرها، كتاب الجنة، إشراقات الولد الناسي، راتب الألفة) في مجلد واحد ضمن منشورات صنعاء عاصمة الثقافة العربية 2004م.

7- ديوان الحضراني (جمع وتحقيق وتقديم) صدر عن وزارة الثقافة صيف 2006م.

8- (امناجي ثواب. وكوميديا الألم) مركز عبادي للدراسات والنشر – صنعاء 2007م.

9- قمر في الظل (قراءات في تجارب رواد الإبداع والثقافة في اليمن) إصدارات تريم عاصمة الثقافة الإسلامية 2010م.

10- أصوات متجاورة (قراءات في الإبداع الشعري لجيل التسعينات في اليمن) إصدارات تريم عاصمة الثقافة الإسلامية 2010م.

11- ديوان الشيخ عبدالرحمن بكيرة (تحقيق مشترك) إصدارات تريم عاصمة الثقافة الإسلامية 2010م.

12- عبدالباري طاهر صوت الحرية وقلمها – صدر عن وزارة الثقافة- صنعاء 2014م.

13- عبد الباري طاهر صوت الحرية وقلمها (فيلم وثائقي) انتاج لجنة تكريم الأستاذ عبد الباري طاهر –صنعاء 2014م.

14- يد في الفراغ مجموعة شعرية صدرر عن الهيئة العامة المصرية للكتاب 2016م .

15- مفاتيح الأدراج (مقاربات في السرد وزارة الثقافة اليمنية و أروقة للدراسات والترجمة والنشر القاهرة 2018م

16- بنو حشيبر.. إرث العلم وبذخ الولاية أروقة للدراسات والترجمة والنشر القاهرة 2018م

17- منثور الحكم لمحمد بن عمر حشيبر (دراسة وتحقيق وتعليق) أروقة للدراسات والترجمة والنشر القاهرة 2018م

البريد الإلكتروني: aljaylany2@gmail.com